

العصر العبّاسى

الدكتور محمد زغلول سلام
أستاذ اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه



العصر العباسي

الدكتور محمد زغلول سلام
أستاذ اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

القسم الاول

شعراء من القرن الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

هذه دراسة حول مجموعة مختارة من شعراء العصر العباسى وأدبائه أردت أن تكون جامعة لنماذج مـن الاتجاهـات الادبية المختلفة خلال هذا العصر الزاخـر من عصور الحضـارة العربية الزاهـرة ، وفى قرنـين من الزمان بعد قيـام الدولة أى حتى أوائل القـرن السابع الهجرى أو حول منتصفه ·

وقد شهدت هذه المرحلة الادبية تلك النهضة الكبـيرة التى ظلت أصداؤها تتجاوب فى درنسـات الادب والعلم عـلى مـدى العصـور ·

ونجـد بـين هؤلاء الذين نتناولهم بالدراسـة جماعة من المشهورين الكبـار ممن كثرت حولهـم الاحاديث ، وقد لا يجـد القارىء جديدا فيما نقول عنهم · لكنه سـيجد عرضا لعله أقل ايجـازا وأكثر المـاما بخصائصهم ، وربما غلبت عليه اللمحات الدالة أكثر من التفصيل ·

وعـلى هذه الدراسـات يبـدو طابع الاختيـار للرجال والنصوص · ويتفاوت التناول بين واحد وآخر ، فقد تجد شاعرا أو كاتبا نطيل معه الوقفة ، ونطيل الشرح ، ونكثر الاختيار ، وقد نمر على الآخر مرا سريعا ·

وليس من سبب وراء هـذا أو ذاك سـوى ميـل لاطـالة الصحبة يغرى به فن الشاعر وشخصه ، أو كتابة الاديب وروحه أو عكس ذلك ، يزهـد فيـه ، فينفض القلم منـه نفسه ويعجل بطى الورق ·

وقد لا يغـرى بالاطالة كذلك نقص المـادة ، أو كثرة مـا قيل وليس من جديد لنفاد عطاء من كثر حوله القول .

وغاية هذه الدراسة أن نضع بين يدى ناشئة الادب ومريدية تصورا يغريهم بقراءة من قدمناهم ، وزيادة القربى منهم أو من يختارون ميلا وهوى .

والله بعد هـذا الموفق والمسدد للخـير . . .

محمد زغلول

البيئـــــة

المكان والعصـر والمجتمع

الحديث عن الادب يستتبع بالضرورة الحديث عـن المسرح الذى دار فيـه ونبع منـه ، بصورته الجغرافية ، والبشرية ، أو الحيوية عامـة ، وما أتاحته هـذه الصورة للادب من فرص للنمو والتطور • ومـا عكسته عليه من الالوان ، وبثت فى ثناياه من المعالم والملامح •

والحديث عن الادب العباسى يستتبع بالضرورة حديثا عن مكانه أو أمكنته ، واذا كان الادب الاسلامى والادب الاموى يتخذ ميادين رئيسية له فى الحجاز ومدنه مكة والمدينة التى نشأ فيها الاسلام • وتبع الخلافـة الى الشام فصارت دمشق مورد الادباء ومصدرهم • فان الادب العبـاسى انتقل الىالعراق واتخـذ من عواصمه الثلاث الكبرى : الكوفة والبصرة وبغداد معقلا وملاذا •

وليس معنى هـذا أن العراق لم يكن موئـلا لادب أو نشاط أدبى قبـل عصر العباسيين ، بل ان العراق كان حافـلا بالنشاط الادبى كذلك فى العصر الاموى ، ولكن ثقل هـذا النشاط كان بالحجـاز والشـام كما ذكرنـا ، وعـاد فـى عصر العباسيين بالعـرا ق•

ونبدأ حديثنا بالكوفة لانهـا كانت مـلاذ العباسـيين ، وموطن دعوتهم ، وكانت كذلك عاصمتهم الاولى ، خرجوا منها الى بغـداد •

والكوفة مدينـة داخلية بعيدة عن البحـر ، قريبـة الى الجزيرة العربيـة أو الى عمق الجزيرة ، وهى بيئـة غلبت عليها

الثقافة العراقية القديمة ، وأحاطت بها آثار المسيحية فى صور الاديرة والبيع المنتشرة بالحيرة ٠

ومن هنا كانت الكوفة أكثر انغلاقا ، وتأثرا أو حفاظا على القديم، لانها ليست من الثغور، ومن ثم فليست مجالا للاختلاط بين الاجناس والثقافات التى قد تطغى على التراث أو تتغول عليه وتمحوه ٠

البصـــرة :

وتختلف فى موقعها وبيئتها عن الكوفة ، فهى مدينة بحرية مفتوحة للثقافات المختلفة التى يمكن لها كونها ثغرا على البحر يفد اليه النـاس من أجناس متباينة عبر الخليج وبحر الهند والصين ٠ وموقع البصرة كان ومـا زال من المواقع البحرية التاريخية الهامة التى تصل الشرق بالغرب ٠

ولذلك كانت البصـرة تتلقى الاثـار التى تفـد عليها من هنا ومن هناك على ظهـور السفن وتسند ظهرها الى الصحراء بيئة العـرب ٠

والبصرة عربيـة النشأة نزلتهـا قبائـل العرب بعد فتح فارس وأقامت فيها ، وعاشت بها بعض القبائل العربيـة الكبيرة ٠ وكانت تنقسم أخماسا كل خمس يسكنه بطن أو فرع ٠

وأهم قبائل العرب بالبصرة أهل العالية وأكثرها تميم وبكر ابن وائل وعبد القيس والازد ٠ ويعنى تعبـير أهل العالية « كل من كان من جهـة نجـد من المدينة وقراها وعمائرها الى تهامة

وتضم قبائل قريش ، وكنانة وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ٠ وكانوا أكثر قبائلها عددا ٠ زمزينة وأسد ٠

وتعد تميم المؤسس الحقيقي للبصرة ٠ ومن يقرأ كتاب طبقات ابن سعد يتضح له أن معظم قادة الفكر والدين والسياسة في البصرة بالقرن الاول كانوا من تميم (١) ٠ وحمل هؤلاء الثقافة العربية وكانوا عمادها ٠

وضمت البصرة مجموعة أخرى من العناصر والاجناس كالنبط ٠ ويطلق العرب هذا الاسم على الاراميين من سكان العراق أو « السواد » دون تمييز ٠ وتمتد أصولهم الى الكلدانيين سكان العراق القدماء ٠

ووقف النبط موقفا وسطا بين العرب والفرس في النزاع الذى دار بينهم ، وكانت له مظاهره المختلفة ٠ ويمثل الفرس سادتهم السابقين بينما كان العرب سادتهم الحاليين ٠

واشتغل معظم النبط بالزراعة والحرف البسيطة ، وظلوا مواطنين من الدرجة الثانية ينظر اليهم العرب والفرس نظرة احتقار ٠

وكان الفرس من الموالى ومن أبناء الامصار ممن لا يرقون الى مستوى العرب فى الدولة ٠ وظلوا يشعرون بالمهانة فى ظل الدولة الاموية الى أن شاركوا فى الاطاحة بها ٠ وجاءت الدولة العباسية فى حمى سيوفهم وتحت راياتهم فكان لهم فى ظلها

---

١ ـ راجع « بيئة البصرة وتكوين الجاحظ لشارل بللا ، ص ٥٤ :

٢ ـ شخصية بشار ص ١٤٦ ٠

شأن ، وزاحموا العرب وغالبوهم ، وفاخروهم ، بل وتعالوا عليهم وناصروا الشعوبية التى حاولت الازراء بالعرب وأصولهم وتقاليدهم وعقائدهم وتراثهم جميعا .

وأثرت الثقافة الفارسية في المجتمعات العربية أولا عن طريق اللغة وتسرب بعض الالفاظ الفارسية الى المجتمعات وخاصة مجتمع مدن العراق .

وكانت البصرة مثلا لظهور اللغة الفارسية فى حياة الناس وأحاديثهم ومخاطبتهم كما مثلت اللغة الفارسية جانبا من ثقافة بعض العلماء وظهرت ألفاظها فى شعر الشعراء وكتابة الكتاب تظرفا وتملحا أو ادلالا بالمعرفة والتحضر .

وأشاع العصر الفارسى كثيرا من التقاليد والعادات ، وصور السلوك الفارسية فى المسكن والمطعم والمأكل . وغزت أفكار الديانات الفارسية القديمة من مزدكية ومانونية وغيرها عقول الناس وظهرت آثارها على الادب والشعر .

وتمثل طبقة الكادحين فى البصرة أجناس من العبيد والمكدين من بلاد مختلفة ، وقد كثر بينهم الزنج لحاجة ملاك الاراضى وأصحاب البساتين اليهم فيما تتطلبه من العمل الشاق . وأكثرهم من زنوج ساحل أفريقيا الشرقى .

وتضخمت هذه الطبقة . وشكلت خطورة كبيرة فى المجتمع البصرى بل وهددت الخلافة العباسية بما قامت به من ثورات كان أخطرها ثورة الزنج المشهورة فى القرن الثالث (من سنة ٢٥٥ هـ الى سنة ٢٧٠ هـ) . وقد اختلفت نظرات المؤرخين اليها .

ومن سكان البصرة « الزط » أو أهل السند والهند ، وكان أكثرهم يعمل بالحرف الصغيرة والصيرفة • واختمرت فيهم الثورة أيضا أخريات القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، وأثاروا المتاعب في البصرة للخلافة العباسية مما اضطر المأمون سنة ٢٠٥ هـ الى حربهم• وانقطعت بعدها أخبار ثورتهم الى أن ولى المعتصم فبعث بأحد قادته اليهم سنة ٢١٩ هـ وكانوا قد قطعوا الطريق الى البصرة •

ورغم قلة العنصر الرومي نسبيا في البصرة الا أن الثقافة اليونانية كانت بها ذات شأن ، وكان القائمون عليها من عناصر النساطرة الذين حافظوا على هذه الثقافة بالحيرة والعراق ، ويمكن لهذا أن يقال ان الثقافة اليونانية كانت أقدم في هذا الاقليم من الثقافة العربية • ولعلها ترجع الى زمن الاسكندر المقدوني حين جاء الى هذه البلاد وأنشأ المدن وترك جاليات يونانية استوطنتها • ولا شك أنها طبعت الحياة بطابعها وخلفت آثارا واضحة في تراث البلاد الى أن قامت المسيحية فتبنت الثقافة اليونانية وتشربتها ، واستعانت بها في جدلها ضد الديانات الوطنية أو فيما بينها وبين الطوائف المسيحية المختلفة • واعتمدت الفلسفة اليونانية والمنطق خاصة في تلك الخصومات •

وأعادت طائفة المعتزلة الحياة الى تلك الثقافة وبعثتها من جديد ، ودعت الى الاهتمام بها لأنها اتخذت منها وسيلة للرد على المعارضين للاسلام والدعوة له في الآفاق ، كما اتخذ المتكلمون عامة من الفلسفة والمنطق وسائل للبحث في كثير من القضايا الدينية •

ولعبت الترجمة دورا هاما في نقل علوم اليونان الاخرى

كالطب والهندسة والطبيعة والحساب الى العربية • وساهم النقلة من السريان والنساطرة بجهود جليلة فى هـذا الشان ، وخاصة منـذ أخريات القرن الثانى وطوال القـرن الثالث • وقد شجع المأمون هذه الحركة وشارك فيها ببغـداد بعد البصرة حتى صارت بغـداد مركزا نشطا للترجمة عن اليونانية وغيرها •

بغـــداد :

وهى المدينة المدورة التى بناهـا أبو جعفـر المنصور على نهـر دجلة سنة ١٤٥ هـ وسماها دار السلام • وكانت دولة بنى العباس بادىء أمرهـا قائمة بالكوفة ، ثم انتقل خلفاؤها بعد المنصور الى بغـداد •

وبغـداد أقرب فـى موقعها الى الكوفة منها الى البصـرة ، ولهذا كان للكوفة أثر كبير على الحياة والفكر والادب فى بغداد • وقد آثـر خلفاء العباسيين ثقافة الكوفة عـلى ثقافة البصرة • فغلبوا علماء الكوفة على علماء البصرة فى قصورهم ، وفضلوهم فى تربية أبنائهم •

واشتهر من علماء الكوفة ببغـداد جماعة من رواة الأدب وعلماء اللغة أمثال المفضل الضبى معلم الخليفة المهدى،والكسائى معلم الآمين ومؤدبه • كذلك اشتهر بها من الكوفيين أبو العباس ثعلب •

وظلت بغـداد كذلك يغلب عليهـا الطابع الكوفـى حتى تغير الامر فـى عهد الخلفاء العباسيين ممن ولوا الخلافة فى القرن الثالث الهجـرى أعنى المـأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ومن بعدهـم •

فان عناصر بصرية بدأت تغزو الحياة الفكرية والأدبية في بغداد ، حتى سيطرت على مجالس الخلفاء وكبار رجال الدولة • ونذكر على رأسهم أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وأبا العباس المبرد •

واختلطت الثقافة البصرية بالثقافة الكوفية ، ومازج الثقافتين عناصر أخرى وافدة ،وخرج منها جميعا ثقافة جديدة يمكن أن تمثل طابع بغداد •

ومن هنا بدأت تظهر في تاريخ الثقافة العربية مذاهب بغدادية في النحو واللغة والادب والفكر عامة تقابل مذهبي البصرة والكوفة بل وتجمع بينهما أحيانا وتوفق في كثير من الاحيان •

وقد غلب على بغداد العنصر الفارسي ، وبدت مظاهر الحضارة الفارسية في وضوح وخاصة في نظم العيش والادارة • وفي اللباس وعادات الناس • فغلبت القلنسوة الفارسية على العمامة العربية •

ولم يقتصر الامر على الفرس بل جمعت بغداد عناصر أخرى ، وبدأ الروم والاتراك يزدادون شيئا فشيئا في قصور الخلفاء وكبار القوم ، وخاصة بعد أن استكثر منهم الخليفة المعتصم وآثرهم للخدمة والجيش على غيرهم •

وكانت هذه العناصر من الترك مصدر متاعب كثيرة للخلافة لشراستهم وشغبهم• وقد بلغ بعضهم مكانة مرموقة في قصور الخلفاء ، وسيطروا من خلالها على شخص الخليفة نفسه فكان لا يملك معهم شيئا •

المجتمع العباسى :

كان المجتمع العباسى يتكون من طبقتين كبيرتين أو فعالتين الطبقة العليا أو « الارستقراطية » ، وهى طبقة الاشراف وتضم الخلفاء والامراء والقواد وكبار الرؤساء والوزراء والكتاب وكبار التجار وزعماء القبائل • والطبقة الثانية الطبقة الدنيا من الكادحين من الاكرة ورقيق الارض وأصحاب المهن والحرف الصغيرة •

ولا يعنى ذلك انعدام الطبقة الوسطى ، لكنها لم تكن متماسكة أو متضامنة فعالة كما هى الحال فى المجتمعات الحديثة ، والتى تحتل فيها هذه الطبقة مكان الصدارة وهى مصدر النشاط والابداع ، بل ومصدر الثورات والتغيرات المستمرة فى المجتمعات وكانت مصدر الثورة الفرنسية الكبيرة فى القرن الثامن عشر الميلادى •

ويمكن أن يقال ان الطبقة الوسطى فى المجتمع العباسى كانت تتكون من مجموعة من صغار التجار ومتوسطيهم ، ومن صغار الموظفين فى الدواوين ورجال الشرطة ، وغيرهم ممن يحصلون على رواتب معلومة لسد حوائجهم تكاد تكفى حاجاتهم اليومية ، ولا فائض لديهم لحياة الدعة والترف •

وكان للطبقة العليا أثرها الاكبر فى المجتمع ، كما شاركت الطبقة الدنيا فى الاحداث •

والى جانب تقسيم المجتمع الى طبقات يمكن تحليل عناصره الى مجموعة من الاصول ذات الثقافات المختلفة ، بعضها وافد من الشرق وبعضها وافد من الغرب ، تمازجت تقاليدها ، وأفكارها •

وصارت كل فئة مشهورة بأشياء خاصـــة فى طبع أو فى فن أو علـــم ٠

وتحدث أبو عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ عن هذه الميزات فقال عن الزنج مثلا : وهم طبقة رقيق الارض فى اقليم البصرة خاصــة « انهم أطبع الخلق عــلى الرقص والطرب بالطبل على الايقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم ٠ وليس فـــى الأرض أحسن أخلاقا منهم » ٠

وقال عن الصينيين « وميزة ســكان الصين الصناعة ، فهم أصحاب السبر والصباغة ، والاصباغ العجيبة، والنحت والتصوير والنسج » وعن اليونانيين قال : « انهم يعرفون العلل ولا يباشرون العمــل ، وميزتهم الحــكم والاداب » ٠ وأمــا الفرس فميزتهم مباشرة الملك والسياسة ٠ وبرع الأتراك فى الحروب ، واشتهر أهل السند بالصيرفة والعلم بالعقاقير ٠ قال الجاحظ : « لا ترى بالبصرة صيرفيا الا وصاحب كيسه سندى ٠ وقل صيدلانى عندنا الا وله غلام سندى فبلغوا أيضا فى الخبرة والمعرفة بالعقاقير وفى صحــة واجتلاب الحرفاء مبلغا حسنا » ٠

كذلك كان لكل بلــد فى العالم الاســلامى آنذاك شهرته الخاصة ، ينطبع بها أهله ويعرفون فى كل مكان ٠ فكانت شهرة مــرو وخرسان البخل ٠ قال ثمامة بن أشرس : ما رأيت الديك قط فى بلدة الا وهو يدعو الدجاج ويثير الحب اليها ويلطف بها الا فى مـــرو فانى رأيته ياكل وحده ، فعلمت أنلؤمهم فى المأكل ٠ ورأيت فى مـــرو طفلا صغيرا فى يده بيضـــة ، فقلت له : أعطنى هذه البيضة ٠ فقال : « ليس تسع يدك » فعلمت أن اللؤم والمنع منهم بالطبع ٠

كذلك عـرف اليمنيون بالعشق ، والحجازيون بالـدل ، والعراقيون أو البغداديون خاصة بالظرف ، وهكذا .

وكان لكثرة العناصر غـير العربية فـى المجتمع الاسلامى آثارها الاجتماعية ، وأبلغ تلك الآثار ظاهـرة الموالى والولاء وأدت الى قيام المشكلة أسباب عدة . منها عصبية العرب لعروبتهم وتمسكهم بأنسابهم واعتبارهم كل مـن لا يمت بنسب أو من لا يمتد نسبه ويعرق دعيا .

وكانوا يعتبرون أنفسهم فـى الدرجـة الاولى ، والعناصر الثانيـة بعدهم فى الدرجـة الثانية . وانتشر الموالى من أبنـاء الامصـار ممن استعربوا أو من أبنـاء الامـاء الذين اختلطت دماؤهم وانتشر هؤلاء وهؤلاء وعرفوا بالموالى ، والحقوا بالقبائل العربيـة ، وفرضت كل قبيلة حمايتهـا على جماعة منهم فى كل مصر من الامصار .

وتروى عن ظاهرة تعصـب العرب لدمائهم أخبـار ونوادر كثيرة فى كتب الادب والتاريخ ، منها ما رواه المبرد عن شيخ من الازد عن رجل منهم أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لابيه فقال له : لم لا تدعو لامك ؟ فقال : أنها تميمية .

وكان العرب يكرهون أبناء الاماء من الفرس وغيرهم حتى نشأت من الموالى طبقة من أبنـاء الامـاء من الفرس كانوا فى مقدمة الفضـلاء وأهل العلـم والتقـوى والادب مثـل الحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبـير وعطـاء بن يسار وربيعة الرأى وابن جريج . وأمثـال على بن الحسين والقاسم ابن محمد ، وسالم بن عبد الله من فقهاء المدينة الذين فاقوا أهلها فقها وعلما وورعا .

وشعر المولدون أو الموالى باحتقار العرب لهم . فأحسوا فى نفوسهم بالضيق ، وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقا، ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفاء للعرب لا يقلون عنهم من حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم . بل لعلهم يفوقونهم فى التاريخ القديم .

ومن هنا نشأت مشكلة الشعوبية التى أثرت تأثيرا كبيرا فى الادب والعلم ، والحياة . وظلت أصداؤها تتجاوب فى أنحاء الامة الاسلامية مدة مديدة من الزمن .

الشعوبية :

والاصل فى الشعوبية المساواة بين شعوب الامة الاسلامية فى الحقوق والواجبات . وتطور مفهوم الكلمة بتقدم الزمن وأصبحت الشعوبية تعنى المداوة للعرب . وكان أكثر الناس مناصبة لهم بالعداء الفرس ، وأكثرهم تعريضا بهم ، واظهارا له عامتهم . يقول ابن قتيبة :

« ولم أر فى هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الاخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا » .

ويقول : « وان ممن ذهب مذهب الشعوبية أقواما تحلو بحلية الآداب ، فجالسوا الاشراف ، وأقواما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان ، فدخلتهم الانفة لآدابهم والغضاضة لافتقارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم » .

وبدأ العداء للعرب بين الفرس منذ أخريات العصر الاموى ، ولكن الامويين قابلوه بقوة لتعصبهم للعرب ، ولذلك كره الشعوبيون الحكم الاموى وعملوا ضده • فأعانوا العباسيين وانخرطوا في سلك دعوتهم •

وممن يذكر من شعراء الشعوبية في عصر بني أمية اسماعيل ابن يسار • دخل مرة على هشام بن عبد الملك فأنشده قصيدة يفخر فيها بعصبيته ، ويمجد تاريخ الفرس وملوكهم يقول فيها :

انى وجدك ما عودى بذى خور	عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
اصلى كريم ومجدى لا يقاس به	ولى حسام كحد السيف مسموم
احيى به مجد اقوام ذوى حسب	من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرزابة	جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا	والهرمزان لفخر او لتعظيم

فغضب هشام وقال : أعلى تفخر بأعلاج قومك ؟ • غطوه في الماء • فغطوه في البركة حتى كادت تخرج نفسه • ثم أمر باخراجه ونفاه الى الحجاز من وقته •

وفي مطلع الدولة العباسية انتشرت حركة الشعوبية ، ونطق بلسانها جماعة من العلماء والادباء والشعراء بينهم بشار ابن برد • وكان ديك الجن من الشعراء المتعصبين على العرب• ذكر أبو الفرج في الاغاني أنه كان يقول : « ما للعرب علينا فضل » •

واتهم أبو عبيدة معمر بن المثنى العالم الراوية المشهور بالشعوبية ، وبانه ألف الكتب في مثالب العرب ورجالهم •

وأدت هذه الحركة الى أن يدافع العرب عن أنفسهم فقاوموا والفوا كذلك الكتب التى تتحدث عن مآثرهم كما نظم شعراؤهم فى فضائلهم ومثالب الفرس وغيرهم من الشعوب .

وكانت نتيجة هذا كله زاد من الكتب والقصائد بقى لنا وأمثلة كثيرة من المفاخرات والمناظرات حفظتها كتب الأدب والاخبار .

الزندقـــة :

واذا كانت الشعوب نتيجة لقلة العناصر غير العربية وخاصة الفارسية فى المجتمع العربى فان هذا أيضا ، كان من آثاره تلك الحركة الفكرية والاجتماعية التى عرفت بالزندقة وكان من رجالها وروادها الاوائل جماعة من الموالى الفرس ومن الشعوبية غالبا .

والزندقة هذه كلمة قد ترجع فى أصولها الى الفارسية ، ولكنها كانت تعنى غالبا معانى كثيرة ، فهناك زندقة فكرية ، وزندقة دينية ، وزندقة اجتماعية .

فأما الزندقة الفكرية فهى الاعتقاد ببعض عقائد الفرس القدماء ، وان كانت لا تعنى بالضرورة الخروج عن الاسلام الى الالحاد والتوقف عن العبادات .

وأما الزندقة الدينية فهى معاداة الدين الاسلامى ، والتهجم على القرآن ، تعظيم الديانات الفارسية القديمة ومحاولة التحدث عن فضائلها . وما الى ذلك ، كالحديث عن النار والطين وفضل النار على الطين .. وقد تكون الزندقة هنا كذلك الاعتقاد فى المانوية أو الزرادشية أو المزدكية .

وأما الزندقة الاجتماعية فهى الخروج عن حدود الاسلام والمجتمع الاسلامى والاخلاق الاسلامية ، والاسراف فى ذلك والتجاهر بالاثم ، أو التحرر وعدم التحرج فى ارتكاب بعض المحرمات ، والتهتك ، أو اظهار الاستهتار بالقيم والمقدسات ٠

ووجد بين الادباء والشعراء من وسموا بالزندقة الفكرية أمثال ابن المقفع وصالح ابن عبد القدوس ٠

ومنهم من رمى بالزندقة الاجتماعية أمثال عصبة المجان التى كانت تضم والبة بن الحباب والحسين بن الضحاك ، ومطيع ابن اياس ، ويحيى بن زياد وأبا نواس ٠

واشتهر هؤلاء بالظرف ، وضرب بهم المثل فيه حتى قال شاعرهم :

« تيه مغن وظرف زنديق »

وأتيح لهؤلاء وهؤلاء فرصة الحرية التى نعم بها الناس أيام الدولة العباسية ، وخاصة بعد أبى جعفر المنصور أى فى أيام المهدى والرشيد والامين والمامون ٠ فأسرفوا فى استغلال هذه الحرية ، وجاهروا بالمعصية حتى قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقال سلم الخاسر :

من راقب الناس مات غما ... وفاز باللذة الجسور

ونادى أبو نواس بالجهر فى شرب الخمر وترك التستر :

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وكان من آثار هذا التحرر فى القول والعمل فى المجتمع

العباسى ميل الناس الى المتعة وخاصة لما اشاعته الحضارة المادية المزدهرة بينهم من الرغبة فى الحياة والاقبال عليها والعب من لذاتها ٠

وأصبح الناس يقبلون على الدنيا ويدينون « بالابيقورية » أو مذهب الاستمتاع بالحياة الدنيا لانها فترة قصيرة ونزهة عارضة من الحماقة ألا يغتنمها الانسان قبل فوات الاوان ٠ وهى ليست جديرة بأن تقضى فى طلب المستحيل أو الممتنع ٠

وتفنن الناس فى ضروب الاستمتاع أو التلذذ ، فى المأكل والملبس والمشرب فى السماع والغناء ، والاستمتاع بالخمر والنساء ، وبالخدم والجوارى وكل ما تتيحه الحضارة ٠

الجوارى والحياة :

أثرت الجوارى فى المجتمع العباسى آثارا متعددة ، فقد ساعدت على ما سرى فى المجتمع من روح العبث وان كانت قد دفعت الشعراء الى لون من الشعر لم يكن معهودا من قبل هو ذلك الغزل الظريف ، أو الغزل الرقيق الذى تحس فيه بروح الحضارة والرفاهية ٠ وكانت الجوارى تشيع فى المجتمع حب الجمال فى صوره المختلفة ، بما يلتزمنه من التجمل فى الملبس والزينة ، وبما يحرضن عليه من الاهتمام بالزهر والطيب ، وكذلك رققن طباع الناس فى المعاملة وآداب السلوك فى الشراب والطعام ٠

وتأثر الادب بالجوارى آثارا عدة فقد كن وحيا للشعراء ، كانوا يتعشقون المغنيات وينظمون الشعر الجميل فيهن ٠ كان

بشـــار يعشق جارية تغني ويطرب لغنائها وصوتها فيصل صوتها الى قلبه قبل أن يجلس اليها .

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم   الاذن تعشق قبــل العــين احيــانا

وكان الجوارى أنفسهن أديبات يعرفن الاخبــار والاسمار ويحفظن الشعر ويروينه، بل كان منهن من ينظمنه مثل عريب جارية المأمون . وكانت من أعظم جوارى العصر .

بشـــار بن بـــرد

ولد بالبصرة حوالى سنة ٧٧ هـ وتوفى
فى خلافة المهدى سنة ١٦٨ هـ

ولد بشار فى البصرة ابان الدولة الاموية فى خلافة عبد الملك ابن مروان من أحد كبار خلفائها(١)، ودهاتها (توفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ) • أو الوليد ابنه من أب (برد) فارسى الاصل من موالى بنى عقيل بالبصرة •

ونشأ فى حجـر هذا البيت العربى العريق ، وكان يفخـر بولائه فيهم ، وبما أخذه عنهم من الفصاحة • يقول :

انني مـن بني عقيـل بن كعب   موضع السيف من طـلا الاعنـاق

وبنو عقيل من بنى عامر من « قيس عيـلان » لهـذا اعتبر شاعر قيس كلهـا • وبهذا خاطبـه القيسى بهـذا اللقب ، ونبهه الى خطورته ، وما ينبغى عليه من المحافظة عليه • يقول محمد ابن حازم الباهلى :

اتـق الله أنت شـــاعر قيس   لا تكن وصمـة عـلى لشـعراء(٢)

ويفخر بقيس فيقـول :

امنت معـرة الفحشاء انى   ارى قيسـا تضر ولا تضـار
كأن الناس حين تغيب عنهم   نبات الأرض اخطـاه القطـار
وقد كانت بتلمـر خيل قيس   فكان لتلمر فيهـا دمـار
بحى مـن بنى غيـلان شـوس   يسير الموت حيث يقـال ساروا
ومـا نلقاهـم الا صـدرنا   بـرى منهـم وهـم حـرار

---

(١) يختلف الناس فى مولده •

(٢) راجع الاغـانى ، وكتاب « بشـار بن بـرد » لحسـين منصور ص ٢ ، طبع القاهـرة ١٩٣٠ •

فبشار اذا يشارك فى هذا الصراع القبلى الذى احتدم ابان العصر الاموى بين القيسية واليمنية ، ويأخذ جانب القيسية، لولائه ، ولانه اعتبر شاعر قيس بالبصرة ،وبخاصة بعد موت جرير والفرزدق (١) ٠

وتنازعته العصبية الفارسية ، فلم ينج من الفخر بها ، اذا ما اثاره أحد أو غمزه فى نسبه غامز ٠ وتراه يجمع بين الولاءين ، فيفخر بعروبته ولاءا ، وبأصله الفارسى ، وقد بلغ به بعض الناسبين ، ورواه الاغانى الى أحد ملوك الفرس القدماء وهو « جستاسب » ، ويشير الى هذا النسب العريق فى شعره ، حين يشمخ به فيقول (٢) :

ورب ذى تاج كريم الجد كآل كسرى وكآل برد
فصلته عن ماله والولد

ويقول :

ونبئت قوما بهم جنة	يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهدا	ليعرفنى أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر	فروعى وأصلى قريش العجم

فالشاعر اذا منقسم النفس بين الولاء للعرب ، الذين ترعرع فيهم ونشأ ولقن الفصاحة والشعر ، والولاء للفرس الذى يجرى دمهم فى عروقه ، وهو فى هذا وذاك ينظر الى نفسه فيجد المتناقضات ، وهو شاعر موهوب ، من أصل عريق ، فمن حقه أن ينزل بين الناس منزلة كريمة رفيعة ، لكنه لا يجد فى الوقت نفسه

(١) الاغانى ـ دار الكتب ، ج ٣ ، ص ١٣٩ ٠
(٢) من أرجوزته المشهورة فى عقبة بن سلم٠

تلك المكانة التي يرجوها ، ويأبى القدر الا أن يزيد في تعاسته ، والا أن يباعد بين ما هو عليه من واقع الحال، ومـا كان يصبـو اليه ، فيولد قبيح الوجـه بالعمى ، ويأبى الا أن يضاعف هـذا القبح فيصاب بالجدرى فيزيده تشـوها ، ويشب ضخـم الجثة كالفيل أو كالثور ، فيمـا يصفه الرواة · وكأن جاحظ العينين يغشاهما لحم أحمر زاد فى قبحـه حتى صـار يضرب به المثل ، يقول مخلد بن على السلامى فى هجاء ابراهيم بن المدبر :

أرانى الله وجهـك جاحظيا وعينـك عـين بشار بن برد

ومما روى فى صفاته · قال الاصمعي : « وصف لى بشار فكان أقبح الناس عمى ، وأفظعهم منظرا » ،وقال: « كان بشار ضخمـا عظيم الخلق والوجه مجدورا ، جـاحظ المقلتين ، وقد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظرا ، وكان اذا أراد أن ينشد صفق بيديـه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتى بالعجب » ·

وكان لشكل بشار وضخامة جثته أثر على نفسه ، فكان يخشى الناس أن ينبذوه به ، وكان يقف منهم اذا ما تعرضوا لصورته موقفين ، فيهيج تارة ويثور اذا ما رأى ضعف من أمامه من شاعر أو غيره ، فاذا كانت امـرأة سلقها بلسان خبيث ، وأما اذا خشى من أمامه أن يشهر به سالمه وضعف أمامه ·

وكان بشـار يلقب بالمرعث ، لانه كان يلبس رعثـين أو قرطين فى أذنيـه كعادة الفرس القدماء · ويكنى بأبى معـاذ ·

ويحلل بعض الباحثين ـ الدكتور النويهى ـ شخصية بشار ابن برد فى ضوء علم النفس وعلى أساس ما عرف من صفاته

وأخلاقه ، وسلوكه الاجتماعي ، فيراه أعمى دميما ، مولى مضطهدا منجوسا حساسا أبيـا مشاكسا ، سليطا فاجرا ، ، متشككا ممقوتا ، كارها للبشر ، الى جانب بعض الصفات الخـيرة ، فقد كان بـارا بأهله وولده وبعض أصدقائه ، كريما ، صدوقا فـى صداقته ، صفوحا أحيانا ، فكها شجاع القلب والرأى ، عنيدا ٠

وحاول النويهى أن يكشف عن أثر بيئته فى طبعه ، من خلال تلك الصفات التى ركبت منها شخصيته ، وهو يرى أن العوامل الاساسية فـى اصطباغ شخصيته بتلك الصفات الصارخة هـى خلقته : عماه ، ودمامته ، وحدة شعوره ، وتهتكه الجنسى ٠ وهو مهما تكن البيئة التى يعيش فيها فلابد من أن يتعذب قدرا من العذاب بسبب حرمانه البصر ، وقبح منظره ٠

وكان بشـار ميالا الى العبث منذ صغره ، نزاعا الى الهجاء والسخرية بالناس ٠ وقد بـدأ قول الشعر فى صبـاه ، وناش بلسانه من وقع فى طريقه ، فلجأوا الى والده لينهاه فكان يضربه ، فلما ضاق به وزجره لكثرة شكوى الناس منه قال له بشار : يا أبت ان هذا الذى يشكونه اليك منى هو قول الشعر ، وانى ان أتممت عليه أغنيتك وسائر أهـلى ٠فاذا شكونى اليك فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول : (ليس على الاعمى حرج) ٠ فلما أعادوا الشكوى على أبيه قال لهم ما ذكره ابنه فانصرفوا قائلين : والله لفقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ٠

وكان عابثا لا يرعى حدود الدين ، والمجتمع ، أو التقاليد

ولا يرعوى من زجر ، ويجرى مع رغباته . كما يقول :

« ولقـد جريت مع الصبا طلق الصبا »

ويدعو الى اقتحام اللـذات فيقـول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفـاتك اللهـج

وفى شعره دعوة صارخة الى الاباحة وعدم مراعاة الحرم فى النساء يقول :

لا يؤيسنك مـن مخبأة قـول تغلظـه وان جـرحا
عسر النسـاء الى ميسرة والصعب يسهل بعدما جمحا

وكان يضع من الشعر السهل فى الغزل الفاضح ما يستهوى قلوب النساء وشباب البصرة فيجـرى عـلى كل لسان ، مما دعا علماءهـا ونساكها يثورون بـه . ويطاردونه غيرة عـلى الدين والاخلاق فى بلدهم . وكانوا يقولون أنهم لا يخشون شيئا على شباب البصرة أشد من شعر هذا الاعمى لانه دعوة للفجور سافرة .

ويبدو أن بشارا لم يكن يكتفى من الامر بالقول ، بل كان يتبعه بالفعل . وكان له فى منزله مجلسان أحدهما قريب المدخل ، ويجلس فيـه وصحابته مسـاء يشربون ويسمعون الغنـاء من القينات ، ومجلس آخـر فى داخـل المنزل يجتمع فيه بمن يرى الاجتماع به من الرجـال والنساء ، وكانت بعض النسوة يأتينه ليسمعن الشعر ، أو ليصنع لهن الشعر فيحطن به ويسجل أنبـاء المجلسين وهما «الرقيق» و «البردان»، فيقول ويحكى زيارة جماعة من النسوة له فى بيته ، وتأنيب الحسن البصرى ـ وكان يسمى القس ـ اياه فى مجلسه :

لمـا طلعن مـن الرقيـق	عـلى بالبـردان خمسـا
وكأنهـن أهـله	تحت الثياب زففـن شمسا
باكـرن عطـر لطميـة	وغمسن فـى الجـادى غمسا
لمـا طلعـن حففنهـا	وأصخن مـا يهمسـن همسا
وسـألنني : مـن فـى البيو	ت ؟ فقلت مـا ياوين انسـا
ليت العيـون الطارفـا	ت طمسن عنـا اليـوم طمسـا
لـولا تعرضـهن لـى	يا قـس كنت كانت قسـا

وكان لتهتكه قصص تروى ، وهو لا يرعوى ، يشرب جهارا ، ويأتى من الافعال المنكرة ، ما يثـير عقـلاء الناس ، فيسمع وهو يؤذن فى غير وقت الصلاة ، ويخرج مع الناس ، متظاهرا بقضاء الفريضة ، فيجنح الى بيت للقيان يقضى فيه وصاحبا له أوقات الحج حتى اذا عاد الحجيج الى البصرة لحقا بمواكبه فيظن الناس أنهما حجاولم يحجا الا الى اللهـو والشراب •

ويسجل صاحبه فى هـذه الزورة « سـعد بن القعقاع » ذلك فيقول فيما يروى عنه : « قال يوما لبشار وهو ينادمه : ويحك يا أبا معـاذ ، قد نسبنا الناس الى الزندقـة فهل لك أن تحج بنا حجة تنفى ذلك عنا ؟

ـ قال نعم ما رأيت •

فاشتريا بعـيرا ومحملا ومركبا ، فلما مرا بمكان يقال له زرارة ، قال له : ويحك يـا أبـا معـاذ ! ثلاثمائة فرسـخ متى نقطعها ، مل بنا الى زرارة نتنعم فيها فاذا قفل الحاج عارضناهم بالقادسية وجززنا رؤوسنا فلا يشك الناس أنا جئنا من الحج •

فقال بشار : نعم ما رأيت لولا خبث لسانك ، واني أخاف تفضحنا • قال : لا تخف •

فمالا الى زرارة ، وما زالا يشربان الخمر حتى نزل الحجاج بالقادسية راجعين ، فأخذا بعيرا ومحملا ، وجزا رؤوسهما وأقبلا فتلقاهما الناس فقال فى ذلك صاحبه سعد :

الم ترنى وبشارا حججنا وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبى سفر بعيد فمال بنا الطريق الى زرارة
فآب الناس قد حجوا وبروا وأبنا موقرين من الخسارة

ولم يقلع بشار عن هذه الزندقة الاجتماعية ، أو الاباحية ، والمجون ، حتى فى أخريات حياته ، وكان المهدى الخليفة غيورا على الحريم فمنعه من ذكر النساء والغزل عامة لاستهتاره ٠

ويقول فى ذلك :

يا منظرا حسنا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت الى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد ما ان غدرت ولا نويته
أمسكت عنه وربما عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى واذا أبى شيئا أبيته
ونهانى الملك الهمام عن النساء فما عصيته
بل قد وفيت ولم أضع عهدا ولا رأيا رأيته

الى أن يقول :

ويشوقنى بيت الحبيب اذا غدوت وأين بيته
حال الخليفة دونه فصبرت عنه وما لقيته

ويقول من أبيات :

قد عشت بين الريحان والراح والمزهر فى ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فغفور الى القيروان واليمن

شعرا تصلى له العواتق والشيب صلاة الغواة للوثن
ثم نهانى المهدى فانصرفت نفسى صنيع الموفق اللقن

ولكنه لم يرتدع تماما .

ولقد عاداه كما قلت جماعة من نساك البصرة وعلمائها لهذا المسلك ولذاك الشعر الاباحى الماجن ، حتى ان واصل ابن عطاء ضاق به مع أنه كان صاحبه زمنا يجلس معه فى مجالس العلم ، لكنه خرج عن وقاره فاضطره الى معاداته ، وقال لاصحابه : أما لهذا الملحد الاعمى المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟ « أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبعج بطبه على مصبحه ويقتله فى جوف منزله وفى يوم حفله ، ثم لا يتولى ذلك منه الا عقيلى أو سدوسى » وكان يقول : « ان لمن أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الاعمى » .

وانتهى الامر بينهما الى أن نفاه واصل من البصرة حوالى سنة ١٢٠ هـ والشاعر فى أوج رجولته فقصد الى حران حيث سليمان بن هشام بن عبد الملك . وظل طريدا من البصرة الى سنة ١٣١ هـ قبيل استيلاء العباسيين بعام واحد فقد توفى فى هذا العام واصل بن عطاء .

وكان موقف مالك بن دينار كموقف الحسن البصرى وواصل بن عطاء ، تعرض لبشار مثلهما لاستهتاره . وكان مالك يقول : ما من شىء أدعى لاهل هذه المدينة الى الفسق من أشعار هذا الاعمى .

وأصبح مالك يوما فقرع على بشار بابه فقال بشار :

ـ يا جارية ، أنظرى من هذا ؟

فرجعت وقالت ـ مالك بن دينـار .

فقال ـ ما هو من أحزابي ولا أشكالي . أدخليه .

فدخل مالك وقال : يا بشار أتشتم أعراض الناس وتشبب بنسائهـم .

فقال بشار : لن أعود . وما أن ولاه ظهره حتى عاد لمـا كان عليه وأنشـد :

غـدا مـالك بملامـاته	عـلى ومـا كان من باليـة
تـاول خودا هضيم الحشا	مـن الحـور محطوطة خاليـه
فقلت دع اللـوم فى حبهـا	فقبـلك أعييت عذاليـه

وقد غرق بشـار في لهوه ، وكان يوفر لنفسه المتعـة فى السكن والحياة ، يسكن دارا يجمع فيها كل ما يلـذه ، ويقتنى الخـدم والرقيق من الغلمان والجوارى ، ويقتنـى المغنيات أو يدعوهن للحضور الى مجالسـه للسماع مع أصحابه ورفاقـه ، فيشربون الخمر على السماع وينعمون بأطيب الطعام .

وكان يلبس حلة الشاعر من الديباج ، وحين يطرب يصفق بيديه .

ويغشى دور القيان بالبصرة ، وفى شـعره تسجيل لمجالس الغناء . ومنـه تلك القصيدة التى يصف فيها مغنية تنشد بلحن مشهور . يقـول :

وذات دل كان الحسن صورتها	باتت تغنى عميد القلب سكرانا
(ان العيون التى فى طرفها حور	قتلننا ثم لـم يحيين قتـلانا)
	(لجرير)
فقلت احسنت يا سؤلى ويا سكنى	فاسمعينى جزاك الله احسـانا
(يا حبذا جبل الريان من جبل	وحبـذا ساكن الريان من كانا)
	(لجرير)

قالت:فهلا فدتك النفس احسن من هذا لمن كان صب القلب حيرانا
(يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة والاذن تعشق قبل القلب أحيانا)
(لبشار)

فقلت أحسنت أنتالشمس طالعة أضرمت فيالقلب والاحشاءنيرانا
فاسمعينى صوتا مطربا هزجا يزيد صبا محبا فيك أشجانا
يا ليتنى كنت تفاحا مفلجة أو كنت منقضب الريحان ريحانا
حتى اذا وجدت ريحى فاعجبها ونحن فى خلوة مثلت انسانا
فحركت عودها ثم انثنت طربا تشدو ثم لا تخفيه كتمانا
(أصبحت أطوع خلق الله كلهم لاكثر الخلق فى حبيك عصيانا)
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنا فهات انك بالاحسان أولانا
فغنت الشرب صوتا مونقا رملا يذكىالسرور ويبكى العينألوانا
(لا يقتل الله من دامت مودته والله يقتل أهل الغدر أحيانا)

واذا ما تركنا هذا الجانب من حياة بشار الى جانب آخر ، أكثر جدية ، وجدناه عالما فقيها أديبا جامعا يرتاد مجالس العلماء ، ويصحب جماعة من المعتزلة أمثال واصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد زمنا ، ويسجل صداقته لزعيم المعتزلة فى البصرة بجملة من القصائد قبل أن تسوء الحال بينهما .

يقول بشار ممتدحا واصل بن عطاء فى خطبته المشهورة التى أسقط فيها الراء للثغة فى لسانه ، فجلى على من حضر من الخطباء :

فقام مرتجلا تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التصفح والاغراق فيالطلب

وقال مرة أخرى :

أبا حذيفة قد أوتيت معجزة من خطبة بدهت من غير تقدير
وان قولا يروق الخالدين معا لمسكت مخرس عن كل تعبير

ولكن الخلاف بينهما لم يكن فيما يبدو قاصرا على استهتار بشار أو بسبب شعره الماجن فى النساء بل كان كذلك للخلاف فى العقيدة ، ولما جاء به لسان الشاعر من أشياء تخالف اتجاه المعتزلة، كالقول « بالجبر » وهم القائلون بالاختيار ، وكتناوله لرجال الدين والصحابة بكثير من السخرية وعدم الاحترام لاقدارهم ، ولقوله كذلك بمذهب الديصانية والرجعة ، وتفضيل النار على الطين ، والاعتقاد بالثنوية الفارسية ، والهين للنور والظلمة ٠

ومما يثبتون به جبرية بشار قوله :

طبعت على ما فى غير مخير   هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد   وقصر علمى أن ينال المغيبا
فاصرف عنقصدى وعلمى مقصر   وأمضى وما أعقبت الا التعجبا

وفى الطين والنار ، والظلمة والنور يقول :

الارض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

وفى تفضيل ابليس على آدم لانه من النار يقول :

ابليس خير من أبيكم آدم   فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة   والارض لا تسمو سمو النار

لهذا رماه المعتزلة بالكفر والزندقة ، ولم يكن بشار فيما ورد من أخباره أو ذكر من شعره داعية الحاد أو زندقة فكرية ، بل ربما زلقت على لسانه بعض الآراء والافكار التى علقها فى

---

(١) يروى أن بشارا زعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قيل له : وعلى أيضا فقال :

وما شر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذى لا تصبحينا

دراساته ومعارفه التـــى استقاها مـــن علمه بالمذاهب والفـــرق المختلفة ، وقد كان الرجل المثقف الذكي الواسع الاطلاع ٠

ومهما يكن من أمر فان العداء بينه وبين المعتزلة خلف لنـــا من شعره قصائد في هجـــاء واصل بن عطاء ، لتعقبه اياه ونفيه من البصرة ٠ فمما قال فيه :

مـــا لى منيت بغزال لـــه عنق كنقنق الد ان ولى وان مثـــلا
عنق الزرافـــة مـــا بالى وبالكم تكفرون رجـــالا كفـــروا رجـــلا

يريد أن المعتزلة كفروا الخوارج لانهم بدورهم كفروا عليا ، وسمى واصلا الغزال لانـــه كان يسكن حـــى الغزاليين بالبصرة فعرف بهذا اللقب ٠

ورد أحد شعراء المعتزلة وهو « صفوان الانصارى » أحـــد أصدقاء واصل بن عطاء بقصيدة طويلة أنشدها عقب موت واصل ابن عطاء وعودة بشار الى البصرة ٠ قال (١) :

رجعت الى الامصار من بعد واصل وكنت شريدا فى التهائم والنجد

يقول فيها ،شيرا الى عقيدة بشـــار التى عـــاداه من أجلها ابن عطاء :

زعمت بان النار أكرم عنصرا وفى الارض نحيى بالحجارة والزند
ويخلق فـــى أرحامهـــا وارومها اعاجيب لا تحصى بحظ ولا عقد

ويعدد فضائل الأرض وما فيهـــا من الخـــيرات والنعم الكبرى ثم يقول :

---

(١) راجع القصيدة بتمامها ص ١٠١ ـ ١٠٢ بشار بن برد لحسين منصور ٠

وفيها مقام الغل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخلد

* * *

مفاخر للطين الذى كان اصلنا ونحن بنوه غير شك ولا مجد
وذلك تدبير ونفع وحكمة واوضح برهان على الواحد الفرد

* * *

ويقـول :

أنجعل عمرا والنطاسى واصلا كاتباع ديصان وهم قمش المد(١)

* * *

فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى وابعد خلق الله من طرق الرشد
اتهجو ابا بكر وتخلع بعده عليا وتعزو كل ذاك الى برد
كانك غضبان على الدين كله وطالب ذحل لا يبث على حقد

ويرمونه بالشعوبية كما رمى بالزندقة والكفر والالحاد ، وكانت هذه الاتهامات فى ذلك العصر تعلق على الرءوس ، من يستحق ، ومن لا يستحق لمجرد شبهة ، أو قول يؤول على غير وجهته .

وقد رمى قوم بالشعوبية ومعاداة العرب ، ومن بينهم جماعة من كبار العلماء أمثال أبى عبيدة معمر بن المثنى . وأخذ على بشار تهجمه على العرب وافتخاره بالفرس وتفضيلهم ويروون على رأس الاتهام من الأدلة قوله :

ساخبر فاخر الاعراب عنى وعنه حين تاذن بالفخار
احين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الاحرار حسبك من خسار

الى آخر القصيدة .

---

(١) قمش المد : غثاء السيل .

وهى أبيات رد بها على أحد الأعراب ، وكان قد سخر به فى مجلس أحد أعيان البصرة اذ دخل بشار وعليه بزة الشاعر فقال الاعرابى : من الرجل ؟ فقيل له شاعر فقال : أمولى هو أم عربى ؟ فقيل له : مولىهو • فقال : وما للموالى وقول الشعر فغاظ بشارا هذا القول فنظم تلك الابيات •

وهى من نبت ثورة استفز لها ، ولم يكن عن عقيدة يعتقدها ، وكيف كان يعتقد ذلك وهو يمدح العرب من خلفاء بنى أمية وكبار رجالهم وقادتهم ، ويمدح العباسيين وكبار قادتهم من العرب ويفخر بولائه لبنى عقيل ، ويعتبر شاعر قيس كما أشرنا من قبل ، ولكنه قد يثور على الولاء ، ويعتبره مزريا بالكرامة ، ولا يرى ولاءا الا لله تعالى وحده فيقول :

اصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم	مولى العريب فخذ بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها	أهل الفعال ومن قريش المعشر
فارجع الى مولاك غير مدافع	سبحان مولاك الاجل الاكبر

وهى نفثة أخرى من صدر مسجور ، وثورة على ربقة الولاء ، وصغاره ، وكيف لا يثور والدين نفسه جعل الناس سواسية لا فرق بين عجمى وعربى الا بالتقوى والعمل الصالح • ولا شك أن هذه الثورة كانت من مصدور ضاق بعنجهية بعض الاعراب وتفاخرهم الكاذب ودعاواهم بالانساب والاحساب • وهى الدعاوى التى عصفت بالدولة الاموية وهزت أركان المجتمع الاسلامى هزا عنيفا • وقد وضع الاسلام هذه الانساب والاحساب وأرساها النبى فى خطبة الوداع •

شـــعره :

قال الجاحظ : كان بشـــار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع المتفننين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه ٠

وقال ابن شرف القيرواني : هو أول المحدثين وآخر المخضرمين ممن لحـق الدولتين ،عاشق سمع ، وشاعر جمع ، شعره ينفق عند ربات الحجال وعند مخول الرجال ، فهو يلين حتى يتعطف ويقوى حتى يستنكف ٠٠ وقد طال عمره وكثر شعره ، وطما بحـــره ، ونقب فى البلاد ذكره ٠

وقد أجاد بشـــار فى فنون الشعر المختلفة ، وكانت شاعريته غنية متدفقة ٠ قال عن نفسه : لى اثنا عشر ألف بيت عين فقيل له : هذا ما لم يكن يدعيه أحد سواك ، فقال : لى اثنتا عشرة ألف قصيدة ، لعنها الله ولعن قائلها ان لم يكن فى كل واحدة منها بيت عـــين ٠

وقد سئل مرة : ليس لاحد من شعراء العرب شعر الا وقد جاء فيه شيء استنكرته العرب وشك فيه وان شعرك ما فيه شك أو خطأ ٠ فقال : ومن أين يأتينى الخطأ ٠ ولدت هـــا هنا يعنى فى البصرة ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ٠ وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهـــم ، ويفعت فأبـــديت الى أن أدركت فمن أين يأتينى الخطـــأ ؟ ٠

واعتبر بشار آخـــر من يستشهد بشعره ٠ وللاصمعى فيه ولأبى عمرو بن العـــلاء رأى حسن ، وكان ذا قدرة على أن يحاكى

شعر الاعراب ، ويصطنع أساليبهم • وقدروى أن خلفا الاحمر وأبا عمرو بن العلاء ، وكانا من رواة الشعر الكبار بالبصرة ، يختلفان الى بشار بن برد يسألانه ما جاء به من الجديد ، وقد جاءاه يوما الى داره فقالا له : ما أحدثت يا أبا معاذ • فقد بلغنا عنك قصيدة فى مدح سلم بن قتيبة • قال هى ما بلغتكما ، وقد علمت أن سلما يتباهى بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما أحب • ثم أنشدهما :

بكرا صاحبى قبل الهجير ... ان ذاك النجاح فى التبكير

فقال أحدهما : هلا قلت ، بكرا فالنجاح فى التبكير • فقال : انه انما يريد أن يبنيها بدوية وحشية •

وكذلك فعل فى أرجوزته البدوية التى مدح بها عقبة ابن سلم بن قتيبة وتحدى فيها عقبة بن رؤبة بن العجاج الذى زعم أن بشارا لا يحسن هذا الضرب من الرجز الذى برع فيه هو وآباؤه : ولكن بشارا أثبت له أنه قدير كذلك فى فن الزجر كما هو قدير فى فن الشعر ، وأن باستطاعته أن يلبس فيه لبوس الاعراب • يقول فى هذه الارجوزة :

يا طلل الحى بذات الصمد ... بالله خبر كيف كنت بعدى
أوحشت من دعد وترب دعد ... سقيا لأسماء ابنة الأشد
قامت تراءى اذ رأتنى وحدى ... كالشمس تحت الزبرج المنقد
صدت بخد وجلت عن خد ... ثم انثنت كالنفس المرتد
عهدى بها سقيا له من عهد ... تخلف وعدا وتفى بوعد
فنحن من جهد الهوى فى جهد ... وزاهر من سبط وجعد
أهدى له الدهر ولم يستهد ... أفواف نور الحبر المجد
يلقى الضحى ريحانه بسجد ... بدلت من ذاك بكا لا يجدى

* * *

وافق حظا من سعى بجد ... ما ضر أهل القول ضعف الجد
الحر يلحى والعصا للعبد ... وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكفيك من التعدى ... وصاحب كاللمل الممد

* * *

حملته فى رقعة من جلدى ... ارقب منه مثل يوم الورد
حتى مضى غير فقيد الفقد ... وما درى ما رغبتى من زهدى

* * *

اسلم وحييت أبا الملد ... مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النيل ورى الزند ... أغر لباس ثياب الحمد
ما كان منى لك غير الود ... ثم ثناء مثل ريح الورد
نسجته فى محكمات النـد ... فالبس طرازى غير مسترد

* * *

لله أيامك فى معد ... وفى بنى قحطان غير عد
يوم بذى « طخفة » عند الحد ... ومثله أودعت ارض الهند
بالمرهفات والحديد السرد ... والمقربات المبعدات الجرد
اذا الجبا أكدى بها لا تكدى ... تلحم أمرا وأمورا تسدى

* * *

وابن حكيم ان أتاك يردى ... أصم لا يسمع صوت الرعد
حييته بتحفة المشد ... فانهمه مثل الجبل المنهد
كل امرىء رهن بما يؤدى ... ورب ذى تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد ... انكب جافى عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والولد

ويروض بشار نفسه على قول الشعر منذ صباه ، فيرى تحت سمعه وبصره كبار شعراء عصره يفدون الى مربد البصرة ، يتناشدون الأشعار ، وتثور فى نفس الفتى الرغبة فى قول الشعر ،

ومعارضة الكبار ، ويحاول أن يطاول جريرا ، وقد رمى به أمله هذا المرمى السابق فلا يجاوبه جرير بطبيعة الحال ، ولو جاوبه على ذاك السن لكان أشعر الشعراء كما يقول ·

ولكنه مع ذلك لا يدع نماذج أشعارهم تفلت من بين يديه ، فيروض نفسه على تقليـدجرير والفرزدق ، ولا تزال أبياتهم ترن فى أذنيه ، وتتسلل الى قصائده · ونرى مثالا عليها فى الميمية التى هجـا بها أبا جعفر المنصور ومدح ابراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى ثار فى البصرة ، ثم أخمدت ثورته · قال بشار :

أبا جعفـر ما طول عيش بدائم ‏ ‏ ‏ ‏ وما سـالم عمـا قليل بسـالم

وينهج فيهـا طريق نقيضتين ميميتين احداهما للفرزدق ، قالها فى مقتل قتيبة بن مسلم، يشمت ويمدح سليمان بن عبدالملك مطلعهاـ :

تحـن بزوراء المدينــة ناقتى ‏ ‏ ‏ ‏ حنـين عجـول تبتغى البورائـم

وثانيتهما لجرير يقول فى مطلعها :

ألا حى ربع المنـزل المتقـادم ‏ ‏ ‏ ‏ وما حـل مذ حلت به أم سـالم

وتأثره واضح فى بعض معانيهما وفى الصياغة والألفاظ ، مما يدل على أنهما كانتا تدوران فى خلده أثناء نظمه لقصيدته · وربما جعل من قصيدته هذه نقيضة ثالثة ليعارض بها الشاعرين الكبيرين ، ويروض بها القول محاولا أن يطاولهما ، ونمر فى كلام بشار على عبارات تستدعى مثيلاتها فى قصيدة الفرزدق أو قصيدة جرير · فاذا مررت بقوله (بشار) :

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة ‏ ‏ ‏ ‏ فان الخـوافى قـوة للقـوادم

لا شك تذكر قول جرير :

وريش الذنابى تابــع للقـــوادم

ونمر بقول بشار كذلك

على الملك الجبار يقتحـم الردى ويصرعه فـى المـازق المتـلاحم

وهو صدى لقول جرير

وقبلك ما أخزى الاخيطل قومه واسـلمهم للمـــازق المتلاحـم

وفـــى بيتــــه :

كانك لــم تسمع بقتل متــوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

معنى قول الفرزدق وصياغته فى قوله :

كانك لم تسمع تميما اذا دعت تميم ولم تسمع بيوم ابن خازم

ولم يكن تأثره فى شعره بهذا النموذج الذى يقدمه شــعراء النقائض بالبصرة فحسب ، بل تأثر كذلك بقدامى الشعراء من جاهليين ومخضرمين · ويروى الخريمى الشاعر أن بشارا قال : لم أزل مذ سمعت تشبيه امرىء القيس شيئين بشيئين فــى بيت واحد حيث يقول :

كان قلوب الطــير رطبا ويابسا لدى وكرها العنابوالحشفالبالى

أعمل نفسى فى تشبيه شيئين بشيئين حتى قلت :

كان مثار النقع فـوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وكان لهذا الاحتذاء للشعر القديم قد يورد بعض قولهم فى شعره ، أو قــد ينزلق دون ارادة عــلى لسانه ، فيتهمــه العلماء والمعاصرون من الرواة بالسرقة من القدماء ، فقد اتهم بسرقة بعض أبيات المتلمس الشاعر الجاهلى ·

ولم يكن شعر بشـــار كله يتجه هذا الاتجـاه الى القديم ، يحذوه ، ويصطنع ديباجتــه بل كان يجمع بين القديم والحديث ، ولهذا غمزه بعض النقاد بالتخليط فى الشعر .

وكان اسحاق الموصلى يتهمه بذلك فيرى أن أشماره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . أليس هو القائل :

انما عظـم سـليمى حبتى	قصب السكر لاعظـم الجمل
واذا ادنيت منهـا بصـــلا	غلب المسـك عـلى ريح البصل

لو قال كل شىء جديد ثم أضيف اليه هذا لزيفه .

ولم يكن الضعف الذى يرد فى شعره ناجما عن التخليط بقدر ما هو راجع الى أن بعضه من مراحل الصبى الاولى ، وقد ذكرت الاخبار أنه قال الشعر فى العاشرة من عمره . ولعله يقصد به خطاب مستوى من الناس . ونبــه هو الى ذلك حين سئل عما يجىء فى شعره من الهجين المتفاوت مثل قوله :

ربابـــة ربـــة البيـت	تصب الخـــل فـــى الزيت
لهـــا عشـــر دجاجـات	وديـك حســن الصـــوت

فقال : لكل وجه . وهذا قلته فى ربابة جاريتى وأنا لا آكل البيض من السوق وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهى تجمع لى البيض . وهذا عندهـــا أحسن من « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » عندك .

وقد يكون بعض هذا الشعر الضعيف فى أسلوبه من المرتجل فى المناسبة العابرة أو للفكاهة والتندر من مثـل قوله انه رأى حماره فى النوم وكان قد مات ، فسأله : لم مت الم أكن أحسن اليك ؟ فقال هذه الابيات :

سيدى خــذبى اتانــا	عنــد بــاب الأصبهــانى
تيمتنـــــى بـــــدلال	وبــدل قــد شــجانى
تيمتنـــى يـــوم رحنـــا	بثنايـــاها الحســـان

الى أن قــال :

فلـــذا مت ولـو عشــــــت اذن طـال هـوانى

ونعلم بعد هذا أن بشــارا كان من المطبوعين الذين يرتجلون الشعر ، وأنه قد يصنعه للنائحات والناديات كما يصنعه للمغنيات، وهو الى جانب هذا يقوله فى المناسبات العظام فى فتح أو نصر أو مديح عظيم، أو قائد جليل أو خليفة فيرتفع الى مستوى المناسبة والمقــام •

ومن هنا نلاحظ أن شعره التقليدى عامة ، والذى ينهج فيه نهج القدماء غالبا ما يكون فـــى المديح والموضوعات الرصينة • ومنه البائية الشهــيرة فى مديح مروان بن محمد ويعرض فيها للفخــر بقيس عيــلان فيقــول :

جفا وده فازور أو مل صاحبه	وأزرى به أن لا يـزال يعاتبه
خليلى لا تستنكرا لوعـة الهوى	ولا سلوة المحزون شطت حبائبه
شفى النفس ما تلقى بعبدة عينه	وما كان يلقى قلبــه وطبائبــه

ويقول بعد النسيب :

اذا كنت فى كل الامور معاتبا	صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا اوصل أخاك فانه	مقــارف ذنب مـــرة ومجانبــه
اذا أنت لم تشرب مراراعلى القذى	ظمئت واى الناس تصفو مشاربه

ويقول فى الوصف فى نمط أعرابى : (حر الصيف فى الصحراء)

فلما تولى الحر واعتصر الثرى	لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
وطارت عصافير الشقائق واكتسى	من الآل أمثــال الملاء مساربه
وصد عن الشول القريع واقفرت	ذرى الصمد ما استودعته مواهبه

ولاذ ألها بالظل واستوفض السفا من الصيف نتاج تخب مواكبه
غدت عانة تشكو بابصارها الصدى الى الجـاب الا أنهـا لا تخاطبه

وفي فخـرها يقـول :

اذا الملك الجبار صعر خـده مشينا اليـه بالسيوف نعاتبـه
وكنـا اذا دب العـدو لسخطنا وراقبنا فى ظاهـر لا نراقبـه
ركبنـا لـه جهـرا بكل مثقف وأبيض تستقى الدمـاء مضاربه
وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطى حمـر ثعالبه
غدونا له والشمس فى خدر أمها تطالعنا والطل لم يجـر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فـوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهـاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجـاءة اننـا بنـو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا فريق فى الاسار ومثله قتيل ومثـل لاذ بالبحـر هاربه
وأرعن يغشى الشمس لون حديده وتخلس أبصار الكماة كتائبـه
تغص به الأرض الفضاء اذا غدا تزاحـم أركان الجبـال مناكبه

فهذه القصيدة قوية أسر الكلام ، جزلة الصياغة ، لا تظن بصاحبها لينا ولا طراوة ، وشتان بين هذا النمط والنمط الذى أشرنا اليه فى شعره المرتجل ٠

ولا شك أنه كان فـى مثل هـذا الشعر الذى يقصد به الى الحصول على الجائزة يعمد الى تثقيفه وتنقيحه وقد قيل له مرة : بم فقت أهل دهرك، وسبقت رجال عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه فقال : لانى لم أقبل كل ما تورده على قريحتى ويناجينى به طبعى ويبعثه فكرى ، ونظـرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات ، فسرت اليهـا بفهم جيـد وغريزة قوية ٠ فأحكمت سبرها وانتقيت حـرها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت من منعكفها » ٠

ومع ذلك فان هذا الشعر التقليدى من شعر بشار لم يكن مناط شاعريته وابداعه بل ان كثيرا منه كان مطبوعا دون تكلف يأتي جميلا، فيه طلاوة الطبع وجمال الشاعرية بل ان به الصدق، والانفعال بالموقف ، وفيه الابداع والاختراع ٠

غزله وموقفه من المرأة :

أكثر غزل بشار فى نوع خاص من المرأة هى المرأة الجارية ، أو الغانية المغنية ، وكانت النساء يأتينه أو كان يزورهن فى بيوت القيان فيعاتبنه ويعاتبهن ، ويقول فيهن الشعر الخليع الماجن ٠

ويمكن أن نعطى صورة لما كان يجرى بينه وبينهن ، وأى نوع من المرأة كان يلقى ويصور فى شعره فى كثير مما روى أبو الفرج فى الاغانى ٠ ومنه قوله :

« كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة فراسلها يسألها الزيارة ،فوعدته بذلك ثم أخلفته وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح ، فلما لم تأته أرسل اليها يعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها فكتب اليها بهذه الابيات :

يا ليلتى تزداد نكرا   من حب من أحببت بكرا
حوراء ان نظرت اليـ   ـك سقت بالعينين خمرا

ويروى أنه كان يجتمع الى النسوة فى بيته بمجلسه بالعقيق أو بالبردان ٠

وكانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان بن على وكانت حسنة بارعة الظرف ، وكان بشار صديقا لسيدها ومداحا له فحضر مجلسه يوما والجارية تغنى فسر بحضوره وشرب حتى

سكر ونام ونهض بشـار فقالت له الجارية يا أبا معاذ أحب أن تذكر يومنا هذا فى قصيدة ولا تذكر فيها اسمى ولا اسم سيدى وتكتب بها الى فانصرف وكتب اليها :

وذات دل كان البـدر صورتها　　　باتت تغنى عميد القلب سكرانا

(القصيدة)

مثل هذا الشعر الذى يتغزل فيه بشـار بجـوارى البصرة وقيانها وبعض نسائها كان يعجبهن فيطربن له ويستزدنه منه • وكان ببشار عبث ومجون لا شك ، وقد صور هذا العبث فى قصائده الغزلية مثل قوله :

أمتـا بـدد هـذا لعـبى　　　ووشـاحى حلـه حتى انتثر

أو قوله :

قد لامنى فـى خليلتـى عمـر　　　واللـوم فى غـير كنهه ضجـر

ويقول فيها :

حسبى وحسب الـذى كلفت به　　　منـى ومنـه الحديث والنظـر
أو قبلة فى خـلال ذاك ومـا　　　بـاس اذا لـم تحـل لى الأزر

ويعتبر هذا الشعر الماجن الخليع الذى انطلق فيه بشار على سجيته ، وجاء فيه بكثـير من البديع وصور التجديـد فى الموسيقى والتعبير ،وقد أجاد وصف النساء ، وصورهن صورا بصرية جديدة جميلة وهو الأعمى ،ولكنه يدرك ما يقول، ويعلل قدرته على هذا التصوير البصرى فيقول :

عميت جنينـا والذكاء من العمى　　　فجئت عجيب الظن للعلـم موئلا

ويصف شـعره :

وشعر كنوز الروض لاءمت بينه ... بقول اذا ما احزن الشعر اسهلا

فنعرف هذا الشعر السهل يأتى بكل مشرق بديـع فـى المعانى والأسلوب • مثل قوله :

لم يطـل ليـلى ولكن لـم انـم ... ونفى عنى الكـرى طيف الـم
واذا قلت لهـا جـودى لنـــا ... خرجت بالصمت عـن لا ونعـم

وقد أعجب به أبو عمرو بن العــلاء واعتبره آبـدع الناس بيتا • وفى وصف جمال النساء يقــول :

حــوراء ان نظـرت اليـك ... سـقتك بالعينـين خمـــرا
وكـــان رجـــع حديثهـــا ... قطع الريـاض كسين زهـرا
وكـــان تحــت لســانها ... هاروت ينفث فيــه سحرا
وتخـــال مـــا جمعت عليـه ... ثيابهـــا ذهبـــا وعطـــرا

ومع هذه الصفات البصرية ، التى أعجب بهـا النسوة ممن نعتهن ، فانا نلاحظ أنها صفات عامة لا تدقيق فيها ،وهى صفات من مخزونه مـن الشعر العربى فصفة العيون بالحـور ، وصفة المرأة فى اللون بالصفرة والذهب وما اليها صفات متداولة •

لكن الجديد ها هنــا مثـلا تحويل صفة الكـلام الى صفة بصرية • فى تشبيه الحديث بزهر الرياض • وهذا من مواضع البديع فى شعره لانه تجديد فى المعنى والصورة •

على أن بشار بن برد كما نلاحظ فى كثير من الشعر الذى قاله فى الغزل ، لم يكن بذلك العاشق الولــه المعذب فى العشق

والحب ، وانما جرت معاني العشق على لسانه ولم يكن فيه صادقا تماما ، ولهذه عابه بعض الكوفيين في قوله :

نفسي يـا عبـد عني واعلمي   انني يا عبـد من لحـم ودم
ان فـي بـردي جسما ناحـلا   لـو توكـات عليـه لا نهـدم

فقد رأى منه جسدا كالجاموس ، ويدعي النحول في الحب ·
ولعل هذا ما جعل طه حسين يعيبه ويحمل عليه ، ويرى في غزله قولا غليظا لا رقة فيه ، ولا عاطفة ، ويقول في شعره عامة :

« ليس شفافا كشعر أبي نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ، وانما هـو شعر كثيف صفيق لا يـدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب أبدا لا يحفل بالكذب » ·

فغزله عند طه حسين ليس صادرا عن صدق ، انما هو تهالك على اللـذة وافحاش وامعان فيه · فلم يعرف عنـه أنه أحب ، وشعره في عبدة التي يردد اسمها على لسانه معظمه متكلف (١) ·
وكذلك رأى المـازني فقال انـه لم يـر في المـرأة غـير الأنثى والجنس (٢) ·

وتعجب من كلام طه حسين في مثل هذا الشعر الذي يصفه بالصفافة ، وقد أعجب به القدماء كأبي عمرو بن العلاء ، وها هو ابن المعتز يقول : وكان شعره أنقى من الراحة وأصفى من

---

(١) حديث الاربعـاء جـ ٢ ·

(٢) بشار بن برد (سلسلة أعلام الاسلام) ص ٩٥ ــ ١٠٠ ·

الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العــذب ٠

والحق أن شعر بشار بن برد شعر شاعر صناع ، وهو فى الغزل يأتى بالغزل الرقيق المرقص والمطرب ، وقد فتن به نساء البصرة وشبابها ، ولو كان شعره الغزلى صفيقا كما يقول طه حسين لما فتن به أحد ، ولكفى نفسه بنفسه ولــم يمتد أحد لحربه تلك الحرب التى عرفتموها ٠

أما أن بشارا لم يكن صادق العاطفة فى الحب ، وأن غزله كان غزلا مصنوعا فهذا شىء آخر ، ومع ذلك فقد أحسن بشار اصطناع مواقف العاشقين ، وهذه قضية من قضايا الخلق الفنى عامة وليست قضية بشــار فحسب ، أينبغــى أن يعانى الفنــان موضوع فنــه ، بمعنى أيشترط للغــزل أن يكون زيــر نساء ، أو للعاشق أن يكون قد مر بتجربة حب عنيفــة ، ألا يستطيع أن يتمثل ٠

قد تكون التجربة مما يعمق احساس الفنان وشعوره ، ومن ثم تزيد تعبيره غنى وعمقــا ٠

ومع ذلك فها هو باحث آخر ــ الدكتور النويهى ــ يعارض مقال الدكتور طه حسين ، ويكشف عن جوانب الصدق والعاطفة فى شعره الغزل ٠ فهو يرى فى المــرأة جمالا يعلــو على الجمال الجسدى ٠ ويقول أن شعره المفحش فى الغزل قليل بالنسبة لجملة

شعره فى هذا الموضوع ، وليس جل غزله كذلك بل فيه مـا هو حلو رقيق ، مفعم بالصفاء والحنان (١) ٠

ويردد بشار أسماء بعض النسوة فـى غزله أمثـال عبدة ، وسلمى ، ويدعوها بالتصغير أحيانا سليمى ،ووهبى، وحمدة ، وسعدى ، وحبابة ، ويدعوها مرخمة أحيانا ، بحباء ، وطيبة ، وأسماء ، والرباب ، وبانـة ٠

ولا نعدم فى غزله الشكوى ، كما يشـكو العشاق من الام الحب ٠ يقول مخاطبا عبـدة :

يا عبـد حتـام لا القاك خالية ‏ ‏ ‏ ولا انـام لقـد طولت تعذيبى

ويقول عنها كذلك :

اذا ذكرت دار الهـوى بمسامعى ‏ ‏ ‏ كما دارت الصهباء في رأس شارب
فان يك عنى وجههـا اليوم غائبا ‏ ‏ ‏ فليس فـؤادى من هواها بغائب

وهو يشعر بالأسى لفراق سلمى فيقول :

سيقت الى الشـام ومـا ساقها ‏ ‏ ‏ الا الشقـا والقـدر الغـالب
أصبحت قد راح الـذى دونهـا ‏ ‏ ‏ ورحت فـردا ليس لى صـاحب
لا ارفـع الطـرف الى زائـر ‏ ‏ ‏ كانى غضبـان أو عـاتب
يـا راهب المصر لنـا حاجـة ‏ ‏ ‏ فانظـر لنـا هـل سكنى آيب

ويقول فى عبدة وتحس بحرقة الحب ولواعجـه :

أفـد الرحيل وحثنى صحبى	والنفس مشرفة عـلى النحب
لمـــا رايت الهـم مجتنحـــا	فـى القلب والعينان فى سكب
والحـى قـد اخـوت ركائبـه	والقـوم من طرب ومـن حسب
ناديت ان الحب اشعفنـى	قتـلا وما احدثت من ذنب

وقد أبدع فى ذكر الهجران وطول سـهر العاشـقين حيث قـــال :

لم يطـل ليلى ولكن لـم انـم	ونفى عنى الكـرى طيف الـم

ولبشار فـــى غزلـه قصص كقصص عمر بن أبى ربيعة ، وزورات ليلية لمشوقاته يسجلها فى شعره كهذه الزورة التى قال عنها لأوانس دعونه لقضاء ليلة فى سمر وحديث :

ودمى اوانس من بنات محـرق	حـور نواعم اوجهـا وجـلودا
ارسلن فى لطف الى ان ائتنـا	غاب الرقيب وما تخاف وعيدا
فاتيتهن مـع الجـرى يقودنـى	طربـا ويالك قائـدا ومقـودا
لمـا التقينا قلن هات فقد مضى	سنة نؤمـل ان نـراك تعيـدا
حدث فقد رقـد الوشاة وليتهم	حتى القيامـة يلبثـون رقـودا
قلت: اقترحن من الهوى، فسالننى	طرف الحديث فكاهة ونشيدا
حتـى اذا بعث الأذان فراقنـا	ورايت من وجه الصباح خدودا
جرت الدموع وقلن فيك جلادة	عنـا ونكره ان نـراك جليدا

مديـح بشـار :

وسبقت الاشارة عند الحديث عن شعره بين التقليد والتجديد الى أنه كان يعمد فى مديحه الى النمط التقليدى فى الشعر ، وقد اتصل بجماعة من الخلفاء والولاة والقواد ، فذكر من بينهم فى عصر الامويين مروان بن محمد ، وسليمان بن هشام ، ويزيد بن عمر بن هبيرة ، وفى عصر العباسيين أبا جعفر المنصور والمهدى ويزيد بن مزيد الشيبانى ، ومن ولاة البصرة سلم بن قتيبة ، ومن العلويين ابراهيم بن عبـد الله بن الحسن بن عـلى ، ومن وزراء الدولة خالد البرمكى .

ومن أشهر مدائحه فى العصر الأموى قصيدته فى يزيد ابن عمر بن هبيرة وقد أنشده اياها سنة ١٢٨ هـ وكان يقود فرقة من جند مروان بن محمد فى حرب الضحاك بن قيس الخارجى . وهى حماسية قوية يقول فيها :

جفا وده فازور أو مل صاحبه

التى مرت بنـــا .

وقصيدته فى مديح ابراهيم بن عبد الله بن حسن والتى يهجو فيها أبا جعفر المنصور وكان ابراهيم قد ثار بالبصرة واستولى عليها من أبى جعفر ، لكن أبا جعفر تمكن من القضاء على ثورته وقتلـه .

ويعث بشـار بهـذه القصيدة الى ابراهيم بن عبد الله قبـل القضاء عليه وظن أنه سيكتب له النصر على أبى جعفر . قال :

ابا جعفر ما طول عيش بدائم   ولا سـالم عمـا قليـل بسالم

ولم تصل هذه القصيدة ابراهيم بن عبد الله العلوى ، واغلب الظن أنها لم تبلغ أبا جعفر المنصور والا كان قد قضى على بشار ، وقد أسرع بشار فغير فيها وحورها وجعلها فى هجاء أبى مسلم الخراسانى بعد قتله فقال :

ابا مسلم ما طول عيش بدائم

وفى عقبة بن سلم أرجوزته المشهورة :

يا طلل الحى بذات الصمد

ويقول فيه بيته المشهور :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

وفيها يقول :

حرم الله أن ترى كابن سلم عقبة الخير مطعم الفقراء
انما لذة الجواد ابن سلم فى عطاء ومركب ولقاء
ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلذ طعم العطاء

وفى خالد بن برمك يقول أبياته المشهورة :

لعمرى لقد أجدى على ابن برمك وما كان من كان الغنى عنده يجدى
حلبت بشعرى راحتيه فدرتا سماحا كما در السحاب مع الرعد
اذا جئته للمجد أشرق وجهه الى وأعطانى الكرامة بالحمد
له نعم فى القوم لا يستثيبها جزاء وكيل التاجر المد بالمد
لمست بكفى كفه ابتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فاتلفت ما عندى

وفى عمر بن العلاء وكان من كبار رجال الدولة العباسية ومن المقربين للمهدى يقول قصيدته الميمية التى أشرنا الى مطلعها :

لم يطل ليلى ولكن لم انم

والتى يفخر فيها كذلك بقوله :

ونبئت قوما بهم جنة

يقول فى مديحها :

فقل للخليفة ان جئته	نصيحا ولا خير فى المتهم
اذا ايقظتك حروب العدى	فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا يبيت على دمنة	ولا يشرب الماء الا بدم
اذا ما غزا بشرت طيره	بفتح وبشرنا بالنعم
دعانى الى عمر جوده	وقول العشيرة بحر خضم
ولولا الذى خبروا لم اكن	لأمدح ريحانه قبل شم
فعى الفعال كعى المقال	وفى الصمت عى كعى الكلم

وجرى بشار فى مديحه على سنن السابقين من صفات الكرم ، ووصف الممدوح بالغيث والبحر ، وأنه يتهلل للسائلين ، وما الى ذلك مما يتردد فى هذا المعنى ، ويضم اليه صفات الشجاعة والاقدام ، وخاصة عندما يصف القادة ، والخلفاء ٠

ومع ترديده للمعانى السابقة فى هذا الموضوع لكنه يحاول مع ذلك التجديد ، فيبدع أو يأتى بالبديع ، فأما أن يسوق المعنى القديم فى صورة جديدة ، أو يأتى به جديدا لفظا ومعنى ٠ وقد مر بنا من اللونين أمثلة مما سقنا ٠

هجـــــاؤه :

وقد عرف بشار بالهجاء . قال : انى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديـح الرائع ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئـــام على المديح فليستعد للفقر ، والا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى .

ولعل من أشهر من هجاهم بشـــار وندد بهم العباس بن محمد عم المهدى ، وكان معروفا بالبخل . قال فيه قصيدته المشهورة وبها كثير من المعانى الجديدة فى الهجاء وأعنى قوله :

ظل اليسار على العباس ممـدود وقلبه ابـدا بالبخـل معقود

يقــول فيهــا :

ان الكريم ليخفى عنــك عسرته حتى تراه غنيـا وهو مجهـود
وللبخيل عـلى امواله عـلل زرق العيون عليها أوجه سـود

ويقـــــول :

اذا تكرهت ان تعطى القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورق بخير ترجى للنـوال فما ترجى الثمار اذا لم يورق العود
بث النـوال ولا تمنعك قلتـه فكل ما سد فقرا فهـو محمود

وهجا حماد عجرد ، وكان صديقه فأفحش فى هجائه ، وتبادلا الهجاء المقزع . كما هجا جماعة من أصدقائه كيـدا أو معاتبـة ، ولهذا عرف بخبث اللســان ، وبأنه كثير الوقوع فى الناس . ومن أطراف معانيه قوله فيمن يسمى ابن قزعة :

فلا تبخلا بخـل ابن قزعة انه مخافة ان يرجـى نـداه حزين
اذا جئته للعـرف اغلق بابـه فلـم تلقـه الا وانت كمـين

ويسخر من الصفات الجسدية لمهجويه · فقد سخر من طول عنق واصل اذ هجاه فقال :

مالى أشايع غزالا له عنق	كنقنق الدو ان ولى وان مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم	تكفرون رجالا كفروا رجلا

ويكاد أن يكون بشار شاعرا جامعا ، قال فى كل موضوعات الشعر ، مما يدل على قوة شاعريته ، ومن هنا كان مقدما على معاصرية ممن اقتصر على لون واحد مثل مروان بن أبى حفصة ·

وله فى الرثاء أبيات يرثى بها ابنه ·

وعجيب أن يأتى هذا الرجل بالرثاء الحزين ، وهو من عرفنا مع السخرية واللامبالاة ، والعبث · قال أبو الفرج : توفى ابن بشار فجزع عليه فقيل له : أجر قدمته ، وفرط افترطته ، وذخر أحرزته · فقال : ولد دفنته وثكل تعجلته ، وغيب وعدته ، فانتظرنه ، والله لانى أجزع للنقص ولا أفرح للزيادة :

اجارتنا لا تجزعى وانيبى	اتانى من الموت المطل نصيبى
كانى غريب بعد موت محمد	وما الموت فينا بعده بغريب
لعمرى لقد دافعت موت محمد	لو أن المنايا ترعوى لطبيب

ويقول :

فاصبحت ابدى للعيون تجلدا	ويالك من قلب عليه كئيب
يذكرنى نوح الحمام فراقه	وارنان أبكار النساء وثيب

وله فى الوصف ابداع كابداع المبصرين ، وذكر عن نفسه دهشة الناس لدقة وصفه فقال فـى معرض الحديث عن احـدى النسوة اللائى وصفهن • قال :

عجبت فطمة مـن نعتى لهـا ‏ ‏ ‏ ‏ هل يجيـد النعت مكفوف البصر

ويقـول مـرة أخرى :

ان تك عينى لا ترى وجهها ‏ ‏ ‏ ‏ فانها قـد صورت فى الضمير

وسبق أن أشرت الى أنه استوحى صفات القدماء فى رسم صورة للصفات الجميلة فى المرأة مع تجديد فى بعض المعانى مثل وصف الحديث بالزهر وقطع الرياض ، وكذلك المعنى الذى عاب به الشاعر القديم •

انما سـلمى عصـا خيزرانـة ‏ ‏ ‏ ‏ اذا غمزوهـا بالاكف تلـين

فعدل هذا القول الى قولـه :

وحـوراء المدامـع مـن معـد ‏ ‏ ‏ ‏ كـان حديثهـا ثمـر الجنـان
اذا قـامت لمشيتهـا تثنت ‏ ‏ ‏ ‏ كان عظامهـا من خـيزران

ونعرض مجموعة لهذه الصفات الأنثوية ،منها الجديد، ومنها القديم ، ومنها القديم المجدد • يقـول :

وجـوار اذا تحلين لم تـد ‏ ‏ ‏ ‏ رجـوار فى حليهـا أم ظباء
يتعرضن لى بفاتـرة الطـر ‏ ‏ ‏ ‏ ف اذا أقبلت ثناهـا الحياء
وحـديث كانـه قطـع الرو ‏ ‏ ‏ ‏ ض ففيه الصفراء والحمراء

ويقـــول :

الا يـــا طيب قـــد طبت ومـــا طيبـك الطيـب
ولـكن نفـس منـــك اذا ضمـــك تقريـــب
وثغـــر بـــارد عـــذب جـرى فيــه الاعـاجيب
ووجـــه يشـــبه البـــد ر عليه التـــاج معصـوب
وعـين تسـحر العـــين ومـا فـى سـحرها حـوب
ووصف زان متنيــــــــك رزانتـــه التقاصيـب
وجيـــد يشـــبه الـــدر ر كجيـد الريـــم سـاهوب
ونحـــر بـين حقـــين يشـف العـــين محبـوب
عليـــه الجوهـــر الاحمـــــر والياقـــوت منصـوب

ويردد ألوانابذاتها هى البياض والصفرة فى لون البشرة ، والاحمر فى اللباس . ويتيم باللون الأ حمـــر فيقول :

فخـــذى ملابس زينـــة ومصبغات فهـى الفخـــر
واذا دخلـــــت تصنعـى بالحمـر ان الحسن احمر

ولا غرو أن تلذذه بالحديث مع ذلك ، وبالشم كان أكمل . ولهذا يفيض فى ابـداع صفات الحديث الـذى شـبهه بالزهر وروض الجنان ، والثمر ، والخمر ، ووشى المطارف .

وله فى صفة الحرب ذلك التشبيه الجارى على كل لسان :

كان مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تاوى كواكبه

ويضع العلماء بالشعر ونقاده بشـــارا على رأس المحدثـين والمجددين وأصحاب البديع وفى مقدمتهم كما رأينا أبو عمرو بن

العلاء والأصمعى . وأشاد بفضله ابن المعتز . قال مستحسنا شعره معجبا برائيته العجيبة البديعة المعانى الرفيعة المبانى(١) :

رايت صحابتى بغنا صرات	حمولا بعد ما متع النهار
فكاد القلب من طرب اليهم	ومن طول الصبابة يستطار
وفى الحى الذين رايت خود	خلوب الدل آنسة نوار
برود العارضين كان فاها	بعيد النوم عاتقة عقار
كان فؤاده كرة تنزى	حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شىء	مخافة أن يكون به السرار
وود الليل زيد اليه ليل	ولم يخلق له أبدا نهار
جفت عينى من التغميض حتى	كان جفونها عنها قصار

ففى القصيدة كثير من البديع المعنوى فى تشبيه القلب بكرة الصولجان يتقاذفها اللاعبون ، وهذا المعنى المجدد فى قوله :
« يروعه السرار » وقوله : « وود الليل زيد اليه ليل »
ومعناء الجديد البديع : « كأن جفونها عنها قصار » ويذكر من بديع غزله :

يا منية القلب أنى لا اسميك	اكنى باخرى أسميها واعنيك
يا اطيب الناس ريقاغير مختبر	الا شهادة أطراف المساويك
فقدزرتنا زورةفى الدهرواحدة	فاثنى ولاتجعلها بيضةالديك
يا رحمة الله حل فى منازلنا	حسبى برائحةالفردوس من فيك

(١) طبقات المحدثين .

وفى البيت الأخير توريه باسم محبوبته « رحمة الله » ولكنه ورى واستخدم التورية فى المعنى اللاحق عندما شبه رائحة فمها برائحة الفردوس ٠

ومن تجديده كثرة الأوزان السهلة من مجزوءات البحور ، وفيها يبدو الايقاع الراقص المطرب ، من مثل قوله :

من المشهور فى الحب	الى قاسية القلب
سلام الله ذى العرش	على وجهك يا حبى
فاما بعد يا قرة	عينى ومنى قلبى
لقد انكرت يا عبد	جفاء منك فى الكتب
أعن ذنب ولا والله	ـه ما أحدثت من ذنب
ولا والله ما فى الشرق من أنـ	ـثى ولا الغرب
سواك اليوم أهواها	على جد بلا لعب

وتذكرنا هذه الصيغة من صيغ الرسائل الشعرية ، بسابقتها عند أبى ربيعة ، واستخدمها كذلك أبو نواس وأخذ عن أستاذه بشار بن برد هذا الفن ، بل نظم على هذا الوزن رسالة مشهورة لصاحبته جنان ٠

وكان مطبوعا فى معانيه وألفاظه ، لا يتكلف القول ، ولا تشعر فى شعره بجهد المثقفين ، وانما يجرى كلامه سلسا سهلا ، كما يقول ابن المعتز : « ولا يتوقف أمام بعض الالزامات اللفظية ، بل تبحث فى طريقته ما يروق له من الالفاظ وقد يضع منها ما يراه ، فاذا سئل تعلل بعلة ما » ٠

ومن أمثلة تحرره من الالتزامات اللغوية قوله :

زرى روحــا فلن تجــدى كروحى

وأصلها فعل الأمــر من زار يزور والامر للمخاطبة زورى باثبات الواو ٠

واستخدم ثيب فى جمع ثيب والصحيح الوارد ثيب ٠

وكأنه جوز أن يقال : امرأة ثيبــاء فقال :

فلا بد أن تغشاك حين غشيتها هواجــد أبكــار عليك وثيب

وبعد ، فان بشارا ترك فى تاريخ الشعر العربى أثرا ظــل يتردد ، وصدى يتجاوب ، وفتح للشعراء طريقا سلكوها ، وأبدعوا فيها هى طريق البديع ٠ وكان اهتمام القدماء به عظيما ، وعلى رأسهم ابن المعتز ، وابن رشيق القــيروانى ، وابن دريد ســال أبا حاتم عن بشار بن بــرد فقال : نظــار غواص ، مطيل مجيد ، يصف ما لم ير كأنه قد رآه ٠

واهتم به الباحثون ، ونذكر على سبيل المثال منهم الدكتور طه حســين فى حديث الأربعاء والعقاد فى مراجعات فى الآداب والفنون ، والمازنى ، فى مجموعة أعلام الاسلام ، والنويهى فى شخصية بشار ، والحاجرى فى مجموعة نوابغ الفكر العربى ٠

مصادر بشار بن بـرد :

١ ـ الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ، طبع دار الكتب ـ الجزء الثالث

٢ ـ المختار من شعر بشار وشرحه ، طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة٠

٣ ـ ديوان شعره تحقيق محمد الطاهر بن عاشور بجامع الزيتونة ، ثلاثة اجزاء ١٩٥٠ ـ ١٩٥٧ ٠

٤ ـ بشار بن برد ـ أحمد حسين القرنى ـ طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ ٠

٥ ـ بشار بن برد بين الجد والمجـون لحسـين منصور ـ طبع التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣٠ ٠

٦ ـ بشار بن برد ، مجموعة أعلام الاسـلام للمـازنى ٠

٧ ـ بشار بن برد ، مجموعة نوابغ الفكر العربى للدكتور طه الحاجرى ٠

٨ ـ مراجعات فى الآداب والفنون للاستاذ عباس محمود العقاد ٠

٩ ـ شخصية بشار بن برد للدكتور النويهى ـ طبع القاهرة ٠

١٠ـ تاريخ آداب اللغـة العربية للدكتور شوقى ضيف ، الجزء الثالث ، العصر العباسى ٠

١١ـ حديث الاربعاء الجزء الثانى للدكتور طه حسين ، طبع دار المعارف بمصر ٠

أبــو نــواس المجـدد المفتــن

(توفى سنة ١٩٩ هـ)

وصف أبو عبد الله الجماز أبا نواس فقال :

« كان أظرف الناس منطقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ،وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حيــاء ، وكان أبيض اللون جميل الوجه ، مليح النغمة والاشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف » ٠

وكان فصيح اللســان جيد البيــان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للاشعار ، علامة بالأخبار ، كأن كلامه شعر موزون (١) ٠

ولد أبو نواس من أب عربــى وأم فارســية ٠ كان أبوه من جند مروان بن محمد الذين بعث بهم الى الأهواز ـ بــين البصرة وفارس ـ وكان من دمشق ٠ وأقام فى معسكر ظاهــر المدينة ٠ وهناك التقى بجلبان الأهوازية الفارسية أم أبى نواس فتزوجها ولم يقم معها طويلا لانشغاله بحرب الخرسانية مع جند مروان ٠ وبعد هزيمة جيش مروان أمــام الخراسانية سرح الجنــد ، فكان « هــانى » بين من سرحوا ، وأقام مع زوجه جلبان واشتغل برعى

---

(١) زهو الآداب للصرى القيرواني ، بتحقيق الدكتور زكي مبارك ١ / ١٦٣ ٠

الاغنــام واشتغلت هى بالحياكــة ، تصنع الاخــراج ، وتنســج الجوارب • ولد لها عــدة أبنــاء • بينهــم الحسن (أبو نواس) وولدان آخران وفتاة •

ولد الشاعر سنة ١٤١ هـ على أرجح الأقوال ، فى خلافة أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس • ووفد مع أبيه وأمه الى البصرة عام ١٤٣ هـ ، وسكنت الأسرة بيتا من القصب ، وظلت أمه تزاول عملها فــى الرعــى والحياكــة ، واضطرت أحيانا الى الارضاع لتكسب قوتها وعيالها ولتعين زوجها على العيش •

ولم يلبث أن مات هانىء ، وظلت جلبان تجاهد وتعمل حتى انفرجت شــدتها بعض الشىء فسكنت بالبصرة دارا من الآجــر والجص • وصار منزلهــا مرتــادا للناس رجــالا ونساء للشراء ورميت بالريبة لأنها كانت تجمع بين الرجــال والنساء • وكان هذا الامر مما هجى به الشاعر •

ووردت الأخبار بعض لمحات أو ســمات لجلبان ، منهــا أنها ربما كانت بخيلة كغيرها من أهل الأهواز الذين يرمون بالبخل • لكنها على أية حال كانت مدبرة استطاعت أن تقوم بعبء أطفالها حتى دفعت بهم الى الكتاب والدرس ، وتسنم منهم الحسن الذروة بين شعراء عصره •

تعلم الحسن بأحد كتاتيب البصرة ــ وكانت أمه تبعث للمعلم أجره خبزا ، حتى تقدم الطفل فى تعليمه وحفظ القرآن ومعرفة بعض الحساب • وكانت ترسل اليه بالدرهم والدرهمين • ويبدو أن

هذا الكتاب كان يدعى بكتاب «حفص» باسم معلمه· وقد وصفلنا في ذكرى استعادها لهذا الكتاب صورة طفل ناعم من أنداده ضربه حفص عقابا ·

قال حفص اجلدوه انه عندى بليد
ثم هالوه بسير لين صافيه عود
ولم يزل مذ كان في الد رس عن الدرس يجيد
عندها صاح حبيبى يا معلم لن اعود
كشفت عنه خزوز وعن الخز برود

وتدرج الحسن في تعليمه من الكتاب الى مجالس العلم بالمساجد يتلقى عن العلماء والشيوخ من قراء ورواة ومحدثين ولغويين ·

قرأ على الشيخ القارىء يعقوب الحضرمى ، وكان قد ذاع صيته فى تعليم القراءات وفى العلم بمذاهب النحاة فى القرآن · وكان يعقوب زاهدا ورعا · علم أبا نواس حسبة ولم يتقاض على تعلميه أجرا ، ويبدو أنه أعجب بذكائه فألقى بخاتمه اليه وقال : اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة ·

وظل يتردد على الشيوخ بالمسجد الجامع فانضم الى حلقة أبى زيد الأنصارى اللغوى النحوى صاحب كتاب « النوادر » يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات من كلام العرب ، وما ينشده من القصائد أو الرجز ·

وجلس الى أبى عبيدة معمــر بن المثنى اللغــوى الراويــة الاخبارى ، فعرف عنه الكثير من أخبار العرب وأيامهم ، وقبائلهم وأنسابهم • وظل يذكره بالخير دائما ويقول عنه انه : « أديم » طوى على علم •

وجلس الى خلف الأحمر راوية البصرة ، وناقدهــا ، وأعلم أهلها بالشعر القديم • فكان أستاذه فى الشعر ومعلمه • ومسدد خطاه ، وهو الذى لقبه بأبى نواس فى رواية اذ قال له : أنت من اليمــن ــ أى قبيلــة (بنــى الحكــم) فتــكن باســم من أســماء الذوين ، أى باسم أحد ملوك اليمن القدماء الذين تبدأ « بذو » فتسمى بذى نواس •

ورحل الى البادية يأخذ الفصاحة عن ألسنة أصحابها • وأقام سنة ثم عاد الى بلده • وكان يقال لــه : أرغبت عن والبة ومللت الكوفة ؟ • فيجيب : هى « أجدى » وأطيب من أن تمل ، ووالبة لا يرغب عنه • ولكنى نزعت الى الاوطان واشتقت الى الاخوان •

واستأنف بالبصرة حياة الدرس والتحصيل بعد تلك الزورة للبادية والسرحة فى الكوفة واصطحاب بعض شعرائها • وارتاد فى البصرة المربد ، واعتاد حلقات الشعراء به، وجمع من الشعر والعلم ما جعل الناس يرددون القول بأن « أقل ما فى الحسن من بضاعة قول الشعر فقد كان فحلا راوية علامة » •

وفى غير علوم العربية ، وعلوم الأدب واللغة خاصة ، اتصل ببعض الثقافات الأجنبية فوقف على التنجيم باتصاله بآل نوبخت

الذين اشتهروا فيه ، وفى قصيدة له يمدح يحيى بن خالد البرمكى أمثلة لمعرفته بأسماء النجوم ومساراتها ·

وألم بطرف من علوم الطبيعة ، والحياة ، والفلسفة والطب ، وفى شعره آثار من العلوم عن طبائع الانسان الأربع من البرودة والرطوبة واليبوسة · والقول بأقوال المتكلمين من المعتزلة ومعارضيهم من الجبرية · ولا يروق له جدلهم العقيم حول قضية « الجبر والاختيار » ·

يا ناظرا فى الدين ما الامر لا قدر ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى يذكر الا الموت والقبر

ومما جاء فى شعره من آثار علوم الكلام ويقول فى الجزء الذى لا يتجزأ :

تركت منى قليلا ومن القليل اقلا
يكاد لا يتجزا اقل فى اللفظ من لا

وزعموا أن ابراهيم النظام المعتزلى أستاذ الجاحظ لما سمع ذلك من قوله قال : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى · والجزء الذى لا يتجزأ منذ دهرنا الأول نخوض فيه ، ما خرج لنا فيه من القول ما جمعته أنت فى بيت واحد » ·

وربما اتخذ أبو نواس بعض معارفه وسيلة للتظرف كما فعل فى الحديث عن الحب يداعب المحدث الشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ الحديث بالبصرة · اذ طلب الى الناس فى حلقته أن يسأل كل رجل ثلاثة أحاديث مهمة ،ففعل الناس حتى انتهى الى أبى نواس

فقال له : سـل يا فتى ، فقعد بين يديه وأنشا يقول :

ولقـد كنـا روينـا	عن سـعيد عن قتـادة
عـن زرارة ابن أوفـى	أن سـعد بن عبـادة
قال : من مـات محبـا	فلـه اجـر الشـهادة
اتـرى ذاك صـوابا	نتبـع منـه سـدادة

فالتفت اليه الشيخ مغضبا وقال : أغرب عنى يا خبيث ، والله لا أحدثك بعد ذلك ولا أعرف وجهك » ٠

أسـاتيذه فى الشـعر

شعره التقليدى وأستاذه خلف الأحمر :

قلنا أنه اتصل بخلف الأحمر فعلمه الشعر القديم ، وشجعه على حفظ كثير منه ٠ ويرى أن خلفا قال له : « لا أذن لك فى عمل الشعر الا أن تحفظ ألف مأثور للعرب ما بـين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » ٠ ففعل ما طلب اليه خلف وعاد اليه فقال له : انس هذه الألف الأرجوزة كأنك لم تحفظها ، ثم انظم الشعر بعد ذلك ٠

وروى عن أبى نواس أنه قال : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب ، منهن الخنساء وليلى (الاخيلية) ، فما ظنك بالرجال ؟ ٠

وراض الشعر على هذا النسق القديم ، فقال يرثى أستاذه :

لو كان حي وائـلا من التلف	لو ألت شغواء فى أعـلا شغف

وفى رثاء أبى البيداء الرياحى الأعرابى الشاعر الراوية يقــول :

هل مخطىء حتفه عفر بشاهقة رعى باخيافهـا شـثا وطباقا

وفيها يقــول :

زار الحمام أبا البيداء مخترما ولم يغادر له فى الناس مطراقا

وتعلم الشعر من المولدين والمحدثين على يدى أستاذه وصاحبه والبة بن الحباب ، وشيخه محمد بن مناذر فى بعض الروايات •

وأثرت صحبته لوالبة في حياته وسلوكه وشعره • وقد لقيه والبة صبيايقول الشعر فعرف فيه فطنة وذكــاء وتعلقا بالشعر ورغبة فى عمله والتجويد فيه ، فقال له : انى أرى فيك مخايل فلاح ، وأرى لك ألا تضيعها ، وستقول الشعر وتعلو فيه فأصحبنى حتى أخرجك •

وصحب أبو نواس والبة الى الكوفة ، وجلس الى عصبة المجان من رفاق الشاعر الماجن أمثال يحيى بن زياد ، ومطيع بن اياس ، وحماد عجرد • وقد عرفوا بالعبث ، والغزل بالغلمان ، وشرب الخمر والقول فيها •

وكان والبــة يتعمد اغراء السقاة بالحسن بن هانىء الفتى فيسقونه حتى التلف ، وكان يغريــه بالمجــون والاستهتار حتى أفســده •

وكانت مجالس هؤلاء الخلعاء الماجنين لا تخلو من انشاد للشعر ، وصنعة له على البديهة ، وهو شعر سهل يجرى بلغة الحديث ينظمونها فى أوزان خفيفة ، يتناولون بها موضوع العبث الذى يشغلون به أو يتحاورون فيه ، وكان هذا الانشاد ، وذاك الحوار الشعرى الذى يجرى على البديهة مما شجع الحسن على أن ينشد بديهة ، ينظم كما ينظمون فى تلك الاوزان السهلة والألفاظ الجارية والمعاني الحاضرة ٠

وكانت هذه المجالس مما شجعه على الولع بالخمر ، وعمل الشعر فيها وفى مجالسها ، ثم خرج الى ضواحى الكوفة حيث تنتشر الأديرة المسيحية فى الحيرة ، وصحب جماعة المجان الى تلك الأديرة للهو وشرب الخمر ، وكان رهبانها يعتقونها، ويقدمونها، ويطرب الوافدون ، نزلاء الأديرة ويرحب بهم أهلها ويهيئون لهم أسباب اللهو وخاصة فى أعياد النصارى « كالشعانين » وفى أعياد الفرس القدماء ، كالنيروز ٠

وتظهر فى شعر أبى نواس الخمرى ملامح الديارات ، ورهبانها ، وقسيسيها ، ويبدع قصائد من أجمل قصائده فنا وحسنا ٠ كتلك التى قالها فى دير حنة ، وذاعت بين الادباء وبلغت شهرتها الآفاق ، وتعلق بها الناس فى أقطار العالم العربى شرقا وغربا ٠ وهى :

يا دير حنة من ذات الاكيراح   من يصح عنك فانى لست بالصاحى

على أن أبا نواس لم يتوقف طموحه عند حدود بلده البصرة والكوفة، وأوساطها الادبية، بل رمى ببصره ، وتطلع الى أفق أوسع ، الى مركز الخلافة بغداد ٠ يقول :

سا بغي الغنى اما جليس خليفة يقوم سـواءا او مخيف سبيل

وجاء بغدادا ، فأم قصور البرامكة ، ومدحهم ، وحدث مـا حدث بينه وبين الشاعر الرقاشى من منافسة ومهاجاة ، والرقاشي من شعراء البرامكة المخلصين ، وأما أبو نواس فانه لم تدم صلته بالبرامكة ، وقيل أنه لم يلق عندهم القبول ، أو لم يلق النجاح الذى ينتظره ، وفسر المؤرخون سوء حظـه مع البرامكة بأخبار كثيرة ، منها أن جعفر بن يحيى تشاءم من مطلع احدى قصائده ٠

ومدح أبو نواس الرشيد ، وصلته بهذا الخليفة العظيم غير واضحة المعالم ، وتربط الأخبار بينهما برباط وثيق ، وخاصة فى قصص الشعب ، والعامة ، تجعله هذه القصص نديما له ومضحكا لكن المحقق أنه مدح الرشيد بجملة من قصائده ، وأنه لقى عنده بعض النجاح ، لكنه ربما سجن فى عصره كذلك ، وقاسى السجن ومرارته ٠ ونظم القصائد لاستعطافه كي يطلقه ٠

واتصل بالامين من بعد الرشيد ، ولكن صلته بالخليفة هذه هذه المرة كانت مختلفة تماما ، فقد كان نديمه ، وصاحبه الذى لا يصبر عنه ، وربما جرت صحبة الشاعر على الخليفة كثيرا من المتاعب وربما وجد من طبع الأمين فى خلواته استجابة لاستهتاره ، فتمادى الشاعرفى خلاعته، وجهر بهاوأعلن اسم الخليفةمعه ٠ كقوله:

ونلمان يـرى غبنـا عليـه ... بان يمسى وليس لـه انتشـاء
اذا ناديتـه مـن نـوم سـكر ... كفـاه مـرة منـك النـداء
فليس بقائل لك ايـه دعـنى ... ولا مستخبر لـك ما تشـاء
ولكن « يا اسقنى » ويقول ايضا ... عليـك الصـرف ان أعيـاك داء
وذاك محمـد تفديـه نفـسى ... وحق لـه وقـل لـه الفـداء

وقيل ان الأمين أجـازه على هـذه القصيدة بكل بيت ألف درهـم .

ولم تصف الحياة لهما ، فأثار أعداء الخليفة الناس عليه ، وشهروا به ، وجعلوا من الشاعر مـادة للتشهير . وكان لابد أن ينتهى الأمر بالشاعر المجاهر الى السجن ، وقد وجدوا الدليل فى شعره على ادانته ، من قوله :

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهـر

ومثـل قولـه :

يا احمد المرتجى فى كل نائبـة ... قـم سـيدى نعص جبار السماوات

وبعد أن قضى زمنا فى السجن عفا عنه الامين ، وقـد أخـذ عليه وزيره الفضل ابن الربيع عهـدا بتـرك القول فـى الخمر والمجون . يخاطب ابن الربيع بأبيات يظهر فيها نسكه وتوبته ، ولا تخفى نغمة السخرية . يقول :

انت يـا ابن الربيـع ألزمتنى النسك ... وعودتنيه والخير عادة
فارعوى باطـلى واقصر حبلى ... وتبدلت عفـة وزهـــادة
لو ترانى ذكرت للحسن البصرى ... فى حسن سمته وقتـــاده
المسابيـح فـى ذراعـى والمصحـــف فـى لبتى مكان القـــلادة

وتدوم الصلة بين الأمين والحسن بن هانىء حتى تقوم الفتنة بين الأخوين على الخلافة ، وتحاصر جيوش المأمون بغداد ، ويهب أهل بغداد للدفاع عن بلدهم ، ويتراشق الفريقان بالنبال وتصب المجانيق وابلها على المنازل والأسوار ، ويدافع شطار بغداد ويستبسلون . ويشارك الناس كلهم فى الحرب ، لكن الشاعر لا يبالى ، وينصرف الى كأسه :

اذا عبا أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت وأم الشيخ اعلانا
وشبت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
جعلنا القوس أيدينا ونبل القوس سوسانا
وقلمنا مكان الرمح والمطرد ريحانا
فعادت حربنا سلما وعدنا نحن خلانا
بفتيان يرون القتل فى اللذة قربانا
اذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا

وتنتهى الحرب بمقتل الأمين ، فيرثيه الشاعر فى حرقة وألم، وصدق عاطفة ، ولا تطول بعده حياته فيقضى ما بقى من عمره عليلا يشكو العلة والهرم . فقد قارب الستين ، ويقضى فى النهاية نحبه سنة ١٩٩ هـ .

اتصل الشاعر فى مرحلته البغدادية ببعض الامراء والولاة، سافر الى مصر فلقى أميرها الخصيب ومدحه بجملة من القصائد الجيدة ، منها رائيته المعروفة :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

وقيل أنه أقام فى مصر عاما من سنة ١٩٠ الى ١٩١ هـ .

شـعره ، دراسـة موضوعية وفنيـة :

يحمل شعره سمات شخصيته ، وملامح عصره ، ومجتمعه ، وربما كان شعر أبى نواس من أصدق شعر العباسيين تعبـيرا عن صاحبه وحياته ومجتمعه · وأول ملامح شخصيته الظرف ، وعدم المبالاة وحب الظهور ، أو الاعتداد بنفسه ، وكراهيته للمـرأة وحبـه للغلمـان ·

وربما كانت هـذه الاشياء جميعا متصلة معـا بوشائج فى نفسه ، وكان لحياته ، وظروفها كذلك أثر فى نموها أو تكوينها ·

ولـد جميـل الصورة ، مطبوعا على الظرف وحلاوة الروح، وربما ظلت هذه الخصلة ، أى الظرف وخفة الدم ـ السمة الغالبة عليه ، حتى صار رمـزا للنادرة والفكاهة فـى الأدب الفصيح ، والأدب الشعبى جميعا ، وربما كان جمال صورته ورقته ، سببا من أسباب حب الظهور ، والميل الى العبث والمجون ، خاصة وأن والبة بن الحباب ، قد غرس فيه ذلك منذ صغره ، ونماه وتعهده ، وقد زكاه فى نفسه نسب رماه الناس فيه ، وعقـدة الموالى التى استقرت فى قلبه تحرقه ، وتشعره كأنـداده من أبنـاء الموالى ، بالضعة وصغر الشأن ، فكان لابد لـه من مجال للتنفيس ، فكان التمرد ، والخروج ، والعناد ، والمجاهرة بالعصيان ·

وربما كانت عقدة والدته ، وما لقيه من « جنـان » صاحبته أو فتاته الأولى التى علقها بالبصرة من أسباب اتجاهه الى الغـزل بالمذكر ، وكراهته المرأة فى أعماقه ، أو خشيته منها ، ذلك الى

ما وجد فى طفولته من ميل عصبة المجان لهذا اللون من الشعر ٠ واعتيادهم عليه باعتباره جديدا خارجا وهم الولعون بكل جديد وخـارج ٠

ويحدثنا الأستاذ العقاد عن عقدة النرجسية أو عبادة الذات عنده ، وأن من أسبابها اعتداده بجماله (١) ٠ يقول : فالنرجسية التى تنبع أعراقها فى الحسن بن هانىء ليست حالة طبيعية تلاحظ على أنداده ، وفى مثل عمره ، ولكنها حالة منحرفة ٠ ولد ببعض أعراضها ، وجاءت الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذى نشأ فيـه ، وعاش سائر حياته وهى حالـة لا يشابهه فيها أحد من شعراء عصره » ٠

وأول دلالات النرجسية فى نفس أبى نواس عند العقاد هى تكوينه الجسدى ، وجمال صورته ، وقد ساق جملة من الأخبار تشير الى ذلك ٠ وقد ردد هو نفسه اعجابه بجماله قال وقد جاوز الشباب:

تتيـه علينا ان رزقت ملاحـة   فمهـلا علينا بعض تيهك يا بدر
فقد طالمـا كنـا ملاحـا وربما   صـدنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

ومن دلالات نرجسيته عقدة الأنثى ، وهى عقدة علقت به مع أمه طفلا وصبيا ، حين كانت تكثر من تدليله وتترك شعره مرسلا، فيبدو فى مظهر الفتاة لا الفتى ، وقد مات عنه أبوه صغيرا ، فعاش

---

(١) ابو نواس للعقـاد ، كتاب الهـلال ص ٨٨ ٠

فى كنف أمه حتى يفع ، وقد سمع عن أمه الكثير من الغمز فى وسط البصرة ، ومن شعراء هاجموه ، واتهموها بريبة ٠ وقد حاول أن ينتسب الى قبيلة والده اليمنية أو بنى الحكم ، ولهذا عرف بالحكمى ، لكنه ربما ضاق بهذه النسبة ، أو هاجمه بها مهاجموه ، فنسب نفسه الى مضر ، وهى غير اليمنية ٠ وربما ضاق بهذا كله ، وبالعرب والأنساب ، وجرى مع الشعوبية ، يفخر بآبائه وأجداده الفرس ، ويقول :

راح الشقى على الربوع يهيم — والراح فى راحى ، ورحت اهيم
بمزمزين غدوا بسلفة ليلة — والليل ملتبس الظلام بهيم
متقرقرين كلامهم ما بينهم — ومزمزمين خفاؤهم مفهوم
نادمتهم ارتاض فى آدابهم — فالفرس علوى سكرهم محسوم
ولفارس الاحرار أنفس أنفس — وفخارهم فى عشرة معدوم

* * *

ويقول عن العرب :

واذا أنادم عصبة عربية — بدرت الى ذكر الفخار تميم
وعدت الى قيس وعدت قوسها — سبت تميم وجمعهم مهزوم

وكان هذا التمرد والخروج على التقاليد ، والاعتداد ، والمجاهرة ، مظهرا لهذه الشخصية الشاعرة ٠ ربما شابه بشارا فى بعض ملامحه ، وربما شابه غيره من شعراء الموالى أو عصبة المجان، أو الزنادقة ، لكنه ظل نموذجا فريدا ،وطابعا مميزا بجملة سماته الخاصة بين الشعراء جميعا ، وهى سمات فيها الجميل المحبب الى النفوس ، وفيها القبيح الذى تنفر منه ، لكنه حتى فى هذا

القبيح ، غير غليظ الطبع ، ولا ثقيل الظل كسابقه بشار • لكنه يظل فيه محتفظا بخفة ظله ورقته •

وشعوبية أبـى نواس ، وزندقتـه ، مع صلتهـا بشخصيته وحياته ، وظروفه الخاصة فى حياته لا يمكن فصلها عن ظروف حياته ومجتمعه • وقدشاعت هذه الروح كما قلنا فـى عصره • وتجاوب الشاعر معها ، وتلاقى وبشارا وآخرين فى الحملة على نهج القدماء فى القصيدة ، والدعوة الى هجر مقدمتها الطللية ، وبكاء الديـار • يقـول :

قل لمن يبكى عـلى رسم درس   واقفـا مـا ضر لو كان جلس

ولعله بذلك يلمح الى قول الشاعر القديم امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ويسخر من قول السابق :

عوجـا عـلى الطلل المحيل لعلنا   نبكى الديار كما بكى ابن حذام

فيقـــول (١) :

عـاج الشقى على رسـم يسائله   وعجب أسـال عن خمـارة البلد
يبكى الشقى على طلل الماضين من أسد   لادر درك قل لى من بنو أسـد
ومن تميـم ومن قيس ولفهما   ليس الاعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر   ولا صفا قلب من يصفو الى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها   وبين باك عـلى نؤى ومنتضـد

---

(١) ديوانـــه ص ٢٦٦ •

ويقــول فــى أخــرى :

دع الأطــلال تسـفيها الجنوب	وتبكـى عهد جدتهــا الخطوب
تحـل لراكب الوخبـاء ارضـا	تخب بهـا النجيبـة والنجيب
ولا تأخذ عن الاعـراب لهــوا	ولا عيشـا فعيشهم جديب
ذر الالبـــان يشربهـا انـاس	رقيـق العيش عندهمـو خديب
بارض نبتها عشر وطلـح	وأكثـر صيدهـا ضبـع وذيب
اذا راب الحـليب فبـل عليـه	ولا تحرج فمـا فى ذاك حـوب
فاطيب منـــه صافيـة شـمول	يطـوف بكاسـها سـاق أريب

حتــى يقـــول :

فاين البـدو من ايـوان كسرى   وأين من الميـادين الدروب

وهذه الدعوة الجديدة الى نبــذ الحياة العربية القديمة حياة الصحراء ، وما بها فى الشعر والتعبير عن الحياة الحضرية ، وهى حياة عراقية فارسية ، تمت بمدنيتها الى حضارة الفرس القدماء ونظمهم فى العيش • وهذه الدعوة وان تلونت باللون الفارسى ، وبدت شعوبية المظهر لكنها دعوة الى التجديد ، والملاءمة بين الشعر والحياة ، وترك القيم والتقاليد الموروثة والتى تمسك بها شعراء العرب وعلماء العربية ردحا من الزمن •

هذه الصرخة الى فك قيود الشعر ، والخـروج عن اطـاره القديم الى اطار جديد كانت دعوة صادقة من الشاعر ، تتلاءم مع مزاجه ، وان مقدمته الجديدة التى دعا الى بدء القصائد بها هى القول فى الخمر أو النسيب الخمرى اذا صح هذا القول •

واذا كان بدء القصيدة بالنسيب عند القدماء مدعاة لأنس السامع وتوددا الى قلبه ، لأن حديث النسيب والغزل محبب الى كل القلوب ، فان حديث الخمر فى دعوة أبى نواس محبب الى من هم فى مثل مزاجه ، ممن يعشقون الخمر ، ويطيفون بد ساكرها ·

ويردد هذه الدعوة فـى مطلع كثـير من خمرياته · فيطيل أحيانا ويقصر أخرى حتى لا يذكرها الا فى سطر بيت كقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

ومـزاج أبى نواس وهو مزاج أبيقورى ، عاشـق للحيـاة وملاذها ، يدفع به الى نشدان ملاذه كلها فى ظل الخمر ومجالسها، لذة النساء ، ولذة الغلمان ، لذة الطعام ، ولـذة الشراب ، لذة النظر ، والشم ، وسعادة الحديث والسحر كلها تجتمع الى الخمر ، وتصب فيها ، فكأسها ذوب اللذات ، من يد ساق جميل الصورة يضع فيهـا أو على أذنه عود الريحـان ، وتحيط بـه الرياض ، والبساتين ، أو الكـروم ·

وهو فى مزاجه هذا لا يحول ، يدعوه أبو العتاهية الى ترك اللهـو ، والامتناع عن سماع الغنـاء فيقول له :

اتـرانى ياعتـاهى   تاركـا تـلك الملاهى
اترانى مفسـدا بالنسك   عنـد القـوم جـاهى

وقد كان هذا المزاج داعيا له الى المجاهرة والتبذل ، فهو واع مدرك لطريقه وغايته غير جاهل ، ولا غافل ، لذا تـراه يجاهر

بميوله النرجسية ، وحب الظهور أو الميل الى العرض • يعتب على صاحبته التى تلومه على التمادى فى الشراب والاغراق فى اللهو ، فيقول :

وملحــة باللوم تحسب أننى	بالجهــل أو ثر صحبة الشطار
بكرت عــلى تلومنــى فاجبتهــا	انى لأعرف مذهب الابــرار
فدعى الملام فقد اطعت غوايتى	وصرفت معرفتــى الى الانكار
ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى	وتعجــلى من طيب هــذه الدار
احــرى واحزم من تنظر آجــل	علمى به رجــم من الاخبــار
ما جــاءنا احــد يخبــر أنــه	فى جنــة من مــات أو فى نــار

ويردد هذا المعنى مــرة أخرى فى قوله :

ألم ترنــى أتحت اللهــو نفسى	ودينــى واعتكفت عــلى المعاصى
كأنــــى لا أعــود الى معــــاد	ولا أخشى هنالك من قصــاص

نفسية متمردة ، ألهاهــا اندفاعها نحو اللذة ، وأغفلها ، فجأرت بالقول بالخلاف حتى يلتفت اليه الناس ، فيؤاخذونه ويلومونه ، أو يتهمونه ، ويرجمونه ، وهو لا يعبأ بهذا كله ، بل يكفيه منه أنه معروف عند الناس ، تجرى سيرته على كل لسان ، ويدور شعره الغريب فى مجالسهم ، خفاء أو جهرا ، ويسعده أن يسير هــذا الشعر ويشيع ، والناس وراء كل غريب ، وخاصة العامة • وقد لاحظ النقاد القدماء ميله لهذا اللون الخارج أو الصارخ ، الذى يسعى فيه أحيانا لرواجــه عند العامة وأوساط النــاس •

يقول ابن شرف (١):

« أما أبو نواس فأول الناس فى خرم القياس، وذلك أنه ترك السيرة الاولى ، ونكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجد هزلا ، والصعب سهلا ، فهلهل المسرد ، وبلبل المنضد ، وخلخل المنجد وترك الدعائم ، وبنى على الطامى والعائم ، وصادف الأفهام قد نكلت ، وأسباب العربية قد تخلخلت وانحلت ، والفصاحات الصحيحة قد سئمت وملت ، فمال الناس الى ما عرفوه ، وعلقت نفوسهم بما ألفوه فتهادوا شعره ، وأغلوا سعره ، وشغفوا بأسخفه ،وعلقوا بأضعفه ، وكان ساعده قوى ، وسراجه أحتوى ، لكنه عرض الأنفق ، وأهدى الأوفق ، وخالف فشهر وعرف وأعرب ، فذكر واستطرف ، والعوام تختار هذه الأعلاق وأسواقهم أوسع الأسواق . فشعر أبى نواس نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس ، وقد فطن الى استضعافه . وخاف من استخفافه ، فاستدل بفصيح طرده طرفا من جد اللسان الأول وجدده . وهو مجدد فى كثرة التظاهر على من غض منه بالحق الظاهر ، ليس الا لخفة روح المجون ، وسهولة الكلام الضعيف الملحون على جمهور العوام ، لا على خصائص الأنام » .

وشعر أبى نواس الجديد ، أو الذى يذهب فيه هذا المذهب الجديد ، يدور فى الخمر والمجون ، والغزل بالمذكر والوصف ، والغزل بالمؤنث وان كان قليلا . ويميل فيه الى الأوزان الخفيفة الرشيقة ،والايقاع الموسيقى المطرب ، وكثيرا ما لجأ الى

(١) الذخيرة قسم ٤ مجلد ١ .

مجزوءات البحور ، وكذلك حاله فى أهاجيه ، وهى قليلة نسبيا ، لأن سيرورة الهجاء تقتضى السهولة فى القول والبحر ، ولأبى نواس أراجيز ، ومجزوءات الرجز كقوله فى الفضل بن الربيع :

وبلدة فيها زور صعراء تخطى فى صعر

ويدخل شعره الصنعة فى اللفظ والصورة ، لكنه لا يسرف اسراف المتصنعين كمسلم ابن الوليد وأبى تمام . وانما يجىء صنعه كالحلية البديعة .

ويرى النقاد المحدثون خلاف رأى القدماء فى شعره الجديد ، اذ يعتبرونه أكثر صدقا وأظهر تعبيرا عن شخصه ، وعصره . يقول طه حسين :

« كان أبو نواس فى شعره صادقا فى التعبير عن أحاسيسه ، صادقا فى وصفه للحياة من حوله ، فهو يصدق فى وصف لذات الحياة ، وان كانت خارجة عن الدين والفضيلة لأنه لم يرد أن يخفى نفسه أو أن يتحدث بما لا يرى ، أو أن لا يقول الشعر فى كل ما يرى ، فهو صادق الوصف ، لأنه أراد بهذا الصدق أن يرضى نفسه .

وقد دفعه هذا الصدق الى ترك ما ليس معبرا عن هذه الحياة من أنماط التقليد الذى توارثه الشعراء كذكر الأطلال ، والرغبة فى التقعر والاغراب فى اللغة والأساليب ، والدعوة الى التعبير عن الحياة الجديدة بألفاظ تتمشى مع الحياة سهولة ورقة (١) » .

---

(١) حديث الاربعاء ج ٢ ، ص ١٥٠ .

ويقول عبد العزيز البشرى (١) عنه فى هذا الشعر الصادق

« هو رجل يشعرك مرسل شعره بأن نظره كان ينفذ الى صميم الأشياء ، بل يشعرك بأن الأشياء كانت تلطف له وتشف ليتناول صميمها ما يشاء ، وسرعان ما يتنفس بهذا الذى أدرك شعرا » .

ويقول أحمد أمين فى شعره الجديد :

«فان كان بشار يستحق لقب « المجدد الأول » فان أبا نواس يستحق لقب المجدد الثانى » .

شعره فى الخمر :

واذا كان قوله فى الخمر من أبرز موضوعات شعره الجديد ، فينبغى الوقوف عنده لنتلمس عناصره :

وليس شعر الخمر من جديد الموضوعات ، فقد عرف فى شعر الجاهلية ، وبدأ عمرو ابن كلثوم قصيدته النونية بقوله :

الا هبى بصحنك فاصبحنا ولا تنسى خمور الاندرينا

وأكثر الأعشى من ذكرها ، وكان من وصافها المشهورين ، وربما تأثر أبو نواس ببعض معانيه قال الأعشى :

وكاس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

---

(١) الاغانى ٩/٧٨ .

وقال أبو نواس :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء   وداونى بالتى كانت هى الــداء

لكن شعراء الجاهلية الذين قالوا فى الخمر لم يزيدوا على وصفها ووصف شرابها ، من الندامى ، وبعضهم جعل منهم فتيانا يتحلون بخلق الفتوة العربية لا تأخــذ الخمر بألبابهــم ، وهــم ينعمون بمجالسها ،وقد تجتمع لذة الخمر عندهم بلذة النساء ، أو بلذة الصيد والركوب ، وتجتمع هذه اللذات جميعا عند امرىء القيس فى قولــــه :

كانى لم اركب جوادا للــذة   ولم اتبطن كاعبا ذات خلخــال
ولم اسـبأ الزق الروى ولم اقل   لخليلى كرى كرة بعد اجفــال

ولمــا جاء الاسلام كان بعض شعراء المدينة يذكرون الخمر فى قصائد المديح كحسان ابن ثابت :

لله در عصابـــــة نادمتهـــــم   يومــا بجلق فــى الزمــان الأل

فلما حرمها الاسلام، أقلع الشعراء عن ذكرها،وظلوا كذلك حتى عصر بنى أمية ، وقد عرف بالقول فيها شاعر نصرانى كبير هو الأخطل ، ولم يكن المسلمون بمانعى النصارى من شرب الخمر ، أو القول فيها ،وكان الأخطل مجيدا فى صفة الخمر ،ومجالسها ، ولكنه جرى فى ذلك على سنن شعراء الجاهلية ،وظلت الفاظه ومعانيه وصوره مكررة ، أو تمت الى خمريات البادية بصلات وطيدة .

وأول ما بدا من تغير فى شكل الخمريات على لسان الوليد ابن يزيد ،وبعض شعراء الكوفة فى أخريات عصر بنى أميــة أوائل

القرن الثاني للهجرة . وطبيعي أن يظهر هذا اللون الجديد من شعر الخمر في الكوفة وهي ما ذكرنا مع وجودها في وسط تحيط به الأديرة النصرانية . وقد نهج هؤلاء الشعراء الكوفيون في شعرهم عامة وفي الخمريات خاصة نهجا جديدا في شكله وأسلوبه ومعانيه ، يميل الى الخفة وسهولة اللفظ والعبارة ومسايرة المعاني لروح الحضر والمدنية . ويمكن أن نذكر لهذا النهج مثالا من شعر الوليد بن يزيد (الخليفة الأموى الشاعر) . يقول فيه :

أدر الكاس يمينا لا تدرها ليسار
اسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوها منذ دهر في جرار
ختموها بالأفاويه وكافور وقار

وأمثال هذا النهج الجديد هو الذى سار عليه أبو نواس في خمرياته شكلا وأسلوبا ومعنى . لكنه أتقن فيه وتنوع وأبدع .

وكان شعر الخمر في الكوفة على آخر عهد الأمويين وأول عصر العباسيين في القرن الثاني قد تلون بلون الحضارة الجديدة، واستمد بعض معانيه من تراث الفرس ، أو النصارى ، وتنوع تناول الشعراء للخمر وصفاتها ، فقالوا في تقديرها ، وذكر مكانتها ، ووصفوها بالعروس غالية المهر ، وهي كريمة لا بد وأن تزف لكريم ، ووصفوا رائحتها ، وما يوضع حولها أو مع كؤوسها مع مختلف الأفاوية والطيب وأنواع الرياحين ، ثم ذكر

تعتيقها ،وقدمها ، ووصف رائحتها وفعلها فى الألباب ، وحالات السكرى والنشاوى ممن دارت برءوسهم ، وما قد يحدثه المزج بها مـع فقاقيع ، وما يتلألأ من ألوانها فـى الكؤوس ووصف الكؤوس والأباريق ، الى غير ذلك كله ·

وهى أوصاف قد يكون كثير منها جديدا ،فـى صورة ، وفى ألفاظه ، لكن الشاعر لم يرتبط بالخمر ذلك الرباط الذى ارتبطه أبو نواس ، فهو يحس ازاءها بقدر غير قليل من الحب ، والاجلال يبلغ ذروة التقديس أحيانا ، تحسه فى قوله مثلا :

اثن على الخمـر بآلائهـا وسمهـا احســن اسمائها
لا تجعل المـاء لهـا قاهـرا ولا تسلطها على مائهـا

وهى عذراء تزف اليه ، ومهرها غـال ، يبـذل فيها الـدر والياقوت ، وهى كريمة لا يخطبها الا الكرام :

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل ياخذ منها مـلأه ذهبا
قصرت بالراح فاحذر ان تسمعها فيحلف الكرم أن لا يحمل العنبا
انى بـذلت لها لمـا بصرت بها صاعا من الدر والياقوت ما ثقبا

* * *

يا قهوة حرمت الا عـلى رجـل اثرى فاتلف فيها المـال والنشبا

وهو حين يشرب الخمر من الكأس فكأنـما يقبل حبيبته التى يزهر وجهها كالنجم أو البـدر :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

وهى دائما مشرقة منيرة ، تضىء أينما وجدت من البيت أو الحانة:

ترى حيثما كانت من البيت مشرقا ... وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدير بها ساق اغن ترى له ... على مستدار الأذن صدغا معقربا

وهى بأضوائها ولآلائها شمس :

قامت بابريقها والليل معتكر ... فلاح من وجهها فى البيت لألاء
فارسلت من فم الابريق صافية ... كانما اخذها بالعين اغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها ... حتى تولد انوار واضواء

وهى كالورد ، وكعين الديك حمراء أحيانا ، وحين تختلط بالماء ، تفور ، وتبدو فقاقعها فوقها بيضاء كالحبب ، أو حبات الدر :

وقهوة كجنى الورد خالصة ... قد أذهب العتق منها الذام والرنقا

ويقـــول :

واشرب سلافا كعين الديك صافية ... من كف ساقية كالريم حوراء

* * *

تنزو فواقعها منها اذا مزجت ... نزو الجنادب فى مرج وافياء

ويقـــول :

اذا ما علاها الماء خلت حبابها ... تفاريق در فى جوانبها شتى

ويفتن فى تصوير كؤوسها وأباريقها صورا فنية جميلة ، أبدع خلقها وتكوينها . يقول فى ابريقها وهو على صورة ظبى مشرف من مكان عـال :

كأن ابريقهـا ظـبي على شرف   قد مد منه لخوف القانص العنقا

وأحيانا هي كالكراكي تمد برقابها الطويلة ورءوسها الدقيقة :

لدينـا أباريـق كأن رقابها   رقاب كراكي قد نظرن الى صقر

ويجمع الصورتين معـا في واحدة فيقول :

في أباريق مـن لجـين حسـان   كظبـاء سـكن عرض القفـار
أو كراك ذعرن من صوت صقر   مفزعات شواخص الابصـار

وتصب الخمر في الأباريق في الكؤوس ، وهي بيضاء زجاجية، أو من نحاس مصور عليه صور الاكاسرة ، أو صور الحيوان :

والكوب يضحك كالغزال مسبحا   عند الركـوع بلثغـة الفافـاء
وكأن أقداح الزجاج اذا جرت   وسـط الظلام كواكب الجوزاء

ويقـول :

فحـل بزالهـا فـي قعـر كاس   محفـرة الجـوانب والقـرار
مصورة بصـورة جنـد كسـرى   وكسرى في قرار الطهر جـار
وجـل الجند تحت ركاب كسرى   بأقبيـة وأعمـدة قصـار

ويعرض هذه الصورة في صيغة أخرى فيقول :

تدور علينا السراح في عسجدية   حبتها بانواع التصاوير فارس
قرارتهـا كسرى وفـي جنباتها   مهما تدريهـا بالقسي الفوارس

ويصف زوراته للحانات فـي قطربل أو غـيرها من أماكن اللهو والشراب في ضواحي بغداد ، وغالبا ما تكون زورته بالليل والناس نيام ، يدب وحـده أو مع بعض صحابته ، فيطرق باب

صاحب الحانة ، وهو نصراني حينا، يهودى أحيانا فيجيبهم هو أو تجيبهم ابنته ، ويتوجس من الطارقين أول الأمر ثم لا يلبث أن يطمئن اليهم لأنه يعرف فيهم زبائنه الذين اعتادوه ، واعتادوا أن يقدموا المال في سبيل الخمر ولا يبخلون . فيجود لهم بأحسنها .

يقول :

وفتية كنجوم الليل اوجههم — من كل اغيد للغمآء فراج
انضاء كاس اذا ما الليل جنهم — ساقتهم نحوها سوقا بازعاج
طرقت صاحب حانوت بهم سحرا — والليل منسدل الظلماء كالساج
لما طرقت عليه الباب أوجله — وقال بين مسر الخوف والراجى
من ذا ؟ فقلت : فتى نادته لذته — فليس عنها الى شيء بمنعاج
افتح . فقهقه من قولى وقال:لقد — هيجت خوفى لامر فيه ابهاجى
ومر ذا فرح يسعى بمسرجة — فاستل عذراء لم تبرز لازواج

ويقول :

وخمارة للهو فيها بقية — اليها ثلاثا نحو حانتها سرنا
ولليل جلباب علينا وحولنا — فما ان ترى انسا لديه ولا جنا
يسايرنا الا سماء نجومها — معلقة فيها الى حيث وجهنا
الى ان طرقنا بابها بعد هجعة — فقالت: من الطراق؟ قلنا لها: «انا»
شباب تعارفنا ببابك لم نكن — نروح بما رحنا اليك ، فادلجنا
فان لم تجيبينا تبدد شملنا — وان تجمعينا بالوداد تواصلنا
فقالت لنا: أهلا وسهلا، ومرحبا — بفتيان صدق ما ارى بينهم افنا
فقلت لها : كيلا حسابا مقوما — دواريق خمر ما نقصن ولا زدنا

ولا يأخذ الشاعر فــى هــذه القصيدة نفسه باستقلال البيت فى لفظه ، بحيث تكون القافية نهاية للمعنى ، كما هى نهاية للنفم فى البيت الواحد • اذ نلحظ ارتباط معنى القافية بمعنى البيت الذى يليــه ، وهــذا عند نقــاد الشعر التقليديين عيب يسمــى التضمين •

ويقــول مــرة أخــرى :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم	الى بيت خمار نزلنا به ظهــرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما	ظننا به خـيرا فظن بنـا شرا
فقلنا على دين المسيح بن مريم ؟	فاعرض مزورا وقــال لنا كفرا
ولــكن يهــودى يحبــك ظاهــرا	ويضمر فىالمكنونمنه لك الخترا
فقلنا له : ما الاسم قال سموأل	على أننى أكنى بعمرو ولا عمروا
ومــا شرفتنــى كنيــة عربيـــة	ولا أكسبتنى لا سناء ولا فخــرا
ولكنها خفت وقلت حروفهـــا	وليست كاخرى انما جعلت وقرا
فقلنا له عجبا بظـروف لسانه	أجدت أبا عمرو،فجود لنا الخمرا
فادبر كالمـزور ينظـر نحـونا	لأرجلنا شطرا، وأوجهنا شطرا
وقال لعمرى لو أحطتم بامرنا	للمناكم ، لكن سـنوسعكم عذرا
فجــاء بهـــا زيتيــة ذهبيــة	فلم نستطع دون السجودلها صبرا

وتارة يكون صاحب الحانة رجلا أصلع الرأس ، يقرعه أبو نواس وعصابته ليــلا فيقــوم مروعــا ، لكن يفرخ روعــه عند تعرفه اليهم ، وأنهم زبائن لا ينوون به شرا :

يارب صاحب حانــة قد رعتــه	فبعثته مــن نومـــه المتديــل
عرفت ثياب الطارقــين كلابــه	فيبتن عن سنن الطريق بمعـزل

ما زلت امتحن الد ساكر دونه حتى دفعت الى خفى المنزل
فعرفته والليل ملتبس بنا برفيف صلعته وشيب المسحل

ويقول فى صورة أخرى مع فتية وخمارة :

وليلة قد سرت بفتية تنازعها نحو المدام قلوب
الى بيت خمار ، ودون محله قصور منيفات لنا ودروب
ففزع من ادلاجنا بعد هجعة وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تناوم خوفا ان تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار ذعره وايقن أن الرجل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعيا ملبيا له طرب بالزائرين عجيب
فاطلق عن نابيه وانكب ساجدا لنا وهو فيما قد يظن مصيب
وقال : ادخلوا حييتموا من عصابة فمنزلكم سهل لدى رحيب
وجاء بمصباح له فاناره وكل الذى يبغى لديه قريب
فقلنا: أرحنا هات ان كنت بائعا فان الدجى عن ملكه سيغيب
فابدى لنا صهباء ، تم شبابها لها مرح فى كاسها ووثوب

ويجيد رسم مجلس الخمر فيصور الساقية أو الساقى ، وشعرها ، وتصفيف الشعر ، واللباس والزينة • وغالبا ما تكون مجالس الشراب وسط الرياض ، أو تحت ظلال الكروم ، وقد اشتهرت قطربل والكرخ وطيرناباذ فى عصره بمجالس الخمر وحانات وسط البساتين :

قطربل مربعى ، ولى بقرى الكرخ مصيف ، وامى العنب
ترضعنى درها ، وتلحفنى بظلها والهجير يلتهب
اذا ثنته الغصون جللنى فينان ما فى ايكه حوب
تبيت فى ماتم حمائمه كما ترثى الفواقد السلب

يهب شوقى وشوقهن معـا ... كأنما يستخفنا الطـرب
فقمت احبو الى الرضاع كما ... تحامل الطفل مسه سغب

ويقـول :

ومجلس خمار الى جنب حانـة ... بقطربل بين الجنان الحدائق
نجاة ميادين على جنباتها ... رياض غلت محفوفة بالشقائق

ويكون هذا المجلس بالدير ، وللديارات فى شعر أبى نواس صورة جميلة ، منها صورة دير بهراذان ·

بدير بهراذ ان لى مجلس ... وملعب وسـط بساتينـه
رحت لـه ومعـى فتيـة ... نـزوره يـوم شـعانينه
لكل طـلاب الهوى فاتـك ... قد آثـر الدنيـا على دينـه
حتـى توافينـا الى مجلس ... تضحـك ألـوان رياحينـه
والنرجس الغض لـدى ورده ... والـورد قد حف بنسرينـه

وقصيدته فى وصف دير حنه ورهبانه وقساوسته يقول فيها :

يا دير حنـة من ذات الاكيراح ... من يصح عنك فانى لست بالصاح

وحـانات الكـرخ ذات الحدائق والكـروم المظللة والورود والرياض من حول الأرائك المصفوفة :

ومـل الى مجـلس عـلى شرف ... بالكرخ بين الحديق معتمـد
ممهـد صففت نمارقـه ... فى ظـل كـرم معرش خضـد
قـد لحفتـك الغصـون اردية ... فيومـك الغض بالنعيم نـدى

وهو يمزج بين جمال الربيع وجلوته فى ابانة ونشوة الخمر :

واغـد على اللهـو غـير متئـد ... عنـه فهـذا اوان مقتبلـة
امـا تـرى جـدة الزمـان وما ... أبدع فيـه الربيـع من عملـه
وافى وجـوه الزمـان غادية ... عند اقتـراب الشتاء من اجله

فاحتل أرجاءه فادركها ... من زهو نواره ومن حلله
أدركت في اخريات شتوته ... ما كان مد الربيع في اجله
فاشرب على جدة الزمان فقد ... وافى بطيب الهوى ومعتدله
من قهوة تذكر السرور وتنسى الهم عند اعتراض مشتكله

فقال في وصف الورود والرياحين :

لا تخشعن لطارق الحدثان ... وادفع همومك بالشراب القاني
أو ما ترى أيدي السحائب رقشت ... حلل الثرى ببدائع الريحان
من سوسن غض القطاف وخرم ... وبنفسج وشقائق النعمان
وجني ورد يستبيك بحسنه ... مثل الشموس طلعن من اغصان
حمرا وبيضا يجتنين واصفرا ... وملونا ببدائع الألوان
بعقود ياقوت نظمن ولؤلؤ ... أوساطهن فرائد العقيان
ومن الزبرجد حولهن ممثلا ... (ثملا) يلوح بجانب البستان

ويقول في دير حنة :

يا دير حنة من ذات الاكيراح ... من يصح عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لها ... يلعبن منا بالباب وأرواح
دع التشاغل باللذات يا صاح ... من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم ... من العبادة تحت الجسم أطلاح
لم يبق فيهم لرائيهم اذا حصلوا ... خلاف ما خوفوه غير أشباح
تلقى بهم كل محفو مفارقه ... من الزهاد عليه سحق أمساح
لا يدلفون الى ماء بآنية ... الا اغترافا من الغدران بالراح

نــــص :

وفتية كمصابيح الدجــى غــرر شم الأنوف من الصيد المصاليت
صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا فليس حبلهمو منــه بمبتــوت
دار الزمان بافــلاك السعود لهم وعاج يحنو عليهم عاطف الليت
ناد متهم قرقف الا سفنط صافية مشمولة سبيت من خمر تكريت
من اللواتى حظليناها على عجــل لمــا عججنــا بربــات الحوانيت
فــى فيلق للدجا كاليم ملتطم طــام يحاربه من هوله النوتــى
اذا بكافــرة شــطاء قــد برزت فــى زى مختشع للــــه زميت
قالت: من القوم، قلنا: من عرفتهم من كل سمح بفرط الجود منعوت
حلوا بدارك مجتازين فاغتنمى بذل الكرام وقولى كيفما شــيت
فقد ظفرت بصفو العيش غانمه كغنم داود من أســلاب جالوت
فاحيى بريحهم فى ظل مكرمة حتى اذا ارتحلوا عن داركم موتى
قالت فعندى الذى تبغون فانتظروا عند الصباح فقلنا بل بها ايت
هى الصباح يجلى الليل صفوتها اذا رمت بشــــرار كاليــواقيت
رمى الملائكة الرصاد اذ رجمت فى الليل بالنجم مراد العفاريت
فاقبلت كضياء الشمس بارغــه فى الكاس من بين دامى الخصر منكوت
قلنا لهاكم لها فى الدن اذ حجبت قالت قد اتخذت من عهد طالوت
كانت مخباة فى الدن قد عنست فى الأرض مدفونة فى بطن تابوت
فقد أتيتم بها من كنه معدنها فعاذروا اخذها فى الكاس بالقوت
تهدى الى الشرب طيبا عند نكهتها كنفح مسك فويق النار مفتوت
كانها بــزلال المــزن اذ مزجت شــباك در عــلى ديبــاج ياقوت
يديرها قمــر فى طرفه حــور كانما اشتق منه سـحر هاروت
وعندنا ضارب بشــلو فيطربنا «يا دار هند بذات الجزع حييت»

اليـه الحاظنـا تثنـى أعنتهـا — فلو ترانـا اليـه كالمباهيت
من اهل هيت سخي الجرم ذو أدب — له القول مزاحا هات يـا هيتى
فينبـرى بفصيح اللفظ عن نغم — مثقفات فصيحـــات بتثبيت
حتى اذا فلك الأوتار داربنـا — مع الطبـول ظللنـا كالمسابيت
فزنا بهـا فـى حديقات ملففة — بالرند والطلح والرمان والتوت
تلهيك اطيارهـا عن كل ملهية — اذا ترنـم فـى ترجيع تصويت
لم ينثني اللهو عنغشيان موردها — ولم أكن من دواعيهـا بصميت
حتى اذا الشيب فاجاني بطلعته — اقبح بطلعه شيب غـير مبغوت
غدا الغوانى اذا أبصرن طلعته — وقـد أذن بتـوديع وتشـتيت
فقد ندمت على ما كان من خطلي — ومن اضاعـة مـكتوب المواقيت
ادعوك سبحانك اللهم فاعف كما — عفوتياذا العلاعن صاحبالحوت

صــور الساقي والساقية :

ونحن بــين بسـاتين فتنفحنـا — ريح البنفسج لا نشر الغزاماء
يسعى بها خنث في خلقه دمث — يستأثر العين فيمستدرج الرائى
مقرطق صغب الارداف ذو غنج — كان فـى راحتيه رسـم حنـاء
عيناه تقسم داء في محاجـرها — وربما نفعت في حولـة الـداء
انى لاشرب من عينيـه صافية — صرفا وأشرب أخرى مع ندامائى

ويقـــول :

وساق غرير الطرف والدل فاتن — ربيب ملوك كان والدهم كسرى

والساقيـة :

وذات وجه كان البدر حـل به — يهدى لك الورد والتفاح خداها
مطموحة الشعر في قمص مزررة — في زى ذى ذكر سيما وسيماها
فلو يراهـــا غـلام يلمحهـــا — عض الأنامل لولا اللحظ ادماها
تدعى لان كملت في حسنها عللا — قد غير الاسم خوف العين مولاها

والســـــاقي :

يسقى بهـا كالقضيب منجـدل　　زرفن أصداغـــه ولواهـــا
كان وجنتــه حـــين ختمـا　　من يـده الغمـر ثم ثناهـــا
تفاحـة فـي يمـين ذى كلف　　طيبهـا جاهـدا وطراهـــا

الساقي : وقصـــة شـــعره :

يدير بها ساق اغن تـرى له　　على مستدار الاذن صدغا معقربا
سقاني ومناني بعينيـه منيـــة　　فكانت الى قلبى ألـذ واطيبـا

ويقـــــول :

تمد بهـا اليك يـدا غــلام　　أغـن كانــه رشـــا ربيب
ينـــوء بردفـه فـــاذا تمشى　　تثنـى فى غلائلـــه قضيب
فـان جمشـــته خلبتك منـــه　　طرائف تستخف لهـا القلـوب
يـكاد مـن الـدلال اذا تثنـى　　عليك ومن تساقطـه ينوب

الساقية القينـــة :

فجاءت بها تحدو بها ذات مزهر　　يتـوق اليهـا الناظرون ربيب
كثيب علاه غصن بان اذا مشى　　تكاد لــه صـم الجبـال تنيب
وأقبل محمود الجمـال مقرطق　　الى كاسـها لا عيب فيـه أريب
يشم الندامى الورد من وجناته　　فليس به غـــير الملاحـة طيب

وفى ســـاق اسمه المعلل :

ومختلس القلوب بطـرف ريـم　　وجيـد مهـاة بـرنى هضــاب
اذا امتحنت محاسـنه فابلت　　غرائب حسنه من كل باب
تقاصرت العيـون له فاغفت　　عن العظـات خاضعـة الرقاب
لـــه لقب يليـق بناطقيـــه　　بديع ليس يعجـم فى الكتـاب
يقال لـه المعلل وهـو عنـدى　　كما قالوا وذاك من الصـواب
يعللنـا بصافيـــة ووجــه　　كبـدر لاح مـن خلل السـحاب

وفـــي ســـــاق :

يسعى بهامثل قرن الشمس ذو كفل | يشفي الضجيج بذى ظلم وتشنيب
كانـــه كلمـــا حـــاولت نائلـــة | ذو نخوة قد نشا بين الأعاريب
يسطو على بحسن لست أنكــره | يا من رأى حملا يسطو على ذيب

السـاقي :

مدام ربت في حجر نوح يديرها | على ثقيل الردف مضطمر الخصر
كان ضياء الشمس نيطت بوجهه | وبدر الدجى بين الترائب والنحر
فلما بدت أزرار جيب قميصه | تطلع منها صورة القمـر البدر

وقـــال :

وأحور مخلوع الزمام تخالــه | قضيبا من الريحان يهتز اخضرا
مريض جفون المقلتـين مزنــر | له شـفة من مصها مص سـكرا
فلو أنه يقظان أو في منامــه | يجـود لاعمى بالولاء لابصــرا
يخر لصرف الكاس في السكر ساجدا | وان مزجت صـلى عليها وكبرا
أدار علينـا بالتحيـــة كفـــه | وسربلها لونا من الراح أحمرا

ويقـــول :

يسقيكهـا مختلـق ماجـــن | معـــود للسقـــي نحريـــر
منقطع الـردف هضيم الحشـــا | أحـور فـي عينيـــه تفتـــير
قد عقربت رابيـــة صدغـــه | فالصـــدغ بالعنبر مطـرور

ويقـــول :

نازعتهم قهـوة صفراء صافيـة | بشــادن خنث كالغصن ميـاس
مخنث اللفظ يسبيني بمقلتـه | مقرطق قرشـي الوجـه عباسي
كان اكليله تـاج ابن مـارية | اذ راح معتصبا بالـورد والآس
وقد يغنيك من سكر ومن طرب | والكاس يختال من ساق الى الحاسي
(لله درك قـد عذبتني حرقـا | بالقرب والبعد والاطماع واليأس)
يديرها هاشمي الطـرف معتدل | أبهـى اذا مشى من طاقة الآس
حث المـدام وغنانـا على طرب | (الآن طاب الهوى يا معشر الناس)

ساقية :

وخذ من كف ساقية وصيف — رخيم الدل ملثوغ الكلام
لها شكل الاناث وبين بين — ترى فيها تكاريه الغلام
فاحيانا تقطب حاجبيها — واحيانا تثنى كالحسام

الساقى :

نازعتها واضح الخدين معتدلا — يحكى ببهجته للناس بلقيسا
مقرطق حرسوه فى حداثته — لم أره والله فى حرو ولا طوسا

ساقية :

من كف جارية حوا مقرطقة — ناهيك من حسن ومن ظرف
نظرت بعينى جوذر خرق — وتلفتت بسوالف الخشف
فشربت من يدها ومن فمها — ورشفت غير ملعن الرشف
قالت وقد جعلت تمايل لى — كتمايل الماشى على الدف
وجهى اذا اقبلت يشفع لى — وعذاب قلبك حسن ما خلفى

ساق :

يسقيهم ذو وفرة احور — يسيل صدغا فاتر الطرف
يكسر الراء وتكسيرها — يدعو الى السقم مع الحتف
ان رام اعجالا ابى ردفه — اورام عطفا جر للعطف

ويقول :

يدور بها ظبى غرير متوج — بتاج من الريحان مثل القراطق
فليس كمثل الغصن فى ثقل ردفه — اذا ما مشى فى مستقيم المناطق
له عقربا صدغ على ورد خده — كانهما نونان من كف ماشق
فلما جرت فيه تغنى وقال لى — بسكر الا هات أسقنا باللوارق

السـاقى :

يسعى اليك بها اخو هيف | عذب الشمائل طيب اللثم
ذو وجنة خجلى موردة | وقفت على التقبيل والشم
ومؤزر يدعو الكهول الى | خلع الأعنة فيه بالضم
تسقيك كاسا من مشعشعة | ممزوجة من فيه بالظلم

الساقى والساقية معن ونعم :

يديرهما دعجاء رود وادعج | أخ واخته في القوم واسمهما اسم
يقال له معن فاما نكسته | لندعو أخته يوما معكوسة نعم

ويقـول :

يا حسنها من بنان ذى خنث | تدعوك أجفانه الى الريب

ويصف الساقيات :

أفديك خذها من يدى وهات | عذبنى حب غلاميات
ذوات أصداغ معقربات | متومات القد مهضمات
يمشين فى قمص مزررات | يصلحن للاطة والزناة

الساقى المغنى من الروم أو اليونانيين :

وغزال من بني الأصفر | معصوب بتاج
شخصه منى بعيد | وهو منى كالمناجى
كلما سقاك غنى | كل ضيق لانفراج

الســاقى العربى :

يديرهــا خنث فــى لهوه دمث   من نسل اذين ذو قرط ودراج
يزهى علينا بان الليــل طرتــه   والشمس غرتــه واللون للعــاج

والســاقى العربى :

مــزج الكاس لى غـــزال أريب   هاشمى أصــاب فيهــا المزاجــا
فتحسبنهــا وناولت ظبيــا   فاتــر الطــرف ســاحرا مغناجا
قال لى والمــدام تاخـــذ فيــه   يا أمــيرى ان كنت بى ملهاجا

الساقية القبطيــة :

مــن كف قبطيـــة مزنــرة   نجعلهــا للصبــوح مفتاحــا
تقــول للقـــوم من مجانتها   بالله لا تحبســن أقداحــا

الســاقى المغنيــة :

وغــادة هاروت فــى طرفها   والشمس فى مفرقهــا جانحة
تستقدح العـــود باطرافهــا   ونغمـــة فــى كبـدى قادحــة

الســـاقى :

ودار بكاســنا رشــا رخيــم   لطيف الكشح مهضوم الوشاح

الساقى نصرانى من بنى العبــاد من الحــيرة :

يسقيها من بنى العباد رشــا   منتسب عيــده الى الأحـــد
اشرب من كفــه الشمول ومن   فيــه رضابا تجــرى على بــرد

الســاقية :

فالخمر ياقوتة والكاس لؤلؤة | فى كف جارية ممشوقة القــد
تسقيك من يدها خمرا ومن فمها | خمرا، فما لكفى سكرين من بد
لى نشوتان وللندمان واحــدة | شىء خصصت به من بينهم وحدى

الســــاقى :

فقام كالبدر قد شـدت قراطقه | ظبـى يـكاد من التهييف ينعقد

الساقى المغنى :

مـا زال يســقى ويســقى | حتــى انثنـى للمـــــراد
وانسـاب نحــوى يغنــى | مطربــــــا وينــــادى
(سقيت صــوب الغــوادى | يــا منــزلا لســعاد)

طرف الساقى يسكر مثل كأســه :

مــا أسكرتنى الشمول لكن | طـرف مدير بــه احـورار

الســقاة :

حتى اذا نقلت كاساتها خــرد | من بين ذى قرطق أو ذات زنــار

الســــاقى :

فقلنا انسقاها على وجــه أهيف | لــه تيــه معشوق وشخرة شاطر

الســـاقى :

قد تحسيتها على وجــه ســـاق | خالع فــى هواى كــل عــذار
يقمــر فجــر الدياجــى بوجــه | ضوؤه فــى الدجى صباح نهار
يسحر العــين من بهــاء عينــه | بانى ذاك من بهــاء بهــار

يتثنى كأنه غصن بان — ميلته الرياح بالأسحار
بأبى ذاك من غزال غرير — فى قباء محلل الأزرار
كم شممنا من خده الورد غضا — ومزجنا رضابه بالعقار

ساق :

من كف ظبى أغن ذى غنج — أكمل من قرنه الى القدم
اعيد مرتجة روادفه — محتلم أو دوين محتلم
كان خديه فى بياضهما — أشربت وجنتاهما بدم
كان صدغيه فى سوادهما — خطا على الوجنتين بالقلم
كأنه درة محبرة .. — علقها راهب على صنم

ساق :

عاطنيها كما وصفت خليلى — من يدى شادن رخيم الكلام
علم السحر مقلتيه احورارا — شيب تفتيره بلون المدام
وجهه البدر والمدامة بدر — يالبدرين ركبا فى نظام

ساق :

بكف أغن مختضب بنانا — مذال الصدغ مضفور القرون
لنا منه بكفيه عدات — يغاطبنا بها كسر الجفون
كأن الشرب مقبلة علينا — تمشى فى قلائد ياسمين

ساق :

وغزال يديرها ببنان — ناعسات يزيدها الغمز لينا
كلما شئت عللنى برضاب — يترك القلب للسرور خدينا

ســاق عليه أطواق الياسمين : (ابن أذين)

بيــــدى ســـاق عليـــه حـملة مـــن ياســـمين
وعـــلى الأذنـــين منــــه وردتـــــا آذريـــــون
غايـة فى الشكل والنظــر ف وفــرد فى المجـــون

ســـاق :

لعمرى ما يهيــج الكاس شوقى ولكن وجـه ساقيهـــا شـجانى
حسدت الكاس والابريق لمـــا بدا لى من يدى رخص البنـان
أموت اذا ازال الكـاس عنـى وأحيـا مـن يديـه اذا سـقانى
فلى سكران منـه : سكر طرف وسـكر مـن رحيـق خسروانى
تجمع فيــه أصنـاف المعانـى فما يلفى له فـى الحسن ثانى
اذا ما افتر قلت سـناء بـرق اذا ما اهتز قلت قضيب بـان

ســاق كالشمس :

ومن قد صب فى قارورة ريق السحاب على النجيع القانى
شمس المـدام بكفـه وبوجهـه شمس الجمال ، فبيننا شمسان
والشمس تطلع من جدار زجاجها وتغيب حين تغيب فى الابـدان

ســـاق :

سـقانى من يديه ومقلتيـه من الـراح المعتـق شربتـين
فبت مرنحـا مـن شربتيـه حريقـا قد منيت بكربتـين
هــلال فوقـه بـدر لتسع وثالثـــة مضــت ولليلتـــين

يدير من المدامة بنت سبع ... وواحدة مضت بعد اثنتين
أقول له وقد طردت كرانا ... أدرها واسقنا بالراحتين

ساق :

وبديع الحسن قد فا ... ق الرشا حسنا ولينا
كلما ازددت اليه ... نظرا زدت جنونا

* * *

حـال المطربين والمغنين والمنشدين وآلاتهم فى مجالس الخمر

* * *

الأدوار :

١) حتى تغنى ومـا تم الثلاث له — حلو الشمائل محمـود السجيات
« يا ليت من مالى ومن ولدى — أنـى اجالس لبنى بالعشيات »

٢) وأصبحـت السـن أوتـاره — اذ حـرك المثنى بمضرابه
ثم شـدا لمـا جـرت كاسـه — حرفـا ومـرت بـين أقرابـه
« عاود قلبى كنـه اطرابه — من حب من أصبحت أعنى به »

٣) وغنى لنـا صوتا بحسن ترجع — «سرى البرق غربيا شحن غريب»
فمن كان منا عاشقا فاض دمعه — وعـاوده بعـد السرور نحـيب

٤) وجـدت الـذ عاريـة الليالى — قـران النغـم بالوتـر الفصيح
ومسمعه اذا ما شئت غنت — « متى كان الخيام بذى طلوح »

ومغـن كلمـا شئـت تغنـى واشـارا
رفـع الصـوت بضـرب هـاج للقـلب ادكـارا
« صـاح هـل أبصرت بالخمسـين مـن أسـماء دارا »

وصف مغنيـة وعـودها .

وخاذل من جوارى الحى يسعدها — أصوات مختلف من وقع أوتـار
من بين بـم الى مثنى ومثلثة — وما خـلا ذاك من أصوات أوتار
نيطت على بدن كالحلى ليس له — روح ولكنـه من نحت نجـار

اتـاه فى غيضـة فاختار جيله ... وظل ينحى لـه قطعا بمنشـار
معقرب الراس كالمسراج صنعته ... سـحر وما مسه تعقيد سـحار
نمت ملاويه حتى خلت خلقتها ... أصابعا حركت من مفصل جـار
يحكى صدامجيد الصوتاذ نطقت ... منه اللغـات على طبل ومزمار

ويقــول :

فى مجلس جلى السرور صباحه ... سترا لـه من ناظـر الحدثـان
لا يطرق الأسـماع فى أرجائه ... ألا ترنـم ألسـن العيـدان
دوما وتصفيق الجليس تطربا ... وبكاء خابيـة وضحـك قنانـى

مغنيــة :

ومسعمه جـاءت بأخرس ناطق ... بغـير لسان ظل ينطق بالسـحر
لتبـدى سر العاشـقين بصوته ... كما تنطق الأقـلام تجهر بالسر
ترى فخذ الألـواح فيها كانها ... الى قـدم نيطت تضج الى الزمر
أصابعها مخضوبة وهى خمسـة ... تختمن بالأتار فى العسر واليسر
اذا لحنت يوما لوت أصبعا لها ... فتحكى أنين الصب من حرقة الهجر
تقول وقد دبت عقـار كانهـا ... دم ودموع فوق خد اذا تجرى
« سلام على شخص اذا ما ذكرته ... حذرت من الواشين أن يهتكوا سرى»
فبعض الندامى فى سرور وغبطة ... وبعض الندامى للمدامة فى أسر

اسمهـا قبــل :

فقال هات وأسـمعنا على طرب ... (ودع هريرة أن الركب مرتحل)
فاحسنت فيه لم تخـرم مواقعه ... والكاس فى يدها فى جوفها حلل
ثم استهشت الى صـوت تملحه ... «انا محيوك فاسلم ايها الطلل»
فما تمالكت عينى ان تبادرهـا ... دمعى ، وعاودها من دلها خبل

فقال احسنت،ما تدعين؟ قلتله: معكوسة لبق هذا هو المثل
فطار وجدا بها والخمر ياخذها وقال: هات،فانت العيش والأمل
(ان العيون التى فيطرفى مرض) فرجعته بلحن وقعه شكل
فخر معتجزا مما ترادفه منها وقلت لها : أحسنت يا قبل
فاستخجلتفتبدى الورد يضحكفي خد أنيق لها يا حبذا الخجل

نغم :

اكرم بهم وبنغم من مغنية ففى الغناء بنغم يضرب المثل
هيفاء تسمعنا والعود يطربنا (ودع هريرة أن الركب مرتحل)

حال الندامى والسكارى :

يقول فى سكره وظل يشرب طوال الليل حتى الصباح وكانت الخمر قد لعبت براسه :

فما هجم الصباح على حتى رايت الأرض دائرة الفجاج

فى الندمان وقد سكر فارتعشت يداه :

وندمان ترادفه خمار فاورث فى أنامله ارتعادا
فليس بمستقيل الكاس ما لم تكن يسراه لليمنى عمادا
رفعت له يدى وهنا بكاس بها منها تزيد ما استعادا
وقال الست متبعها باخرى توقرنى فان بى ازديادا
فقلت له : بلى وباخريات على انى ساجعلها جيادا
فذلك دابه ليلا ودابى اذا مازدته منها استزادا
الى ان خر ما يدرى الرضا توسد عند ذلك أم وسادا

ويقـــول :

أسـقنى حتـى ترانـــــى أحسـب الديـك حـمـار

ويقول فى الندامى وقد غلبهم السكر :

فما برحت حتى الصباح يديرها ويجرى بنا فى كل حق وباطل
فبين صريع قد تجـدل طافحـا الى ذى وساد مائل الرأس زائل
فلما رأيت الصبح أسفر وجهـه وخفت نواقيس الدجى فى الهياكل
طفقت أفديـة وأدعـو باسـمه فقال مجيبا : ماتشا ، بتثاقل
فقلت له : تفديك نفسى وأسرتى ويفديك طرا كل حـاف وناعل
ألست ترى ضوء الصباح ونوره وتسمع تغريد الحمـام الثواكل
فقم فاصطبحها وانفعنك خمارها فليس لها مثل الصبوح المعاجل
فما زال حتى ذاقهـا متكـرها فردت اليه روحـه فى المفاصل

ويقـــول :

نبهته بعد ما حـل الرقـاد له عقدا من السكر الا أنه ثمـل
فقلت كاسك خذها قال محتجرا حسبى الذى أنا فيه أيها الرجل
ثم استدار به سكرا فمال بـه فقمت أسعى اليه وهو منجـدل
قد دبت الخمر سرا فى مفاصله فمات سكرا ولكن حاطه الأجـل
فلـم أزل اتفـــداه وأرفعـــه عن وهدة الأرض والنشوان محتمل
حتى افاق وثوب الليـل منخرق وغار نجم الثريا واغتلى زحـل

ويقـــول :

رفعت له النـداء بقـم فخـذها وقد اخـذت مطالعهـا النجـوم
فقـام وقمت من اخوين قامـا عـلى طـرب وليلهما بهيهـم
اجـر الزق وهـو يجـر رجـلا يجـور بهـا النعـاس ويستقيم

ويقـول فى وصف ما يخيله السكر :

ذكـر النعـــام :

خلنا الظليم بعيرا عند نهضتنا	والتـل منبطحـا فى قد ثهـلان

طلـوع الصباح :

يصوره فى صور مختلفة :

فمن بين مسرور وباك من الهوى	وقد لاح من ثوب الظـلام غيوب
وقدغابت الشعرى العبوروأقبلت	نجوم الثريا بالصبـاح تثـوب

صنعته الشعرية (موسيقاه) ·

الترصيع كما فى قوله :

فى بيت كافـرة بالخمر تاجرة	شـمطاء شـاطرة تعتـز بالوالى
فبيتهـا حـــرم وقولهـا نعـم	وكيلهـا حـكم فـى كل مكيال
وعندها قمـر فى طرفـه حـور	فى دلـة خفـر فى حسن تمثال
مفاكـــه عبث مقالـــه أنث	فى طرفـه نفث مثـال أبطـال
يسقيك من يده خمـرا وناظره	سحرا ، ومن فمه سكرا على حال

ومن أوزانه ما أعمل فيه الترصيع والتقسيم الموقع :

سـلاف دن كشمس وجـن	كدمـع جفـن كخمر عـدن
طبيـخ شـمس كلون ورس	ربيب فـرس حـليف سـجن
رايت علجـــا بباطـر نجـا	لهـــا توجـى فلـم يثـــن
حتى تبـــدت وقـــد تصـدت	لنــــا وملت حــــلول دن
فاحت بريـح كريـح شيح	يـوم صبـوح وغيـم وجـن
يسقيك سـاق ، عـلى اشـتياق	الى تــلافي بمـــاء مـزن

يدير طرفا يعير حتفا ... اذا تكفا من التثنى
على غناء وصوت ناء ... دواء داء من التجنى
ولثم خد كطعم قند ... لذات قد وهى تغنى
غنا بدل وضرب طبل ... وحسن شكل وخبث جنى
يا من لحانى على زمانى ... اللهو شانى فلا تلمنى
أطلت قولا فلا تقل لا ... يريد ألا السلو عنى
أسخفت عينا تراك زينا ... فاين اينا الفرار منى
هتكت سترى فباح سرى ... وعيل صبرى بطول حزنى

الأوزان الراقصة ومنها قوله :

ويجلس ماله شبيه ... حل بالحسن والجمال
بمطرفيه السرور سحا ... بدينة مالها انتقال
شهدته فى شباب صدق ... ما ان يوازى لهم فعال

نسق قصيدته الخمرية :

ويتبع فى قصيدته الخمرية نسقا غالبا، وقليلا ما يعدل عنه، هو أن يبدأ باللوم على من يصف الطلول أو يقف بها ، ويبكى هندا وأسماء وغيرهما من نساء العرب ، ويطلب أن يدع الناس هذا كله لأنه بلاغة القدماء ، وليس أنسب للمحدثين من وصف الرياض والقصور والخمر بآلاتها ، وسقاتها غلمانا وفتيات ، فهذه هى لذات الدنيا ٠ تجتمع فى مجالس الخمر: جمال الطبيعة، وجمال الوجوه والورود من السقاة ، وجمال الحديث ، من الندمان ، ولذة الخمر ونشوتها ، ثم جمال الصوت بالغناء ٠

وغالبا ما تختم قصيدته بصوت من الأصوات المعروفة التى يتغنى بهـا فى عصره ٠

ألفاظــه :

تلاعبــه باللفظ أو توليده :

يريد أن يعبر عن معنى أن الخمر لا يشربها الا كريم فيشتق من الكرم الكرم ويقول مناسبا بين الألفاظ ومولدا :

وخذها ان شربت وبعض خمر ... بماء المزن من نطف الغيوم
لتجعـل هـذه عرسـا لهـذا ... فـان الفطـر بعـل للكـروم
ولا تسـق المـدام فتـى لئيما ... فانـى لا احـلك للئيـم
لأن الكـرم من كـرم وجـود ... ومـاء الكرم للرجـل الكـريم

الوصف :

يقول من أوصافه فى بستان نخيل وأشجار فاكهة وزينة :

نخـل اذا جليت ابـان زينتها ... لاحت باعناقها أعذاقها النحـل
اسقاط مسـجدة فيها لآلئهـا ... مقصودة بسموط الدر تتصـل
ينتضها فطن علـج بهـا خبـر ... فض العذارى حلاها الربط والحلل
فافتض أولهـا منهـا وآخرهـا ... فاصبحت وبها من شحلهـا حبل
لم تمتنع عفة منـه ولا ورعا ... بـلا صداق ولم يوجد لهـا عقل
حتى اذا لقحت أرخت عقائصها ... فمال منتثرا عرجونها الرجـل
فبينما هـى والأرواح تنفحهـا ... شـهرين بارحـة وهنا وتنتحل
أرخت عقودا من الياقوت ملمجة ... صفرا وحمرا بها كالجمر يشتعل
فلم تزل بعمود الليل ترضعه ... حتى تمكن فى أوصاله العسل
ياطيب تلك عروسا فى مجاسدها ... لو كان يصلح منها الشم والقبل

خلالها شجر في فيئة نقد	لايرهب الذئب فيها الكبش والحمل
ان جئت زائرها غناك طائرها	برجع ألحانه في صوته هدل
من بلبل غرد ناداك من غصن	يبكى لبلبلة أودى بها خبل
هذه قصفة وقل في وصفه سددا	مدت لواصفه في عمره الطول
ما بين ربع ولا رسم ولا طلل	أقوى، وبنيتى في حكم الهوى عمل

غزله بالمرأة :

لئن كان أبو نواس قد وهب شعره للخمر ، ووهب كذلك عاطفته وأحاسيسه كلها فان المرأة لعبت مع الخمر دور باعث اللذة ، أو هى كانت عنصرا من عناصرها ، فالجمال الأنثوى متمم للذات ، وان كان عند أبى نواس يتأخر عن مرتبة الخمر والغلمان ٠

ولكن ديوانه مع ذلك يحوى قصائد ذوات عدد في الغزل والنسيب ، ومنها ما يكشف عن عاطفة ما حملها الشاعر للمرأة ، لعلها تكون أول حياته أو في شرح الشباب وميعة الصبا ، وفلسفة اللذة لم تتبلور عنده على تلك الصورة التى جعلت من الخمر قطبها ومن الغلمان والسماع والطبيعة معرضها ومجلاها ٠

ومن هذه الأبيات التى تحس فيها بحرقة العاطفة بعض الشيء قوله ولعله قالها شابا كما قلت :

حامل الهوى تعب	يستخفه الطرب
ان بكى يحق له	ليس ما به لعب
تضحكين لاهية	والمحب ينتحب
تعجبين من سقمى	صحتى هى العجب
كلما انقضى سبب	منك جاءني سبب

وتربط الأخبار بينه وجارية من جوارى البصرة اسمها « جنان » ، وتصور علاقة حب بينهما ، كانت جنان جارية لآل عبد الوهاب الثقفى • رآها مرة تمر أمامه وهو بالمربد فى مجلس مع جماعة من أصحابه • وكانت مقدودة حلوة بديعة الحسن ، أديبة ظريفة عاقلة تعرف الأخبار وتروى الأشعار • واتفقت الأخبار على أن أبا نواس لم يصدق فى حب امرأة غيرها •

ويصور فى مقطوعة لقاءه بصاحبته جنان بين جماعة من الجوارى ، وقد أقبلن من رصافة البصرة فى أتم زينة يحففن بجنان كالتماثيل الحسان • فقال :

ومضمخات بالعبير	نزلن من غرق الجنان
راضعتهن من الصبا	كاسا عقدن بها لسانى
اقبلن من باب الرصا	فة كالتماثيل الحسان
يحففن احور كالغزا	ل أمر أمرار العنان
يمشى بردف كالنقا	يختال تحت قضيب بان
فاذا انجليت فجاملى	كيلا اموت على المكان

وتعرف الى جنان ، وكان يكتم حبها أول الأمر لكنه لم يطق الكتمان فلهج بذكرها ، وردد اسمها :

لأبيحن حرمة الكتمان	راحة المستهام فى الاعلان
قد تصبرت بالسكوت وبالاطر	اق جهدى فنمت العينان
تركتنى الوشاة نصب المريبيـ	ـن واحدوثة بكل مكان
ما ارى خاليين للسر الا	قلت ما يخلوان الا لشانى

وقـــال :

لمـا تكشف عنـى أننـى كلف ... كشفت ايضا لهـم عمن به الكلف
جيـم وجلت لها نونين بينهما ... لمن تهجـى اسمها او خطه ألف
يضمه من ثقيف بعض دورهم ... ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

وله مع جنان هذه نوادر كثيرة ، يقال أنها هجرته لمـا سمعت بتشهيره بها فى شعره ، وسجل صدها له وابتعادها عنه فى قوله :

زهدت جنـان فـى الـذى ... رغبت اليهـا فيـه نفســى
فزهـدت فى الدنيـا وصـا ... رت منيتــى فـى زور رمسـى
وطـويت عينــى ان تــرا ... نى عينها وامت جرســى
كيــلا يــروع ذلك الوجـــ ... ـــه الجميــل ســماع حسى

ويقــــول :

جنـان تسـبنى ذكـرت بخـير ... وتزعـم أننى رجـل خبيث
وان مودتــى كـذب ومــين ... وانــى للـذى تطـوى بشـوث
وليس كـذا ولا يـرد عليهـا ... ولكن الملـول هـو النكـوث
ولى قلب ينازعنى اليهـــا ... وشـوق بين أضلاعى حثيث
رات كلفى بها وقديم وجـدى ... فملتنى كـذا كـان الحديث

ولكنه لم يطق الصبر طويلا ،وعاد لترديد اسمها واللهج به حتى قال فيه الناس وعذلوه :

اما يغنى حديثـك فى جنـان ... ولا تبقـى عـلى هـذا اللسان
اكل الدهـر قلت لهـا وقالت ... فكـم هـذا امـا هـذا بفـان

وتذكر أخبارهما أنها عزمت الحج مع أهلها ، وسمع هو بذلك فعزم على أن يصحب الركب خفيـة وأن ينوى الحج ليراها هناك فى مكة وعند الطواف · وقد لجأ الى هذا لمـا طلبهـا فلم تحصل له ، وكان طلابها عليه عسيرا :

ألـم تـر اننـى أفنيت عمـرى   بمطلبهـا ومطلبهـا عسـير
فلمـا لـم أجـد سببا اليهـا   يقربنـى وأعيتنى الأمـور
حججت وقلت قـد حجت جنان   فيجمعنـى واياهـا المسـير

ويلتقيان فـى الطواف ، وتقترب لتلثم الحجـر الأسـود ، ويقترب هو منها ويلتقى عليه خداهما ·

وعاشـقين التف خداهمـا   عند التثام الحجـر الأسـود
فاشتفيا من غـير ان ياثما   كانما كانـا عـلى موعـد
لولا دفـاع النـاس اياهمـا   لمـا استفاقا آخـر المشـهد
ظللنـا كلانـا سـاتر وجهه   بما يـلى جانبـه باليـد
نفعل فى المسجـد ما لم يكن   يفعله الابـرار فى المسجد

وعلى أننا نجد من شعره فى جنـان شعرا وجدانيا جيداً مثل قولـه :

ياذا الذى عن جنان ظل يخبرنا   بالله قل واعـد يا طيب الخبر
قالوا اشتكتكوقالت ما ابتليتبه   أراه من حيث ما أقبلت فى أثرى
ويرفع الطرف نحوى انمررت به   حتى ليخجلنى من شـدة النظر
وان وقفت لـه كيمـا يكلمنى   فىالموضع الخلو لمينطق منالحصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه   حتى لقدصار منهمى ومنوطرى

وربما ترك حب جنان فى نفسه بعض حرقة الهوى ، وهو الذى لم يبد فى شعره حرقة ، ولا لوعة ، لكنا نعثر مع بعض شعره فى الخمر حرقة غير معهودة كثيرا فى خمرياته مثل قوله :

وقهوة عتقت فى دير شماس تفتر فى كاسها عن ضوء مقباس
مزاجها دمع حاسيها فاى فتى لم يبك اذ ذاقها من حرقة الكاس
سلم ولكنها حرب لذائقها يا حبذا بأسها ما كان من باس

ويقول فى موضع آخر :

ردا على الكاس انكما لا تدريان الكاس ما تجدى
لو نلتما ما فعلت ما مزجت الا بدمعكما من الوجد

وبعد فلعل هذا هو الحب الوحيد فى حياته الذى خلف فى نفسه حرقة ، ولعله فشل ولم يبلغ منه مراده ، فحز فى قلبه أسى ، ومن يدرى لعل فشله فى الحب ، مع عقدة أمه جلبان وما كان يسمع عنها ومنها تركا فى نفسه احساسا مريرا من المرأة ساعده على أن ينحرف أو يحيد عنها ، ويشق فى حياته الجنسية طريقا غير السوى ، فيخرج الى هذا الشذوذ فى الغرام بالغلمان وكراهة النساء أو العزوف عنهن . ربما كان الأمر كذلك ، وربما كان لعشق النفس أو عقدة النرجسية كما أشار الأستاذ العقاد .

ولكن سائر شعره الغزلى فى النساء مع ذلك طبع بطابع جديد ، يختلف عن شعره فى جنان ، ويختلف عن غزل الغزلين . فيه ظرف وفيه تندر . تحس بروحه العذبة ودعابته تجريان مع ألفاظه وصوره . مثل قوله :

قـــل لندامـــاى وجلاســـى هل لى من عبـدة مـن آســى
او قائـــل يخبـــرها حالفـــا أن ليس منها بـى من بــاس
فراجعـى الوصـل فان زرتكم قـدر فراقى فاحلقى راسـى

وقولـــه :

اسـمى لوجهك يامنى صفة فكفى بوجهك مخبـرا باسمى
الله وفـق والـــدى لـــه من قبـل أن اهواك عن علـم
الله فـــى قتـــلى معذبتـــى لا تقتلى فـى غـير مـا جـرم
لا تفجعـــى امـى بواحدهـــا لن تخلفـــى مثـلى على امـى

ويحلو له أن يداعب بعض الجوارى ممن يلقاهن ، ويصور تلك الدعابة فى شعره · فيقول :

أين الجواب وأين رد رسـائلى قالت تنظـر ردهـا من قابـل
فمددت كفـى ثم قلت تصدقى قالت نعم · بحجارة وجنـادل
ان كنت مسكينا فجـاوز بابنا وارجع ، فمالك عندنا مـن نائل
يا ناصر المسـكين عند سـؤاله الله عاتب فى انتهـار السائل

وقد يماكس احدى الجوارى فى الطريق :

امشـى الى جنبهـــا ازاحمهـا وما فـى الطريق مـن ضيـق

ويقول فى جارية قصرية من جوارى قصور الخلافة أو الأمراء :

وقصريـــة ابصرتهـا فهويتها هوى عروة العذرى والعاشق النهدى
فلما تمادى هجرها قلت واصلى فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندى
فقلت لها لو كان فى السوق اوجه تباع بنقد حاضر وبسوى نقـد
لغيرت وجهى واشـتريت مكانه لعلك ان تهوى وصالى من بعد
وان كنت ذا قبح فانى شـاعر فقالت: ولو اصبحت نابغة الجعدى

ويقول وقد طلب قبلة من جارية فتأبت عليه وقالت له ، لا تلح في الطلب كالطفل :

سألتها قبلة ففزت بها … بعد امتناع وشدة الطلب
فقلت بالله يا معذبتي … جودي باخرى أقضي بها اربي
فابتسمت ثم ارسلت مثلا … يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطين الصبي واحدة … يطلب أخرى باعنف الطلب

وهو يعرف حب القيان ، وأنهن لا يثبتن على العهد ، وبهذا يخاطب « عنان » جارية الناطفي وكانت أديبة شاعرة ، وكثيرا ما كانت تجالسه مع بعض أصحابه :

قد قلت قولا فاسمعي ذاكم … مني وردي مثله يا عنان
اني لأهواك واني جبان … افرق من علمي بغدر القيان
يصلن من واصلنه خدعة … بكسرة الطرف ومزح اللسان
لست أرى وصلك أو تحلفي … ألا تخوني ، وتفي بالضمان
أو فذريني وصلي جاهلا … يلقى من الغيرة فيك الهوان

شعره التقليدي :

المديح :

ونخرج من حديث الخمر والغزل الى المديح « وكان مديحه طلبا للمال ، أو استعطافا أو تقربا أو خشية ، كذلك كان مديحه للرشيد وللفضل بن الربيع والأمين والخصيب » . ولكنه أخلص أحيانا اذا ما رضي أو اذا شعر بالمودة بينه وبين من يمدح كما هو الحال في بعض مدائحه للأمين - فيخاطبه فيها مخاطبة النديم

والصاحب ، ومدائحه للخصيب والى مصر ، لأنه أرضاه ، وأطلق له العنان فى ملاهيــه ٠

ومدائحه تجرى على سنن الشعر التقليدى ، فتبـدأ غالبـا بالنسيب ، ثم يمدح بالصفات المعروفة للمديح ، والتى يتناولها الشعراء ويجرون فيهـا على نهج واحـد ، وان اختلفت الصور والاساليب٠ ومن أجمل مدائحه ميميته فى مدح الأمين ومطلعها :

يا دار مـا فعلت بـك الأيـام ضامتك والايـام ليس تضام

وقد يروى الشطر الثانى : « لم تبق فيك بشاشة تستام » ٠ وقيل أن هذه القصيدة من أول ما أنشد أبو نواس فى مديحه ٠ وقد وصلة عليها بألف دينار ٠ومما يتردد من أبياتها فى كتب الأدب وعلى ألسنة الرواة اعجابا قوله :

ولقدنهزت مـع الغواة بدلوهم واسمت سرح اللهو حيث اساموا
وبلغت مـا بلغ امـرؤ بشبابه فاذا عصـــارة كـل ذاك اثـام

وقولـــه :

واذا المطى بنـا بلغن محمـدا فظهورهن على الرجـال حـرام
قربننا من خير من وطىء الحصى فلها علينا حرمـة ونمـام
رفع الحجاب لنا فـلاح لناظـر قمـر تقطـع دونـه الأوهـام
ملك اذا علقت يـداك بحـبله لا يعتريك البؤس والاعـدام

وكذلك قصيدته فى الخصيب :

اجـارة بيتينـا ابـوك غيـور وميسور ما يرجى لديك عسير

ومن جيد قوله فيها :

تقول التى من بيتها خف مركبى · عزيز علينا أن نراك تسير
اما دون مصر للغنى متطلب · بلى أن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر · جرت فجرى فى اثرهن عبير
ذرينى أكثر حاسديك برحلة · الى بلد فيه الخصيب أمير

ويصف هذه الرحلة من بغداد الى الفسطاط فيقول :

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا · من الصبح معتوق الأديم شهير
فما نجلت بالماء حتى رايتها · من الصبح مفتوق الأديم شهير
وغمرن من ماء النقيب بشربة · وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين اشراقا كنائس تدمر · وهن الى رعن المداخن صور
يؤممن أهل الغوطتين كانما · لها عند أهل الغوطتين ثؤور
وأصبحن بالجولان يرضخن صخرها · ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد · سنا صبحة للناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس · وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم · وفى الفرما من حاجهن شقور
ولما أتت فسطاط مصر اجارها · على ركبها ان لا تزال تجير

وله من قصيدة أخرى :

انت الخصيب وهذه مصر · فتدفقا فكلاكما بحر
لا تقعدا بى عن مدى أملى · شيئا فمالكما به عذر
ويحق لى اذ صرت بينكما · ألا يحل بساحتى فقر
النيل ينعش ماؤه مصرا · ونداك ينعش اهله الغمر

ويمــدح العباس بن عبد الله بن أبى جعفــر المنصــور برائيته الاعرابية الذائعة ومطلعها :

أيهــا المنتــاب مــن عفــرة	لست من ليــلى ولا ســمره
لا انود الطــير عــن شــجر	قــد بلوت المــر مــن ثمــره
فاتصـــل ان كنت متصـــلا	بقــوى من انت مــن وطــره
خفت ماثـــور الحديث غــدا	وغـــد ادنـــى لمنتظـــره
خـــاب من اســـرى الى بلــد	غـــير معلـــوم مـــدى سـفره

* * *

فــامض لا تمنــن عـلى يــدا	منــك المعــروف مــن كــدره

رثـــاؤه :

ورثاؤه كذلك كمديحه من اللون التقليدى ، وربما كان أقل حظا من حيث الجودة من مديحه . بل ربما كان الرثاء أضعف شعر أبى نواس كما يقول طه حسين . وهذا طبيعى لأنه لم يكن رجلا محزونا ، ولا ميالا للحزن ، وانما كان رجــلا مبتهجــا بطبعه . ويقول طــه حسين : « وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق فى رثائه الا مرة واحدة ، وذلك حين رثى الأمين بهذه الأبيات :

طوى الموت ما بينى وبين محمد	وليس لمــا تطــوى المنيــة ناشر
فلا وصل الا عبرة تستديمهــا	أحاديث نفس ما لها الدهر ذاكر
وكنت عليه احذر الدهر وحده	فلم يبق لى شىء عليه احــاذر
لئن عمــرت دور بمن لا اوده	فقــد عمرت ممن احب المقابــر

هجـاؤه : مختلف متعدد الموضوع والمناسبة ، فهو يهاجي غيره من الشعراء ممن تصدوا له أو ناقشوه أو نبشوا عواره ونسبه أو عاب دينه وزندقته • ومن هؤلاء يقف الرقاشي وأبان ابن عبدالحميد اللاحقي في المقدمة •

وربما هجـا العرب جميعا ، أو بعض قبائلهم ، ويصح أن يكون هذا الهجاء سياسيا فهو يذهب فيـه مذهب الشعوبية فـي التعرض للعرب وتراثهم وحياتهم وعقائدهم ، وعاداتهم ، فيزرى بهم ويذكرهم ضعـة حياتهم في الصحراء ، بين الضباب والذئاب، يشربون اللبن ، ويتزودون بتمرات •

ويهجو العلماء أحيانا من اللغويين وأصحاب الكلام ، ولعل أشهر من هجا منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى •

ويهجو بعض من يلقـى من المغنيين والقيان ، هجـاء نفور وتقبيح ، لأنه لم يلق عنده قبولا أو لم يقع في نفسه موقعا حسنا •

ففيما يتصل بأبان بن عبد الحميد يقول ابن المعتز : « كان في جميع أحواله أرفع طبقة من أبي نواس وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير ، فما سار فيه شيء على شهرة شعره • ولم يقل في أبي نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت في الدنيا ، وهي هذه :

ابـو نـــواس ابن هانـي وامـــــه جلبـــــان
والنـــاس افطـن شـيء الى حـــروف المعانـــي
ان زدت بيتـا على ذى ما عشت فاقطـع لسانى

ويهجو النواسي الرقاشي فيقول :

رايت قدور الناس سودا من الصلا ... وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يضيق بحيزوم البعوضة صدرها ... ويخرج ما فيها على طرف الظفر
يبنينها للمعتفى بغنائهم ... ثلاث كحظ الثاء من نقط الحبر
اذا ما تنادوا للرحيل سعى بها ... أمامهم الحولى من ولد الذر

ويهجو اسماعيل بن نوبخت كذلك بالبخل فيقول :

على خبز اسماعيل واقية البخل ... فقد حل في دار الامان من الاكل
وما خبزه الا كاوى ترى أبنها ... ولسنا نراها في الحزون وفي السهل
وما خبزه الا كعنقاء مغرب ... تصور في بسط الملوك وفي المثل
يحدث عنها الناس عن غير رؤية ... سوى صورة ما ان تمر ولا تحلى

ويخرج هجاؤه عن هؤلاء السادة من الناس ، أو عن زملائه من الشعراء الذين نابذوه القول هجاؤه لبعض من يستثقل ظلهم أو لا يستريح اليهم من الناس ، وخاصة من يتصل بهم فى حياته اتصالا مباشرا ، فى أوقات لذته ، أو طربه ، وأوقات جده سواء بسواء • فيقول فى مغن استثقله :

قل لزهير اذا اتكا وشدا ... اقلل او اكثر فانت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى ... صرت عندى كانك نار
لا يعجب السامعون من صفتى ... كذلك الثلج بارد حار

الزهد والنسك :

ولأبى نواس شعر فى الزهد اختلف الناس فيه ، لكنه على أية حال ياتى أكثره فى مرحلة متأخرة من حياته، ولعله شعر شاعر

أسرف على نفسه ، وشعر بأنه مثقل بالاثـم ، ينتظـره الحساب العسير ، أو لعله ملل من اللذة ، ولم يعد فى الجسم شدة الشباب ، ولا سورته ، بل أضعفته العلل ، وأسكنت من نوازعه ٠

ومن هذا الشعر قوله :

يـا كبير الـذنب عفـو اللـــــه من ذنبــك اكبــر
ليس للانســـــان الا مـا قضـى الله وقـــدر
ليس للمخـــلوق تدبـير بـــل الله المدبـــــر
اعظـــم الأشـياء فى اصغــــر عفـــو الله يصغـــر

شـعراء بصريـون

وكان يعاصر بشار بن برد وأبا نواس جماعة من الشعراء اختلفت ألوانهم ومذاهبهم · منهم أصحاب المديح التقليديون من أمثال : مروان بن أبى حفصـة :

وأصله من الموالى كبشار من دم فارسى ، كان جد أبيه يهوديا خراسانيا ، ولد سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م ، وكان أبـوه شاعرا ، نشأ باليمامة ، وكان يتردد على بغداد لمدح الخلفاء العباسيين ، كما مدح كثيرا من كبار رجال عصره أمثال معن بن زائدة وذكر أبو الفرج قوله فى شعره : « انى اذا أردت أن أقول قصيدة رفعتها فى حـول ، أقولها فـى أربعة أشهر ، وأتنخلها فى أربعة أشهر ، وأعرضها فى أربعة أشهر (١) ·

ومن هنا جاء شعره أكثر استواء من شعر بشار بن برد مما جعل سحبان بن ابراهيم الموصلى يفضله عليه ويقول : هذا هو أشد استواء شعر من بشـار ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب (٢) ومذاهبهـا ·

وأعجب يونس بن حبيب بقصيدته التى مطلعها :

طرقتك زائـرة فحـى خيالهـا   بيضاء تخلط بالحيـاء دلالهـا

---

(١) الاغـانى ٣/٥٥ ·

(٢) المصدر نفسه ·

وفضلها على قصيدة الأعشى :

رحلت سمية غدوة أجمالها (١)

ومن أشهر شعره مدائحه ومراثيه في معن بن زائدة .

وختم بـه ابن الأعرابـي الشعراء ، وروى أنه كان يسأل يونس بن حبيب أن ينقد شعره ويهذبه .ووصف العسكرى أبياتا لمروان فى مدح معن بن زائدة بأنها أحسن ما قيل فى المديح من أشعار المتأخرين (٢) وأعجب الطبرى بأبيات له فى مدح الفضل بن يحيى البرمكى (٣) .

وكان تقليديا فى بناء قصائـده ببدئهـا بالمقدمة الطللية ووصف الراحلة والرحلة . وأعجب المتوكل بقوله :

« بيضـاء فـى وجناتهـا ورد فكيف لنـا بشـمه »

فسر بذلك سرورا شديدا (٤) .

وكان مروان يتعرض للعلويين ، فقتله أحد أنصارهم سنة ١٨٢ هـ .

ومن شعراء العصر من سـاروا فى اتجـاه مروان بن أبى حفصة من تحكيك الشعر ، بل منهم من زاد فى ذلك الى حد التكلف

---

(١) تجريد الاغانى ١١٣٧ .

(٢) ديـوان المعانى لابى حلال .

(٣) تاريخ الطبرى ، أحداث سنة ١٧٨ هـ .

(٤) الديارات للشابشتي .

كالعتابى : كلثوم بن عمرو ، وتلميذه منصور النمرى • وكان من دأب العتابى تزويق الكلام ، وكان من البلغاء المعدودين والعلماء المشهورين • ولهذا ربما بدت على شعره سمات شعر العلماء من الكزازة والثقل •

وفيما يروى من حديث ابن دريد قال : « انه عالم باشعار العرب ، محتذ على مثالهم أحيانا ، وربما مال الى تعقيد الكلام ، على أنه ينال من مرامه من كلتا الجهتين • وسيأتى الحديث عنه •

المطبوعون :

ومن بين الشعراء المعاصرين لبشار نرى اتجاها آخر هو اتجاه المطبوعين ، ويعتبر بشار على رأسهم ، ومن المذكورين منهم السيد الحميرى •

والسيد الحميرى (*) : فهو مطبوع الشعر يرتجله فى المناسبات، ثم يتمه ، وهو من ذلك النمط سهل اللفظ ، قريب المعانى ، وان كان يذهب فى بعضه أحيانا الى القديم • وقد روى أبو الفرج أن أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى ، فانه لا يعلم أحد قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع •

(*) راجع ترجمته فى : تاريخ الطبرى ٢٧٨/٨ ، الاغانى ٢٢٩/٧ ، البيان والتبين ١٣٠/١ ، طبقات ابن المعتز ٣٢ ـ ٣٦ ، عيون التواريخ ، حوادث ١٧٣ •

وروى ابن المعتز عن كثرة شعر السيد رواية تقول أنه رأى حمالا عليه حمل ثقيل وقد جهده ، فقال : ما هذا ؟ قال : ميميات السيد (١) • ويقول ابن معتز أن قصائده الجياد كثيرة لو اشتغلنا بذكرها لطال شغلنا • » وربما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فى شعره فيحوى شعره من هذا الجنس •

وكذلك كان «أبو العتاهية» وأبان ابن عبد الحميد اللاحقى•

ويمتاز شعر المطبوعين بأنه يسوق أحاديث الناس كما يسمع منهم دون تكلف أو تعقيد ، أو صنعة ، وهو ينقل كذلك صور الحياة فى نمط واقعى بسيط سهل ، وكان شعر المطبوعين حديث جار لا قول منظوم •

قال ابن المعتز عن السيد الحميرى : كان شاعرا ظريفا ، حسن النمط ، مطبوعا جدا ، محكم الشعر مع ذلك وكان أحذق الناس بسوق الأحاديث والأخبار والمناقب فى الشعر (٢) •

وسئل السيد : مالك لا تستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ قال : لأنى أقول شعرا قريبا من

---

(١) طبقات ابن المعتز ص ٣٢ •

(٢) طبقات ابن المعتز ص ٣٦ •

القلوب يلذه السمع خير من أن أقول شيئا معقدا تضل فيه الأوهام (١) » • ومن شعره السهل قوله متغزلا :

هل عند من احببت تنويل	أم لا فان اللوم تضليل
أم في الحشى منك جوى باطل	ليس تداويه الأباطيل
علقت يا مغرور خداعة	بالوعد منها لك تخييل

وفي رثائه للحسين بن على تحس هذه البساطة فى اللفظ والوزن كذلك فى قوله :

امرر على جدث الحسـ	ـين فقل لأعظمه الزكيه
اعظما لا زلت من	وطفاء ساكبة رويه
واذا مررت بقبره	فاطل به وقف المطيه
وابك المطهر للمطهـ	ـر والمطهرة النقيه
كبكاء مولهة أتت	يوما لواحدها المنية

أبان بن عبد الحميد اللاحقى :

ومثل هذا شعر ابان بن عبد الحميد وكان كما يقول ابن المعتز : أديبا عالما ظريفا منطيقا مطبوعا فى الشعر مقتدرا عليه، يقتضب الخطب ويرسل الرسائل الجياد •

وهو صاحب البرامكة وشاعرهم ، وصاحب جوائزهم للشعراء • يقول فى مدح جعفر ابن يحيى البرمكى مشيدا بمواهبه :

---

(١) الاغانى ، طبع الساسى ١١/٧ •

أنا من حاجة الامير وكنز   من كنوز الامير ذو ارباح
كاتب حاسب اديب اريب   ناصح راجح على النصاح
شاعر مفلق اخف من الريشـــة مما يكون تحت الجناح
لو رآنى الأمير عاين منى   شمريا كالبلبل الصياح
لحيـة سبطة وانف طويل   واتقاد كشعلة المصباح
لست بالمفرط الطويل ولا   بالمستكن المجحدر الدحداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد   لغدو دعيت او لرواح
ابصر الناس بالجوارح والأكلـــب والخرد الصباح الملاح

وهى صفات تليق بالسمير والصاحب ، وقد نجح فى الدور الذى شغله عند البرامكة نديما وشاعرا سميرا فيه خفة الظل واللباقة والمعرفة بكل ما يحتاج اليه السيد أو الرئيس ، وفيه فضل من الفكاهة وسرعة البديهة والعلم ، زيادة على يمن الطالع لمن يصطفيه .

وهكذا ظل أبان نديما للبرامكة ولهارون الرشيد ، ونورد بقية القصيدة فى رواية أخرى (١) :

لى فى النحو فطنة واتقاد   انا فيه قلادة بوشاح
لو رمى الأمير أصلحه الله   رماحا حطمت سمر الرماح
وكثير الحديث من ملح النا   س بصير نجا منات الملاح
كم وكم قد خبات عندى حديثا   هو عند الأمير كالتفاح
فبمثلى تختار الملوك وتلهو   ورماحى للمشكل القداح

---

(١) راجع ، مطالع البدور للغزولى ١/١٨١ .

كل هــذا جمعت والحمــد لله ... عــلى أننــى ظريــف المــزاح
لست بالناســك المشمــر كميــ ــه ولا الفاتك الخليــع الوقــاح

وعما نقله من صور الحيــاة بلفظ سهل متداول جــار على الألسنة قوله يصف عرسا :

لــمــا رأيت البــز والشـــارة ... والفرش قد ضــاقت بــه الحارة
واللــوز والســكر يرمــى بــه ... من فوق ذى الــدار وذى الداره
مــن كــل صنف اتــوا بعضــه ... من صاحب طبـــل ومزمـــاره
قلت لمـــاذا اقيـــل اعجوبــة ... محمــد قـــد زوج عمـــاره

وقال يعاتب صاحب جوار وقبان بالبصرة اسمه أبو النضير ، وكانت جواريه يخرجن الى حلة أهل البصرة فكان أبان يهجــوه بذلك ، فيصفهن بالبرود (٢) :

قيــان ابــى النضــير مثلجــات ... غنــاء مثل شــعر أبى النضــير
فان رمت الغنــاء لديه فاجمــد ... اذا مــا جئتـــه للزمهريـــر

ولقدرته على صياغة الشعر السهل نقل كليلة ودمنة شعرا بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة كمــا يقول ابن المعتز (٣) قال : وهي هذه المزدوجة التى فى أيدى الناس - وقد نظمه فى أربعة أشهر وهى قريبة من خمسة آلاف بيت . ولم يقدر أحد أن يتعلق عليه بخطأ فى نقله ولا أن يقول ترك من لفظ الكتاب أو معناه . ثم حمله الى يحيى بن خالد فسر به سرورا عظيما وأعطــاه على ذلك ألف درهــم .

---

(٢) شرح الامالى ١/٢٧٧ .

(٣) طبقات المحدثين ٢٠٣ .

وله عدة منظومات أخرى مثل كتاب مزدك ، وكتاب السندباد، وسيرة أردشير ، وسيرة أنو شروان ٠

وله قصيدة كونية فى أحوال الدنيا تسمى ذات الحلل ، كما نظم فى فرائض الصوم ٠ وصنف كتبا فى حكم الهند ، والصيام والاعتكاف ٠ وكتب بعض الرسائل ٠ قال ابن المعتز : يقتضب الخطب ويرسل الرسائل الجياد ٠ واتصل الهجاء بينه وبين أبى نواس فقد رد عليه قصيدته المذكورة وكان ينفى عليه مكانته عند البرامكة ، يقول أبو نواس :

انت اولى بغسة الحظ منى	للمسمى بالبلبل الصياح
قبلوا منه حين غنى لديهم	اخرس الصوت غير ذى افصاح
ثم بالريش شبهه	مما يكون تحت الجناح
لم يكن فيك غير شيئين مما	قلت من بعد خلقك اللحداح
لحية سبطة وانف طويل	وهباء سواهما فى الرياح
فيك ما يحمل الملوك على الخرق	ويزرى بالسيد الجحجاح
فيك قبح وفيك عجب شديد	وطماح يفوق كل طماح
بارد الطرف مظلم الكذب تيا	ه معيد لحديث غث المزاح

وتوفى أبان بن عبد الحميد سنة ٢٠٠ هـ (١) ٠

(١) راجع فيه : الاغانى طبع بولاق جـ ٢٠/٧٣ وما بعدها ، تاريخ بغداد الخطيب البغدادى ٧/٤٤ ٠
الاوراق للصولى ١/٥٣ وما بعدها ، الفهرست لابن النديم ١١٩ ـ ١٦٣ ، الوزراء الجهشيارى ص ٢٥٩ ٠
حديث الاربعاء لطه حسين ٢/٢٦٢ ـ ٢٧٨ ، عصر المامون لاحمد فريد الرفاعى ١/٤٢٩ ـ ٤٣٤ ٠

ويمكن أن نضيف الى هذا الاتجاه المطبوع بالكوفة أمثال مطيع بن اياس ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ، وقد كان معهم أحيانا أبو العتاهية ، وانضم اليهم أبو نواس وتخرج على يدى والبة • كذلك ربما اتصل بهم حماد عجرد •

وتمثل هذه المدرسة الكوفية من المطبوعين اتجاها بعينه قد يبدو منه الاستخفاف بالحياة وبكل ما هو من مقدساتها ، والاستخفاف بالقيم الدينية والاجتماعية ، والمضى فى ذلك الى حد التطرف •

ونشير الى واحد من هذه المدرسة وهو مطيع ابن اياس • ولد ونشأ بالكوفة ، ويرى أبو الفرج أن نسبه فى بنى كنانة بن اياس (١) (توفى سنة ١٦٩ هـ) • والمعلومات عن حياته قليلة وغامضة ، ويبدو أنه مات ولم يعقب ذكورا ، وكانت له بنت واحدة •

وقد اشتهر فى أخريات الدولة الأموية بعد اتصاله بالوليد ابن يزيد الخليفة الأموى • وظل ملازما له الى أن قتل فعاد

---

(١) طبقات شعراء المحدثين لابن المعتز ٢٤١ ، تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان جـ ٣ ص ١٠٤ طبع دار المعارف •

الشاعر الى الكوفة . ونعرف أن الوليد كان عابثا مستهترا رقيق الاعتقاد والدين ، أو قل هكذا صوره التاريخ ، وقد ذكر من أخلاقه وشعره ما يقارب أخلاق مطيع وشعره وقد بعث الوليد اليه يحضره من الكوفة ليقيم معه فى قصره بالرصافة فى البادية وظل ملازما له حتى قتل .

وصف أبو الفرج ابن اياس فقال : أنه ظريف خليع ماجن ، وأطرى حسن عشرته . واعتبره من جماعة الزنادقة .

وليس من شك فى أن مطيعا لم يكن مهتما بالشعائر الاسلامية، وهو لم يثبت اعتقاده كذلك فى دين من أديان الفرس أو غيرهم كالمانوية والديصانية والمرقيونية ، لا نستطيع أن نعزو اليه مذهبا خاصا سوى بعض الميل الى التشيع ، وكان هذا الميل غالبا على بيئة الكوفة ، كما كثر معتنقوه بالبصرة ، بل وكان اتجاها شعبيا غالبا فى فصر العباسيين .

كان مطيع اذا معروفا بالظرف والزندقة ، والظرف ملازم للزندقة بمفهومها الاجتماعى . والزندقة بهذا المعنى تعنى الجمع بين ضروب من العبث والمجون كشرب الخمر والتهالك على اللذات والعبث بالنساء والغلمان .

ونسوق مثالا من شعره يصور طابعه العام ، بل طابع شعراء الكوفة أيضا ، وهو طابع البساطة وعدم التكلف ، والتعبير عن وقائع الحياة بسهولة دون عناء . يقول :

ان قلبی قــد تصــابی　　بعـد مــا كــان انابــا
ورمــاه الحب منـــه　　بسهـــام فاصـــابا
قــد دهـــاه شــادن يلبســـ　　ــس فی الجيـد سخابا
فهــو بــدر فی نقــاب　　فاذا القـــی النقابـــا
قلت شـمس يــوم دجـن　　حسرت عنهـا السحابـــا

واتصل مطيع بجماعة من رجــال عصره ومشاهــيره ، ولعل أشهرهم الوليد بن يزيــد الخليفة الأموی العابث ، كما أشرنا ، واتصل كذلك بعبد الله بن جعفر بن أبی طالب والی الــری سنة ١٢٧ هـ ، وقد لازمه الی أن غلبه جنود مروان عند خروجه عليهم ، ثم قتله بعد أبو مسلم الخراسانی سنة ١٢٩ هـ ٠

ولم تصلنا أخباره بعد مقتل الطالبی وقيام الدولة العباسية أيام السفاح ، لكننا نسمع عنه يرتاد مجالس محمد بن خالد ابن عبد الله العشری أمير الكوفة سنة ١٣٢ هـ ٠ ذهب الی البصرة فيما يبدو بعد أن نفاه المنصور ومنعه من منادمة ابنه جعفر ، ويبدو أن المهدی عطف عليه ، ولم يحجــر عليه ، علی مــا عرفه فيه من الزندقة ، مع تشدده فی تعقب الزنادقة ، لاعتقاده بأنه يتزندق زندقة اجتماعية سلوكية لا زندقة فكر وعقيدة ، وربما اعتبرت هذه الزندقة ضربا من الحرية الاجتماعية والفردية التی لم يكن المهدی يهتم بالحجر عليها ٠ بل ان خلفاء بنی العباس أطلقوا بعض القيود ، وتركوا للناس كثيرا من الحريات ما دامت لا تمس كيان الدولة ، والعقيدة الاسلامية من قريب ٠ وبعد موت المهدی اتصل بالهادی ومات فی أوائل خلافته سنة ١٦٩ هـ ٠

ويتصل اسم مطيع وأخباره بعصبة المجـان بالكوفة ، وهى جماعة من الشعراء ذكرنا أسماءهم يذهبون الى الزندقة الاجتماعية والحرية أو التحرر في القول والعمل ، وربما كان منشـأ هذه العصبة ببلاط الوليد بن يزيد ، بل لعلها نشأت أصلا بالكوفة ثم آوى الوليد جماعة منهم وشجعهم واتخذ موقفهـم ، وعمل عملهم وقال كالشعر الذى قالوه روحا وأسلوبا •

وكان مطيع يعى رأى الناس فيه وفى جماعته ، ويقابل تلك الآراء بعدم الاكتراث ، وقد أطلق عليهم الناس اسم الخلعاء ، أى الذين خلعهم المجتمع • والعجيب أنهم كانوا يتباهون بهذا اللقب فكل منهم يسمى نفسه الخليع • ويخاطب أصحابه بـه تباهيا لا تنابذا أو ازدراء •

وكان طبيعيا أن يرتبط مطيع بجماعـة الخلعاء من عصبة المجان ، أو الزنادقة ، وتكثر صلاته واجتماعاته بهـم ، كما أنه كان من الطبيعى أن يحدث بعض الخـلاف ويتبادلون الهجـاء ، والعبث والتنابذ ، وقد يفحشون فى عبثهم ، وممن ربطت الاخبار بينه وبينهم حماد عجرد ، ويحيى بن زياد الحارثى •

وكان كثير المماحكة لهذا الأخير ، وكان كثير الحب له وملازمته حتى آخر حياته •

ولم تكن صلاته قاصرة على هذه العصبة ، بل اتصل بجماعة من العلماء والكتاب فى عصره •

وكان مطيع مثالا للخلعاء الزنادقة فى حلاوة الحديث وظرف اللسان ، وجاذبيـــة الشخصية فقد كانت تلك ســمات عامة لكل زنديق • وأبو نواس يقول :

« تيـه مغــن وظـرف زنديق »

وكان كثير الاتصال بالقينات والجوارى فى بيوت القيان ، يعابثهن ويعابثنه ويروى شعره كل ذلك ، كما علق بالغلمان ولم يوله بهم وله غيره أمثال والبـــة وأبى نواس •

وكان حديثه فــى شــعره عن تلك الصلات حديثا صريحا مكشوفا لا مواربة فيه ولا حيــاء ، مثله فى ذلك مثل بشـــار فى شعره الفاضح •

وربما عثرنا فى بعض شعره فى ذلك العبث والمجون ، وشعر الجنس • على شذرات من شعر العاطفة ، وخاصة فى تلك الفتاة التى تدعى « جوهـــر » ، يذكر بشعر بشار فى عبدة • وهو أظهر ما تهجره وتفارقه •

وجوهر جارية من كثيرات تعشقهن ، أو غازلهن ، أو علق بهن زمنا ، ونسمع منه عن مكنونة وريم ، وبربر •

ونفهم من حديثه عن جوهر أن لها صاحبة كانت تسمى بربر ، ويبدو أنها كانت تدير بيتا للقينات •

ومن غــزله :

لمـا خرجن من الرصــا فــة كالتماثيـل الحســان
يحففن أحــور كالغــزا ل يمير فى جدل العنان
قطعــن قلــبى حســـرة وتقسما بــين الأمــانى
ويـلى على تلك الشـــما ئل واللطيف من المعــانى
يا طــول حــر صبابتى بــين الغــوانى والقيــان

ويقول وقد خرج الى الحج كما فعل بشــار مع صاحبه ، فعرجــا على دير بالحــيرة :

خرجنــا نبتغــى مكـــة حجـــــاجا وزوارا
فلمـــا قــدم الحــيرة حـــادى جملــى حــارا
وقــد كــاد يفــور النجـــم للاصبــاح أوغــارا
فقلت احطط بهــا رحــلى ولا تحفــل بمن ســارا
فجددنا عهــودا سـلفت منـــا وآثـــارا
وقضينـــا لبانـــات لنـــا كانت وأوطـــارا
وصاحبنــا بهـــا ديــرا وقسيســـا وخمـــارا
وظبيــا عاقـــدا بـين (١) النقـــا والخصر زنــارا

ويصف دعوة اجتمع فيها مع صحبته (١) :

نعــم لنـــا نبيـــذ وعندنـــا حمـــاد
وخـــيرنا كثـــير والخـــير مســـتزاد
وكلنـــا مــن طـــرب يطـــير او يكـــاد
فلهونـــا لذيــــذ لــم يلهـــه العبـــاد
ان تشـتهى فســـادا فعندنـــا الفســـاد
او تشـــتهى غلامـــا فعندنـــا زيـــاد

(١) الاغانى جـ ١٢ ، الديارات ، وشعراء عباسيون ٤٤ .

ويقول معبرا عن اتجاهه وأصحابه :

اخلع غدارك فى الهوى　　واشرب معتقة الدنان
وصل القبيح مجاهرا　　فالعيش فى وصل القيان
لا يلهينك غير ما　　تهوى فان العمر فان

ويصنع سوى هذا الشعر فى اللذات ، والمجون ، شعرا آخر فيه الطابع الانسانى، فيه الحنين والحنان، وفيه الاسى من فوت الزمان وضياع الشباب، وفيه اللوعة بالفراق • ومنه تلك الأبيات التى قالها فى وداع ابنتــه (١) :

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى　　بانسكاب الدموع قلبا كئيبا
اسكتى قد حزنت بالدمع قلبى　　طالما حز دمعكن القلوبا
ودعى ان تقطعى الآن قلبى　　وتريني فى رحلتى التعذيبا
فعسى الله أن يدافع عنى　　ريب ما تحذرين حتى أوبا
ليس شىء يشاؤه ذو المعالى　　بعزيز عليه فادعى المجيبا
أنا فى قبضة الاله اذا كنــــت بعيدا أو كنت منك قريبا

ويقول فى نخلتين قامتا فى بلاد فارس النائية حيث لا ينبت النخل فى بلد اسمه حلوان هناك ذكرتــاه ببــلاده العربية حيث النخيل ، فيحن ويتذكر ويقول فى نغمة يمزج فيها الاسى والحنين :

أسعدانى يا نخلتى حلوان　　وابكيا لى من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفر　　ق بين الآلاف والجيران
ولعمرى لو ذقتما ألم الفرقـــة أبكاكما الذى أبكانى
أسعدانى وأيقنا أن نحسا　　سوف يلقاكما فتفترقان

---

(١) شعراء عباسيون ص ٣٣ ، الاغانى ج ١٢ •

كم رمتنى صروف هذى الليالى ... بفـراق الأحبـاب والخـلان
غـير انى لـم تلق نفس كمالا ... قيت من فرقة ابنـه الدهقـان
جـارة لى بالـرى تذهب همى ... ويسـلى دنوهـا احـزانى
فجعتنى الأيـام اغبط ما كنـ ... ـت بصـدع للبـين غير مـدان
وبرغمى أصبحت لا تراهـا العـ ... ـين منى واصبحت لا ترانى
ان يكن قد تركتنى فقد تركت بى ... لهبـا فى الضمـير ليس بـوان
كحريق الضرام فى قصب الغـا ... ب رمتـه ريحـان تختلفـان
فعليـك السـلام منى ما صـاغ ... سـلاما عقلى وفاض لسـانى

ومثل هذه النغمة الحزينة التى بدأت تظهـر فى شعره المفاخـر نجدها فى الأبيات التى يشكو فيها فراق الشباب. يقول (١) :

انى لبـاك على الشباب ومـا ... أعرف من شـوقى ومن طربـى
ومن تصابـى ان صبوت ومن ... نارى اذا ما استعرت فى لهبـى
ابكـى خليـلا ولى ببهجتـه ... بـان باثـواب جـدة قشب
على الأفحـم الأثيث مهتـدلا ... على جبينـى تهـدل العنب
كان صفيى دون الصفى وذا الألفـ ... ـفة منى فى الود والحدب
كان خليلى على الزمان فان ... راب ريب أبـى فلـم يـرب
كان اذا نمت قال قم فاذا ... قمت سـما بى لأعظـم الرتب
وكان انسى اذا فرغت لـه ... وكان حصنى فى شدة الكرب
وابابى انت مـن اخـى ثقـة ... لوكان تغنى مقالتى بابـى
كـل خليـل مضـى ففارقنـى ... كان شـعرى لوثوى فلم يغـب
فارعـه عنى يا زمـان فقـد ... صرت لـه فى الأذى وفى التعب
ويحـك يا دهر كيف جئت بما ... اكـره جهـرا عـلى من كثب

---

(١) شعراء عباسيون ص ٣٣ .

شوهتني بعد منظر حسن ... كان فيه سبائك الذهب
قلبت لوني الى السواد وقد ... بيضت رأسي فصار كالعصب
ما زلت ترمي مخي فترهقه ... وتنتحي بالفتور في عصبي
حتى كاني ولم اقم لغب ... وكنت أعلو الذرى بلا لغب

ولمطيع ابن اياس ديوان جمع بعد وفاته وذكره ابن النديم فى الفهرست ، لكنه لم يصل الينا ، وكان يقع فى ١١٠ ورقات.

ويرى العلماء أن مطيعا لم يكن من الفحول ، وأنه لم يكن المقدم كذلك فى طبقته ويقدم عليه الجاحظ أبان بن عبد الحميد.

وقد تناقلت شعره كتب الأدب ، وغنى فيه المغنون فى بلاط الخلفاء لرقته وسهولته، وتناقلته عامة الناس بالكوفة والبصرة وبغداد أكثر من خاصتهم .

النمط الأعرابى ومدرسة البداوة :

ونترك هذه الجماعة من المطبوعين الى لون آخر ، واتجاه غيره هو الاتجاه الاعرابى أو الشعر البدوى الطابع ، ويقف على الطرف المقابل لشعر المطبوعين من أبناء الامصار والحضر ممن ذكرناهم .

ومن ذهب هذا المذهب من الشعر الأعرابى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى ، وبكر النطاح والحسين بن مطير وأبو الشيعي ، وأبو حية النميرى .

يقول ابن المعتز فى طبقات المحدثين عن عبد الملك (١) :
« حدثنى أبو الأسود الشاعر قال : كان الحارثى شاعرا مغلقا مفوها مقتدرا مطبوعا ، وكان لا يشبه بشعره شعراء المحدثين الحضريين ، وكان نمطه نمط الأعراب ، ولما قال قصيدته المعروفة العجيبة انقاد الشعراء وأذعنوا ، وهو أحد من نسخ شعره بماء الذهب ، والقصيدة التى ذكرناها هى :

ها أنذا يا طالبى ساعى   محتضر برى الى الداعى

فأجمعت الشعراء والأدباء على أن هذه الأبيات ليست من نمط عصره ، وأن أحدا لا يطمع فى مثلها ، ولعمرى أنه لكلام مع فصاحته وقوته يقدر من يسمعه أنه سيأتى بمثله ، فاذا رامه وجده أبعد من الثريا وكذلك الشعر المتناهى الذى ليس له فى الجودة غاية .

ويشير ابن المعتز الى مثال آخر لهذا النمط الأعرابى فى شعره ، فى رثاء أخيه ، ينهج فى أبياتها نهج متمم بن نويرة فى رثاء مالك أخيه (٢) . ويبلغ اعجاب ابن المعتز به حد قوله فى أحد أبيات القصيدة : هذا البيت سجدة الشعراء ، ولو لم يكن فى كتابنا الا شعر الحارثى لكان جليلا .

ومنه قوله :

ولما حضرنا لانقسام تراثه   وجدنا عظيمات النهى والمآثر

أى لم نجد مالا وانما وجدنا فعالا .

---

(١) طبقات شعراء المحدثين ص ٢٧٦ .

(٢) طبقات شعراء المحدثين ص ٢٧٧ .

شعراء الغزل

العباس بن الأحنف

أصله من عرب خراسان ومنشؤه ببغداد . ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال ترى له الشيء البارع جدا حتى تلحقه بالمحسنين .

وذكر أبو الفرج أنه كان شاعرا غزلا مطبوعا ، شريفا . وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف . لم يكن يتجاوز الغزل الى المديح أو الهجاء ، ولا يتصرف فى شيء من هذه المعانى . وقدمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه . قال : وكان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخلعاء . وكان غزلا ، ولم يكن فاسقا . وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب ، شديد التزين . وذلك يتبين فى شعره .

وكان قصده الغزل . وشغله النسيب . وكان حلوا مقبولا ، غزلا ، غزير الفكر ، واسع الكلام كثير التصرف (١) وحده » .

قال : قال عنه الجاحظ نقلا عن يموت بن المزرع : لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ما قدر أن يكثر شعره فى مذهب واحد ولا يجاوزه لأنه لا يهجو

---

(١) الاغانى ٨/١٥ .

ولا يمدح ولا يتكسب ، ولا يتصرف · وما نعلم شاعرا التزم فنا واحدا لزومه فأحسن (١) فيه وأكثر » ·

وقال فيه الأصمعى : قيل للأصمعى : ما أحسن ما تحفظ من أشعار المحدثين ، فقال : قول العباس ابن الأحنف :

لو كنت عاتبة لسكن لوعتى   املى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لى حيلة   صد الملول خلاف صد العاتب

وقال ابن المعتز فى طبقاته : لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس ابن الأحنف · ومن رقيق غزله الحضرى قوله :

قالت ظلوم سمية الظلم   مالى رايتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبى فاقصده   أنت العليم بموقع السهم

وقال :

سلبتنى من السرور ثيابا   وكستنى من الهموم ثيابا
كلما اغلقت من الوصل بابا   فتحت لى الى المنية بابا
عذبينى بكل شيء سوى الصد   فماذقت اقسى من الصدود عذابا

وللعباس بن الأحنف من المعانى الجميلة فى الوصف قوله فى الليل:

أيها الراقدون حولى اعينو   نى على الليل حسبه واقتدارا
حدثونى عن النهار حديثا   اوصفوه فقد نسيت النهارا

وقال :

والنجم فى أفق السماء كانه   أعمى تحير ما لديه حاير

(١) الاغاني ٨/٣١ ·

مراجع العباس بن الأحنف :

١ - الاغانى ٨/٣٥٢ ٠

٢ - تاريخ الطبرى ١٠/٧ ٠

٣ - تاريخ بغداد ١١/١٢٧ ٠

٤ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ٠

٥ - شذرات الذهب لابن العماد ١/٢٣٤ ٠

٦ - معجم الادباء لياقوت ٠

٧ - معاهد التنصيص ١/٢٠ ٠

٨ - الفهرست لابن النديم ١٦٣ ٠

٩ - الكامل للمبرد ٠

١٠- طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ٢٥٤ ٠

١١ - بروكلمان ١/٢٣ ٠

شعراء الحكمة

ويذهب بعض شعراء العصر (فى القرن الثانى) الى الحكمة والفلسفة ، فيضعون أشعارهم فى هذا اللون ، حتى يغلب عليهم . وعلى رأس هذا الاتجاه بالبصرة صالح بن عبد القدوس وعبد الصمد بن المعذل ، وبشر بن المعتمر .

صالح بن عبد القدوس :

وكان كما يقول ياقوت فى معجمه (١) حكيما أديبا فاضلا ، شاعرا مجيدا .

وكان يجلس للوعظ فى مسجد البصرة ، ويقص على الناس . واتهم بالزندقة الفكرية ، وكان ممن اجتمع مع بشار فى البصرة للنظر ودراسة بعض العقائد القديمة ، واتخاذ موقف منها ، وربما مال أو اتهم بالميل الى رأى الثنوية الفرس .

وقد أخذه المهدى بالزندقة ، ودمغه بقصيدة سينية يقول فيها :

والشيخ لا يترك اخلاقه	حتى يوارى فى ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى جهله	كذى الضنا عاد الى نكسه

قال البغدادى : قال له المهدى : ألست القائل هذه الأبيات ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين، قال: فانت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم فيك بحكمك فى نفسك ، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر .

---

(١) معجم الادباء ، طبع الرفاعى ٦/١٢ .

وقيل أن المهدى أبلغ عنه أبياتا يعرض فيها بالنبى صلى الله عليه وسلم فأحضره المهدى وقال له : أنت القائل هذه الابيات ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، والله ما أشركت بالله طرفة عين ، فاتق الله ولا تسفك دمى على الشبهة . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : ادرءوا الحدود بالشبهات .

قال البغدادى : ويقال أنه كان مشهورا بالزندقة ، وله مع أبى الهذيل العلاف مناظرات ، وشعره كله أمثال وحكم وآداب .

ومن مستحسنات شعر صالح القصيدة القافية (١) :

المرء يجمع والزمان يفرق	ويظل يرقع والخطوب تخرق
ولئن يعادى عاقلا خير له	من أن يكون له صديق احمق
فارغب بنفسك لا تصادق أحمقا	ان الصديق على الصديق مصدق
وزن الكلام اذا نطقت فانما	يبدى عيوب ذوى العقول المنطق
ومن الرجال اذا استوت أحلامهم	من يستشار اذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل واد قلبه	فيرى ويعرف ما يقول فينطق
فبذاك يوثق كل امر مطلق	وبذاك يطلق كل أمر يوثق
وان أمرؤ لسعته أفعى مرة	تركته حين يجر حبل يفرق

وقد عاش صالح بن عبد القدوس فى البصرة ، وهرب منها عندما طلبه المهدى الى دمشق ويذكر له كتب فى الديانات منها كتاب « الشكوك » ، وذكر أبو هلال أن ديوان صالح ابن عبد القدوس اشتمل على ألف مثل من الأمثال العربية وألف مثل

---

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .

من الأمثال غير العربيــة . وجمع لويس شــيخو قطعا من أشعار صالح في مجلة المشرق أعــداد ٢٢ ص ٨١٩ ـ ٨٢٩ ، ٩٣٦ ـ ٩٣٨ .

وصالح هذا بطــل قصة صالــح بن عبد القدوس مع راهب الصين التي نشرها لويس شيخو بمجلة المشرق في العدد ٢٤/٢٧٤. ص ٢٧٨ ـ ٣٣٤ ـ ٣٣٨ .

ويروى الصلاح الصفدى (١) في « الغيث الذى انسجم في شرح لامية العجم » أنه حكى أنه توفى لصالح بن عبد القدوس ولد فحضر اليه أبو الهذيل العلاف ومعه ابراهيم النظام ، فوجداه يتلظى حزنا على ولده . فقالا له : لا أرى لتحرقك وجهــا ، اذ الناس عندك كالنبات . فقال : يا أبا الهذيل انما تحرقى لأنه لم يقرأ كتاب « الشكوك » فقال : وما هذا ؟ قال : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى كأنه لم يكن وفيما لم يكن حتى كأنه كان . فقال له ابراهيم النظام : فظن أنت على أنه لم يمت وان كان قد مات ، وعلى أنه قرأ الكتاب وان لم يكن قد قــرأه ، فلم يحر جوابــا » .

وقتل صالح وصلب ببغــداد سنة ١٦٧ هـ (٢) .

---

(١) شرح اللاميــة ص ٤٧ .

(٢) ذكره توماس آرنولد في كتابه عن المعتزلة .

مختارات من شعر صالح بن عبد القدوس :

بقيـة القافيــة :

مـا الناس الا عامـلان فعامل ... قد مات من عطش وآخر يغـرق
والناس في طلب المعاش وانما ... بالجـد يرزق منهم من يـرزق
لكنه فضـــل المليـك عليهـم ... هـذا عليـه موسـع ومضيـق
واذا الجنـازة والعروس تلاقيا ... الفيت من تبـع العرائس ينطـق
ورأيت من تبع الجنازة باكيـا ... ورأيت دمـع نوائـح يترقـرق

ويروى هذان البيتـان :

واذا الجنازة والعروس تلاقيـا ... ورأيت دمـع نوائـح يترقـرق
ورأيت من تبـع الجنازة ينطق

لو سـار ألف مدجج في حاجـة ... لم يقضهـا الا الـذى يترفـق
ان الترفـق للمقيـم موافـق ... واذا يسافـر فالترفـق أوفـق

ويقـــول :

ان الغنى الـذى يرضى بعيشته ... لا من يظل على ما فات مكتئبا
لا تحقـرن من الايـام محتقـرا ... كل امرىء سوف يجزى بالذى اكتسبا
قد يحقر المرء ما يهوى فيركبه ... حتى يكون الى توريطـه سـببا

ويقول ياقوت : وأشهر شعره قصيدته البائية التى مطلعها :

صرمت حبالك بعد موتك زينب ... والدهـر فيـه تصـرم وتقلب
وكذاك ذكـر الغانيـات فانـه ... آل ببلقعـــة وبـرق خلب
فدع الصبا فلقد عداك زمانـه ... واجهد فعمرك مر منـه الأطيب

ومنهــا :

واحذر معاشرة الدنـى فانهـا ... تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
يلقاك يحلف أنـه بـك واثق ... واذا تدارى عنك فـو العقـرب

ومن شـعره :

ليس من مات فاستراح بميت ... انمـا الميت ميت الأحيـاء
انمـا الميت من يعيش كئيبـا ... كاسفا بالـه قليـل الرجـاء

وقولـه :

اذا قلت قدر أن قولك عرضة ... نبـاردة أو حجـة لمخاصـم
وان امرءا ألم يخش قبل كلامه ... الجـواب فينهى نفسه غير حازم

وقـال :

لا اخون الخليل فى السر حتى ... ينقل البحـر فى الغرابل نقـلا
او تمور الجبـال مور سحاب ... متقلات وعت من المـاء جمـلا

مراجـع :

١ - تاريخ بغـداد للخطيب البغدادى ٣٠٣/٩ - ٣٠٥ .
٢ - تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٧١/٦ - ٣٧٦ .
٣ - معجم الادباء لياقوت ٢٦٨/٦ .
٤ - فوات الوفيات لابن شـاكر ١٩١/١ .
٥ - عصر المامون لاحمد فريد الرفاعى ٤٠٣/٢ - ٤٠٦ .
٦ - مجلة المشرق للاب لويس شيخو .
٧ - معانى الادب للويس شيخو .
٨ - نكت الهميان للصفدى ص ١٧١ .
٩ - عيون التواريخ - حوادث سنة ١٦٠ - ١٦٧ .
١٠- امالى المرتضى ١٠٠/١ .
١١- الكامل للمبرد ٢٢٧ .
١٢- محاضرات الادباء للراغب الاصبهانى ١٨٥/٢ .
١٣- الفرست لابن النديم ٢٣١ .
١٤- حياة الحيوان للدميرى ٢٤١/١ .

أحمد بن المعذل (١) :

عاش بالبصرة ، وكان صاحب زهد وورع وعبادة ، وانقطاع عن الناس وتقدم في الاعتزال وكان أخوه الشاعر عبد الصمد ابن المعذل على الضد منه صاحب مجون ، شديد الاقدام على الأعراض ، ردىء السيرة خبيث الهجاء •

حكى أنه كان في مكان وتحته عبد الصمد في جماعة من أصحابه ، وقد انهمكوا على شرابهم وعكفوا على لذتهم ، فعلت أصواتهم وجلبتهم ، بما هم فيه من صوت الملاهى والغناء ، وغير ذلك ، فشوشوا على أحمد فى تعبده ، فناداه : يا عبد الصمد ، أأمنت أن يحل بك وبهؤلاء عذاب من الله ، فرفع عبد الصمد رأسه اليه ، وقال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » •

وله هجو ظريف فى أخيه عبد الصمد • وهو قوله :

قال لى أنت أخو الكلب وفى ظنه انه قد هجانى واجتهد
أحمد الله تعالى انه ما درى أنى اخو عبد الصمد

قال الصفدى : وهذا الهجو فى غاية الأذى على ما فيه من اللطافة (٢) •

---

(١) راجع ترجمته فى الاغانى ١٣/٢٢٦ ، الكامل للمبرد ١/٢٢٤ ، وطبقات ابن المعتز ٣٦٨ •

(٢) شرح لامية العجم ١/٢٥٥ •

شعراء الزهد والوعظ :

وربما اتصل شعراء هذا الاتجاه بسبب بالاتجاه السابق فى الحكمة ، وقد يشاركونهم بعض معانى أشعارهم ، الا أن الطابع الدينى هنا أغلب ، والزهد هنا ربما كان متخذا من عناصر غير اسلامية الا أنه يعتمد على تفكير وتراث اسلاميين من القرآن والحديث. ونشير من أصحاب هذا الاتجاه الى شاعرين أحدهما مشهور وهو أبو العتاهية والآخر لا يعرفه غير الخاصة وهو محمود الوراق ، وسابق البربرى .

أبو العتاهية :

ولد أبو العتاهية بالكوفة سنة ١٣٠ هـ ، وكان عنزى الولاء . وكان أول أمره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين . وقيل له فى ذلك ، فقال : أريد أن أحفظ كلامهم .

وكان نظيفا أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جيدة ، وهيأة حسنة ، ولباقة وحصافة سمى أبا العتاهية لميله الى المجون ، والتعته ، وقيل أنه سمى كذلك لأن المهدى قال له : انك انسان متحذلق متعته .

اتصل من خلفاء بنى العباس بالمهدى والهادى ، وهارون الرشيد ، وحظى عند هارون خاصة حتى قيل انه كان لا يفارقه فى سفر ولا حضر . وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف

درهم ، سوى الجوائز وقيل أنه تزهد فى أيام الرشيد . ويروى انه لما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة والقول فى الغزل . وطلب الرشيد اليه أن يعود الى حاله الأولى فرفض عليه وحبسه لذلك وضيق عليه .

وعمر أبو العتاهية فتوفى سنة ٢١٠ هـ أو سنة ٢١١ فى سنة ٢٢٣ فى خلافة المأمون .

وعرف أبو العتاهية بسهولة شعره وعدم تكلفه القول ، ولذلك سلك مع أصحاب الطبع كالسيد الحميرى وأبان بن عبد الحميد .

وقال أبو الفرج : « قال الشعر فبرع فيه وتقدم ، ويقال : أطبع الناس بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية . وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته . وكان أبو العتاهية غزير البحر ، لطيف المعانى ، سهل الألفاظ . كثير الافتنان ، قليل التكلف ، الا أنه مع ذلك كثير الساقط والمرذول .

وكان الأصمعى يقول : شعر أبى العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب ، والتراب والخزف والنوى .

وقالوا : أنه أقدر الناس على وزن الكلام ، حتى أنه يتكلم بالشعر فى جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس .

---

(١) ترجم له ابن المعتز فى طبقاته ص ٣٦٨ وقال توفى سنة ٢٣٠ هـ .

قال المبرد : كان أبو العتاهية حسن الشعر ، قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ، ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتـدارا .

وحاول التجديد فى الأوزان ، قال محمد ابنه : سئل أبى : هل تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض . وله أوزان لا تدخل فى العروض . يعنى أنه كان يخـرج عن تلك الأنماط المذكورة المترددة بين الشعراء والتى حصرها الخليل فى الأوزان المعروفة بالبحـور .

وقال الشعر فـى موضوعاته المعروفة ، وكان فـى شبابه يتغزل ، قال ابن المعتز : وغزله لين جدا ، مشاكل لكلام النساء ، موافق لطباعهن (١) :

وعرف غزله بعتبة من جوارى القصر ، ومنه قصيدة مشهورة يقول فيها :

أعلمـت عتبـة أننـى	منهـا علـى شرف مطـل
وشكوت ما ألقى اليهـا	والمدامـع تستـهل
حتـى اذا برمت بمـا	اشـكو كما يشكو الأذل
قالت : فـأى الناس يعـلم	مـا تقـول . فقلت كـل

وهى قصيدة كان يتغنى بها .

---

(١) طبقات ابن المعتز ٢٢٨ .

قالوا ربما بنى شعره على أعاريض غريبة ليست من بحور الشعر • قال ابن المعتز : « كان أبو العتاهية لسهولة شعره ، وجودة طبعه فيه ربما قال شعرا موزونا ليس من الأعاريض المعروفة • وكان يلعب بالشعر لعبا • ويأخذ فيه كيف يشاء » • وذكر أنه جلس يوما الى قصار ، فسمع صوت آلته (١) فقال باقتداره شعرا على ايقاعها منه هذا البيت :

المنـــون مفضيـــات واحــدا ثــم واحــدا

كأنه نظر الى القصار أخذ ثوبا بعد ثوب ، فشبهه بأخذ انسان بعد انسان وأخذ الوزن من وقع الكوبين (٢) •

زهــده :

زهد أبو العتاهية ولبس الصوف ، وقصر شعره على المواعظ وذكر الموت والحشر والنار والجنة •

وقال ابن المعتز متهما اياه بالزندقة : والذى يصح لى أنه كان ثنويا يعنى يعتقد بالهين •

ونقل ابن المعتز أنه كانت له بنتان احداهما يقال لها بالله والأخـرى لله • وكان له ابن زاهد ناسـك •

---

(١) آلة « الكوبـه » وهى المغـزل •

(٢) طبقات ابن المعتز ٢٢٩ •

يقــــول :

ما أسرع الأيـام فى الشـهر　　وأسرع الأشـهر فى العمـر
ليس لمـن ليست لـه حيلـة　　موجـودة خـير من الصبـر
فاخط مع الدهر اذا ما خطا　　واجر مع الدهر كما يجرى
من سـابق الدهـر كبا كبوة　　لم يستقلهـا آخـر العمـر

ولا ندرى على وجه التحديد ما الذى حدا بأبى العتاهية الى أن يستغرقه هذا اللون الجديد من الشعر أعنى به الزهد ، أكان فشله فى الحب كما تقول بعض الروايات ؟ التى تقول أنه كان مفتونا بجارية لآل معن اسمها سعدى ، فلم يظفر فى حبه منها بطائل • كذلك يروى أنه كان مفتونا بجارية من جوارى المهدى اسمها عتبة ، ذكرها فى شعره فقال :

الا يا عتبـــة الســـاعة　　أمـوت الســاعة الســاعة

ويقال انه ألقى فى السجن لغزله بها •

وربما كان اتجاهه الى الزهد ضربا من الرجعة أو التوبة ، أو ضربا من التعويض عن شعر النقص باعتباره من الموالى ، فوجد القول فى الزهد ارضاء لنفسه كما وجد بشار فى الهجاء والازراء بالعــرب ترضية نفسية له • ولعــل الشعوبيــة بمعنى الايمــان بالمساواة بين الناس، وبين العرب والموالى خاصة كان من دوافعه الى هذا اللون حيث يقف الناس جميعا عبادا لله سواء بسواء •

ومهما يكن من أمر فانه قال فى الزهد ، ولم يبق لنا سوى هذا الشعر الذى يضمه ديوانه المتداول بين الناس ، ولم يبق من

موضوعاته الأخرى سوى قصائد مفرقات ، وأبيات منثورة هنا وهناك فى كتب الأدب كالأغانى • وقيل انه لما تزهد أحرق ما كان له من شعر فى الغزل •

وتتعدد معانى الزهد عند أبى العتاهية فهى دعوى الى القناعة والرضا بالقليل فى هذه الدنيا ، فالحياة فيها خيال زائل ، وكل ما أصاب الانسان فمقدور عليه ، مكتوب •

ولذلك ينبغى على الانسان أن يعتبر الدنيا دار عبور والآخرة دار قرار ، وهو يعمل فى الدنيا ليحصد فى الآخرة ، وحسن العمل ذخيرة فى دنياه وفى عقباه ، وينبغى أن لا يؤلم بعمله أو يجرح غيره •

يقول :

ياصاحب الروح ذى الانفاس فى البدن	بين النهار وبين الليل مرتهن
لقلما يتخطاك اختلافهما	حتى يفرق بين الروح والبدن
لتجذبنى يد الدنيا بقوتها	الى المنايا وان نازعتها رسنى
لله دنيا اناس دائبين لها	قد ارتعوا فى رياض الغى والفتن
كسائمات ترتع تبتغى سمنا	وحتفها لو درت فى ذلك السمن

ومن مشهور شعره فى الزهد مزدوجته المشهورة ذات الأمثال : يقول فيها :

حسبك مما تبتغيه القوت	ما اكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجا وخافا

هى المقـادية فلمنـى أو فـذر ان كنت أخطأت فما أخطأ القدر
لكل مـا يؤذى وان قـل ألـم ما أطول الليل على من لم ينـم
مـا انتفع المـرء بمثـل عقله وخير أجـر المـرء حسن فعلـه
ان الفســاد ضــده الصـلاح ورب جـــد جـره المـــزاح
من جـعل النمـام عينـا هلكا مبلغـك الشـر كباغيـة لكـا
ان الفـراغ والشباب والجـده مفسـدة للمـرء أى مفسـده
يغنيـك عن كل قبيـح تـركه يرتهن الـرأى الأصيل شـــكه
مـا عيش مـن آفتـه بقـاؤه نغص عيشـا كلـه فنــاؤه
يـا رب من اسخطنا بجهـــده قد سـرنا اللــه بغيـر حمـده

* * *

- ٣ -

أصحـاب البديـع

مسلم بن الوليـــد

« صريـع الغـوانى »

(١٤٠ هـ - ٢٠٨ هـ)

كوفى المولد ، نشأ بها وتوجه الى بغـداد فى شبابه ، وكان الشعر بضاعته ، فأخذ يرتاد مجالس الكبراء وندوات الوزراء والقادة من أمثال البرامكة ويزيد بن مزيد الشيبانى .

قال المبرد : « وكانت البرامكة ويزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد يرونه ويتعطفون عليه : ، ويتفقدون أحواله » .

ولم يمدح الخليفة ، لأنه فيما يبدو لم يستطع بلوغ مقامه ، ولم يكن له حظ المثول بين يديه منشدا كغيره من الشعراء ، بل لانه رأى من هو أقل مكانة منه يحظى بالمكانة فى بلاط الخلافة من دونـه .

وقال المبرد : « ان مسلما كان يمدح من دون الخليفة ، ولا يطمع فيه ، فكان يقول : أرى نفسى تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء من لا يوازينى فى أدب ولا يماثلنى فى نسب ، ولا يصلح أن يكون شعره خادما لشعرى » .

واستطاع مسلم أن يبلغ مقام الرشيد وأنشده واحــدة من روائعه ومنها قوله :

وما العيش الا انتروح معالصبا　　صريعحميا الكاس والاعين النجل

وقيل أن الخليفة لقبه بصريع الغوانى ·

وكان الشاعر غزلا محبا للهو ومجالسه ، ينفق ماله فى سبيل متعه مع أصحابه وجلسائه · يقال أنه « كان اذا كسب مالا جمع من أصحابه فلم يخرج من بيته أكلا وشربا ولعبا ولهوا حتى يبقى مما كسب قوت شهر فيظهر » ·

واشتهر بهذا باللقب الذى عرف به بين الشعراء ، وربما كان ما نسبه اليه الرشيد تحصيلا لواقع ما عرف به بين الناس ، أو لمــا تردد كثيرا فى شعره ، وروى أنه علل اللقب أيضا مؤكدا ذاك المعنــى :

ان ورد الخدود والأعين النجل وما فــى الثغــــور مــن اقحــــوان
واسوداد الصدغين فى أوضح الخـــد وما فــى الصدور من رمان
تركتنــى لــدى الغوانى صريعا　　فلهــذا أدعــى صريع الغوانــى

ومع استهتار مسلم بهذا اللقب فلم يبلغ فى تهتكه ومجونه مبلغ غيره ممن سمعنا عنها من معاصريه أمثال بشار بن برد وأبى نواس ويحيى بن زياد · ووالبــة ·· وغيرهم ·

ونقل عن مسلم بن الوليد أنه لم يكن يجهر باللهو ولم يتهتك تهتك غيره ، وان شدا فى شعره بالخمر والنساء ·

ولقد كان الوقـار ملازما لـه ، والتأديب من سماته . ولعل شخصيته تلك قد انعكست على شعره ، فقد عرف بالتوقر فيه ، والتصنع ، والتكلف أحيانا .

وأعد مسلم نفسه فى الشعر اعدادا طيبا ، حفظ كثيرا من شعر العرب ، وروى لفحولهم أمثال امرىء القيس وزهير والنابغة ولبيد وعمر بن أبى ربيعة .

وكان يحب شعر الغزل ويترنم به ، وخاصة فى شبابه .

وقد جمع فى شبابه بالكوفة بين شعر البادية وشعر المحدثين ، وامتزجت فى نفسه الطريقتان وتعانق النمطان .

ولما كان شعر المديح عماد الشعراء فى حياتهم للتكسب به فقد لجأ اليه مسلم وقصد به كبار الرجال وضمن قصيدة المديح طرائف صنعته ، وبديع فنـه .

ويأتى بعد المديح شعر الوصف والغـزل ، وخاصة وصف الغزل ، وخاصة وصف الخمر ومجالس الشراب .

وكان طبيعيا فى بغداد فى هذا العصر وتلك البيئة أن يبدع فى الفنين معا كما أبدع من قبل بشار وأبو نواس .

وصف مجالس الخمر كما وصفها أبو نواس ، وجعلها مجوسية الأنساب مسلمة البعل ، ربيبة الشمس قد غذتها فى كرمها ، وراح الشاعر يخطبها ويغالى فى مهرها . وتدور الخمر بيـد ساق أو

ساقية ، وفى أثناء الشرب تغنى القينة الحسناء ، فتبعث أوتارها بالعود ، أو تنفخ فى مزمار ٠

وفى صفته للنساء فى غزله صفة أمرىء مدله فى حبهن ، قد نالت منه الاعين النجل، وهو اذا وقع فى هوى واحدة منهن ، يكاد يموت صبابة ، وقصص زياراتـه لحبيباته واضحـة جميلة شيقة فى شعره ، تذكر بقصص امرىء القيس أو عمر بن أبى ربيعـة ٠

وهكذا يجمع مسلم بين لذة الخمر وحب النساء فى شعره وهو القائـل :

ما لـذة الدنيا اذا مـا لم تكن   فيهـا فتى كاس صريع حبائب

قال يمدح يزيد بن مزيـد :

أجررت حبل خليع فى الصبا غزل   وشمرت همم العـذال فى العذل
هاج البكاء على العين الطموح هوى   مفـرق بـين توديـع ومحتمـل
كيف السلو لقلب راح مختبـلا   يهذى بصاحب قلب غـير مختبل
عاق العزاء غداة البـين منهمل   من الدموع جرى فى اثر منهمـل
لولا مداراة دمع العين لانكشفت   منى سرائر لم تظهر ولم تخـل
أما كفى البين ان ارمى باسهمه   حتى رمانى بلحظ الأعين النجل

الى أن يقـول :

وليلة خلست للعـين مـن سنة   هتكت فيها الصباعن بيضة الحجل
قدكان دهرى ومابى اليوم من كبر   شرب المدام وعزف القينة العطل
اذا شكوت اليهـا الحب حفزها   شكواى فاحمر خداها من الخجل
كم قد قطعت وعين الدهر راقدة   ايامه بالصبا فى اللهو والجـذل

ويقول فى قصيدته المشهورة التى مدح بها الرشيد :

أديرا على الراح لا تشربا قبلى ... ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى
فما حزنـى أنى أمـوت صبابة ... ولكن على من لا يحل له قتـلى
احب التى صدت وقالت لتربها : ... دعيه• الثريا منه اقرب من وصلى
اماتت واحيت مهجتى فهى عندها ... معلقة بين المواعيـد والمطـل
وما نلت منها نائلا غير انني ... بشجو المحبين الاولى سلفوا قبلى
بلى ربما وكلت عينى بنظـرة ... اليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصبابـة عـاذلى ... فلم يدر مابى فاسترحت من العذل
ومانحـة شرابهـا المـال قهـوة ... مجوسسية الانساب مسلمة البعل
ربيبة شمس لم تهجن عروقها ... بنار ولم يقطع لها سعف النخل
تصد بنفسى المـرء عما يغمـه ... وتنطق بالمعروف ألسنة البخـل
قد استودعت دنالهـا فهو قائم ... بها شفقا بين الكروم على رجل
بعثنا لها منـا خطيبـا لبعضها ... فجاء بها يمشى العرضنة فى مهل

ويقول فى صفة الخمـر :

اغارت عـلى كف المدير بلونها ... فصاغت لـه منها أنامل كالذبل

* * *

ودارت علينا الكاس من كف طفلة ... مبتلة حـوراء كالرشـا الطفـل
وحن لنـا عـود فبـاح بسرنا ... كأن عليه ساق جاريـة عطـل
تضاحكه طورا وتبكيه تـارة ... خد لجة هيفاء ذات شـوى عبل
اذا ما اشتهينا الأقحوان تبسمت ... لنا عن ثنايا لا قصار ولا ثعل
وأسعدها المزمـار يشدو كأنـه ... حكى نائحات بتن يبكين من ثكل

* * *

وسـاقية كالريم هيفـاء طفلة ... بعيدة مهوى القرط مفعمة الحجل
تنزه وجهى فـى محاسن وجهها ... اذا احتثت الطاسات يغنى عن النقل
سأنقاد للـذات متبـع الصبـا ... واغلو صريع الراح والأعين النجل

وتحسب عمـر بن أبى ربيعـة قـد بعث فـى حكايته لهذه الزورة من زواراته الليلية :

وزائرة رعت الكـرى بلقائهـا	وعاديتفيهاكوكبالصبحوالفجرا
أتتنى على خـوف العيـون كانهـا	خنول تراعى النبت مشعرة ذعرا
اذا ما مشت خافت نميمة حليها	تدارى على المشى الخلاخيلوالعطرا
فبت أسمى الدر طورا حديثها	وطورا أناجىالبدر أحسبهاالبدرا
الىأن رأيت الليل منكشفالدجى	يودع فى ظلمائه الأنجم الزهرا

وبلغ مسلم بن الوليد فى شعره منزلة رفيعة بين علماء عصره، وأدبائه ، لأنه كما قلت جمع بين القديم والحديث ، أو بين الطابع البدوى والحضرى ·

قال فيه أبو حاتم السجستانى : « خليج صاف ينزع من بحر كدر ، كالزند يورى تارة ويصلد أخرى · » وقال أبو الفرج : « كان متفننا متصرفا فى شعره » ·

وقال المبرد : كان مسلم شاعرا حسن النمط ، جيد القول فى الشراب · وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعانى الطريفة واستخرجها » ·

وقال ابن دريد فى أماليـه : « أمـا مسلم فانه مـزج كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعانى اللطيفة وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين » ·

وقال ابن رشيق فى الموازنة بينه وأبى تمام : « ومسلم أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا وهو زهير المولدين » ·

وقد نعته نقاد الشعر بالصنعة المتقنة للشعر ، وحسن اختياره للفظ ، وتأنقه في البديع ، أكد ذلك الحصرى حين قال : « ومسلم أول من لطف البديع وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع » .

وقال ابن شرف : « وأما صريع الغوانى فكلامه مرصع ، ونظامه مصنع ، وغزله مستعذب » .

وقال المرزبانى : « وهو شاعر مطلق مستخرج » للطيف المعانى بحلو الألفاظ » .

وكان مذهبه في الصنعة مخالفا لمذهب غيره من شعراء العصر في الطبع . وهو يمثل أمام هذا الاتجاه أى اتجاه الصنعة ، وهو الذى سار فيه أبو تمام وغالى . ويقابل هذا الاتجاه اتجاه أصحاب الطبع من أمثال أبى العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاحقى والسيد الحميرى .

ولم يرض أحدهم عن مذهب الآخرين ، فقد قيل أن مسلما اجتمع بأبى العتاهية متدارسا قول الشعر ، فقال مسلم لأبى العتاهية فى كم يوم تصنع القصيدة ، فقال أبو العتاهية : أنها بنت ليلتها . فقال مسلم : اذا كانت من مثل قولك :

الا يا عتبة الساعة اموت الساعة الساعة

فهذا ليس بشعر ولكنى أقول :

موف على مهج فى يوم ذى رهج كانه اجل يسعى الى امل

انى أسهر فى صنعتها الليالى الطوال .

وقد وفر مسلم بن الوليد لشعره زينة اللفظ وجمال المعنى ۰ واستخدم من البديع ما أكسبه جمالا ولم يثقله ۰

فقد يعمد الى بديع اللفظ من الجناس والترصيع مثل البيت السابق ۰ أو قد يلجأ الى الاستعارات يأخذ بعضها برقاب بعض قولـــه :

احيى البكا ليلة حتى اذا بلغت	نفس الدجى واستنار الصبح كالوقد
غادى الشمول فعاطتــه سمادرها	طيفا به ألفت روحا الى جسد
كأنهـا وسـنان المـاء يقرعهـا	عقيقة ضحكت فى عارض بـرد
حتى اذا الراح نامت عنه فترتها	ريع الكرى وأقامت كسرة الخلد

فهذه الاستعارات الكثيرة ، التى تعاقبت قد تبدو حجابا يستر المعنى ، لكنها فـى الحقيقة أكسبته حـلاوة الصور المتتابعـة ۰ وابتعدت به عن التقرير والتعبير السهل المباشر ۰

فهو ببساطة يريد أن يقول انه سهر الليل يعاقر الخمر حتى الصباح ، وشرب فلما أخذت الخمر بلبه تخيل حبيبته أو جاءته بطيف الحبيب ، وهو يشبه الخمر التشبيه المألوف ويرسم لهـا الصور التقليدية عند أبى نواس وغيره من شعراء الخمر ، لكنه يعبر هذا التعبير الجديد عن معنى الفتور وما يصيب الرأس من صداع بعد أن ينجاب السكر ويصحو الشارب من النوم ۰

موقف النقـاد منـه :

ذكره ابن قتيبة فقال : « وهو أول من ألطف فى المعانى ، ورقق فى القول ، وعليه يعول الطائى (أبو تمام) فى ذلك وعلى أبى نواس (١) » .

ويقول التبريزى فى شرح الحماسة : « وكان متفننا ، متصرفا فى شعره ، شاعرا حسن النمط ، جيد القول فى الشراب . وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعانى اللطيفة واستخرجها ، وهو أول من أفسد الشعر بهذا النوع الذى سماه الناس البديع » .

وذكره ابن رشيق فى العمدة من بين أصحاب الصنعة (صنعة البديـع) .

« .. غير أنا لا نجـد المبتدىء فـى طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم ابن الوليد ، لمـا فيهمـا مـن الفضيلة لمبتغيهما ، ولأنهما طرقـا الى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيرا سهلهما عند الناس وجرأهم عليها » .

على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا . وهو أول من تكلف البديع من المولدين . وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ،

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٨٠٨ .

ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغوانى الا النبذة اليسيرة، وهو زهير المولدين، كان يبطىء فى صنعته ويجيدها(١) ٠

ويقول : « كان مسلم بن الوليد نظير أبى نواس ٠ وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشعار،الا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال ، مع تقبض كان فى مسلم واظهار توقر وتصنع ٠ وكان صاحب روية وفكرة ، يبده ولا يرتجل (٢) » ٠

ونقل ابن رشيق أن البحترى حضر مجلس عبيد الله بن طاهر، فسأله : يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لانه يتصرف فى كل طريق ، وينزع فى كل مذهب ٠ ان شاء جد ، وان شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقا واحدا لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه ٠ فقال له عبيد الله : ان أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا ٠ فقال : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، فانما يعرف الشعر من دفع الى مضايقة (٣) » ٠

وسئل أبو حاتم عن مسلم بن الوليد فقال : « خليج صاف ينزع من بحر كدر كالزند يورى تارة ويصلد أخرى » ٠

---

(١) العمدة ١/١٣٠ ٠

(٢) العمدة ١/١٩١ ٠

(٣) العمدة ٢/١٠٤ ٠

ومن آيات شعره قصيدته اللامية في مدح يزيد بن مزيد الشيباني ، يقول فيها :

اجررت حبل خليع في الهوى غزل	وشمرت همم العذال في عذلى
هاج البكاء على العين الطموح هوى	مفرق بين توديع ومحتمل
كيف السلو لقلب بات مختبلا	يهذى بصاحب قلب غير مختبل

ويقول فيها :

يفتر عند افترار الحرب مبتسما	اذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج في يوم ذى رهج	كانه اجل يسعى الى أمل
ينال بالرفق ما يعيى الرجال به	كالموت مستعجلا ياتى على مهل
لا يرحل الناس الا نحو حجرته	كالبيت يفضى اليه ملتقى السبل
يقرى المنية ارواح العداة كما	يقرى الضيوف شحوم الكوم والبزل
يكسو السيوف رءوس الناكثين به	ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
قد عود الطير عادات وثقن بها	فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال في صفة النساء :

ولما تلاقينا قضى الليل نحبه	بوجه لوجه الشمس من مثله مثل
وخال كخال البدر في وجه مثله	لقينا المنى فيه فحاجزنا البذل

وله في الأوصاف وخاصة في الخمر وأدواتها أبيات مفردات

كقولـــه :

لطف المزاج لهـا فزين كاسـها بقـلادة جعلت لهــا اكليلا
قتلت وعاجلها المدير ولم تغـط فاذا به قد صيرته قتيـلا

وقـــال :

ابريقنا سلب الغزالـة جيـدها وحكى المدير بمقلتيـه غـزالا
يسقيك باللحظـات كاس صبابة ويعيدهـا مـن كفـــه جريـالا

وقـــال :

اذا شئتما ان تسقياني مدامـة فلا تقتلاهـا ، كل ميت محـرم
خلطنا دمـا من كرمة بدمائنا فاظهر فى الألوان منا الدم الدم

وقـــال :

ان كنت تسقيني غير الراح فاسقيني كاسا ألـذ بهـا من فيك تشفيني
عيناك راحى وريحاني حديثك لى ولـون خديك لون الـورد يكفيني

وهل يمكن أن يكون وصف مسلم بن الوليد بصريع الغواني وصفا واقعا في محله؟ أى هل كان مسلم بن الوليد غزلا مجيدا فى الغزل ـ مدلها فى الحب أم أن هـذا الوصف ظاهـرى لا يدل على حقيقـــة ٠

وتتبعنا لأبياته فى الغزل تقفنا على قدره فيه ، وهو قدر لا يسمو الى درجة المجودين المبدعين كالعباس بن الاحنف أو عمر بن أبى ربيعة ، وانما هو غزل جيد بقــدر ما أودعــه من الصنعة وجمال اللفظ ، ورشاقة الصياغة كقوله :

أحب التى صدت وقالت لتربها ... دعيه• الثريا منه أقرب من وصلى
أماتت وأحيت مهجتى فهى عندها ... معلقــة بـين المواعيـد والمطـل
وما نلت منا نائلا غـير اننى ... بشجو المحبين الأولى سلفوا قبلى
بلى ، ربما وكلت عينى بنظرة ... اليها تزيد القلب خبلا على خبل

فهذا غزل مصنوع مثل بقية شعره •

* * *

القســم الثــانى

شــعراء من القرنين الثالث

والرابــع

القــرن الثــالث

الاطــار السياسي للعصر

يبدأ هذا القرن الثالث بخلافة المأمون ، وقد تولى الخلافة فى أعقاب النزاع الذى ثار بينه وأخيه الامين ، وكانت لهذا النزاع آثاره كما كانت له أسبابه وحوافــزه ، منها مــا يتصل بالبيت العباسى نفسه ، وما كان يدور فيه من خلافات حول ولاية العهد بين المأمون والامين ، وتعصب العنصر العربى للامــين والفارسى للمأمون ، ومنها ما يتصل بالاوضاع السياسية عامة والخلاف الذى كان لا يزال يلقى بظلاله على الدولة والرعية بقسميها من الفرس والعرب ، وقد كانت وقعتا أبى جعفر بأبى مسلم الخراسانى ، وهارون الرشيد بالبرامكة تؤرجان الخلاف ، وتثيران كوامن الفتن ، وكلما خبت نارها نفخ فيها المثيرون ، من الجانبين ٠

وكان الصراع الاجتماعى بين العرب والموالى لا يزال يمد نار الفتن بالوقود ، وهكذا تولدت فتنة النزاع بين الاخوين ، وتغلب المأمون وجنده من الفرس على الامين وجنده ، وقتل الامين عــام ١٩٨ هـ وتولى المأمون الخلافة ٠ وأحاط بــه الفرس ، ووزر له وزيره الفارسى الفضل بن ســهل ، وكان المأمون ربعــة أبيض جميلا ، طويل اللحية رقيقها ، وخطه الشيب قبل الموت ٠

وقد كانت للفضل ميوله العلوية زيادة على عصبيته الفارسية ، فحسن للمأمون أن يولى عهده عــلى بن موسى الرضى ، فعهد اليه وكتب بذلك كتابا بخطه ٠ قال ابن الطقطقى (١) :

---

(١) الفخرى ص ١٦٢ طبع الرحمانية بمصر ٠

« وكان الفضل بن سهل وزير المأمون هو القائم بهذا الامر ، والمحسن له ، فبايع الناس لعلى بن موسى من بعد المأمون » . وأمر المأمون الناس بخلع لباس السواد شعار بنى العباس ، ولبس الخضرة شعار العلويين .

ولم يرض العباسيون ببغداد ، وجماعة ممن يذهبون مذهبهم ويلتفون حولهم من قادة العرب فثاروا ، ونقلوا الخلافة الى ابراهيم بن المهدى عم المأمون ، وكان رجلا فاضلا وشاعرا ، فصيحا أديبا ، مغنيا حاذقا .

وبلغ المأمون ذلك ـ وكان بخراسان ، فغضب ، ودس للفضل بن سهل من قتله . ويقال أنه تخلص كذلك من على الرضا بدس السم . وربما كان ذلك صحيحا ، أو كان موته من أكل عنب فى وقته مما مهد الطريق لان يستعيد المأمون سيطرته على الدولة ، ويلقى قبول العباسية والعرب باعادة السواد وولاية العهد العباسية .

وظلت خلافة المأمون حوالى عشرين عاما ، أمكنه فيها اعادة الهيبة الى الخلافة والدولة كما كانت فى عهد أبيه الرشيد والتى اهتزت فى عهد أخيه الامين . وذلك لانه كان رجل دولة يحسن تدبير الامور ، واسع الاطلاع ، جادا ، مفكرا ، حازما به دهاء الساسة .

قال ابن الطقطقى : « وقام المأمون بأعباء الخلافة وتدبير الملك ، قيام حزماء الملوك وفضلائهم » .

ولم تخل أيامه من بعض الثورات العلوية التى أخمدت ، ومن قلاقل فى الثغور تغلب عليها واستتب له الامر من بعدها .

وتوفى المأمون سنة ٢١٨ هـ وعمره ثمان وأربعون سنة .

وخلفه أخوه المعتصم ، وقد ثار بعض أنصار المأمون رغبة فى تولية ابنه العباس لكنه أخمد ثورتهم بمبايعة عمه . وواجه المعتصم فى خلافته بعض الفتن والثورات،منها ثورة الخراسانية فى أصفهان وهمذان ، فقضى عليهم ، وفتنة خلق القرآن وحبس ابن حنبل فى بغداد ، والصراع بين أهل السنة والمعتزلة . وثورة البابكية ، وكانت ثورة عارمة أصيبت لها الرعية بالذعر ، وأفسدت فى الارض ، فقتلت وشردت ، وقد أحصى عدد القتلى بأيدى البابكية فكان مائتى ألف وخمسا وخمسين ألفاوخمسمائة انسان . وتمكن المعتصم من الانتصار على بابك الخزمى وقتله ، وبذلك أخمدت ثورة البابكية سنة ٢٢٣ هـ . وكان قائده الافشين صاحب اليد الطولى فى القضاء عليه .

وتعرضت بعض ثغور المسلمين مع البيزنطيين للاعتداء من قبل الروم ، فكان أن نهض المعتصم الى عمورية سنة ٢٢٥ هـ وهاجم ثغور الروم وسبى وأحرق . وخامر الاقشين على الخلافة

مع مازيار لنقل الخلافة الى العجم ، فصلب المعتصم الاثنين معا سنة ٢٢٥ هـ أيضا • وحرقا بالنار بعد صلبهما• وفى هذا اليوم أبو تمام رائيته المشهورة التى يقول فيها :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذ هما فى الغار

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ • وقد أقام فى الخلافة ثمانى سنوات وثمانية أشهر • وكان قد استكثر من الترك وتولى الواثق ، وهو هارون بن المعتصم ، وكان فاضلا عاقلا شاعرا ، استوزر محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الاديب • وقد كانت فى ابن الزيات قسوة على أعدائه ، وظل طوال خلافة الواثق ، وكان الواثق يتشبه بالمأمون ، وأحسن الى الطالبيين، ولم تقع فى أيامه فتوح كبيرة أو أحداث عظام ومات سنة ٢٣٣ هـ • وحدثت فى أيامه محنة خلق القرآن ، وعوقب من لم يقولوا بخلقه أشد العقاب•

وتولى أخوه المتوكل ، وكان شديد التعصب على آل على ، وفعل بسبب ذلك ما فعل من الاشياء الغريبة كحرث قبر الحسين ، وكان عمره يوم تولى ستا وعشرين سنة • فولى أبناءه الثلاثة أقاليم الخلافة •

وحدثت فى خلافته عدة أحداث فى البلاد الخاضعة له فى أرمينية ، وبعض الثغور مع الروم •

وقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ بعد خلافة استمرت أربع عشرة سنة ، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان •

وتولى بعده ابنه المنتصر ، وقد بايع له قتلة أبيه ، ولم تدم

حياته بعده أكثر من ستة شهور وشغب الاتــراك من قــادة الجند مرة أخرى ، لمبايعة ابن المنتصر وخلع أخويــه المعتز والمؤيد من ولاية العهد • وبعد وفاته تولى المستعين بعد مشاورة بين الترك بغا الكبير وبغا الصغير وأتاش •

وسيطر الترك على مصير الخلفاء بعد ذلك وظلت فى أيديهم مقاليد الامور يولون مــن يشاءون ويعزلون مــن أرادوا • قال صاحب تاريخ مختصر الدول : « لما توفى المنتصر اجتمع الموالى فى المارونى من الغد وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتاش وتشاوروا، وكرهوا أن يتولى الخلافة واحد من ولد المتوكل لئــلا يغتالهم ، فأجمعوا على المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم وبايعوه • وفى سنة ٢٤٩ هـ شغب الجند والشاكرية ببغداد لما رأوا من استيلاء الترك على الدولة ، يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من أحبوه من غــير ديانة ولا نظــر للمسلمين • فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء والنفير، وفتحوا السجون ، وأخرجوا من فيها ، وأحرقوا أحد الجسدين ، وقطعوا الآخر وانتهبوا دور أهل اليسار ، وأخرجوا أموالا كثيرة ، ففرقوها فيمن نهض الى الى حفظ الثغور • وأخرجــوا المعتــز من الحبس ، وبايعــوا له بالخلافة ، وخلعوا المستعين • وكانت أيامه سنتين وتسعة أشــهر فر المستعين الى بغداد سنة ٢٥١ هـ وحوصر بها ، ثم فى سنة ٢٥٢هـ خلع نفسه من الخلافة فبايع للمعتز ابن المتوكل وخطب للمعتز فى بغداد • وقتل المستعين •

ووقع الشر بين العباسيين ، فقتل المعتز المستعين ، وحبس

المؤيد أخاه حتى توفى فى السجن وفى سنة ٢٥٥ هـ دخل جـند الترك على المعتز مطالبين بارزاقهم ، فقبضوه ، وصلبوه بالشمس حتى مات ، وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر ٠

وفى عهد المستعين قتل أحد أئمة العلويين ، وهو أبو الحسين يحيى بن عمر من ولد الحسين بن على رثاه ابن الرومى بقوله :

امامك فانظـر أى نهجيك تنهج   طريقان شتى : مستقيم وأعوج

يقـول فيهـا :

سلام ، وريحان ، وروح ورحمة   عليك ، وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذى انت جاره   يرف عليـه الاقحـوان المبلـج

تناول فيها بنى العباس بالتجريح ٠

وخرج فى عهد المعتز بالله الصفارية بفارس وهم فرقة من الخوارج استولت على اقليم فارس ، ولم يستطع الترك مقاومتهم ٠

وبعد موت المعتز تولى أحـد أبناء الواثق وهو عبد الله محمد بن الواثق ولقب بالمهتدى بالله ٠ يقول ابن الطقطقى : « وكان المهتدى من أحسن الخلفاء مذهبـا ، وأجملهم طريقـة وسـيرة وأظهرهم ورعـا ، وأكثرهـم عبـادة ٠ كـان يشتبه بعمـر بن عبد العزيز ٠٠٠٠ وكـان يجلس للمظالم فيحـكم حكما يرتضيه الناس ٠ وكان يتقلل فى مأكوله وملبوسه » ٠

وكان فيه زهد فى الدنيا وانصراف عن مظاهرها ، فاطرح الملاهى،وحرم الغناء والشراب وفى أيامه بدأت ثورةالزنج بالكوفة ٠

وشغب عليه بعض الجند من الترك ، وخلعـوه ، ومـات فى أيديهم سنة ٢٥٦ هـ . ولم يتم عاما فى خلافته ، وتولى بعده المعتمد ابن المتوكل . وكان محبوسا ، فأطلقه الاتراك وبايعـوه . وفى سنة ٢٦٥ هـ حدث نزاع بينه وأحمد بن طولون فى مصر . وكان أخوه الموفق يعينه فى دولته وتولى حرب الزنج . وتوفى المعتمد والموفق سنة ٢٧٩ هـ . وكان الامر فـى معظم دولتـه للموفق ، ويقال أنـه ضيق عليه فى المـال ، وحـد من مصروفه . وكان مستضعفا . يقول ابن الطقطقى : « وكانت دولـة المعتمد دولـة عجيبة الوضع . كان هو وأخـوه الموفق طلحـة كالشريكين فـى الخلافة للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمرة أمـير المؤمنين ، ولاخيه كلمة الامر والنهى ، وقـود العسـكر ومحاربة الاعـداء ومرابطة الثغـور وترتيب الوزراء والامـراء . وكـان المعتمد مشغولا عن هذا كله بلذاته » .

وتولى بعـد المعتمد المعتضـد بن الموفق سنة ٢٧٩ هـ وبعث اليه خمارويه بن أحمد بن طولون والى مصر بالهدايـا والالطاف وزوجه ابنته قطر الندى سنة ٢٨٢ هـ . وفى أيامه ثار الاكـراد والاعراب ، وبنو حمدان بالموصل ، فخرج اليهم وأوقع بهم ، وفى عصره ظهر أمـر القرامطـة بالبحرين ، وانتشروا فـى أطراف العراق حتى بلغوا الكوفـة سنة ٢٨٩ هـ وتوفى فى آخـر سنة ٢٨٩ هـ . وتولى بعده ابنه المكتفى .

قال صاحب الفخرى : « وكان المعتضد شـهما عاقلا فاضلا ، حمدت سيرته . ولى والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياما

مرضيا حتى عمرت مملكته ، وكثرت الاموال ، وضبطت الثغور ، وكان قوى السياسة ، شديدا على أهل الفساد · حاسما لمراد أطماع عساكره عن أذى الرعية ، محسنا الى بنى عمه من آل أبى طالب · وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرين » ·

وقد مات وفى الخزائن عشرة آلاف ألف دينار ·

وكان المكتفى من أفاضل الخلفاء على ما يذكر ابن الطقطقى ، وفى عهده قويت شوكة القرامطة ، وتعرضوا لحجاج بيت الله ، وقد بعث اليهم المكتفى بالجيوش ، وقتل بعض زعمائهم · وثارت القبائل التركمانية فيما وراء النهر ، وقضى فى عهده على الدونه الطولونية بمصر بمقتل آخر أمرائها وهو هارون بن خمارويه سنة ٢٩٢ هـ · وحدثت قلائل على الثغور الرومية ، وقد توفى المكتفى سنة ٢٩٥ هـ ·

وتولى المقتدر بعد المكتفى ، ويقولون انه رد للخلافة بهاءها ، ولم يحفظ مال الخلافة على كثرته ، وما كان بين يديه من كنوز آبائه فأنفقه باسرافه ، وقتل فى أيامه الحلاج سنة ٣٠٩ وقوى نفوذ الحمدانيين أمراء الموصل ، وحدث النزاع بينه وابن المعتز على الخلافة ، وأمكنه الاحتفاظ بها دونه وقتل ابن المعتز · وكان القائد المسيطر على دولته مؤنس الخادم ، وقد كانت نهاية المقتدر على يد أحد أعوانه ·

وكان المقتدر آخر الخلفاء العباسيين فى هذا القرن الثالث واستمرت خلافته حتى عام ٣١٧ هـ ·

ويبدو مما عرضنا من أحوال الخلافة ذلك الاضطراب الشديد الذى أصابها ، وكان من أسبابه زوال هيبة الخلفاء بتولى بعضهم صغار السن ، واستكثارهم من الخدم الاتراك والجنود المرتزقة ، وقد بدأ بهذه السنة المعتصم، وكان جند الاتراك وقادتهم من أسباب كثير من الاضطرابات وكانوا يثيرون على الخلفاء ويقتلونهم ، ويشهرون بهم على صورة تسقط من هيبة الخلافة ومكانتها فى نفوس الرعية •

ومما زعزع الخلافة كذلك كثرة الثورات فى أنحاء الدولة الاسلامية فى المشرق بين علوية ، وبابكية ، وصفرية ، وفى سواحل الخليج والبصرة والكوفة بين ثورة الزنج الى ثورات القرامطة • وكان العامة فى بغداد وغيرها من العواصم كثيرا ما يثيرون الشغب ، ويصطدمون بالجند ، كما أن الجنود المرتزقة كثيرا ما طالبوا بأرزاقهم ، وتآمروا ضد الخلفاء مع قادتهم وأمرائهم •

وقد انتهز بعض ولاة الاقاليم فرصة ضعف الخلافة ، فأقاموا دولا مستقلة ، أو قطعوا الاموال عن العاصمة ، وخطبوا لانفسهم ، وسكوا النقود بأسمائهم كالطولونيين فى مصر • وقام فى اليمن ومكة بعض الطالبيين •

وقد أدى تغلب العناصر غير العربية من فرس وترك على الخلافة والسلطة الى ثورة العناصر العربية على دولة الخدم

والمـوالى فـى بغداد • وكان من أبرز أمراء العـرب الذين خرجوا على الدولـة نصر ابن شيث وآل حمـدان بالموصل •

وكانت دعوة ابن‌شيث فى شمالى العراق قائمة على أسـاس الانتصار للعرب • وكـان يقـول : « انما حاربت بنى العبـاس محاماة عن العرب ، لانهم يقومون عليهم العجم » •

وهكذا كان القـرن الثـالث الهجـرى عصر بـذر بـذور الفتنة التى أنهكت الخلافة العباسـية وهدمت أركانهـا ، وكان القـرن الرابع متمما لهذا القرن الثالث ، مبعثا للاضطراب الشديد فـى كل مكان •

الحيـاة الاجتماعية

كان المجتمع البغدادى مجتمعا خليطا من أجناس مختلفة بين ترك وعرب وروم وفرس ، ولـم تكن السيادة فيـه للعرب ، وان ظلوا يحتفظون لانفسهم بمراكز السيادة والقيادة فيما عدا قيادة العسكر فقد تخلوا عن معظمها للترك • وكانت طبقة القواد من الخدم أمثال بغـا ومؤنس وأشباههم • واحتفظ العرب بمراتب الوزارة ، وكانت منهم جماعة من كبار الوزراء أمثـال محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبى دؤاد ، وابى الصقر ابن بلبل•

وكثيرا ما يتقدم هؤلاء بالكتابة الى جانب الوزارة ، بل ان الكتابة والوزارة كانتا متلازمتين •

وقد قام العنصر العربى فى هـذا القرن الثالث بكثـير من الثورات فـى أنحـاء الجزيرة العربيـة والعـراق والشـام ٠ وأدرك العباسيون التنافر بين العرب ، وتقبلهم بين الشيع والاحزاب واختلاف أهوائهم ، فشجعهم ذلك على التمكين لملكهم بغـير العرب٠ وقد سأل عربى بالشام المأمون عن سبب اعتماده على الفرس ٠ قال : « يا أمير المؤمنين أنظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجـم خراسان » ٠ قال المأمون : « أكثرت على يـا أخـا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الحيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فـى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، أما قضاعة فانها تنتظر السفيانى وخروجه ، فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فسأخطه عـلى الله عز وجل مذ بعث نبيـه صلى الله عليه وسلم فى مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهم شاريا ٠ أعزب فعل الله بك » ٠

وكثر المـوالى والرقيق من الحـروب والتجـارة ، وتعددت أجناسهم ، واختلطوا فيما بينهم وامتزجوا بالعرب ، فولد منهم الهجناء ، وكانوا يسمون أبناء الاماء والسرارى كذلك يقول أحد الشعراء :

ان أولاد السـرارى كثـروا يـارب فينـا
رب ادخلنـى بـلاداً لا أرى فيهـا هجينـا

وظهر من شعراء هذا العصر والعصر السابق من الهجناء من برع وتفوق فى الشعر وبلغ مرتبة المقدمـين كالخريمى ، وأبى

نواس ، وابن الرومى ، كما تولى من غير العرب ، أو من الموالى مراتب الدولة العليا كالكتابة والوزارة ٠

وعرفت كل جماعة ، واشتهر كل جنس من الاجناس التى كونت المجتمع العباسى آنذاك بالمهارة فى صناعة أو حرفة بعينها ، فاليونان عرفوا بالحكمة والادب ، والسريان عرفوا بالطب والتنجيم ، والنبط عرفوا بالزراعة ، وعرف الترك بالبصر بالحرب وآلاتها والهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير ، واليمن بالتجارة ، وأهل السند بالصيدلة ، واحتفظ العرب بالاشتغال بالادب والشعر ، وقيافة الاثر وحفظ الانساب ، والبصر بالخيل والسلاح ، والحفظ لكل مسموع ، فلم تكن مهمتهم التجارة ولا الفلاحة ، لخوفهم من صغار الجزية ٠

وكان القرن الثالث قمة الحضارة التى بلغتها بغداد ، وقمة الترف بما صب فيها من الاموال ، وتجمع اليها من أقاليم الدولة الاسلامية فى الشرق والغرب من الخيرات ، وبدت مظاهر الترف فى كل جانب من جوانب الحياة البغدادية ٠ لم تقتصر على علية القوم ، وسراة الناس بل غلبت كذلك على عامتها ، وانعكس الترف على طبائعهم ، وعاداتهم ، وطرائق سلوكهم ومعيشتهم ٠

ومن مظاهر الترف المادية كثرة القصور الفارهة ، التى تأنق فيها بناتها ، فوشوها بمختلف أنواع الزينة والزخرف ، وزينوها بأصباغ الذهب والفضة ، وأعلوا فى بنائها وأحاطوها بالحدائق ، وأجروا اليها الانهار ، وحفروا فيها البرك وأحواض المياه وجلبوا اليها الاسماك بأنواعها بهجة للمتنزهين ٠

ومما جاء من بديع وصف القصور أوصاف البحترى للجعفرى ، والكامل من قصور الخلفاء . يقول فى الكامل :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرياح سموكه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكان حيطان الزجاج بجوه ... لجج يمجن على جنوب الساحل
وكان تفويف الرخام اذا التقى ... تاليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ... ومسير ، ومقارب ، ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه ... نورا يضىء على الظلام العافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق ... متلهب العالى ، انيق السافل

وكانت تلك القصور حافلة من الداخل بأنواع الحياة الزاهرة،تعمرها الجوارى والغلمان بأزيائها الجميلة ، وتتجمل قاعاتها بالفرش والطنافس ، ويؤمها السادة ، والقادة ، والحرس والخدم ، وكلهم فى كامل البهجة ، وتمام الرونق .

وتعقد مجالس الغناء ، وتتزين الجوارى المغنيات بأبهى زى ، من ثياب مصبغة وموشاة ، عاقدات على الرءوس العمائم تتدلى منها السنابل الذهبية . وصف أحد مجالس الواثق فقيل ان «أحد الشعراءأدخل الىدار مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان بالوشى المصنوع بالذهب ، ثم أفضى الى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، واذا بالواثق فى صدره على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والىجانبه فريدةالمغنية عليها مثل ثيابه وفى حجرها عود » .

وقد كانت الجوارى والغلمان زينة قصور الخلافة ، وعلية القوم ، وكن يكسبن الحياة البهجة ، بظرفهن وجمالهن ، وغنائهن ٠

وتحفل كتب الادب بالحديث عن الجوارى والغلمان ، وأزيائهن وأحاديثهن ، وظرفهن ، وكانت الجوارى والغلمان من لوازم القصور ، ومجالس اللهو والسمر ، واختلفت جنسياتهن ، وعلمن ، وثقفن ، ولقن قول الشعر والغناء ٠ وكانت الواحدة منهن تقوم بما تملك من قدرات في حفظ الشعر والغناء وحسن الحديث والمسامرة ٠

وكان منهن الهنديات والسنديات والمكيات والمنيات ، والسودانيات ، والحبشيات والتركيات والروميات ، والارمنيات ٠ وأشار الجاحظ فى رسالة الجوارى والغلمان الى ميزة كل جنس منهن ٠ وما يتفوقن فيه ٠

وتكاثر اهل السراء بما يملكون من الجوارى والغلمان ٠ ويروى أن المتوكل جمع فى قصره أربعة آلاف سرية من أجناس مختلفة ٠ ودخل أحمد بن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا ، روميات ، مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن فى أعناقهم صلبان الذهب ، وفي أيديهن الخوص والزيتون ، فقال له المأمون : ويلك يا أحمد ! ٠ قد قلت فى هؤلاء أبياتا فغننى فيها ثم أنشد :

ظبـاء كالدنـانير ملاح فـي المقاصـير
جلاهـن الشعانـين علينـا فـي الزنـانير
وقـد زرفن أصداغـا كاذنـاب الزرازيـر
واقبلـن باوسـاط كاوسـاط الزنـابير

وأشاعت الجوارى جوا من الاناقـة ، ودماثـة السلوك بين الناس ، واشتهرت بغداد بالظرف والظرفـاء ، وكان من سـمات الظرفاء ، أناقة اللباس وجمال المظهر ، ونظافة الهندام ، وحسن المعشر ، ورقة السلوك ، ولباقة الحديث . ويؤلف الوشاء كتابا فى سمات الظرفاء يسميه الموشى .

وقد خصت فى بغداد أحياء للخلفاء والامراء وعلية القـوم تقوم بها قصورهم ، وتزدهر حدائقها تطل على دجلة ، فيكو نلهم المراسى ترسو فيهاأنواع المراكب كالحراقات وغيرها ، ويتخذون لها صور الحيوان والطير ، ويعقدون فيها مجالس السمر والغنـاء والشراب ، وتمخر بهم فى ليالى بغداد أو فـى الاعياد وقد زينت بمختلف ألوان الزينة .

وتمر مواكب الترف والرفاهية تمخر عباب النهر ، وتتلألأ أنوارها على مياهـه ، وتزدهى القصور حولـه مشرقة بقبابهـا وأبراجها تعكس صورها على صفحة المـاء .

وتملأ شوارع أحياء بغداد المترفة الجوارى ومراكب السادة بالنقوش. وكانت البغال مراكب من خيل مطهمة وبغال مزدانة

أصحاب القلم غالبا من الكتاب وأشباههم ، أما الخيل فكانت مراكب أصحاب السيوف .

تلك حياة أحياء الاغنياء وللفقراء أو الطبقة الوسطى فى بغداد وضواحيها أحياء عامرة بالحياة ، من أشهرها الكرح وطيرناباذ وبنى .

يقول المقدسى : « أعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ فى الجانب الغربى » . وكانت الكرخ متنزها مشهورا ، يقول على بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من متنزه	الى قصر وضاح فبركة زلزل
مساحب اذيال القيان ومسرح الـ	حسان ومثوى كل خرق معدل
لو أن امرا القيس بن حجر يحلها	لأقصر عن ذكر الدخول فحومل

وسكن الكرخ من المشهورين أبو دلف العجلى أحد ممدوحى أبى تمام وكثير من شعراء العصر وكانت أسواق الكرخ عامرة بمختلف السلع ، وتعمر دكاكينها بطرائف الثياب ، ويحمل التجار من كل مكان أجمل ما فى الاقاليم من بضاعة ينفقونها فى مدينة السلام ، ويحمل تجار الروس فراء الثعالب وغيرها من الجلود الثمينة ، وتحمل اليها السيوف الهندية من الهند وجرجان . ويحمل اليها التمر من البصرة .

وتحفل الدروب بأنواع الباعة وصناع الطعام من صانعى الزلابية ، أو الرقاق ، أو السمك وما اليه . وقد جاء ذكر هذا كله فى شعر العصر .

وتعددت دور اللهو فى أحياء الكرخ وغيرها ، وكان أصحابها من أهل الذمة والكتابيين من اليهود والنصارى ، وتقدم فى تلك الدور أنواع الشراب ، وتغنى المغنيات أو المغنون . وتعزف الموسيقى ويؤمها أصحاب الخلاعة واللهو .

وتتجمل بغداد والعواصم العراقية فى الاعياد بأبهى زينة ، ويخرج الناس زرافات متجملين وقد أخذ العرب المسلمون عن الفرس بعض أعيادهم كعيد النوروز وهو رأس السنة الفارسية ومعناه اليوم الجديد . وكان الناس يحتفلون أجمل احتفال ، كذلك احتفلوا بأعياد النصارى وشاركوهم فيها مثل عيد الشعانين ، وكانوا يخرجون الى الاديرة خارج المدن ، يمتعون أنفسهم بمناظر النصارى يحملون أغصان النخيل والورود ويسيرون فى مواكب من والى أديرتهم . وكم تغنى الشعراء بهذه الاعياد وتغزلوا بفتيات وفتيان النصارى فى كنائسهم وأديرتهم فى تلك الاعياد .

وكانوا يهتمون بأعياد الربيع ومواسم الزهور ، ويحتفلون لها أشد احتفال ، فيستقبلون الورد عند بدء تفتحه ، ويحملونه مهنئين به ، وقد شغف المتوكل بالورد ، وكان يحلى مجالسه به ويهب الجوائز لمن يبشره بظهوره . واذا ظهر البنفسج داروا به فى الاسواق ، وتجملوا عليه .

ويقول المقدسى : « وفى اخلاقهم وطاء ، وهم أهل الظرف ، غير أن العيارين اذا تحركوا ببغداد هلكوا » . وقد كانت للعيارين

والشطار انتفاضات كثيرة ببغداد ، وظهرت هذه الطبقة فكانت من سمات المجتمع البغدادى ، وهى طبقة تجمع بين سمات (الفتوة) و (البلطجة) لها نظمها وتقاليدهـا ، ونفوذهـا فـى الاوساط والبيئات الشعبية ، وجاء ذكرهم كثيرا فى الادب شعره ونثره ، ووردت نوادرهم وحكاياتهم كذلك عند بعض أصحاب النوادر وفى كتب المحاضرات ·

وقد نهضت الموسيقى والغناء نهضة كبرى ، واشتهر جماعة من كبار الموسيقيين والمغنى والقيان ، ومن أشهرهن عريب ، وقد بلغ ما صنعته من الغناء ألف صوت جعلته فى دفاترها وصحفها ·

الحيـاة الفكريـة والثقافيـة

جمعت بغـداد بكونهـا عاصمة للدولـة خصائص كثيرة من العواصم الاقليمية ، فاستقطبت علماءها ومفكريها ، وصناعها ، وأدباءها · وكان موقع بغـداد على نهـر دجلة أقـرب الى التأثير الفارسى · وقد كثر الفرس ومن ينتمى اليهـم من المـوالى · أو المولدين فى المجتمع البغدادى ، وظهرت آثار الحضارة الفارسية غالبة ، ومناهضة للحضارة العربيـة ، وامتزجت الحضارتان فى بوتقـة الاسلام لتظهر منهما حضـارة اسـلامية مطعمة بعناصر أخرى يونانية وسريانية وغيرها ·

وفى حديثنا عن مصرى العراق الكبيرين البصرة والكوفة ، وما طبع كلا منهما من خصائص تميزه عن الآخر ، وقفنا على دور

البصرة فى تنويع الثقافة العربية ، واثراء الفكر الاسلامى بأنواع من الثقافات المختلفة نتيجة تنوع عناصر السكان بالبصرة ، وكونها على شط العرب ثغرا يفد اليه الناس من كل مكان · وقد كان مقابلا لها اقليم الاهواز الفارسى ، وقد ورثت البصرة ثقافة وفكرا يونانيا مما خلفه اليونانيون فى مستعمراتهم الشرقية ، وتوارثته الاجيال من سكان البلاد ، والنصارى من أهل العراق والنساطرة وغيرهم ، فغلبت عليها الثقافة اليونانية ، وأثرت الفلسفة والمنطق على علمائها ونتاجهم العلمى فى جوانبه المختلفة بين الدراسات اللغوية والنحوية ، والعقلية ، والعقدية · ونشأت فى البصرة أول مدرسة فكرية اسلامية تأخذ بالفلسفة والمنطق ، وشرائع العقل فى بحوثها ومناظراتها تلك هى مدرسة المعتزلة ، أو جماعة المعتزلة ، أو فرقة المعتزلة كما تسمى أحيانا فى كتب التراث ·

كذلك ظهر الاتجاه التقنينى فى الدرس اللغوى ، ونشأت مدرسة القياس البصرية فى النحو يتزعمها سيبويه صاحب « الكتاب » المشهور · وظهر فى الادب الاتجاه الواقعى الاجتماعى، الذى يعرض لصور الحياة الجارية ، كما ظهرت الاتجاهات المتحررة التى تدعو الى التحرر من القيود والقيم التقليدية والمتوارثة، وقد عرفت هذه الاتجاهات بالزندقة سواء أكانت زندقة فكرية أو اجتماعية ، وكان أثرها على الادب واضحا فيما عرف بالمجون أو باتجاه جماعة الزنادقة ، أو عصبة المجان · وقد بدأ هذا الاتجاه عند بشار بن برد ، ومضى فيه فرقة من شعراء

البصرة أمثال مطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد ، وأبى نواس ، ووالبة بن‌الحباب. وكانت نتائجها فى الشعر الدعوة الى ترك بعض التقاليد فى بناء القصيدة كالمقدمة والوقوف على الاطلال ، وذكر الرحلة والراحلة . والاستعاضة عنها بمقدمـات مناسبة للعصر كالغزل العصرى ، أو ذكر الخمـر ، ووصفهـا أو البـدء مباشرة بموضوع القصيدة .

وكان شعراء الفرس أول من دعا الى هذا الاتجاه ، وارتبطت دعوتهم بالشعوبية ، وهى الحركة المعادية للعرب .

وصاحب هذا كذلك الاتجاه الى الصنعة ، والبديع ، والجدير بالملاحظة أن رواد شعراء الصنعة جميعا كانوا بصريين ، فبشار وأبو نواس ، ومسلم بن الوليـد ، والعتابى كل هؤلاء كانوا من البصرة ، وكلهم كانـوا ممن يجمعون الى الشعر العلم ، بل كان يقال ان الشعر أقل بضاعتهم . واذا كان لهذا دلالته ، فان معنى مصاحبة اتجاه البديع للعلم ، هو أن الاهتمام بالعلـم ، وتحكيم العقل ، والاخذ به فى تثقيف الشعر والصنعة البديعية كان ظاهرة بصرية . وهو نتاج لتلك البيئة العلمية الآخذة بمقاييس العقل والاعتماد عليه .

كذلك كانت الكتابة والخطابة تأخذ بمقاييس المنطق والعقل، ولم تعد الخطابة مجرد كلام يلقى ، ، عماده الزخرف ، والسجع ، وجمال العبارة ورصانة المنطق وفصاحة اللفظ بل كان عمادها

الاقناع العقلى الى جانب الاقنـاع الحسى أو العاطفى ، ومن هنا سـاد أسلوب الجـدل والحجاج ·

وكان المعتزلة قادة هذا الاتجاه الجديد فى الخطابة ومنهـم واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ·وأشار بشار بن برد الى قوة عارضة واصل فى الخطب· وعلموا ناشئتهم الجدل والحجاج والاخذ بأسباب المنطق والفلسفة فى الخطابة والجدل ليواجهوا أعـداء الاسلام والمعارضين ممن يوجهون مطاعنهم قياسا على حجج العقل·

وشاع اتجاه الواقع والعقل فى أدب الادباء ، وبدأت الكتابة التى تعرض لمشكلات الحياة والمجتمع ومحاولة تحليلها وتعليلها بناء على الاسباب والنتائـج ، والتجربـة العمليـة والمشاهدة · وظهرت آثار هذا كله فـى مؤلفات كاتب بصرى مشهور هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ·

تلك اذا كانت حال البصرة وآثارهـا على الفكـر العربـى والاسلامى ، ونتائجه على الادب البصرى فى القرن الماضى الثانى الهجرى ، وانتقلت الثقافة البصرية والفكـر البصـرى والادب البصرى الى بغداد العاصمة ·

وكانت الكوفة بمكوناتها الجغرافيـة والتاريخية مختلفة عن البصرة ، فأد آثرت بيئتها وموقعها على حافـة الصحـراء ، على عزلتها ، فلم تكن مدينة مفتوحة كالبصرة ، وأحاطت بها الاديرة المسيحية التى حافظت على الموروث الدينى والفكرى المسيحى الى

جانب مخـزون ثقافـى وعلمى ممـا يحتفظ به رهبـان الدير وقساوسته ، وكان هذا كله ذا أثر على فكـر الكوفـة فنمت بهـا الاتجاهات الواقية التى تعتزل الحياة بمظاهرها المترفـة وتـرى السعادة فى التأمل والحياة الاخرى حياة الروح لا حياة الجسد ، وابتعدت الكوفة لهذا عن الاخذ بمنطق العقل وقياسـه الصارم ، وحكمت الفلسفات الغيبية ، واتجهت الى الباطنيـة ، والغيبيات دون الواقع والتجربـة ، والتسليم بالموروثات دون الاجتهـاد ، والتلقائية والفطرية دون الصنعة والتكلف ٠

ومن هنا بدت فى ثقافتها العربية تأخذ بالسماع ، والنقل عن العرب ، والتسليم بما يروونه عن الثقات فى اللغـة والنحو ، واعتبار السماع من العرب هو الاصل ، على غير حـال البصريين الذى جعلوا القياس هو الاساس والخروج على القاعدة حتـى لو كان صحيحا سماعا هو الشاذ ٠ وكان التقنين عماد العلم البصرى، على غير الحال لدى الكوفيين الذى سلموا بالنقل ٠

وقد كان لهذا أثره فى علوم التفسير ، والفقـه ، والعقائـد والفرق المذهبية ، فلم يظهر الاجتهاد العقلى واضحا فى علم الكوفة وتفسير مفسريها بل مالوا الى التفسير المأثور أو الغيبى والعاطفى، وشاعت عقائد العلوية الباطنية بالكوفة ، ووجدت فى بيئتها مرتعا خصبا على مـدى القرنين الثانى والثالث ، وحتى نهايـة القـرن الرابـع ٠

وفـى الادب كانت الاتجاهـات العلوية والشيعية غالبة على

الكوفة ، وكان الطبع وعدم التكلف سمة الشعراء البارزة ، كان منها السيد الحيرى ، وأبو العتاهية ، واشتهر تيار الزهد واختلط بموروثها الثقافى والعقدى المسيحى وغيره ٠

وانتقلت الثقافة الكوفية كذلك بمقوماتها الى بغداد ٠

وكانت بغداد باعتبارها العاصمة الجديدة للدولة العباسية تخط لنفسها اتجاها يجمع بين كل الثقافات وتصب فيها كل التيارات ٠ وقد بدأ القرن الثالث فى بغداد بعصر المأمون ، وكان رجلا طلعة يحب العلماء والمفكرين والادباء والمترجمين ويشجعهم ٠

وقد كان المنصور جد المأمون كلفا بعلم الفلسفة والنجوم فلما أفضت الخلافة الى المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه ، وداخل ملوك الروم ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة ، فبعثوا اليه منها ما حضرهم ، فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلفهم احكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ٠ ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعليمها وتعلمها » (١) ٠

يقول صاحب تاريخ مختصر الدول :

« فكان يخلو بالحكماء ، ويأنس بمناظراتهم ، ويلتذ بمذاكراتهم علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ،

---

(١) تاريخ مختصر الدول ، طبع بيروت ، ص ١٣٦ ٠

ونخبته من عباده ، لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة » (١) ٠

واشتهر جماعة من علماء المنجمين ، وألفوا الكتب والازياج، واشتهر من بينهم آل نوبخت ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ٠ وأقيمت المراصد ببغداد ودمشق لرصد النجوم ٠

وكان من الحكماء يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، كان أمينا على ترجمة الكتب الحكمية (الفلسفية) ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب (٢) ٠

ومن الاطباء في عصر المأمون سهل بن سابور ويعرف بالكوسج ، ويوحنا بن ماسويه ، وجيورجيس بن بختيشوع ٠

وقد شجع المأمون المعتزلة وأصحاب الكلام وتبعه في ذلك خلفاؤه المعتصم والواثق ، وحدثت في عصر الواثق محنة خلق القرآن ، وحبس أحمد بن حنبل ، وجاء المتوكل فأطلق ابن حنبل من حبسه ووصله وأمر بترك الجدل في القرآن ، وأن الذمه بريئة ممن يقول بخلق القرآن ٠

وتعلق شباب المثقفين ، وناشئة الادباء بالثقافات الوافدة من يونانية وفارسية وغيرها ، وأخذوا بأسباب المنطق والفلسفة ، الى تعليمها ، وتراخوا في تعلم العربية وعلومها ٠ وقد لاحظ ذلك

(١) تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٦ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ٠

عليهم ابن قتيبة فنعى هذا الاتجاه وأسف له فى مقدمة كتاب أدب الكاتب . قـال :

« وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب وينظر فى شىء من القضاء وحد المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه . وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب وهو لا يدرى من نقله . قد رضى عوضا من الله ومما عنده بأن يقال : فلان لطيف . وفـلان دقيق النظـر ، يذهب الى أن لطف النظر قد آخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء ، والغمر ، وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى ، وهى به أليق ، لانه جهل ، وظن أن قد علم ، فهاتان جهالتان . ولان هؤلاء جهلوا ، وعلموا أنهم يجهلون، ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الاسلام برايه نظـر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى ، وبلج اليقين . لكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب ، وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسـلم وصحابته . وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك ، وعاداه ، وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المناظرون له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم . فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله الكون والفساد وسمع الكيان ، والاسماء المفـردة ، والكيفيـة والكمية ، والزمـان والدليل ، والاخبار المؤلفة راعه مـا سمع وظن أن تحت هذه الالقـاب كل فائدة ، وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يفز منها بطائل ، انما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه » .

ثم يقول : « ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب » ·

وقد دافع ابن قتيبة فى هذا الحديث عن الثقافة العربية الاسلامية ضد تلك الاتجاهات اليونانية الممثلة فى علوم الطبيعة والحكمة والفلسفة التى استهوت شباب عصره ·

وكان لهذا الصراع الفكرى والعقدى بين الثقافات المختلفة بعضها وبعض ، وبينها والثقافة العربية الاسلامية أثر واضح على الادب شعره ونثره · وقد شبه الدكتور طه حسين الصراع بين الثقافتين الفارسية واليونانية ، فى عصر المأمون وما بعده بالصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجلو سكسونية فى عصرنا الحديث ·

وقد ترجم فى هذه المرحلة من كتب العلوم والآداب عن الفارسية واليونانية ، وكان قد ترجم قبل كتب فى هذا الميدان على أيدى ابن المقفع ككليلة ودمنة ، وقد نظمها أبان بن عبد الحميد شعرا ، كما ترجمت بعض كتب أرسطو ككتاب الحيوان ، وحد المنطق ، ، « والشعر »· وكان لكتاب الشعر الذى عرفه العلماء فى القرن الثالث هو وكتاب الخطابة أثرهما فى البلاغة وعلوم النقد منذ هذا القرن · وربما تأثر غير واحد بهما من أمثال الجاحظ وابن طباطبا وقدامة بن جعفر ·

ويرجع بعض الباحثين آثار هذين العملين الخطابة والشعر الى ما قبل ذلك . وعلى أية حال فقد ساعد هذان الكتابان وغيرهما على تكوين مفهوم عام للحدود التعبيرية أو لفنون التعبير وصــور الكلام . ويقال ان حدود قدامة بن جعفر وتصوره العــام للشعر من خلال تقسيماته يرجع الفضــل فيه الى أرســطو ، لكن كتاب الشعر لم يبرز فى دراسات مباشرة ، ولم يشر اليه علماء المسلمين صراحة الا فى القرن الرابع للهجرة وما بعده فى ترجمات عربية أو تعريفات وتطبيقات ومقارنــات أمثــال ابن سينا والفارابى وابن رشد من فلاسفة المسلمين ومفكريهم .

وقد أثرت المذاهب الفكرية والعقدية فى الشعر والكتابة ، فكان من الشعراء والكتاب من عبروا عن تيارات فكرية أو عقدية بعينها، وكانوا لسانها الناطق من أمثال على بن الجهم الذى كان شاعر أهل السنة ، ودعبل الذى كان لسان الشيعة والعلوية ، ولم يقف غيرهما من الشعراء جامدين حيال تلك التيارات ، بل نجدها قد تسللت الى أشــعار بعضهم بصــورة أو أخرى كالبحترى وابن الرومى .

وكان من الكتاب والمفكرين من أهل الكلام والاعتزال أمثال بشر بن المعتمر ، والنظام وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وابن أبى دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . كذلك كان من المنتصرين للسنة والعرب من الشعراء والكتاب أمثــال البحتــرى وابن قتيبة .

وقد كان البحترى يكره المناطقة ، وادخال العلوم العقلية والفلسفية الى الشعر ، فقال :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ما كان ذو القروح يلهج بالمنطق ما أصله وما سببه

ولكن المنطق وعلوم الفلسفة والكلام أدت خدمات جليلة للادب عامة ، وفنى الكتابة والشعر خاصة ، دلك أن الخطب والرسائل اتخذت سمات معينة ، وصارت لها مقدمات ونتائج ، ويؤخذ فيها بنظام خاص تقدم فيه بين يدى الموضوعات استهلالات أو افتتاحيات مناسبة بها تنم عليها أو تمهد لها ، ثم بسطت الموضوعات بسطا وقسمت أقساما ، تسلست فيها معانيها بعضها تلو بعض ، ويأخذ احدهما بوثاق الآخر ويؤدى أولها الى تاليها ، ثم ختمت بخواتيم مجملة للقول كله،وموجزة لنقاطه وموضوعاته ·

وبنى الشعر بناء الرسائل ، ولم يعد أبياتا مهملة ولا سطورا مفرقة تجمع بينها القافية ، بل ظهرت له وحدة موضوعية وبنائية متكاملة ، فى المعانى والالفاظ ، يتولد بعضها من بعض ، ويؤدى بعضها الى بعض حتى نهاية القصيدة ·

وقد نهج هذا النهج وأبدعه ، وكان علما فيه لا يبارى ابن الرومى ، وهو المبدع حقا فى بناء القصيدة ونهجها ، وطريقة تناول معانيها · واذا كان أبو تمام قد ابتدع طريقة التضاد والتقابل واستخدمها فنا تعبيريا فى شعره حتى غلب عيه ،

وأغرق فى تطويع البديع لافكاره ومعانيه ، فان ابن الرومى قد امتاز بالبناء والتصميم المتماسك لقصيدته ٠

وهكذا ، أضفت الثقافات المنوعة على الادب فى هذا القرن الثالث حيوية،وعمقت معانيه ووسعت جوانبه ، ولم يقتصر تناول الشعراء على المعانى التقليدية المتداولة فى الشعر القديم ، بل جدت معان أخرى مستمدة من تلك الثقافات المتنوعة ، واعتمد بعض الشعراء على المعانى العقلية العميقة المعتمدة على المعرفة ، ولم يكتفوا بالمعانى الظاهرية المطروقة ٠

وغنيت اللغة بزاد من اللفظ الدخيل والمعرب من أصول غير عربية فارسية ويونانية وسريانية ، بعضه من مصطلح العلوم والحضارة ، وأسماء الاشياء من منجزات تلك الحضارات التى امتزجت بالعربية مادية كانت أو معنوية ٠ وبعضه من اللفظ الجارى فى الحياة العادية لاختلاط تلك العناصر الفارسية واليونانية والتركية والنبطية بالعنصر العربى ، وتداخلهم فيهم، فغلب على لغة الكلام والتفاهم كثير منها ، ونقلها الكتاب فيما كتبوا من نوادر وحكايات ، وفيما صوروا من حياة المجتمع ، أو تسربت تلك الالفاظ عن طريق أصحابها ممن ألفوا باللغة العربية ٠

الشعر والشعراء

الاتجاهات الفنيـة فـي الشعر

فى القــرن الثالث الهجرى نمت الاتجاهات الفنية الجديدة التى عرفهـا الشعر العربى فــى القــرن الثانى وهــى من حيث الموضوعات شعر الزهد ، وشــعر الفلســفة ، والحكمة ، وشعر القصص العلمي ، والشعر المتعلق بصور الحضارة والحياة المدنية، والشعر الشعبى ٠

واستمرت الموضوعات التقليدية كالمديح والهجـاء والفخـر والغزل والوصف والاعتذار،الى جانب الشعر السياسى،الذى ظهرت بشائره منذ صدور الاســلام ، وشــعر الفــرق والشعر الدينى التعليمى ٠ والمثنوى فى منظومات العلوم ٠

ومن الناحية الفنيــة فقد دخــل القصيدة تعديلات من حيث الشكل والبنــاء ، فلم تعد المقدمة التقليدية على صورتها المتوارثة على ما كان الحال عليه فى شعر القــرن الثانى ، بل أخذت طابعا آخر فيه تغير ، وتشــكيل جديد مغايــر لمــا كانت عليه المقدمة الطللية أو الغزلية عند الشعراء المقلدين ٠ فصارت المقدمة صورة أو رمزا نمطيا ، لا يفصل فيــه الشاعر ، ولا يطــول نفسه بل أصبحــت كالحليــة الجميلة الغاليــة بعراقتهــا تعلق على رأس القصيدة ، وقــد رأى ابن قتيبــة أن تظل المقدمــة كما هى دون تعديل بالوقوف على الاطلال ، وان لم يكن ثمة أطلال فى حيــاة

الحضر فى بغـداد ، ولم يجز أن يستبدل بها الشعراء الوقوف على البساتين الناضرة والديار العامرة ، مجاراة للحياة الجديدة، لتظل سمة عزيزة ، هى رمز ، وحلية عريقة أكثر منها لازمة لموضوع الشاعر أو غرضه ٠

وقد أعرض عنها كثير من شعراء العصر بالدخول مباشرة الى موضوعاتهم أو البدء بالغزل والوصف ووصف الطبيعة خاصة أو ذكر مجالس الخمر والغناء ، أو ضمهما معا ، وربما مزج الشاعر العناصر الثلاثة : الطبيعة ، ووصف مجالس الخمـر والغنـاء ، والغـزل ٠ وقد أصبح هذا المزج سمة لكثير من مطالع القصائد من بعد فى القرنين الرابع والخامس ومـا بعدهمـا ٠ وتمسك الاندلسيون بذلك وألحوا عليه فى شعر القرن الرابع وما بعده ٠

ومن حيث البناء ، فقد حرص ابن الرومى على بناء قصيدته بناءا واحدا متكاملا ومتصلا لبناته ، فعاد للقصيدة تلك الوحدة المتصلة فى الشكل والمضمون ، ولم ينفرد ابن الرومى وحده بهذا العمل ، بل شاركه فيه غيره من معاصريه كأبى تمام والبحترى ، وان كانت هذه الظاهرة غير مطردة الا عند ابن الرومى ٠

ومال الشعراء الى الاكثـار من اسـتخدام البحـور السهلة الخفيفة ، ومجزوءات البحور ، كما نظـم بعضهـم المسمطات ، والمخمسات ، والمثنوى ، أو المزدوج ، ومن أشهر مزدوجات هـذا القرن الثالث مزدوجة ابن المعتز التاريخية التى يقول فيها :

وكل يوم ملك مقتول   او خائف مروع ذليل

وقد تأثر أسلوب الشعر بحياة الترف والغناء ، فرق ، وسهلت ألفاظه ، وكان موضوعا للسمر في مجالس الخلفاء والظرفاء ، ومادة للتسلية والمتعة ، يتناشده القوم في ساعات الصفو وفي مجالات اللهو . وكانت بعض المغنيات تصوغ الشعر على الالحان كعريب جارية المأمون والواثق وأنشدت فضل بن حميد معاتبة في مجلس من تلك المجالس شعرا رقيقا فيه تلك الصفات التي ذكرنا . قالت :

يا من اطلت تفرسي   في وجهه وتنفسي
افديك من متدلل   يزهو بقتل الانفس
هبني اسات وما أسات ، بل أقول أنا المسي
أحلفتني أن لا أسا   رق نظرة في مجلس
فنظرت نظرة مخطيء   أتبعتها بتفرس
ونسيت انى قد حلفت ، فما عقوبة من نسي ؟ !

فقام سيدها وقبل رأسها ، وغنت عريب في هذا الشعر .

وظهر في هذا القرن الثالث اتجاهان واضحان للشعر ، اتجاه أصحاب البديع ، أو الصنعة ، واتجاه طريقة العرب . ووصف أصحاب البديع بأنهم خارجون على عمود الشعر العربي وطريقة العرب في قول الشعر وذلك أنهم لم يتبعوا القدماء في التعبير عن معانيهم ، أو في صياغة تشبيهاتهم واستعاراتهم ، وفي بناء قصائدهم ، ومجاراتهم في الوقوف على الاطلال وذكر النؤى والاحجار .

وحمل لواء هذا الاتجاه البديعي في القرن الثالث أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، وقد تقدم خطوات فيه على ما تركه عليه مسلم بن الوليد فى القـرن الماضـى ، كان مسلم قـد وضع أسس مذهب البديع ومكن له وكان يبني شعره بناء محكما ، يعنى فيه بصياغة ألفاظه ، ورصانتها ، وجمالها بما يوفره من جناسات صوتية بين الكلمات والحـروف ، أو الايقاعـات الداخلية فـى الابيات ، وما يحدثه من قواف جزئية متتابعة ، وما يسوقـه من صور متعاقبة فى تشبيهات أو استعارات · ومثاله قوله :

لا تدع بى الشوق انى غير معمود   نهى النهى عن هوى الهيف الرعابيب

وقولـــه :

موف على مهج فى يوم ذى رهج   كانـه أمـل يسـعى الى اجـل

وكقولـــه :

أحيى البكا ليلة حتى اذا تلفت   نفس الدجى واستنار الصبح كالوقد
غادى الشمول فعاطته سمادرها   طيفا به ألفت روحا الى جســد
كانهـا وسـنان المـاء يقتلهـا   عقيقة ضحكت من عارض بـرد
حتى اذا الراح غامت عنه فترتها   ريع الكرى وأقامت كسرة الخلد

وجاء أبو تمام فلم يتوقف عند احـكام الصنعة ، وملاحقة الجناس فى الجرس اللفظى وتوفير الاستعارات والتشبيهات فى البناء المعنوى ، بل أدخل الطبـاق والمقابلة بصـورة ملحوظة ، وحرص على تجاور الاضداد ، والاغراب فى المعانى ، واقتناص الغريب البعيد معتمدا على التلميـح والرمـز أحيانا ، ومستعينا

بالاشارة أحيانا ، ومستخدما غرائب التشبيهات وبعيد الاستعارات مما لم يؤلف فى أقـوال العرب أو التـراث الشعرى القديـم ، واستخدام مقلوب التشبيه والاسـتعارة ، واقامة أود المعانـى بالحجاج العقلى ، ودعمه بالمثل • كل هذا كان من صنعة أبى تمام أو تصنيعه • ونشير الى أمثلة من مذهبه فى أبيات لنفصل بعدها عند الحديث عنه مفردا • يقـول :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد	وعاد قتادا عندهـا كل مرقـد
وانقذها من غمرة الموت أنـه	صدود فـراق لا صدود تعمـد
فاجرى لها الاشفاق دمعا موردا	من الدم يجرى فوق خد مورد
هى البدر يغنيهـا تودد وجهها	الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكننى لـم أحـو وفرا مجمعا	ففـزت بـه الا بشـمل مبـدد
ولم تعطنى الايام نومـا مسكنا	ألـذ بـه الا بنـوم مشـرد
وطول مقام المرء فى الحى مخلق	لديباجتيـه ، فاغتـرب تتجـدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة	الى الناس اذ ليست عليهم بسرمد

ففى هذه الابيات معظم خصائص اتجاه أبى تمام وصنعته ، وقد قدمناها ، ففيها المقابلات والطباق ، وتجـاور الاضـداد ، والصور الغريبة ، والمعانى العقلية المدعمـة بالدليل المـادى ، والحسى كما فى البيتين الاخيرين • وفى قولـه :

لا تنكروا ضربى له من دونـه	مثلا شرودا فى النـدى والباس
فالله قد ضرب الاقـل لنـوره	مثـلا مـن المشكـاة والنبراس

وقد أدى هذا الاتجاه عند أبى تمام الى معارضته ، وكان على رأس معارضيه من لم يكن هواهم مع الثقافات الوافدة ، ممن كان حرصهم على التراث العربى وتقاليده مذهبا يدينون به وديتا •

وأيده جماعات الكتاب ، والمحدثون من الادباء ، ومن يميلون الى فلسفى الكلام ٠

وفى مقابلة مذهب أبى تمام فى البديع ، والخروج على طريقة العرب أو عمود الشعر كما يقول معارضوه كان الاتجاه الآخر المحافظ التقليدى ، ويتسم بسمات اعتبروها عناصر لعمود الشعر ، منها البيان والوضوح وسهولة المطلب ، وقرب المأتى ، والبعد عن الغامض والغريب وفلسفى القول ، والاعتدال فى استخدام محسنات اللفظ ، ومراعاة الالف ، والمناسبة فى التشبيهات والاستعارات ٠ وكان على رأس هذا الاتجاه أبو عبادة البحترى ٠

وقد غلبت على البحترى سهولة مخارج اللفظ وحسن الديباجة، والرونق ، وكثرة الماء على حد تعبير العلماء بالشعر ٠ ومن ذلك قوله :

طربت بذى الأراك وشوقتنى ... طوالع من سنا برق كليل
وذكرنيك ، والذكرى عناء ... مشابه فيك بينة الشكول
نسيم الروض فى ريح شمال ... وصوب المزن فى راح شمول
عذيرى من عذول فيك يلحى ... على ، ألا عذيرى من عذول

وينظم المعنى واللفظ المتداول نظما حلوا ، ويعرضه عرضا جميلا فيقول متغزلا :

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامتها ... ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وجمال العرض حسنة البحترى ، وسيئة أبى تمام سوء عرضه أحيانا ، واعتماده الطباق ، وتعسف اللفظ ، ومحاولته التعبير عن معناه على حساب ألفاظه ، ومن هنا كان استواء شعر البحترى واختلاف شعر أبى تمام ·

والى جانب أبى تمام والبحترى عرف جماعة من كبار الشعراء كانت لهم اتجاهاتهم الفنية لكنهم لم يختلفوا فى مناهجهم اختلاف هذين الشاعرين على تقارب ما بينهما فى الوطن والعلاقة الخاصة بين أستاذ وتلميذ ·

وكان بين أولئك الشعراء من توسط بين القديم والجديد ، كعلى بن الجهم ، ودعبل بن على الخزاعى ومنهم من مال الى الجديد كابن الرومى وابن المعتز ، وان اختلفا فيما بينهما بعد ذلك اختلافا بينا فكان تجديد ابن الرومى مغايرا لتجديد ابن المعتز ، كان جديد ابن الرومى فى بناء القصيدة ، وصوره وتشبيهاته الحية الواقعية ، ومعانيه المولدة ، واستخداماته للفظ استخدامات بارعة تواكب معانيه المولدة ، وتتقلب معها ·

أما جديد ابن المعتز فكان قائما على رشاقة التعبير ، وأناقة التشبيه ، واختياره للصور البراقة الزاهية ، وتأثر ابن المعتز لاشك ببيئته الملكية فى مزاجه ، وخيالاته ، فهو ينسج شعره نسج الحاذق بخيوط الذهب والفضة ، ويضفى عليها بهاء النعمة ، ورونق الحياة المترفة ·

وقد حفلت أشعار ابن المعتز بصور القصور ، ومجالس الغناء ، وآلات الطرب ، وأدوات الذهب والفضة ، وفرش الحرير، وطنافس الوشى المرقوم ·

ويلحق بشعر ابن المعتز شعر جماعات الوزراء الكتاب ومن فى طبقتهم ممن يعايشون الملوك والخلفاء ، ويقلدونهم فى العيش ، والسلوك · وقد شاع هذا اللون من الشعر أى شعر الكتاب ولحقت به سمات بعينها ، أشهرها أنه بلفظ سهل أنيق ، تتناول بعض المعانى الجارية ، على مثل قول أحمد بن يوسف متغزلا :

قلبى يحبك يا منى	قلبى ويبغض من يحبك
لاكون فردا فى هواك	فليت شعرى كيف قلبك

وكقول سليمان بن وهب :

نوائب الدهر أدبتنى	وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا	كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم	الا ولى منهما نصيب

وأكثر شعر الكتاب مقطعات ، وقل ما يكون منه قصائد مطولات ·

وعرض ابن المعتز فى كتاب طبقات شعراء المحدثين لبعض الاتجاهات المعاصرة فى الشعر وأشهر الشعراء · فذكر أصحاب البديع ، وذكر المطبوعين من الشعراء ، ومن بينهم ربيعة الرقى ،

واختارا كثيرا من شعره · وقال عنه : « وما أجد أطبع ولا أصح غزلا من ربيعة وهو القائل :

أنا للرحمن عاص لجنونى برخاص

فهذا كما نرى أسلس من المـاء ، وأحلى من الشهد » · ويقول عن شعر آخر له : « وهذا أطبع ما يكون من الشعر ، وأسـهل ما يكون من الكلام » · ويذكر منهم أبا عيينة المهلبى ·

وروى فى كتب الادب مصطلحان يعبران عن شـعراء العصر هما مصطلحا المحدث والمولد ويخلط الناس بينهما الا أن بعض العلماء يفرقون بين ثلاثة مصطلحات فى طبقات الشعراء ممن نجم بعد عصر بنى أمية المولى ، والمولد ، والمحدث ·

ويجمع ابن رشيق فى العمـدة بين المولدين والمحدثين (١) ، وان كان ترتيبه يجعل المولدين طبقة سابقة على المحدثين أحيانا ، وأحيانا أخرى يجـعل المحدثين مقدمين على المولدين · فيجعل أبا نواس من المحدثين · ويعود ليرى أبا نواس وطبقته من المولدين ، ثم يرى من تلاهم من المحدثين ·

ويذكر ابن جنى طبقة بشار وأبى نواس ومن جاء بعدهم فيصفهم بالمولدين · ويقول : « المولدون يستشهد بهم فى المعانى، كما يستشهد بالقدماء فى الالفاظ » ·

وقد نص صاحب جوهـر الكنـز على الفرق بـين المولدين

---

(١) العمـدة ص ١٠٠ ـ ١٠١ ·

والمحدثين ، وقدم المولدين وأخر المحدثين ، ولم يسبقه أحد الى هذا التحديد ، فقد اضطرب بينهما ابن رشيق .

قال ابن الاثير الحلبى فى حديثه عن طبقات الشعراء (١) بعد الامويين :

« .. ثم من بعدهم شعراء الدولة العباسية مثل سديف ، ورؤبة بن العجاج ، ومن يجرى مجراهم ، ثم بعد هذه الطبقة طبقة المولدين من الشعراء ، وسمى الشاعر منهم مولدا لانه كان عربيا غير محض ، فكان شعرهم غير شعر العرب العاربة ، ولا يستشهد بأشعارهم فى اللغة وخالطوا العجم ، فصاروا مولدين بهذا الاعتبار مثل بشار بن برد وأبى نواس ، ومسلم بن الوليد صريع الغوانى وسلم الخاسر .

ثم بعد طبقة المولدين طبقة المحدثين ، وهم الذين حدثوا عن المولدين كأبى تمام والبحترى وعلى بن الجهم وعلى بن العباس ومن يجرى مجراهم .

فكأن مصطلح الشعراء المحدثين قد استقر على شعراء القرن الثالث الهجرى . وربما أخذ المتأخرون هذا المصطلح من كلام ابن قتيبة عن شعراء المحدثين فى كتاب الشعر والشعراء ، وكتاب ابن المعتز عن كتاب طبقات شعراء المحدثين .

---

(١) جوهر الكنز ص ٤٤٥ . تحقيق د. محمد زغلول سلام طبع منشأة المعارف.

وقد سمى صاحب الجوهر شعراء القـرن الرابع بمصطلح آخر هو طبقة « الطراز المذهب » (١) ٠

وقد طغى أبو تمام والبحترى على شعراء العصر فأهملا ذكر كثير منهم ٠ يقـول ابن رشيق : « ان حبيبا والبحترى قد أخملا خمسمائة شاعر كلهـم مجيـد ٠ ثم يتبعهما فـى الاشـتهار ابن الرومى ، وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن (ابن هانىء) فى المولدين ، وأمرىء القيس فى القدماء » (٢) ٠

ويقول : « وأما حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى فطبقة متداركة قد تلاحظوا ، وغطوا على من سواهم حتى نسى معهم بقية من أدرك أبـا نواس كابن المعتـذل وهو من فحـول المحدثين وصدورهم المعدودين ، غمره حبيب ذكـرا واشتهارا ، وكأبى هفان أيضا ٠ أدرك أبا نواس ، ولحق البحترى فسـتره ، وكذلك الجماذ » (٣) ٠

وديك الجن ٠ وهو شاعر الشام ، لم يذكر مع أبى تمام الا مجازا ، وهو أقدم منه، وقد كان أبو تمام أخذ عنه أمثلة من شعره يحتـذى عليها فسرقها ٠ ودعبل ما أصاب مع أبى تمام طريقا ، على تقدمه فى السن والشهرة ٠ ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز الا من ذكر بسببهما فى مكاتبة أو مناقضة » ٠

---

(١) جوهر الكنز ص ٤٤٦ ٠
(٢) العمـدة ١ : ١٠٠ ٠
(٣) العمـدة ١ : ١٠١ ٠

وكان معظم هؤلاء الشعراء الكبار محترفين أو متكسبين ، شعرهم معظمه فى المديح وكان ممدوحوهم كبار رجال الدولة من خلفاء ووزراء وكتاب وقادة ، وسادة ،وولاة٠وكانت تغدق عليهم العطايا على ما يقدمون من جيد الشعر ، ويقف على أبوابهم ممرسون بصفة الشعر يقومون الشعراء بما يتقدمون به لينال الجائزة ٠

وطرق الشعراء غير موضوع المديح صلب شعر العصر وشعر التكسب عامة موضوعات جديدة منها فى الاوصاف خاصة موضوعات لم تكن مطروقة من قبل ، أو كان التعرض لها سريعا عابرا مثل ما رواه المسعودى من وصف حمامة على غصن :

هتفت هاتفة آ ذنها الف ببين
ذات طوق مثل عطف النو ن أقنى الطرفين
وترى ناظرة نحوك من ياقوتتين
ترجع الانفاس من ثقب بين كاللؤلأتين
ولها ساقان حمرا وان مثل الوردتين
نسجت فوق جناحيها لها برنوستين

كما حظيت مظاهر اللهو ، والفن وآلاتها بحظ غير قليل من عناية الشعراء ، فوصفوا الكؤوس والقنانى وصورها وهيآتها ، ووصفوا الاعواد والطنابير والجنك ، وما اليها من آلات الطرب ٠ ووصفوا أنواع اللباس وأدوات الزينة ، والفرش ، وحيوان اللهو وطيره كالطواويس والببغاوات ٠

وتأكد فى هذا القرن الثالث التيار الشعبى فى الشعر الذى

بدأه ، أبو دلامة وكثرت صور الحياة الشعبية الملتقطة من الاسواق، ودكاكين الحرفيين ، فوصف ابن الرومى صانع الزلابية والرقاق وغيرهما • وصور من الشخوص تصاوير كاريكاتورية مما تخترنه مخيلته فى مسيرته اليومية من هيآت البشر بين أحدب وملتح ، وقبيح وجميل •

وكان لشعر الكتاب مكانته بين الناس • وفى مجالس الادب ، ورجال الدولة خاصة وكان معظم هؤلاء الكتاب ممن يلون مناصب فى الدولة ، ويملكون من السلطة والجاه والمال ما يمكنهم من حياة رغدة هانئة •

وعرف شعر الكتاب بالظرف والرقة ، وكان معظمه مقطعات تنظم فى مناسبات أو يتراسلون بها فيما بينهم ، أو يمدح بعضهم بعضا • ومن أشهرهم فى هذا القرن ابراهيم بن العباس (ت ٢٤٣ هـ)• يقول فى مديح الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد　　تقاصر عنها الامل
فباطنها للندى　　وظاهرها للقبل
وبسطتها للغنى　　وسطوتها للأجل

ومن رقيق شعره الذى يظهر هذا اللون فى شعر الطبقة :

سحور محاجر الحدقه　　مليح ، والذى خلقه
سواء فى رعايته　　مجانبه ومن عشقه
فيا قمرا اضاء لنا　　يلالىء نوره افقه

ومنــه قولـــه :

وليلــة من الليــالى الزهــر	قابلت فيها بدرهــا ببــدرى
لم نك غــير شــفق وبــدر	حتى تولت وهى نصف الدهر

ومنهم أحمد بن أبى طاهر الذى روى له ابن طباطبا قوله :

اذا أبو احمد جادت لنــا يــده	لم يحمد الأجودان البحر والمطر
وان أضــاء لنــا نــور بغرتــه	تضاءل الانوران الشمس والقمر
وان مضى رأيــه أوحــد عزمته	تأخر الماضيان السيف والقــدر
من لم يكن حذرا من حد سطوته	لم يدر ماالمزعجان الخوف والحذر
حلو ، اذا أنت لم تبعث مرارته	فان أمــر فحلو عنــده الصبر
ســهل الخلائق الا أنــه خشن	لــين المهــزة الا أنــه حجــر
لا حية ذكــر فــى مثل صولته	ان صال يوماولا الصمصامةالذكر
اذا الرجال طغوا أو اذ هم وعدوا	بالامر رد عليــه الرأى والنظر
الجود منه عيان لا ارتياب بــه	اذ جود كل جواد عنــده خبر

وعلق عليه بقوله : « انه يجلو الهم ويشحذ الفهم ، وانه الشعر الصفو الذى لا كدر فيه » (١) .

وغلب على الشعر العربى فــى هــذه المرحلة ثقافــة العصر المتعددة الجوانب، والتى طبع عليها الفكر والفلسفة وعلومها . ومن هنا كان الاتجاه الى الحكمة فى شعر بعض الشعراء ، وكان ميــل بعضهم الى العمق وفلسفى الكلام ، رغبه بعضهم الى اتخاذ أساليب الجدل وتشقيق القول فعل أصحاب الكلام .

(١) عيار الشعر طبع منشأة المعارف ص ٩٠ .

وشاعت فى الشعر ألفاظ العلوم ومصطلحها ، ودخل البديع طرف منها كالمقابلة والطباق ، أو تقابل الصفات وتعارضها ، واستخدام أسلوب الحكيم والتعمية ، وما الى ذلك ·

كما طال نفس الشاعر ، واستطال ، وعمد بعض الشعراء الى بسط المعانى وتوليدها ، ولم يعد الايجاز وحده طابع الشعر كما كان كذلك من قبل ، بل اقترب أسلوبه من أساليب الكتابة فى الشرح ، وتنويع صور عرض المعانى على ما عرف عند الجاحظ من المزاوجة أو عرض المعنى بصورتين أو أكثر من اللفظ ويشير ابن طباطبا الى أن شعراء العصر أعادوا عرض المعانى القديمة فى معارض جديدة حتى تلبس على السامع ·

يقول : « وستعثر فى أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا فى تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم، وتكثروا بابداعها ، فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها » (١) ·

وربما أدى هذا الاتجاه الذى أشار اليه ابن طباطبا الى اتهام العلماء بعض الشعراء بالسرقة لاعتمادهم على معانى السابقين حتى وان زخرفوها · والى تتبع بعضهم من أسرف من الشعراء فى استخدام ذلك السحر اللطيف الذى عرف بمحسنات البديع لفظا ومعنى ·

---

(١) عيار الشعر ص ٢٢ ·

ومن شعراء السنة فى هذا العصر :

على بن الجهـم :

وهو شاعر عربى الاصل ، مـن قريش ، وأحيانا ينفون عنه نسبه اليها ويلحق ببنى نجيـه وكان فصيحـا مطبوعـا • خص بالمتوكل •

وكان سيئا متعصبا ، يذم الشيعة ، ويهجـو أحيانا آل أبى طالب أو العلوية ويذهب فى ذلك مذهب مروان بن أبى حفصه • قال فيه البحترى معرضا بذلك :

اذا مـا حصنت عليـا قريش	فلا فى العير انت ولا النفـير
ولو أعطـاك ربـك مـا تمنى	لـزاد الخلق فـى عظم الامـور
عـلام هجـوت مجتهـدا عليـا	بمـا لفقت مـن كـذب وزور

وقد وقع فى بعض كبار المعتزلـة كذلك كابن أبى دؤاد • قال فيه عندما فلج فى مضر موتـه :

لم يبق منك سوى خيالك لامعا	فـوق الفراش ممهـدا بوسـاد
فرحت بمصرعك البريـة كلها	من كان منهـم موقنـا بمعـاد
كـم مجلس لله قـــد عطلتـه	كى لا يحدث فيــه بالاسـناد
ولكـم مصابيـح لنـا أطفاتهـا	حتى تزول عن الطريق الهـادى
ولكـم كريمـة معشر ارملتها	ومحـدث أوثقت فـى الاقيـاد
ان الاسارى فى السجون تفرجوا	لمـــا اتتـك مواكب العـــواد
وغـدا لمصرعك الطبيب فلا تجد	شـيئا لدابـك حيلـة المرتـاد

وقد كان شعره العقدى موجها الى هذين المذهبين « الشيعة و « المعتزلة » وشدد النكير على الطالبين خاصة • وتعصب الرافضة وسخر من أقوالهم من ذلك قوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى	امام خاب ذلك من امام
امام من له عشرون ألفا	من الاتراك مشرعة السهام

يشير الى دعوى الرافضة الغيبية الباطنية ، ونهج العباسيين العملى فى الاعداد والقوة • وقد أسف ، وقبح فى هجائه •

وكان ابن الجهم كثير الرحلة ، ولاقى فى حياته عناءا وعنتا ، وسجن، وصلب وقال فى الحالين شعرا ، ومدح من الخلفاء المتوكل ، كما مدح جماعة من القادة وكبار رجال الدولة كطاهر بن عبد الله والى خراسان • واستشهد فى كتب الادب بمعانيه الجديدة المبتكرة كقوله فى الحبس (١) :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى	حبس وأى مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله	كبرا وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه السرار فينجلى	أيامه وكأنه متجدد
والشمس لولا أنها محجوبة	عن ناظريك لما اضاء الفرقد

وقال فى صلبه بمكان الشاذياخ (٢) :

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية الـ	اثنين مسبوقا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم	شرفا وملء صدورهم تبجيلا

---

(١) تجريد الاغانى ١١٩٦/٣ •

(٢) تجريد الاغانى ١١٩٧/٣ •

ما ازداد الا رفعة بنكو له ... وازدادت الاعداء عنه نكولا
ما كان الا الليث فارق غيله ... فرأيته في محمل محمولا
لا يأمن الاعداء من شداته ... شدا يفصل هامهم تفصيلا
ما عابه أن بز عنه ثيابه ... والسيف أهول ما يرى مسلولا

وقال يصف الليل في غربته بحلب ، ذاكرا وطنه وبيته على نهر دجلة ببغداد (١) :

أسال بالليل سيل ... أم زيد في الليل ليل
ذكرت أهل وجيل ... واين مني دجيل

وتوفي ابن الجهم وكان قد ربطت بينه وأبي تمام صداقة وثيقة قال فيها شعرا ·

ومن شعراء العلوية :

دعبل بن علي الخزاعي

أبو علي محمد بن علي رازين الخزاعي ولد سنة ١٨٤ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ، ومكان مولده غير معروف على وجه التأكيد، ولكنه قضى طفولته وجانبا من شبابه بالكوفة حيث التحق بصحبة من الشطار ، ولحقته بعض اتهامات بارتكاب حوادث كالسرقة والقتل ، لكنها لم تثبت وتفتقر الى دليل · ومثل هذه الاتهامات لم يكن وحده المتهم بها من الشعراء الذين عاصروه ، فقد وجه مثلها الى حماد الراوية وبكر بن النطاح ·

---

(١) المختار من شعر بشار ص ٦٧ ·

وينتسب دعبل الى خزاعة ، القبيلة العربية اليمنية ، وبعض الناس ينفى عنه ذلك النسب ، ويرميه بالكذب فى انتحاله ، ويقول بأنه غير عربى الاصول • ومثل هـذا الاتهـام بانتحـال النسب العربى ، أمر كثر القول به ، وتبادل السباب به جماعة من شعراء العصـر •

وتضافرت الاخبار على أن دعبلا نشأ فى عائلة كان رجالها من الشعراء ، ورأس عائلته الجد الاكبر ، بديل بن عبد الله الخزاعى، وكان يسكن مكة قبل الاسلام ، وله فيها مكانة ونفوذ • وعرف جـده وأبوه وابنه بقول الشعر •

والتقى دعبل بمسلم بن الوليد وتتلمذ عليه •

وانتقل بين مدينتى الكوفة وقرقيسية ثم ارتحل الى بغـداد حيث اتصل بجماعة من رجال الدولة كعبد الله بن طاهر الذى قدمه الى هارون الرشيد فى آخر حكمه • ومكنه قربه من مركز السلطة من تولى بعض المناصب • فقد تولى بعض الاعمال فـى سـمنجان لعباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث ، وتولى منصبا بمصر بمدينة أسوان للمطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعى الذى ولى مصر من سنة ١٩٨ الى سنة ٢٠٠ هـ •

ولكنه لم يستقر طويـلا فى أسـوان لان المطلب سرعان مـا عزله عنه ، ويروى الاخباريون لهذا أمرا ثار بينهما ، ويروون

قصة عن تطور العلاقة بين الامير والشاعر تكون صحيحة أو باطلة، لكنها تصور عنف دعبل ، وانتهت العلاقة بينهما بهجاء مقذع من دعبل لعبد المطلب ، أثارت غضبه ، فحاول قتله ، وسخر منه دعبل سخرية لاذعة بالرد عليه بقوله : ان عليه أن يطعمه أولا حتى لا يموت جوعا ٠

ويبدو أن الرجلين اصطلحا ، واتصل بينهما الود مرة أخرى ، وظل دعبل يوالى عبد المطلب بمديحه ، ووعد بأن يظل كذلك حتى آخر حياته ٠

وعرف دعبل بتشيعه لآل البيت ، ولم ينتسب لاحد فروع العلويين ، وربما كان تشيعه حبا فى آل البيت عامة ، وعلى وأبنائه خاصة٠ وقوى الاتجاه عنده صلته بعلى الرضا امام الشيعة والذى عاصر المأمون ، وأوشك أن يتنازل له عن الخلافة سنة ٢٠٢ هـ وأوصى بخلافته من بعده ٠ ولم يلبث الامام الرضا أن مات بخراسان ٠

وقد نظم دعبل قصيدته المشهورة فى آل البيت مخلدا هذا الحدث الذى اجترأ عليه المأمون وأغضب منه العباسية ٠

وأول علاقة دعبل بعلى الرضا كانت على يد الشاعر الكاتب

ابراهيم بن العباس الصولى (ت ٢٤٣ هـ) اذ صحبه الصولى الى خراسان لينشدا شعرهما عليا الرضا ·

وبعد وفاة الرضا (٢٠٣) هـ) فى ظروف غريبة ، وعودة دعبل الى بغداد ، شارك الشاعر بعض العلوية فى اتهام المأمون بالدس للرضا ، وقتله سما · ونظم قصائد فى هجائه ، وهجاء أبيه هارون الرشيد ، وخلفاء بنى العباس عامة من بعده المعتصم والواثق والمتوكل · وكان المتوكل قد أثار الشيعة لتدميره قبر على بن أبى طالب فى النجف والحسين بن على فى كربلاء ·

واتصل الهجاء بين دعبل وعلى بن الجهم وصاحبه أبى تمام ·

وقد عادى دعبل أبا تمام ، لاتصاله بعلى بن الجهم ، ولامور أخرى جرت بينهما ولم تقتصر عداوة دعبل للطائى على الهجاء ، بل تعدتها الى تعصبه لشعره وانكاره لكثير منه ، واتهامه بأنه أقرب الى النثر منه الى الشعر ، والى أنه أى أبو تمام لجأ الى معانى المتقدمين فادعاها لنفسه · وقال انه لا يصلح من شعر أبى تمام غير الثلث ·

وتجاهل دعبل ذكر أبى تمام فى كتابه عن الشعراء المحدثين ، فأثار حفيظة أبى تمام ، وانصاره · وهكذا كان مستهدفا منهم ، وتعرض لحملة كبيرة ضده ·

وكما استهدف دعبل فى شعره ، كذلك استهدف فى شخصه ،

واضطهد سياسيا من الدولة . وظل كذلك فى تمرده وسخط الناس والدولة عليه حتى توفى سنة ٢٥٩ هـ .

شـــعره :

وتقوم شهرة دعبل فى الشعر على الهجاء ، مثله فى هذا كابن الرومى ولكنه مع ذلك كان شاعرا قديرا يعكس شعره كثيرا من جوانب شخصيته فى أحاسيسه ومشاعره ، وفكره ، وعقيدته ، كما يعكس جوانب من أحوال عصره ، وبعض صوره للطبيعة ومظاهرها المختلفة .

ومن حيث بناء القصيدة ، فقد أخذ باتجاه القدماء من تقديم للنسيب على موضوعه ، وبنائه لاجزائها على النهج الموروث ، لكنه مع ذلك لم يتبع القدماء فى الاسلوب وطريقـة عرض معانيـه ، بل مال الى التحرر من قيود التعبير القديـم والصيغ التقليدية ، وانطلق يعبر بأسلوب متحرر خال من التكلف ، قريب من أسلوب بعض معاصريه من شعراء المحدثين .

واذا ما نظرنا الى شعره بالمقارنة الى بعض المدعين أمثال أبى تمام والبحترى ، فقد نجده خاليا نسبيا من مظاهـر الابـداع ، وجمال العرض فى اللفظ ، والخيال لكنه يملك المقدرة على التعبير عن معانيه دون حاجة الى التكلف فى اصطناع الجمال الشعرى .

وقد جمع الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ديوانه ، وأشـار الى

ذلك ابن النديم فى الفهرست ، وقال انه كان فى حوالى ثلاثمائة ورقة . وسبقه الى جمع شعره أحمد بن أبى طاهر (سنة ٢٨٠ هـ) فى كتابه « مختارات من الشعر والشعراء » .

ويذكر صاحب كتاب « أعيان الشيعة » أن ديـوان دعبل كان موجودا حتى القرن الثانى الهجرى ولكنه الان مفقود .

وأعجب كثـير من العلماء ، ومؤرخـى الادب قديما بشعر دعبل الخزاعى ، من أمثال أبى الفرج الاصبهانى وابن الانبارى وابن رشيق القيروانى .

ووصفه ابن رشيق فى كتاب العمدة فى آخر طبقة أبى نواس، وقدمه البحترى على مسلم بن الوليد قائلا : « ان أسلوبه وروح شعره أقـرب الى طبيعـة الشعر العربى ، أو طريقـة العرب فى الشعر » .

ولدعبل غير الديوان « كتاب الشعراء » وكتاب فـى مثالب العرب ومناقبها .واعتبر حجة فى الشعر والشعراء وأخبارهم ، وعده ابن شرف القيروانى عالم الشعراء وشاعر العلماء .

وأشهر ما قال تائية فى آل البيت ، وهـى التى نظمها فـى مناسبة مبايعة المأمون على بن موسى الرضا . قال :

ذكرت محل الربع من عرفات فاجريت دمع العين بالعبرات
وفل عر صبرى وهاجت صبابتى رسوم ديار أقفرت وعرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين بن جعفر وحمزة والسجاد ذى الثفنات(١)
منازل كانت للصلاة وللتقى وللصوم والتطهير والحسنات
منازل جبريل الامين يزورها من الله بالتسليم والرحمات
منازل وحى الله ، معدن علمه سبيل رشاد واضح الطرقات
ديار عفاها جور كل منابذ ولم تعف بالايام والسنوات

ويذكر فيها مقاتل الطالبيين فيقول :

نفوس لدى النهرين من بطن كربلا معرسهم منها بشط فرات
اخاف بان أزدارهم ويشوقنى معرسهم بالجزع من نخلات
تقسمهم ذئب المنون فما ترى لهم عقدة مغشية الجمرات

ويعبر عن ولائه لهم فيقول :

نبذت اليهم بالمودة جاهدا وسلمت نفسى طائعا لولاتى
فيارب زدنى فى يقينى بصيرة وزد حبهم يا رب فى حسناتى
أحب قصى الاهل من أجل حبكم وأهجر فيكم زوجتى وبناتى
وأكتم حبيكم مخافة كاشح عنيف باهل الحق ، غير مواتى

ويتحسر لان آل الرسول لا يلقون ما يليق بهم من المكانة ، بينما يعيش أعداؤهم ممن ينكلون بهم حياة رغدة هانئة :

أرى فيئهم فى غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد غلظ القصرات(١)

---

(١) السجاد ذو الثفنات هو لقب زين العابدين على بن الحسين .

ديار رسـول الله أصبحن بلقعا — وآل زيـاد تسـكن الحجــرات

بنات زياد في القصور مصونـة — وآل رسـول الله فـى الفلوات

اذا وتروا مـدوا الى واتريهـم — أكفـا عن الاوتـار منقبضـات

سابكيهم ماذر في الارض شارق — ونادى منادى الخـير بالصلوات

وقيل ان المأمون بكى عند سماع هذا الشعر وأمر بصلته ٠

أبو تمـــام

حبيب بن أوس الطائى (١٩٢ هـ - ٢٣١ هـ)

ولد أبو تمام بقرية جاسم بالشام عام ١٩٢ هـ فى أخريات خلافة هارون الرشيد ، وعاش بمصر زمانا وهو صبى يسقى الماء فى جامع عمرو بن العاص ، ويذكر له الكندى أبياتا قالها بين عامى ٢١١/٢١٤ هـ - ٨٢٦/٨٢٩م ، ويبدو أن الاقامة بمصر لم تطب له ،فلم يطل بها وقفل راجعا الى الشام وكانت قد ثبتت قدمه فى قول الشعر ٠

وحاول بالشام أن يدخل الى المأمون عند وصوله اليها ، فلم يحظ بما أراد ، وتنقل فى بـلاد الشـام ، وتوجه الى الموصـل بالعراق ، فأقام عامين ، عاملا للحسن بن وهب على البربر واتجه الى أرمينيا ، واتصل بواليها خالد بن يزيـد الـذى عرف بقتاله للـروم ، فأجزل له خالد العطاء على مدائحه فيه ٠

وحل ببغـداد سنة ٢١٨ هـ بعد وفـاة المأمون ، وتقرب من المعتصم ، فنال الحظوة لديه ولدى كبار رجال دولته كمحمد بن يوسف ، رجل السيف والقائـد المشهور لهزيمته بابك الخرمى ، والقاضى أحمد بن أبى دؤاد صاحب الصولـة ، والعلم ، فى دولة الواثق ٠

وتنقل بين العاصمة وعواصم البـلاد والاقاليم الاسـلامية

يقصد الولاة والامراء فقصد آل طاهر ، ومنهم عبد الله بن طاهر بخراسان ، فأقام عنده زمنا ، وقصد همذان فأقام عند أبى الوفاء بن سلمة فأكرمه ٠

ولقى الشاعر كثيرا ، وجمع مالا وفيرا ٠

وكان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة ، فصيح اللهجة ، بلسانه تمتمة ، صوته أجش ٠ وكان ينوب عنه فى القاء شعره راوية حسن الصوت ٠

وقد عرف بذكائه الحاد ، ومعرفته الواسعة ، واطلاعه على كثير من تراث العرب فى الشعر وجمع الى معرفته الشعرية وثقافته العربية اهتماما بعلوم الاوائل من فلسفة اليونان وعلوم الفرس ٠ وتأثر شعره بهذه الثقافة فتنوعت معانيه ، وعمت أفكاره ٠ وظهرت عليه آثار الجدل وتفتيق القول ٠

وعاش أبو تمام حوالى أربعين عاما ، وتوفى بالموصل عام ٢٣١ هـ ٠

وعرف أبو تمام باتجاهه الخاص فى الشعر ، وطريقته التى اشتهر بها بين النقاد والعلماء بالشعر وتتلخص فى ميله للبديع والاكثار من الصنعة فى اللفظ والمعنى ، وتعمد البحث وراء الطريف البعيد على حساب سلاسة العبارة ، ورونق اللفظ ، مع عدم مراعاة القيم التقليدية المتوارثة فى عمل الشعر ٠

وكان اغراقه في محاولات التجديد في المعاني والخروج عن القيم التقليدية سببا الى غموض بعض شعره ، وسقوطه في المعيب • وكان يميل بطبعه الى التعقيد والالتواء بالعبارة فلغته تبدو للسامع لاول وهلة غير سهلة بناء ونحتا •

وكثيرا ما اعتمد على محفوظه الشعرى في معانيه ، يعيد عرضها وصياغتها ، فهو يلجأ الى ما يعرف بالاهتدام ، أى هدم البناء القديم ليعيد منه ابنية جديدة في معارض غير مألوفة تلتبس على الناس ، لكن ذلك لم يفت العلماء ، وتنبهوا له ، فاتهموه بالسرقة من القدماء •

ويعد أبو تمام الحلقة الرابعة من سلسلة أصحاب البديع التى بدأها بشار وأبو نواس و العتابي ومسلم بن الوليد ثم أبو تمام •

ويصف أبو تمام شعره فيقول :

خذها مثقفة القوافي ربها	لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تملأ كل عين حكمة	وبلاغة ، وتدر كل وريد
كالطعنة النجلاء من يد ثائر	باخيه ، أو كالضربة الاخدود
كالدر والمرجان الف نظمه	بالشذر في عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيه	في أرض مهرة او بلاد تزيد
يعطى بهاالبشرى الكريم ويحتبى	بروائها في المحفل المشهود

واذا كان البديع عند بشار بداية لون جديد في الشعر المحدث ، أو شعر المولدين وفي نهجه الفني ، وعند أبي نواس

ضربا من الفن المبدع ، وأداة من أدوات الخلق الفنى الجديد فى الشعر، وعند مسلم بن الوليد حرفةوصنعة يدعمهاالفكر، ويرندها العقل والصنعة المحكمة ، فالبديع عند أبى تمام قضية فنية وفكرية معا ، لم يعد صيغا فنية تكسب الشعر رونقا ظاهريا ، وحلاوة شكلية فحسب ٠

يقول شارحا مذهبه الشعرى :

خذهاابنة الفكر المهذب فيالدجى والليل أسود رقعة الجلباب

ويقول :

تلك القوافى قد أتينك نزعا تتجشم التهجير والتغليسا
من كل شاردة تغادر بعدها حظ الرجال منالقريض خسيسا
تلهو بعاجل حسنها وتعدها علقا لاعجاز الزمان نفيسا
وجديدة المعنى اذا معنى التى تشقى بها الاسماع كان لبيسا

ويقول لابى دلف :

اليك أرحنا عازب الشعر بعدما تمهل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى فنائك انسها من المجد فهى الان غير غرائب

وتغلب على شعر أبى تمام الموضوعية ، فهو سابق فى المديح ، وصوره كلها صور ذهنية ، تتناول موضوعات عصرية ، ولذلك نفى عنه بعض العلماء الشاعرية ، فقالوا انه عالم أو خطيب أو حكيم ٠

وقال دعبل : لم يكن أبو تمام شاعرا ، انما كان خطيبا ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر ٠

وروى الآمدى فى الموازنة ما قيل من أن أبا تمـام حكيـم وليس شاعرا وأما الشاعر فالبحترى ٠

ويصنع قصائده فى المديح صنعة محكمة يبدؤها أحيانا بداية تقليدية فى شكلها وان غير فى صياغتهـا ٠ كقوله من قصيدة مشهورة فى أبى دلف :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب
أميدان لهوى من أتاح لك البلى فاصبحت ميدان الصبا والجنائب

فيذكر الربع والطلل ويسكب الدمع عليه ، ويتأسى على دروسه ، بفعل الريح والرمال على عادة العرب القدماء ٠

وغالبا ما يتجه بهذا المطلع التقليدى للقادة العرب أو لمن هم من أصل عربى ، كأبى دلف العجلىأو خالد بن يزيـد بن مزيـد الشيبانى ، والذى يبدأ مديحه بقوله أيضا :

لقد أخذت من دار ماوية الحقب أنحل المغانى للبلى هى أم نهب

أو يقـــول :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئى بذاك شهيدا

أو مالك بن طوق التغلبى ٠ يقول له :

لو أن دهـرا رد رجـع جـوابى أو كف من شـاويه طول عتابى
لعذلتـه فـى دمنتـين تقدمـا ممحوتـين لزينب دور بـاب

أو أحمد بن أبى دؤاد ٠ اذ يقول :

سـقى عهد الحمى سـيل العهاد وروض حاضر منـه وبـادى

وحين يتجه بالمديح الى غير هؤلاء من الفرس ، أو ذوى الاصول غير

العربية فهو يختصر المقدمة الطللية ، ويبدأ متغزلا ، مقصرا فيه كقوله فى عبد الله بن طاهر بخراسان :

هن عـوادى يوسف وصواحبـه   فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه

أو يقول فى الحسن بن سهل :

ابدت أسى أن راتنى مخلس القصب   وآل ما كـان من عجب الى عجب

وقد يدخل الى مديحه مباشرة دون تمهيد كما يقول فـى الحسن وسليمان ابنى وهب :

ساشـكر لابنى وهب الهمـة التى   هـى الـود صانـاه بحسن صيانة

وقارن الآمدى بين مقدمات أبى تمام والبحترى ، ومقدمات الشعراء القدامى فى معانى الوقوف ، وذكر بقايا الديار ، ومـا يحدث لها من آثار البلى ، وتعاور الرياح • ويشير الآمدى الى ما ذكرناه آنفا فى صنعة أبى تمام عامـة مع الاهتـدام ، ومحاولة اعادة بناء قديم المعانى بصياغات جديدة •

ويخرج من هذه المقدمة الطللية فى قصيدة المديح الى ذكر الرحلة ومعاناتها ، وما يقاسيه الشاعر وراحلته من ضنى المسير • ولابى تمـام فى هذا المعنـى محاولات جيـدة لقيت اسـتحسان معاصريه ومع بعدهم مع النقاد من مثل قوله :

وقلقل نأى من خراسان جاشها   فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه
وركب كاطراف الاسـنة عرسوا   على مثلهـا والليـل داج غياهبـه
لامر عليهـم أن تتـم صدوره   وليس عليهـم أن تتـم عواقبـه
على كل مـوار المـلاط تهدمت   عريكتـه العليـاء وانضـم حالبـه
رعتـه الفيافى بعد ما كان حقبة   رعاها ، وماء الروض ينهل ساكبه

ويصل الى ممدوحه فيضفى عليه صفات عامة فى معانى المديح التقليدية كالشجاعة والاقدام ، والبر ، والسخاء ، كما يضفى عليه صفات خاصة لائقة بالمقام ، ان كان الممدوح خليفة فهو العادل الامين على الامة الراعى لمصالحها ٠

وان كان من قادة العرب نسبه الى قبيلته ومفاخرها كقوله فى أبى دلف العجلى :

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها	وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذى قار أمالت سيوفكم	عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

ويسجل فى شعر المديح أحداث عصره الكبرى ، ومنها ثورة البابكيين ، ومعارك الثغور مع الروم البيزنطيين ، وأهمها معركة عمورية ، وانتصار المعتصم فيها على الروم ٠

ومن خلال قصائد المديح ينظم أبو تمام أبياتا فى الغزل والوصف ، تبلغ حدا من الجودة والاتقان فى الصياغة وتناسق اللفظ مع المعنى ٠ فمن غزله الرقيق فى مطلع المديح قوله :

غدت تستجيرالدمع خوف نوىغد	وعاد قتادا عندها كل مرقد
وانقذها من غمرة الموت أنه	صدود فراق ، لا صدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعا موردا	من الدم يجرى فوق خد مورد
هى البدر يغنيها تودد وجهها	الى كل من لاقت وان لم تودد

ويبدو جمال هذه الابيات فى جمال الصنعة لا رقة العاطفة ، ولا صدقها ، ونلحظ اهتمامه بالمقابلات والطباق ، والتوازن

والتناظر فى المعنى واللفظ والتقابل بين الاضداد • ومثل هذا ينطبق على غزله فى قصيدة أخرى مما أعجب به أنصاره • قوله :

أظلن دموعها سنن الفريد وهى سلكاه من نحر وجيد
لها من لوعة البين التدام يعيد بنفسجا ورد الخدود
حمتنا الطيف من أم الوليد خطوب شيبت رأس الوليد

ومن أوصافه وصف صلب الافشين وتحريقه بالنار ، وحريق عمورية ، ومنه قوله بمدح المعتصم :

رقت حواشي الدهر فهى تمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسر

ومنها فى الربيع أبياته المشهورة .

يا صاحبى تقصيا نظريكما تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربى فكانما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى اذا حل الربيع فانما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكانها عين اليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كانها عذراء تبدو تارة وتخفر

وصوره الوصفية ، لقطات جزئية ، تتراصف ، ويضع واحدة منها ازاء الاخرى لا تتصل اتصالا عضويا • ولا تنم عن خاصية بعينها فى نظرة متميزة ، واحساس مفرد أو موقف شعورى ينبىء عن نفس واحدة لا نفس عامة هى نفس أبى تمام • وهذا لانه يصف بعقله لا بحسه وعاطفته •

وقد لاحظ عليه ذلك بروكلمان فقال : « وقلما وجدنا فى شعر أبى تمام شيئا من الحنين والصبابة » •

وليس معنى هذا أن شعره كله خال من العاطفة ، اذ قد تبدو هذه أحيانا ، مجتازة سياج عقله ، وصرامة صنعته ، ومن قصائده القليلة التى نلمس فيها حرارة العاطفة قوله فى صديقه الشاعر على بن الجهم ، وقد أراد السفر :

هى فرقة من صاحب لك ماجد ... فغدا اذابة كل دمع جامد

يقول فيها :

ان يكد مطرف الاخاء فاننا ... نغدو ونسرى فى اخاء تالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا ... عذب تحدر من غمام واحد

ومثل هذا نجده فى أبيات له يرثى ابنين لعبد الله بن طاهر يقول فيها :

نجمان شاء الله أن لا يطلعا ... الا ارتداد الطرف حتى يأفلا
ان الفجيعة بالرياض نواضرا ... لاجل منها بالرياض ذوابلا

ولكنه مع ذلك لا يبلغ فى عاطفته تلك ما بلغ شعراء المراثى ، وهو لا يتخلى هنا عن صنعته التى أشرنا اليها ٠

ولابى تمام مقدرة على فن من الصنعة الشعرية عرف عند المحدثين ، وتباروا فيه ، وهو التخلص ، وقد يسمى فى بعض الاحيان بالاستطراد ٠ كقوله متنقلا من وصف الربيع والروض الى مديح المعتصم :

صبغ الذى لولا بدائع لطفه ... ما عاد أصفر بعدما هو أخضر
خلق اطل من الربيع كانه ... خلق الامام وهديه المتنشر
فى الارض من عدل الامام وجوده ... ومن النبات الغض سرج تزهر

تنسى الرياض وما يروض فعله أبـدا عـلى مـر الليـالى يذكر
ان الخليفة حين يظلم حـادث عين الهـدى وله الخلافة محجر

وكانتقاله فى موضع من وصف الفرس الى ذم واحد اسمه عثمان :

فلو تراه مشيحا والحصـى زيم بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت ان لم تثبت ان حافـره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

مواقف الشعراء والنقاد منه :

روى الصولى فى أخباره أن البحترى وعلى بن العباس الرومى كانوا اذا ذكروا أبا تمـام عظموه ورفعوا من مقداره فى الشعر حتى يقدموه على أكثر الشعراء ، وكل يقر باستاذيته وأنه منـه تعلم • وهما أعلم أهل زمانهم بالشعر ، وأشعر من بقى »(١) •

وقال ابن المعتز : « جاءنى محمد بن يزيد المبرد يوما فأفضنا فى ذكر أبى تمام ، وسألته عنه وعن البحترى فقال : لابى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة ، لا يقول مثلها البحترى • وهو صحيح الخاطر ، حسن الانتزاع ، وشعر البحترى أحسن استواء ، وأبو تمام يقول النادر والبـارد ••• وما أشـبهه الا بالغائص يخرج الدر والمخشلبة (خرز أبيض) » •

ودافع أبو بكر الصولى عما اتهم به من مأخذ عن السابقين فقال : « ولو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة لوجب أن

---

(١) أخبار أبى تمام ص ٦٨ •

يصرف عن أبى تمام لكثـرة بديعـه واختراعـه ، واتكائه على نفســه » (١) ٠

ويقول الصولى : « جيد أبى تمام لا يتعلق به أحد من أهـل زمانه ، وانما يختل فى بعض قصائده لفظه لا معناه » ٠

وذكره ابن رشيق القيروانى فى أكثر من موضع من كتاب العمدة وقال انه يميل الى الصنعـة والتدقيق فـى عمل الشعر ، ويقول انه عدل بين ألفاظه ومعانيه ، فهو كالقاضى يضع الالفاظ والمعانى مواضعها المناسبة ، وأنه صناع يظهر جيـد شـعره من سائره ٠

ويقف ابن الاثير فى القرن السابع الى جانبه مدافعا عنه ضد اتهامه بعدم اجادته فى الغزل فيقول : « ومن الناس من يزعم أنه ليس لابى تمـام غزل يحسن كمـا لغيره وكذلك يزعم أنه ليس للمتنبى أيضا من الغزل ما يروق ويحسن ٠ وهذا القول لا يصدر الا عن تعصب أو جهل ٠ وأى غزل أحلى وأعذب وأرق وأدمث من قول أبى تمـام :

انت فـى حـل فزدنى سـقما ... افن صبـرى واجعل الدمع دمـا

وارض لى الموت بهجريك فـان ... ألمت نفســى فزدهــا ألمــا

محنــة العاشــق ذل فـى الهوى ... واذا اســتودع سـرا كتمــا

ليس منـا مـن شـكا علتـه ... مـن شـكا ظلـم حبيب ظلمـا

---

(١) اخبار ابى تمـام ، ص ١٠٠ ٠

وهل لكثير من المتقدمين أو لابن الدمينة أرق من هذه الابيات ؟ !

وكذلك ورد قوله فى طيف الخيـال :

استزارته فكرتـى فـى المنـام ... فاتانـى فـى خيفـة واكتـام
فالليالى أخفى بقلبـى اذا مـا ... جرعتـه النـوى مـن الايـام
يـا لهـا لـذة تنـزهت الار - ... واح فيهـا سرا من الاجسـام
مجلس لم يكن لنـا فيـه عيب ... غير أنا فـى دعوة الاحـلام

وهذه الابيات فى الطيف لم يؤت بأرق منها ولا أسلس » ٠

ووقف منه بعض العلماء والنقاد موقف المعارضة ، فعابوا عليه شعره ، وكان من بينهم من معاصريه الشاعر دعبل بن على الخزاعى الذى اتهمه بالسرقة والاخذ من سابقيه واخفـاء مـا يأخذ بصنعته ، كذلك أخذ عليه أبو العميثل الاعرابى، ميله الى التعقيد ٠

وحكى عن ابن الاعرابى أنـه قال وقـد أنشد شـعرا لابى تمام : ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل ٠

وروى الآمدى فى الموازنة كثـيرا من عيوب أبى تمـام فى سرقاته القبيحة ، وتعمده البديع وعويص اللفظ كقوله :

يدى لمن شاء رهن ، لم يذق جرعا ... من راحتيك درى ما الصاب والعسل

ومثل هذا يسمـى المعـاظلة أى ركوب الكـلام بعضه بعضـا ٠ وتقديره : يدى رهن لمن شاء ان كان لم يذق جرعا من راحتيك ففرق بين ما تعطيه (وهو العسل) وما يعطيه غيرك وهو الصاب أى العلقم ٠

ومن أسباب غموض شعره لجوءه الى المعنى البعيد يصوغه في ألفاظ تتوالى فيها أشكال البديع ، وبخاصة الطباق . ويلوى المعنى ليتم له الطباق ، فهو يؤثر صحته على صحة المعنى وتمامه . يقول :

ولهت فاظلم كل شيء دونها   وأضاء منها كل شيء مظلم

فلكى يتم له الطباق مع ما أراد من المعنى أجهد السامع أو قارىء شعره معه ، وجعله يظن بهذا الذى يبدو لغزا أول الامر ، فيتبين له بعد لأى أنه معنى بسيط ، عقده بطلب الطباق . وهو لا يريد لسامعيه أن يبلغوا ما أراد بلفظ يسير سهل ، بل لابد أن يركبهم الصعب ، وأبو تمام يريد أن يقول فى بساطة ان هذه الفتاة ولهت فأظلم ما بينى وبينها بسبب ما نالنى من الجزع لولهها ، ثم وضح لى منها ما كان مستترا عنى من حبها اياى ، فأضاء ذلك ما التبس دونى .

ومن هذا القبيل قوله :

يتجنب الآثام ثم يخافها   فكأنما حسناته آثام

ويقع فى حيرة من أمر الطباق والمعنى فى البيت ، وكيف يستقيم اذا تجنب المرء الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاما ؟ ! .

ولكن يتضح بعد تفكير أن الشاعر انما يريد أن يقول انه يتجنب الآثام فيكون بذلك قد جاء بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة،

فكأنما حسناته آثام ! • دور عجيب أدى به اليه غرام بالطباق ، واعمال للعقل فى الشعر ، وهو ابن العاطفة وسهولة التعبير ، وعذوبة الروح •

وولع أبى تمام بغرابة الاستعارة أوقعه فى سيئات كثيرة ، لعدم الالف بين المستعار والمستعار له ، وافتقاد المتناسب والقربى:

كقولـــه :

انزلته الايـام عن ظهرهـا من   بعـد اثبات رجلـه فى الركاب

وكقولـــه :

رقيق حواشى الحلم حتى لو أنه   بكفيك ما ماريت فى أنـه بـرد

وقد وقع فى هذا البيت فـى مخالفة للعـرف فى التعبير عن ثقل الحلم ، وتحول ما أراد من مديح بالحلم الى ذم بخفة الاحلام ، ثم لم يصبر على هذا ، بل تمادى وأوغل فجعل الحلم بردا •• ومثله فى الايغال فى الاستعارة وعدم المناسبة :

فضربت الشـتاء فى اخدعيـه   ضربـة خلفتـه عـودا ركوبـا

وأخذ عليه الآمدى مآخذ كثيرة فى اللغـة والعروض •

وأشار بعض العلماء الى أنه كان يعد قوافيـه أولا ثم يبنى عليها الشعر ، ولهذا ظهر التعسف أحيانا فى بناء بعض الابيات • وربما كانت هذه الطريقة متبعة عند كثير من شعراء العصر ، فقد أشار اليها ابن طباطبا فى عيار الشعر •

ومهما يكن من أمر أبي تمام ، فقد كثر حوله الكلام ، كثرة لم يحظ بها شاعر الا المتنبي من بعده ، واختلف الناس فيه ، لكنه بقي علما من أعــلام الشعر العربي على مــدى العصور ، وعرف بطريقته الخاصة ، في عمل الشعر ، وقلــده فيــه من تبعه من الشعراء بدءا بالبحترى وتوالوا حتى القرون المتأخــرة ، وقيل ان المتنبي اعتمد عليه ، وكان يصحب ديوانه ، وقد ألف بعضهم في مآخذ المتنبي من أبي تمام (١) . وصارت بعض قصائده نماذج فنية يحتذيها الشعراء ، وبرزت من بينها بائيته فــي عمورية ، ورائيته في صلب الافشين . وسارت بعض أبياته مسرى الامثال لمــا فيها من الحكمة وحقائق الكلم (٢) .

من مختارات شــعره :

قال يمدح أبا دلف بن عيسى العجلي :

عــلى مثلها من اربــع وملاعب ... اذيلت مصونات الدموع السواكب

أقول لقرحان من البين لم يضف ... رسيس الهوى بين الحشى والترائب

ومنه قوله يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر :

أهن عــوادى يوسف وصواحبــه ... فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه

---

(١) ابن الدهان في كتاب « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » .

(٢) بروكلمان : ٧٤/٢ ترجمــة الدكتــور عبد الحليــم النجــار وطبع دار المعارف .

وقوله فى صلب الافشين وحرقه :

الحق أبلـج والسيوف عـوارى   فحـذار من أسد العرين حـذار

وقصيدته الذائعة فى فتح عمورية :

السيف أصدق انبـاء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

ومن الشعراء العلمــاء

أبو بكر محمد بن داود الاصفهاني (١)

يعتبر أبو بكر ابن داود الظاهرى فقيه الشعراء أو شــاعر الفقهاء فى هذا القرن الثالث الهجرى وكان من أدباء أصبهان فى هذا القر ن· جلس للفتوى والقضاء شــابا ، وأحب المناظــرة مع أترابه من العلماء · واشتهرت مناظرته مع ابن سريج القاضى · « وكانا يتناظران ويترادان فى الكتب » · وكان شعره فى معظمه غزلا ، ولم يشتهر شاعرا كاشتهاره أديبــا كاتبــا بتأليفه كتاب « الزهــرة » وهو من أول ما ألف فى الحب أو الالفة والالاف · وقد وضعه فى شبابه وضمنه كثــيرا من شعره عــلى لسان بعض « أهل العصر » ·

ومن رقيق شعره ما يمثل هذا الموقف المشحون بالضراعة أمام حبيبتــه · يقول :

يا منية القلب لو آماله انفسحت	وحظ نفسى من دينى ودنيائى
قل لى تناسيت أم انسيت ألفتنا	أيام رأيك فينا غير ذا الرائى
كانت لقلبــى أهــواء مفرقــة	فاستجمعت مذرأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت احسده	وصرت مولى الورى مذصرت مولائى
حتى اذا استياس الحساد من دركى	وقل أعداى مــذ قللت اكفائى

---

(١) للدكتــور أحمد عبد الستار الجوارى ، دراسة عن ابن داوود الاصفهانى الظاهرى ولكتابه « الزهرة » كما كتب الدكتور نورى حمودى القيسى دراسة عنه وعن شعره فى مقدمة « أوراق من ديوانه » · طبع بغداد سنة ١٩٧٢ ·

حميت طعم الكرى عينى فاهتجرا فصار طيب الكرى من بعض أعدائى
من خان هان ، وقلبى رائد أبدا ميلا اليك على هجرى واقصائى
لابد لى منك فاصنع مابدا لك بى فقد قدرت على قتــلى واحيائى

وقد صــور ابن داود الحب العف أجمل تصوير ، وعبر عن أحاسيسه ، وأشجانه أدق تعبير ، يقول :

لو كنت شاهدنا والدار جامعة والشمل ملتئـم والــود مقترب
مستأنســين بما تخفى ضمائرنا على العفاف ورعى الود نصطحب
فان محا الشوق فرط الانس أوحشنا أنس العواذل ان جلوا وان تعبوا
عاينت منزلة فى الظرف عالية ورتبة قصرت عن شاوها الرتب
فى عفة نتحامى أن يلم بهــا سوء الظنون وأن تغتالها الريب

وقد كانت معانى الوفاء ، والصدق ، والتفانى فى الوجد ، والسمو بالعاطفة الى مرتبة صوفية ، رائقة ، كل هذه كانت دائــرة فــى شعره ، فمما قاله فى معنى الوفاء حتى التزمت به جوارحــه من بصر ولسان وخاطر وجنان ٠

كان رقيبا منك يرعى خواطرى وآخر يرعى ناظـرى ولســانى
فما عاينت عيناى بعدك منظرا بســوءك الا قلت قد رمقانــى
ولا بدرت من فى بعدك فرحــة لغــيرك الا قلت قــد ســمعانى
اذا ما تسلى الغابرون عن الهوى بشرب مــدام أو ســماع قيان
وجدت الذى يسلى سواى يشوقنى الى قربكم حتى أمــل مكانــى

ورغم تجاهل العلماء له ، وعدم ذكره بين شعراء عصره الا أن شعره فى الحب قد انتشر فى عصره ، وعرفه الناس فى العراق ، وسار فى بغــداد مــع الظرفــاء والعشاق ٠ فقد روى الخطيب

البغدادى أن القاضى محمد بن يوسف ساير أبا بكر محمد بن داود الاصفهانى ببغداد فاذا جارية تغنى بشىء من شعره هو :

أشكو غليل فؤاد أنت متلفه ... شكوى خليل الى الف يعلله
سقمى تزيد مع الايام كثرته ... وانت فى عظم ما ألقى تقلله
والله حرم قتلى فى الهوى سفها ... وانت يا قاتلى ظلما تحلله

وقد جرت بين أبيه وجماعة من أدباء العصر ومتكلميه مناظرات ومحاورات ، كما جرت بينه وبين هؤلاء مناظرات ومحاورات أتم بها مواقف والده ، ومن أشهر من ناظر فى بغداد الناشىء الاكبر ابن شرشير ومحمد بن جرير ، وأبو عيسى الضرير . ويجلس الى بعض العلماء من معاصريه فيروى عنهم ، كما ينشد مباشرة عن بعض شعرائهم كأحمد بن أبى طاهر والبحترى . ويلتقى بابن الرومى . وقد نعته بفقيه العراق . وقد جاء ابن الرومى يوما الى مجلسه ، وقدم اليه رقعة بها بيتان هما :

يا ابن داود يا فقيه العراق ... أفتنا فى قواتل الاحداق
هل عليهن فى الجراح قصاص ... أم مباح لها دم العشاق

فكتب له فى الجواب :

كيف يفنيكم قتيل صريع ... بسهام الفراق والاشتياق
وقتيل التلاقى احسن حالا ... عند داود من قتيل الفراق

ولابن داود الظاهرى مؤلفات أدبية أشهرها كتاب الزهرة فى

الادب ، ومختار الاشعار ومعظم ما روى عن مؤلفاته فى الفقــه والمسائل الجدلية .

ولا يحدد العلماء تاريخا لمولده ، كما يختلففى تاريخ وفاته بين سنتى ست وتسعين ومائتين (٢٩٦ هـ) وسبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) .

ومن الشعراء العلماء :

أبو العباس الناشىء الاكبر

كان أبو العباس الناشىء شاعرا مجيدا ، وعالما فاضلا ، لا نستطيع أن نحكم على ذوقه فى النقد ، ولا أن نقدر جهده الا اذا عرضنا لبعض جوانب تكوينه الانسانى وبنائه الفكرى والفنى من خلال التعرف على شخصه وحياته ، وبعض شعره وعلمه ·

والناشىء الاكبر هو أبو العباس عبد الله بن محمد الانبارى المعروف بابن شرشير · ولقبه الناشىء يطلق على رجلين من شعراء العصر العباسى ، أحدهما هو هذا أبو العباس وقد أطلق عليه الناشىء الاكبر ، والآخر أطلق عليه الناشىء الاصغر ، وقد جاء بعده (٢) ·

وكانت عادة العرب وعلماؤهم من قديم اذا اشترك اثنان فى لقب فيميز السابق منهم باللقب متبوعا بكلمة الاكبر ، واللاحق متبوعا بكلمة الاصغر ، وكذلك كان الامر بالنسبة الى الاخفشين الاكبر والاصغر ، وهما من علماء النحو المرموقين ·

ذلك بالنسبة الى لقبه الناشىء ، أما شرشير الذى لقب به أبوه ، ولاف به هو أحيانا فاسم لطائر معروف بالديار المصرية يعيش فى شمال الدلتا ، يغشى المصارف والترع وموارد المياه ، ويفد الى مصر شتاء ، هو أكبر من الحمام ، وهو صيد طيب ·

ولا نعلم مما ورد من أخباره شيئا عن سبب هذا اللقب الذى الحق بأبيه أو به ، وكثيرا ما تلحق الكنى والالقـاب بالناس دون سبب ظاهر ، وكم عرف جماعة من أجلة العلماء والشعراء بألقاب من أسماء الحيوان والطير والجمـاد ، فثعلب وأبو ذؤيب وابن عصفور وابن حجر ..

قيل ان أصل أبى العباس من الانبار وينسب اليها كثير من علماء الدولة العباسية وكبار أدبائها ، وقـدم بغداد فأقـام بها زمنا ، نضج علمه وأدبه ، والتقى بكثـير من علماء دار السـلام وأدبائها وشعرائها فى القرن الثالث ، وعقدت بينه وبين بعضهم أواصر الود والصداقة ، أو وشائج العلم والمناظرة .

وأولى اهتمامه دراسة الفلسفة والمنطق والجدل والخلاف ، وأعجب بعلم الكلام ، فانضم الى زمرة المتكلمين وقد كانت للكلام مكانة فى بغداد فى القرن الثالث أيده بعض الخلفاء ممن ناصر المتكلمين وقربهم . أمثال الخليفة المأمون ، والخليفة المعتصم ، وقد عاش فى كنفهما جماعة من كبار المتكلمين وفلاسفة المسلمين .

وأولع أبو العباس بالفلسفة والجدل ، وغشى حلقات المتكلمين وغيرهم من علماء بغداد آنذاك وأحب المناظرة ، ومقارعة العلماء، وكثيرا ما أتهم بمشاغبتهم ، ومعارضة المشهورين منهم حتى رمى بالهوس . وقال المرزبانى : « وكان أبو العباس الناشىء متهوسا شديد الهوس » .

وتألب عليه علماء بغداد لهذا ، فضيقوا عليه المقام بـدار

السلام ، فلم يلق ما كان يصبو اليه من مكانة مرموقة ، فغادرها الى مصر (٤) ، وربما زاد فى ضيقه بالمقام ببغداد آنذاك أنهـا نكأت على المتكلمين ، وقلبت لهم ظهر المجن بعد محنة خلق القران المشهورة ، وثورة الحنابلة على المعتزلة والمتكلمين عامة ، وانتصار المتوكل لمذهب أهل السنة وعداثه للمتكلمين والمعتزلة (٥) ٠

قال المرزباني انه أخذ نفسه بالخلاف علـى أهـل المنطـق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورغب فى أنه يحدث لنفسـه أقوالا ينقض بها ما هم عليه فسقط ببغداد فلجأ الى مصر وأقام بها بقيـة عمـره ٠

ونقل أنه كان موجودا بمصر عام ثمانين ومائتين من الهجرة حيث أنشد أبياتا بدأها بقوله :

ليس شيء احر فى مهجـة العا ... شـق من هـذه العيون المراض
والخدود المضرجـات اللـواتي ... شـيب جريالها بحسن البيـاض

وظل أبو العباس يقول الشعر ويؤلف فى فروع العلم بمصر حتى توفى عام ثلاثة وتسعين ومائتين (٢٩٣ هـ) ٠

وألف الناشيء كثيرا من الكتب فيما أتقن من علوم العربية وعلوم الاوائل ، وكان متقنا للنحو وعلوم الدين والمنطق ٠ قال ابن خلكان : « من العلماء بالادب والدين والمنطق » ٠ وقال أيضا : « وله تصانيف جميلة » ٠

ونظم الشعر التعليمى ٠ قال ابن خلكان : « له قصيدة على

روى واحد وقافية واحدة فى أربعة آلاف بيت فىفنون من العلم».

ووقف منه العلماء والمؤرخون مواقف مختلفة بين مزر بـه متحامل عليه ، ومعترف بفضله مقدر لجهده وعلمه ، مثن على كتبه وشـعره .

فمن تحامل عليه المرزبانى من علماء القرن الرابع وصاحب كتابى : « معجم الشعراء » و « الموشح » فقد نعتـه بالتهوس كما رأينا ، وقال : « أخذ نفسه على أهل المنطق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورام أن يحدث لنفسه أقوالا ينقض ما هم عليه » .

ومن عرف فضله ابن خلكان فقد قال فيه : « وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة وأدخل على قواعد العروض شـبها ، ومثلها بغير أمثلة الخليل ، وكل ذلك بحذقه وقوة فطنته » (٦) .

وكلام كل من المرزبانى وابن خلكان يدور حـول موضوع واحد جعله الاول مآخذا والثانى محمدة . ويبـدو أن الرجـل ارتأى رأيا فىعلم النحو أو بعض قواعده ، وصل اليه واستنبطه من دراسته المتعمقة فى علم المنطق وعلوم الفلسفة ، وحاول فيه أن يخرج على اجماع علماء النحو فى عصره ، فرفضوه ، وقاوموه ، وكذلك فعل فى عروض الخليل ، الذى ارتـأى فيـه كذلك رأيا مخالفا للعلماء ، وبدت له فى أصول الخليل كما يقول ابن خلكان شبه أو مآخذ ، ومثل لبعض ما وفق اليه فى علم العروض بأمثلة

غير ما درج عليها الناس ، فرأوا فيها مروقا على علم الخليل ، واتهموه بالهوس ٠

ولسنا على علم بهذه الاشياء جميعا حتى نحكم عليه أو له فنكون مع المرزبانى أو نكون مع ابن خلكان ٠٠ ومع ذلك فان موقف المرزبانى من الناشئ قد تعترضه بعض الشبه ، منها أنه كان قريب العصر من أبى العباس وأنه كان بغداديا ، ولابد أن أصداء الخلاف بين الناشئ وعلماء بغداد كانت لا تزال تدور فى أوساط العلماء أيام المرزبانى ، وهو بغدادى على كل حال ، ومعاصر ، وهذا وحده كفيل بأن يلقى ظلالا من الهوى على حكمه٠

أما ابن خلكان فبعيد عن معاصرة الناشئ لانه من رجال القرن السابع أى بعده بأربعة قرون كانت كفيلة بترجيح الرأى السديد وتصفية المعركة والحكم له أو عليه بروح الانصاف دون هوى ٠ فضلا عن أن ابن خلكان لم يكن وحده الذى قرظ الناشئ وأثنى عليه ، بل سبقه الى ذلك أحد أدباء القرن الرابع الفضلاء ممن لا ينكر رأيه ، ويؤخذ قوله فى الادب مأخذ الجد والاعتبار ، وأعنى أبا حيان التوحيدى الذى نعت بالجاحظ الثانى ٠

وفى كتبه يقول المرزبانى : « وقد رأيت بعض كتبه فدلتنى على هوسه واختلاطه » ٠ وفيها يقول ابن خلكان : وله عدة تصانيف جميلة ٠

ويقول ابن تغرى بردى : كان فاضلا بارعا ، وله تصانيف رد فيها على الشعراء .

شـــعره :

ذلك مبلغ أمره فى العلم ، وأما أمره فى الشعر فلم يكن أقل من أمره فى العلم اذ اختلف العلماء حوله اختلافهم حـول علمه . فالمرزبانى يراه شاعرا مكثرا وهو مع كثرة شعره قليل الفائدة ، ويقول ابو حيان عن شاعريته : « وله مذهب حلو وشـعر بديع ، واحتفـال عجيب » (٧) . ويقول ابن الجـوزى : « وله شـعر حسن » (٨) .

وقال ابن خلكان : « له أشـعار كثـيرة فـى جوارح الصيد وآلاته ، والصيود وما يتعلق بها ، كأنه كان صاحب صيد . وقد استشهد كشاجم فى كتاب « المصايد والمطارد فى مواضع » ، منها قصائد ، ومنها طرديات على أسلوب أبو نواس ، ومنها مقاطيع ، وقد أجاد فى كل » .

وقال فى موضع آخر : « شاعر مجيـد يعد فـى طبقة ابن الرومى والبحترى » (٩) .

ولم يبلغنا ديوان كامل للناشىء الاكبر حتى نحـكم عليه أو نقومه ، وكل ما جاءنا منه مقطوعات وقصائد مفرقات فى أسفار الادب ومجموعاته ، ومن بين تلك الاسفار مما جمع له كثيرا من

الشعر كتاب « البصائر والذخائر » لابى حيان التوحيدى ، و « زهر الآداب » للحصرى القيروانى ومحاضرات الراغب

ومن تلك الاشعار المفرقة ، وما أشار اليه ابن خلكان فى نصه السابق ، وفى مواضع أخرى نجد أن شعره يضم موضوعات الشعر التقليدية كالغزل والفخر والمديح والهجاء والوصف ، كما تروى عنه قصيدة مطولة فى الشعر التعليمى فى فنون العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت (١٠) ٠ وله شعر كثير بين قصائد ومقطعات فى الطرد والصيد وآلاته على ما ذكر ابن خلكان فيما نقلنا عنه ٠

وقد وصف الناشىء شعره فى أبيات جيدة تقول :

يتحير الشعراء ان سمعوا به ... فى حسن صنعته وفى تاليفه
فكانه فى قربه من فهمهم ... ونكولهم فى العجز عن ترصيفه
شجر بدا للعين حسن نباته ... ونای عن الايدى جنى قطوفه
فاذا قرنت أبيه بمطيعه ... وقرنته بغريبه وطريفه
الفيت معناه يطابق لفظه ... والنظم منه جليه بلطيفه
وأتاه متسقا على احسانه ... قد نيط منه رزينه بخفيفه
هذبته فجعلته لك باقيا ... ومنعت صرف الدهر عن تصريفه

يصف شعره بالسهل الممتنع المحكم الرصف الطيع الابى الذى يجمع بين الغرابة والطرافة فى تآلف من المعنى واللفظ والنظم ، دون خلل فى أيهما أو فى تآلفهما جميعا معا فى نسق واحد مهذب لا شذوذ فيه ولا شرود ، فعاد شعرا خالدا على الزمن ، باقيا على صرف الدهر لا يغير منه كر الزمان ٠

عاصر الناشىء جماعة من كبار شعراء العباسيين أمثال البحترى وابن الرومى، ولم يشتهر شهرتهما، وان كان ابن خلكان قد وضعه فى طبقتهما . وقصد بشعره كبار رجال الدولة من وزراء وكتاب وقادة ، فمدحهم وكان من بينهم من قصده ابن الرومى كأبى الصقر ابن بلبل الوزير العباسى صاحب القصة المشهورة مع ابن الرومى ، والذى كانت له معه مواقف سجلها فى قصائد طويلة ذوات عدد . وقال فيه أبو العباس الناشىء :

تبلج بروح اليأس أو روحة الغنى ... أو الصدق لى فى الوعد أو طلب العذر
فمالى تقى يحيى، ولا حلم يوسف ... ولا صبر أيوب ولا مدد الخضر

ويجمع شعره سمات العالم والشاعر، ففيه الصياغة الرصينة، والكلمة الواقعة موقعها ، والمعنى البعيد ، والفكرة ، الى جانب حلاوة النفس ، وعذوبة الجرس ، وجمال الصورة ، وأعجب أبا حيان التوحيدى قوله متغزلا :

لها جيد ظبى واهتزاز براعة ... وعينا مهاة ، واعتدال قضيب
ولفظة مناع ، ولحظة باذل ... وعتب برىء واغتياب مريب
وايماض ذى جد،واعراض هازل ... وسورة ذى طيش وعطف حبيب

وعلق عليه بقوله : فهذا فن لطيف المقام ، حلو جدا (١١) .

وما جاءنا من شعره فى الغزل رقيق فيه تلك الحلاوة التى أشاد بها التوحيدى . ومنه هذان البيتان فى وصف الدمع فوق خد الحبيب ساعة الفراق :

بكت للفراق وقد راعنى ... بكاء الحبيب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها ... بقية طل على جلنار

وحلاوة البيتين مستمدة من جمال التشبيه في البيت الثاني .
ومن جميل معانيه في الشكوى قوله :

لفظي ولفظك بالشكوى قد ائتلفا   يا ليت شعري فقلبانا لم اختلفا

ومن نسيبه حلو النفس قولـه (١٢) .

ولما راينا البين زمت ركابه   وأيقن منا بانقطاع المطالب
طلبن على الركب المجدين علة   فعجن علينا من صدور الركائب
فلما تلاقينا كتبن باعين   لنا كتبا أعجمنها بالحواجب
فلما قرأناهن سرا طوينها   حذار الاعادى بازورار المناكب

جمعت بين رقة النسيب ، ودقة المعاني ، ومبتكر التعبير ، ونلاحظ ذلك كله في البيتين الثالث والرابع بخاصة .
ويرسم بالكلمات صورة شعرية جميلة لعازفة على العود فيقول (١٣) .

واذا بصرت بكفها اليسرى حكت   يد حاسب تلقى اليك صنوفا
وكانما المضراب في أوتاره   قلم يمجمج في الكتاب حروفا
ويجيبه ابهامها فكانها   في النقر تنفي بهرجا وزيوفا

ويفخر بنفسه وقومه فيقول :

لم تبن في الدنيا سماء مكارم   الا ونحن بدورها ونجومها
واذا سمت يوما للمس أديمها   نجوى أبالسها فنحن رجومها
واذا سمعت بنعمة محرومة   من كل حادثة فنحن حريمها
واذا أليحت للأنام بوارق   بندى فمنا نستهل غيومها

ويشكو هجر الصديق وتغيره :

انى ليهجرني الصديق تجنيا   فاريه ان لهجره أسبابا
واخاف ان عاتبته اغريته   فارى لـه ترك العتاب عتابا

وشعره يجرى على هذا النمط من الشاعرية الممتزجة بالفكر والتأمل ، لا يطرق المعنى السهل القريب ، ولكنه يجرى وراء المعنى البعيد ، فيأتى به ليضعه أمامك فى لفظ سهل لا تشعر بأثر الجهد فيه ، فهو غير متكلف اللفظ ، ولا متعنت العبارة كبعض الشعراء من أصحاب المعانى ، وهو مع ذلك لا يرقى الى رتبة البحترى فى طلاوة الشعر ولا الى درجة أبى نواس فى رشاقة التعبير .

ومع ذلك فهو لا ينحط عن درجة هؤلاء وأولئك كثيرا ، بل يعتبر شعره من جيد الوسط .

كتاب الشعر :

واذا ما تركنا شعره الى نقده ، والحديث عن كتابه فى الشعر وآرائه فيه فيتبقى أن نهتدى أولا بحديث أبى حيان فى البصائر . يقول : « وما أصبت أحدا تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشىء المتكلم ، وان كلامه ليزيد على كلام قدامه وغيره » (١٤) .

وهذه العبارة تحتاج الى وقفة تأمل ، لان أبا حيان حكم على علو قدره فى النقد وقال انه لم يصب أحدا من النقاد الى عصره ـ أى أخريات القرن الرابع ـ تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشىء . وهو لا شك قد قرأ كتب النقد السابقة أو عرفها ويشير بصفة خاصة الى كتاب قدامة بن جعفر « نقد الشعر » ويقدمه عليه وعلى غيره ممن عرض لهذا الموضوع .

وهو لا يعنــى من النقــاد بالضرورة مــن تعرض للشعراء وطبقاتهم ، بل يعنى بصفة خاصة من تعرض منهم لصنعة الشعر ، وقد سبقه الى القول فى صنعة الشعر جماعة كابن المعتز صاحب البديع ، وابن طباطبا فى عيار الشعر ، وكتاب ابن المعتز قليل الخطر ، وان كانت له أسـبقية الحديث عن البديع وتبويبــه ، وأخطر منه عيار الشعر لابن طباطبا ، وان لم يحظ بالشهرة التى حظى به البديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة · ولا نـدرى لم أهمل أبو حيان عيار الشعر عنــد حديثــه عن كتــاب الناشىء ، والكتابان فيما يبدو مما بقى من أجزاء كتاب الناشىء قريبان من بعضهما فى الموضوع ، لانهما يعرضان لصفة الشعر · ومؤلفا « الشعر » و « عيار الشعر » شاعران يعملان الـذوق ويحكمان التجربة الذاتية ، ومعاناة النظم ، وليس أدرى بأسراره كمن دفع الى مضايقة كما يقول البحترى · وكلام قدامة فى صنعة الشعر كلام عالم مقنن لا شاعر مجرب ، وفرق بعيد بين الكلامين ·

ومهما يكن من أمر فان كتاب « الشعر » للناشىء كتاب يتحدث فى صنعة الشعر وفنه ، ويشهد على ذلك ما وصلنا من مقتطفات من الكتاب فى بعض كتب الادب ، وفى كتابى «البصائر والذخائر» لابى حيان التوحيدى ، و « زهــر الآداب » للحصرى القــيروانى بخاصــة ·

ونورد هذه المقتطفات محاولين ترتيبها من عموم الى خصوص ·

ونبدأ بتعريفه للشعر وحديثه عنه . يقول (١٥) :

« الشعر قيد الكلام ، وعقال الآداب ، وسور البلاغة ، ومعدن البراعة (١٦) ، ومجال الجنان ، ومسرح التبيان ، وذريعة المتوسل ، ووسيلة المتوصل ، وذمام الغريب ، وحرمة الاديب ، وعصمة الهارب ، وعدة الراهب (١٧) ، ورحلة الداني ودوحة المتمثل ، وروضة المتحمل ، وحاكم الاعراب ، وشاهد الصواب » .

وهو فى هذه الفترة لم يعرف الشعر التعريف المألوف ، بل عرفه التعريف الجامع لخصائصه ، وطبيعته وغاياته ، وفوائده ، وكل من عباراته الموجزة تحتاج فى الشرح الى صفات تبسط مجملها ، وتنشر مطويها .

وأولها قوله ان « الشعر قيد الكلام » يعنى أنه يقيد المعانى والافكار بأحكامه وموسيقاه ونظمه ، بتفاعيله ، وقوافيه ، ويعنى أنه حافظة العلم ، وخزانة الادب ، وهو أيسر وسيلة لسهولة علوقه بالذهن ، وهو « عقال الآداب » أى قيدها ، ومجتمعها . فيه الحكمة ، والمعرفة . وهو أسمى فنون الادب ، وأشرف أنماط القول ، وكان العرب يتواصون بحفظه ، ويوصون مؤدبى أبنائهم بتعليمهم اياه . وهو « سور البلاغة ومحل البراعة ، ومجال الجنان ، ومسرح البيان » ويعنى سمو منزلته فى البلاغة والبيان، فهو فى المقدمة من فنون القول جميعا ، لا يسبقه منها أحد ، ويكاد

يقتصر علم الادب عند العرب على الشعر ، فقد غلب على ما عداه ، والبليغ الحق هو الشاعر الفحل ، والمقول الفذ • وفــي الشعر تبدو البراعة ، وتتكشف المقدرة ، اذ تحكمه الاوزان والقوافي والقوافي واللغــة الخاصة ، اللغــة الشعرية ، والشاعر الفذ هو الذى يستطيع أن يؤلف بين معانيه وألفاظه وأوزانه وقوافيه ، فلا يضطره الوزن الى اصطناع الضرورة فى بناء العبارة ، أو التكلف فى القافية فتبدو ملحقة بالقول أو خارجة أو فضلة زائدة ينتهى الكلام قبلها ، لهـذا أعجبوا بالشعر الذى تلتصق قوافيه ببقيــة ألفاظه ، أو تؤدى أوائله الى قوافيه دون تكلف أو عناء • ونسمع كثيرا من العبارات فى كتب النقد تصف تلاؤم القوافى مع الوزن ، أو تلاؤمها مع المعانى ، أو تلاؤمها مع بقية لفظ البيت •

وتلك العبارات التى سلفت كلها متصلة بصنعة الشعر ، وما جاء بعدها فى الفقرة من عبارات يتصل بغايات الشعر وفوائده ، فهــو : « ذريعة المتوسل » و « وسيلة المتوصل » ، ورغم المزاوجة الظاهرة بين العبارتين فهما تعبران عن موضوعين مختلفين •

فذريعة المتوسل يعنى أنه يتخذ ذريعة الى أمر فيتوسل به ، أو يتشفع فيه • وهنا يمكن أن يدخــل العتــاب ، والاعتذار ، والتحبب ، والقربى الى المحبين وفيه معنى كون الشعر سببا فى العفو عن جرم ، أو الصفح عن اثم •• وتحدث عن هذا الــدور للشعر تفصيلا ابن رشيق فى كتاب العمدة •

وفى الفقرات التالية « وذمام الغريب ، وحرمة الاديب ، وعصمة الهارب وعذر الراهب » يواصل الناشىء ذكر فوائد الشعر وبيان فضائله ٠

ثم يختم بفقرات تتصل باستخدامات الشعر فى الادب واللغة، ودوره فى ايضاح المعانى ، وضبط القواعد والاعراب ، وضبط ألفاظ اللغة فى استخدام أبيات الشعر وشواهد على هذا كله ٠

فهو بحق كما قال : « دوحة المتمثل ، وروضة المتحمل، وحاكم الاعراب ، وشاهد الصواب) ٠

وقد أشرنا الى آن العلماء بالشعر فصلوا ما أجمله الناشىء ، ونخص منهم عبد الكريم النهشلى (١٨) ، وابن رشيق القيروانى (١٩) ٠

خصائص الشعر الجيد :

ويعرض فى فقرة أخرى ـ نقلها الحصرى فى زهر الآداب ـ لاسلوب الشعر ، وموضوعاته فيقول : « الشعر ما كان سهل المطالع ، فصل المقاطع ، فحل المديح ، جزل الافتخار ، شجى النسيب ، فكه الغزل ، سائر المثل ، سليم الزلل ، عديم الخلل ، رائع الهجاء ، موجب العذرة حسن المعتبة ، مطمع السالك ، فائت المدارك ، قريب البيان ، بعيد المعانى ، نائى الاغوار ، ضاحى القرار ، نقى المستشف ، قد هريق فيه ماء الفصاحة ، وأضاء له

نور الزجاجة ، فأنهل فى صادى الفهم ، وأبهل فى بهم الرأى ، لمتأمله تشوق ، ولمستشفه تألق ، يروق المتوسم ، ويسر المتبرم .

قد أبدت صدوره متونه ، وزهت فى وجهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه ، وتطالعت آثاره لمستوضحه . وأشبه الروض فى وشى ألوانه ، وتعمم أفنانه ، اشراق انواره ، وابتهاج أنجاده وأغواره . وأشبه الوشى فى اتفاق رقومه ، واتساق رسومه ، وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه . وحكى العقد فى التئام فصوله، وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره ، وفريده بشزره .

قد كشف الايجاز موارده ، وجلت مداوس الدربة مناصله ، وشحذت مدارس الادب فواصله ، فجاء سليما من المعايب ، مهذبا من الادناس ، تتحاشاه الابن ، وتتحاماه الهجن ، مهديا الى الاسماع بهجة ، والى العقول حكمة » (٢٠) .

ومرة أخرى أوجز الناشىء فى هذا الفصل ما فصله غيره من العلماء من خصائص الشعر الجيد ، لفظا ومعنى ، فجمع خصائص اللفظ الشعرى ، والمعانى الشعرية ومناسبة الاسلوب واللفظ والمعنى لموضوع الشعر وأغراضه .

ويهتم بسهولة المطالع ، وبوضوح مقاطعه وفصوله ، وهو بذلك يستوحى أصول الشعر الجاهلى وتقاليده ، فقد كان الشعراء يتحرون سهولة المطالع ، لاجتذاب السمع ، وقبول الذهن لما يرد عليه . وفى النقد العربى مواقف كثيرة للنقاد مع هذه الخاصية

ولعل أشهرها موقف ابن الاعرابى من غموض مطلع أبى تمام :

هن عوادى يوسف وصواحبه   فعزما فقد ماأدرك السؤل صاحبه

وقوله للشاعر : لم لا تقول ما يفهم ؟

وموقف نقاد المتنبى من غموض مطلع المتنبى وتعقيده فى قولـه :

احاد ، أم سداس فى أحاد   لييلتنا المنوطة بالتنادى

وينتقل الى مناسبة الكلام للموضوع من حيث القوة والضعف، والجزالة والرقة ، فيرى ضرورة الفحولة والقوة عند المديح ، وهذا أمر طبيعى لان المديح يقتضى من الشاعر وصف الممدوح بصفات الرجولة والشجاعة والاقدام ، وهذه المعانى لا يناسبها سوى قوى اللفظ ورصينه • وقد أورد النقاد أمثلة كثيرة لمناسبة معانى المديح لالفاظه ، وهى غالبة على الشعر الجيد ، ولكن مخالفة ذلك تبدو فى شواهد قليلة يتناقلها النقاد • مثل ما نقله ابن طباطبا فى عيار الشعر من عدم مناسبة قول كثير لمديح الخليفة الاموى فى قولـه (٢١) :

وما زالت رقاك تسل ضغنى   وتخرج من مكامنها ضبابى
ويرقينى لك الراقون حتى   أجابت حية تحت الثياب

فهذا كلام أليق بأن تخاطب به امرأة ، لا أن يخاطب به خليفة المسلمين وأمير المؤمنين •

وحال الفخر كحال المديح ، فلابد أن تكون ألفاظه جزلة كذلك •

وقد فرق الناقد وهو فى القرن الثالث بين موضوعى النسيب والغـزل • وكثير من النقاد لم يعتادوا هذه التفرقة ، بل جمعوا بينهما ، وقليل منهم من التزم هذه التفرقة بين الفنين وان كانا جميعا متعلقين بالعلاقة بين الرجل والمرأة والاحوال التى تجرى بينهما من العشق والمحبة ، وأحوال الهوى وتصرفه معهما ، من لقاء وفراق ، وبعد وقرب ، ووصل وهجران ، وسهر ، وأحوال العذال •• وما الى ذلك ، وبوصف جمال المرأة ومحاسنها الجسدية أو القولية ، والسلوكية •

ومن قول الناشىء ندرك أنه يـرى النسيب هو الـذى يصف أحوال الهوى والمحبـة وتصرفهما بين المحبين ، بينما الغزل هو ما يتصل بمحاسن المرأة وجمالها جسدا ولفظا وسلوكا •••

فهو يتطلب فى النسيب الشجى ، أى المطرب ، وأن يطـرب لسماعه الناس ، وما يطربون الا لانه يقع فى قلوبهم موقعها ، وقد علل ابن قتيبة تمسك الشعراء بمقدمات النسيب فى بناء القصيدة التقليدية بقوله بعد ذكر الاطلال والوقوف عليها ومـا يتصـل بذلك •• « ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق ، وفرط الصبابة ليميل نحوه القلـوب ، ويصرف اليه الوجوه ويستدعى الاسماع اليه ، لان النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لمـا قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغـزل والف النساء » (٢٢) •

ووصف الغزل بالفكه ، ولا يعنى هذا النعت ما اتصل باللفظ

في لغتنا المعاصرة من معاني الاضحاك ، بل لعله أقرب في مدلوله المقصود الى معنى المسرة وهو الشعور الذى يحدثه وصف الجمال في صوره المختلفة ، فجمال المرأة باعث على المتعة والمسرة ، وهذا ما يقصده الناشيء من ضرورة أن يكون الشاعر الجيد فكه الغزل. وقد خلط صاحب جوهر الكنز بين مدلولى التسيب والغزل (٢٣) ، مع أنه جاء متأخرا في القرن السابع ، وكان حقه أن يفرق بينهما بوضوح بعد أن سبقه الى التفريق بينهما علماء أفاضل لعل أقربهم اليه صاحب العمدة .

ويتصل بموضوعات الشعر ما جاء منه في المثل والحكمة ، وان لم يفرد الشعراء قصائدهم للمثل والحكمة ، اللهم الا القليل منهم من أمثال صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية في قصيدته المعروفة بذات الامثال . وقد يختم بعض الشعراء بأبيات من المثل والحكمة كما فعل زهير بن أبى سلمى في معلقته ، ولكن معظم الشعراء ينثرون أبيـات المثل والحكمة في أثناء القصيدة فتسير دون غيرها ويستشهد بها الناس ، ويحب الناشيء كما هو واضح من قوله أن تنطوى القصيدة على « سائر المثل » . وقديما سمى الشعر الخالى من المثل السائر أو عيون الشعر « بالمسيح » .

ويعرض للهجاء فيرى أن يكون رائعا ، أى يروع الناس ، لا أن يكون باهتا عاديا فالهجاء الرائع هو الهجاء الحار اللاذع يروع بلفظه أو معانيه الساخرة ، أو صوره الفكهة التى تصم وتدمغ المهجـو .

وقد اتفق النقاد على مثل قول الناشىء أو قريب منـــه ·

وقوله أن يكون الشعر سليم الزلل ، عديم الخلل فهما صفتان عامتان فالزلل والخلل فى الشعر يعرض له من جوانب كثــيرة ، وينسحب هذا الكلام على ما تحدثنا عنه من قبل فيما يتصل بأسلوب الشعر وألفاظه ومعانيه وموضوعاته ، وقريب من هذا ما ساقه من نعوت بعد ذلك ينبه فيها على حقائق الفن الشعرى، والخصائص التى تكشفها الممارسة والمتعلقة بمواطن الحسن ، فقد نبــه الى ضرورة أن يجمع أسلوب الشعر الجيد بين جمال التعبير وعذوبة اللفظ ، وسداد القصد والغاية وسلامة المعنى وصحة الفكرة ·

ويفصل بعض الخصائص التركيبية فــى أسلوب القصيدة ، وبنائها الفنى مما يفى بشرطــى الحسن والسلامة أو الصحــة ، الامر الذى يثير فى المتلقى أو السامع الاحساس بالمتعة والمسرة ، والفهم السليم من مثل قوله : « ثم أبدت صدوره متونه ، وزهت فى وجوهه عيونه، وانقادت كواهله لهواديــه ، وتطالعت آثــاره لمستوضحه » · وفى هذه العبارات يؤكد خاصة كثر حديث النقاد فيها ، وخصها علماء البلاغــة بأنــواع من البديع ، كقولهم فى التوشيح ودلالة الصدور على الاعجاز ، وما الى ذلك ·

ويجرى الناشىء مع القائلين بــأن الشعر صنعة كغــيره من الصناعات ، ينبغى لمن يتصــدى لعمله أن يتقن أسرار صنعتــه ، وهو يرى كذلك فى الصنعة ضروبا من التحسين والتجميل ، وهو

كالصناعات الجميلة ، كالنقش فـى الثياب ، أو صياغـة الحـلى الذهبية ، أو العقود وما شابهها مما أكثر القدماء تشبيه الشعر به من تلك الفنون والصناعات ·

فقولـــه :

« وما اشبه الروض فى وشى ألوانه ،وتعمم أفنانه ، واشراق أنواره وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشى فى اتفاق رقومه ، واتساق رسومه وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه ، وحكى العقد فى التئام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره، وفريده بشذره » ·

وينهى هذه الكلمة بحديث عن طبيعة الاسلوب والصياغة ، مهتما بضرورة الايجاز ، وهو ما يتمشى مع طبيعة الشعر ، وطبيعة تركيبه ، فهو من فنون القــول أولى بالايجــاز ، تحـكمه موازين عروضه وقوافيه وينبه الى ضرورة تثقيفه وتهذيبه ، ويعين على ذلك طول الدربة والممارسة وطول المراجعة والمدارسة حتى ينفى عنه خبثه · ويخلو مما يشينه من عيب اللفظ ، أو هجنة التركيب ·

ويرى أن ما كانت تلك صفته من الشعر الصقيل المهذب يهدى الى الاسماع بهجة ، والى العقول حكمة ،ونلاحظ أنه يؤكد هذين الجانبين كلما عنت له فرصة ، أو واتته مناسبة · وكأنه كما قلنا يرى ضرورة توفــر المتعــة واللــذة ، والفكـيرة أو المعرفة فى الشعر · وهما عنصران يتمان جماله ، ويتقاسمان جودته ·

وقد وقف النقاد من هذين العنصرين في الشعر مواقف تتفق وتختلف عن موقف الناشيء ، فالبحترى مثلا ، يؤكد ضرورة توفر عنصر الجمال والمتعــة فى الشعر ، وتأتى الفكرة لاحــقة لهــذا العنصر ، واتجه الآمدى هذا الاتجاه الذى ذهب اليــه البحترى ، فحــاول الفصل بين الشعر والحكمة • ورأى الشعر فــى جمال التعبير وطلاوة اللفظ وقرب المعانى وبدو الرونق ، فغلب الصنعة على الفكرة • وذهب أنصار أبى تمام والمتنبى مذهبــا مخالفا ، ورأوا الشعر فى عميق المعنى ، والحكمة المفيدة عقلا وأدبا •

ويورد أبو حيان فصلا من كتاب الشعر يتناول موضوعات القصيدة الشعرية ومــا يشتمل عليه كل موضوع من المعانــى ، مبتدئا بالنسيب :

يقول (٢٤) :

« أول الشعر انما يكون بكاء على دمن ، أو تأسفا على زمن ، أو نزوعا لفراق أو تلوعا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو اعتذارا الى سفيه ، أو تغمدا لهفــوة ، أو تنصلا من زلــة ، أو تحضيضا على أخذ بثأر ، أو تحريصا على طلب أوتار ، أو تعديدا للمكارم ، أو تعظيما لشريف مقام ، أو عتابا على طوية قلب ، أو عتابا من مقارفة ذنب ، أو تعهــدا لمعاهــد أحباب ، أو تحسرا على مشاهد اطراب ، أو ضربا لامثال سائرة ، أو قرعا لقوارع غائــرة ، أو نظما لحكم بالغة ، أو تزهيدا فى حقير عاجل ، أو ترغيبا فى جليل آجــل ، أو حفظا لقديم نسب ، أو تدوينا لبارع أدب » •

وينقل التوحيدى فصــلا آخــر يتصل من موضوعات الشعر بالغزل والنسيب بخاصة فيقول (٢٥) :

« ومخاطبات النساء تحلو فى الشعر ، وتعذب فى القريض ، لاسيما لغانية قد أطر الفتاء شـاربها ، وزوى الابــاء حاجبها ، وأشط الجمال قوامها ، وأفرد الحسن تمامها ، وانجـل الهـوى عينيها ، وأمرض الزهو جفنيها ، وأذابت الصبابة ألفاظها ، وفتر الرنو ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها، ولذ للراشف مبسمها ، وأطرد مـاء النعيم بين رياض وجناتها ، وترقرق جريال الشباب على سحناتها ، وجدل للضم قدها ، ومالت للجذب ضفائرها ، ودالت للغاصب غدائرها ، وشخصت للوثوب مآكمها ، وظمئت فضولهـا ، وسهلت للعيون حجولهـا ، وطـاب للمتنسم ملاغمهـا ، وأرخت للمتنعم فواغمهـا ، فكيف اذا هـى برزت من حجابها ، وسفرت من نقابها ، وتهادت بين أترابها ، وقد هز الريح أردافها ، وأسعر المراح أكنافها ، بل كيف هى اذا أملها سائلها ، أو اكلها مقاولها ، وأعرضت عنـه صدوفا ، وتأوهت منه عزوفا ، وقد قطب التيـه جبينها ،واستنهض الانف عرنينها، واستخفها الطرب ، واستهواها العجب فافترت مبتسمة عن شنب أنيابها وممسول رضابهـا • وكيف تقـر نفس عاشـقها اذا هى لسنته بعتابهـا ، ولحنته بسبابها ، وقد لاثت ذوايل أثوابهـا ، وحسرت فواضل أسلابها ، وطفقت تعد ذنوبه بمحاجرها ، وتأبى معاذيره بمكاسرها •

وهل تطوح لهـا أمنيـة اذا أعتبته بعد صدها ، وبذلت له مصون ودها ، ثم أسعفته بزورة وسنت لها عين راقبها ، وغيلت لها نفس عاقبها ، وقد التفعت له ملاء ليل ، أو وطئت اليـه عقبات قيل ، فقد خذل الاين أباطلها ، وبل البحر غلائلها ، وحصدت له أعاليها وأسافلها ، وأوجـل الوجـل فرائصها ، وأوجـأ العجـل أخامصها ، ثم طفقت تستعتب نفسها وتستكفها ، حتى اذا أسمحت بها قريحتها ، وأسجحت لهـا سجيتها ، وسكن الى الايناس قلقها ، وأسرع الى الابساس علقها ، قاسمته من حديثها بما هو أقر لعينه ، وأشهى الى نفسه من طول بقائها ، ودوام نعمائها · ولنا فى هذا الباب ما لم يخرج من مذهب القوم منـه :

فديتك لـو انهـم يعقلون ... لردوا النواظر عـن ناظريك
الم يقرأوا ، ويحهم ما يرون ... من وحـى قلبك فـى مقلتيك
وقد جعلوك رقيبـا علينـا ... فمن ذا يكـون رقيبـا عليك

ونقل الحصرى فى زهر الآداب : « قال الناشىء : وقـد قلت فى الشعر قولا جعلته مثلا لقائليه ، وأسلوبا لسالكيه ، وهو (٢٦) :

الشعر ما قومت زيـغ صدوره ... وشددت بالتهذيب أسر متونه
ولاءمت بالاطناب شعب صدوعـه ... وفتحت بالايجاز غـور عيونـه
وجمعت بين قريبـه وبعيـده ... ووصلت بـين مجمـه ومعينه
وعهدت منه لكل أمـر يقتضى ... شـبها بـه فقرنتـه بقرينه
فاذا بكيت به الديار وأهلها ... أجريت للمخزون مـاء شؤونه
ووكلته بهمومـه وغمومـه ... دهرا ولم يسر الكـرى بجفونه
واذا مدحت بـه جـواد ماجدا ... وقضيتـه بالشكر حـق ديونه

أحـفيته بصفيـــه ورضيــة ومنحتـــه بخطـــيره وثمينــه
فيكون جزلا باتفـاق صنوفه ويكون سهلا فى اتساق فنونه
واذا أردت كنايــة عــن ريبــة باينت بــين ظهـوره وبطونه
فجعلت سامعه تســوء شكوكه ببيانــه وظنونـــه بيقينـــه
واذا عتبت عــلى أخ فى زلــة أدمجت شدته لــه فى لينــه
فتركته مستانســـا لرياضــة متســنما لرعونـــه وحزونه
واذا كتبت الى التى علقتها ان صار منــك بغاشيات شؤونه
نمقتهــا بلطيفــة ودقيقـــة وشغفتها بخبيئـــه ودفينــه
واذا اعتذرت الى أخ فى زلــة واشــكت بين محيلــه وسنينه
فيحـــور ذنبك عند مـن أعتبته عتبا عليك مطالعـا بيمينــه
والقــول يحسن منه فى منثوره ما ليس يحسن منه فى موزونه

ونقل الراغب الاصبهانى قولــه كذلك فى الشعر (٢٧) :

انما الشعر ما تحصل من قبل ظهــور الاقـــوال والاشــعار
فاتـــى لفظــه يطابق معنــا ه بحسن الايــراد والاصدار
مطمع مويس قريب الى الفهم بعيد الاغوار ، صــافى القرار

قد يكون هذان النصان من قصيدته المطولة التى نظمها فى أربعة آلاف بيت ، وجعلها فى العلوم ، أى جعلها متنا فى أصول العلوم ، ومن بينها علم الشعر • واذا صح قول ابن خلكان انها على روى واحد فانا نفترض على الاقل قطعة منها ، ولعلها الاولى النونيـــة •

التعليقــات

١ ـ نشر دراسته فى كتاب بعنوان:
The Life and Writings of Dibil. B. ALi

طبع بمطبعة جامعة كنتكى بالولايات المتحدة الامريكية ١٩٦١ م ٠

٢ ـ يروى بعض المؤرخين أن وفاته كانت ٣٠٣ هـ ٠

٣ ـ الناشىء الاصغر هو على بن عبد الله بن وصيف البغدادى توفى ٣٦٦ هـ ، راجع معجم المؤلفين ١٤٢/٧ ٠

٤ ـ راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٣٠/١ ـ ٢٣١ ٠

٥ ـ يشير ابن كثير فى البداية والنهاية الى أنه كان معتزليا ج ١٠ ص ١٠١ ٠

٦ ـ وفيات الاعيان تحقيق احسان عباس ـ طبع دار الثقافة بيروت ٩١/٣ ٠

٧ ـ البصائر والذخائر ٦٧١/٢ ٠

٨ ـ المنتظم ٥٧/٦ ٠

٩ ـ وفيات الاعيان ٩١/٣ ٠

١٠ ـ ربما كان منها ما جاء بالشعر على ما بيناه فى آخر هذا البحث ٠

١١ ـ البصائر والذخائر ٦٧١/٢ ٠

١٢ ـ زهر الآداب تحقيق الدكتور زكى مبارك ١٥/٣ ٠

١٣ ـ المصدر نفســه ٠

١٤ ـ البصائر والذخائر ٦٧١/٢ ٠

١٥ ـ هذا النص ورد فى البصائر والذخائر وزهر الآداب على خلاف فى بعض الفاظــه ٠

١٦ ـ هكذا فى زهر الآداب ٣٩/٣ وفى البصائر ٢٧٣/٢ (ومحل البراعة) ٠

١٧ ـ فى البصائر (وعذر الراهب) ٠

١٨ ـ راجع تاريخ النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلام الجزء الثانى طبع دار المعارف بمصر ص ١١١ ٠

١٩ ـ فى كتابه العمدة فى نقد الشعر ، وراجع المصدر السابق ص ١٢٨ ٠

٢٠ ـ زهـر الآداب ٤٩/٣ ٠

٢١ ـ راجع عيار الشعر تحقيق د٠ محمد زغلول سلام طبع التجارية بمصر ص ٩٢ ٠

٢٢ ـ راجع مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر طبع دار المعارف بمصر ص ٧٥ ٠

٢٣ ـ راجع جوهر الكنز لابن الاثير بتحقيق الدكتـور محمد زغلول سـلام طبع منشأة المعارف ص ٤٥١ ٠

٢٤ ـ البصائر والذخائر ٢٦٠/٢ ٠

٢٥ ـ المصدر نفســه ٢١٩/٢ ٠

٢٦ ـ زهر الآداب ٩/٣ ٠

٢٧ ـ محاضرات الراغب الاصبهانى ٣٨/١ ٠

ومن الشعراء العلمـاء

العتـــابى

كلثــوم بن عمــرو

شاعر من شعراء الدولة العباسية الكبار وعالم كاتب خطيب من أدبائها المرموقين ، كانت حياته حافلة ، وله آثـار باقيـة فى كثير من الكتب بين أخبار وآراء حكيمة عليمة ، ونوادر تدل على خبرة بالحياة والناس ، وفكر متفتح غنى ، ونشاط متعدد تـردد بين العراق والشام متنقلا فى البلاد وبين الامصار الكبرى قنسرين والرى والبصرة وبغداد وغيرها ٠

والعتابى شاعر عربى خالص العروبة ينتسب الى عمرو بن كلثوم جده الاعلى وهو تغلبى من أبناء الجزيرة الفراتية ، وكانت لتغلب كثير من البطـون تسكنها ٠ ويبـدو أن حياته الاولى كانت بدوية الطابع ولذلك تركت آثارها على حياته ، وبعض تصرفاته مما كا نمدعاة الى السخرية والتفكه أحيانا ٠

ومهما يكن من أمر فى حياته ، فثقافته الاولى ومعرفتنا بها قليلة ، بل نادرة ، لقلة اهتمام المصادر بها ، فاننا نعلم أنه كان طلعة منذ شبابه الاول وأنه رحل عن بلده قاصدا بغداد أو البصرة ليلقى أدباءهـا وشـعراءها الكبار ٠ ويبـدو أنه أعجب ببشار وشعره ، وكانت شهرته قد طبقت الآفـاق كما قـال عن نفسه :

فدفعه هذا الاعجاب الى أن يشد الرحال الى البصرة · ويذكر أبو الفرج أن العتابى جاء وهو حدث الى بشار فأنشده :

أيصدف عن امامة أم يقيم	وعهدك بالصبا عهد قديم
أتول لمستقاد القلب عفى	على عزماته السير العديم
أما يكفيك أن دموع عينى	شآبيب يفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف الا	على ارجائه ماء سجوم

قال فمد بشار يده اليه ثم قال له : أنت بصير ؟ قال : نعم · قال: عجيب لبصير ابن زانية أن يقول هذا الشعر · فخجل العتابى وقام عنه ، وما زال يروض الشعر ، حتى اشتد عوده فيه ، وطرق به أبواب الاعيان وكبار الرجال فأجازوه ، وتقدم الى بلاط الخلفاء ، فصار شاعرا يتردد على مجالس هارون الرشيد ويمدحه بالشعر الجيد ، كما طرق باب المأمون وكان رجلا كهلا · وأجازه المأمون وأكرمه ·

ويبدو أن العتابى كان قصير القامة من قوله فى بعض شعره :

نهى طراف الغوانى عنمواصلتى	ما يفجا العين من شيبى ومن قصرى

وقضى حياته زاهدا يلبس خشن الثياب حتى عيب عليه ذاك ، وسخر منه أصدقاؤه ورفقاؤه لتعمده الخشونة فى الملبس ، وعدم رعاية الهندام فى المظهر · روى الحصرى أن يحيى بن خالد البرمكى عابه على لباسه ، وكان لا يبالى أى ثوبيه أبتذل ، فقال أبعد الله رجلا مهمه أن يكون جماله فى لباسه وعطره ، انما ذلك

حظ النساء وأهل الاهواء حتى يرفعه أكبراه : همته ولبه ، ويعلو به معظماه لسانه وقلبه ·

ويروى أبو الفرج أن صديقه وتلميذه منصورا النمرى اتخذ من ابتذاله فى لباسه مادة ليمزح معه وليغرى الرشيد به ·

ولم يتزوج فقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : انى وجدت مكابدة العفة خيرا من الاحتيال لمصلحة العيال ·

ويبدو أنه كان قليل الاقبال على المدح واتخاذه وسيلة للتكسب اللهم الا اذا اضطره العيش كى يقصد الاعيان وكبار الرجال · ومما يرويه الحصرى فى زهر الآداب أنه قيل له : أمدحت أحدا ؟ قال : لا ، وليس لى على ذلك قدرة فقيل له : فقد مدحت الربيع ، فقال ذلك ليوم يستحق فيه المدح فقلت :

ومعضلة قام الربيع ازاءها	ليعمد ركن الدين لما تهدما
بمكة والمنصور رهن كما أتى	أخا الوحى داعى ربه فتقدما
غداة عداة الدين شاحذة المدى	اليه وغول الحرب فاغرة فما

وله مع ذلك شعر يسأل فيه العطاء ، ولكنه يعزو ذلك الى الفقر ، وهو يهدم المكارم والآلاء :

انى امرؤ هدم الاقتار ماثرتى	واجتاح ما بنت الايام من خطرى
انا ابن عمرو بن كلثوم يسوده	حيا ربيعة والاحياء من مضر
أرومة عطلتنى من مهارمها	كالقوس عطلها الرامى من الوتر

ونذكر من ممدوحيه المشهورين ، عبد الله بن هشام بن عمرو التغلبي من أمـراء قبيلته ، وقد ذكره كثيرا في شعره ورسائله كما يقول أبو الفرج ، وكان ابن هشام هذا جـوادا سـمحا وولى السند (١) ٠

واتصل بالربيع كما في الخبر السابق ، وبالبرامكة ، وكان له معهم شأن منقطعا اليهم ، وقد وصفوه للرشيد ووصلوه به ٠ ذكر ابن المعتز انه كان ممن يختص به جعفر بن يحيى البرمكي ويقربه ويباشره (٢) ٠

وذكر ابن هفان ان الرشيد لقيـه بعد قتـل جعفر بن يحيى وزوال نعمته فقـال ما أحدثت يا عتابي ؟ فأنشده ارتجالا :

تلوم عـلى تـرك الغنى باهلية ... طوى الدهـرعنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الكسا ... منظمـة أجيادهـا بالقلائـد
اسرك انى نلت ما نـال جعفر ... من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمـير المؤمنـين اغصنـي ... مغصهما بالمرهفـات البـوارد
ذريني تجئنـي ميتتـي مطمئنة ... ولم اتجشـم هول تلك المـوارد

وكانت لجعفر عليه أياد بيضاء ، فقد ذكر أبو الفرج أنه كان بلغ الرشيد عنه ما أهدر به دمه فخلصه جعفر فقال فيه :

ما زلت في غمرات الموت مطرحا ... يضيق عنى فسيح الراى من حيلى
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى ... حتى اختلست حياتى من يدى اجلى

(١) الاغانى طبع دار الكتب ١١/١٨٨ ٠
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٤٣ ٠

كذلك روى أنـه جاء يحيى بن خالد فكلمه فى حاجـة لـه كلمات قليلة فقال له يحيى : لقد ندر كلامك اليوم وقل ، فقال له : وكيف لا يقل ، وقد تكنفنى ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد • فقال له يحيى : لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده •

ولكن صاحب زهر الآداب ذكر أن صلته بهم قد اعترتها فترة، وأورد الحصرى بيتين يدلان على ذلك وهما قوله :

ان البرامـك لاتنتعـك أنجيـة ... بصفحة الدين من نجواهـم ندب
تصرمت حجج منهـم ومنصلهم ... مضرج بـدم الاسـلام مختصب

ولا تدرى مدى صحة نسبة هذين البيتين اليـه ، وان كانت الاخبار تفيد بوفائه لهم بعد   حتـى ان الرشـيد أراد أن يختبره فى الخبر السابق فوجده على عهـده •

واتصل بهارون الرشيد ، ومهد البرامكة لهذه الصلة ، فبلغ عنده كل مبلغ وقد حدثت بينه وبين الرشيد أحداث ، حتى قيل انه أهدر دمه ، فاستنجد بيحيى بن خالد فعفا عنه الرشيد • وقال ابن المعتز انه تمكن من الرشيد بعلمه وغزارة أدبه فانه كان بحرا لا ينزف •

وله فيه كثير من قصائد المديح ، ولعل أشهرها الرائية التى يختار ابن المعتز منها أبياتا ، وهى التى يقول فيها :

يا لليلة لى فى حوران ساهرة ... حتى تكلم فى الصبح العصافير

وفيها يقــــول :

ماذا عسى قائل يثنى عليك وقد ... ناداك فى الوحى تقديس وتطهير
فت المدائــــح الا أن ألسننا ... مستنطقات بما تخفى الضمائر

ويقــول فيــــه :

امــام لــه كف يضــم بنانهــا ... عصا الدين ممنوعا من البرى عودها
وعين محيط بالبريــة طرفها ... ســواء عليه قربهــا وبعيدهــا
وارجع يقظــان يبيت مناجيــا ... له فى الحشــا مستودعات يكبدها
وسمع اذا ناداه من ثغــر كربة ... منــاد كفته دعــوة لا يعيــدها

وقال فيــــه :

رعى أمة الاســلام فهو امامها ... وأدى اليها الحــق فهو منيهــا
مقيم بمستن الفلا حيث تلتقى ... طوارق أبكار الخطوب وعونها

وقد كان منصور النمرى فيما يبدو سببا فيما حدث بينه وبين الرشيد من جفوة ويــروى أبو الفرج قصــة دخولــه على الرشيد واستهزائه به ، كما يروى الحصرى قصة أخرى جرت بينه وبين منصور النمرى عرض فيها بالرشيد ، وربما كانت هى السبب فى تعقبه اياه واهدار دمــه •

فيروى أن النمرى مر بالعتابى وكان مغموما فقال له العتابى: مالك أعزك الله ؟فقال امرأتى بطلق منــذ ثلاث ونحن على يأس منها • فقال له العتابى : وان دواءها منك أقرب من وجهها ، قل هارون الرشيد فان المولد يخرج ! ! ، فقال : شكوت اليك ما بى فأجبتنى بهذا ؟ فقال : ما أخذت هذا الا من قولك :

ان اخلف الغيث لم تخلف انامله ... أو ضاق امــر ذكرنــاه فيتسع

---

(١) زهــر الآداب ، ص ٦٤٩ •

ويذكر الحصرى غضبة الرشيد عليه فيقول : « وكان منصور النمرى سعى به الى الرشيد فخافه ، فهرب الى بلد الـروم • وله قصائد فيها جيدة مختارة ، وهو يشبه فى حسن الاعتذار بالنابغة الذيبانى • ومن جيد اعتذاره :

جعلت رجاء العفو عذرا وشبته	بهيبـة امـا غافـر او معائب
وكنت اذا ما خفت حادث نبوة	جعلتك حصنا من حذار النوائب
فانزل بى هجرانك الباس بعدما	حللت بواد منك رحب المشارب
اظل ومرعـاى الجديب مكانـه	وآوى الى حافات أكدر ناضب
ولم يثن عن نفسى الردى غير أنها	تنـوء بباق مـن رجائب ثائب
هى النفس محبوس عليك رجاؤنا	مقيـدة الآمـال دون المطالب
وتحت ثياب الصبر من أن لوعة	يظـل يمسى مستلين الجـوانب
فتى ظفرت منـه الليـالى بزلة	فاقلعن عنـه داميـات المخـالب
حنانيك انى لم أكن بعت عزة	بذل واحرزت المنى بالمواهب
فقد سمتنى البعران حتى أذقتنى	عقوبـة ذلاتى وسـوء مناقبـى
فها أنا مقصى فى رضاك وقابض	على حد مصقول الذبابين قاضب
ومنتزع عمـا كرهت وجاعـل	هواك مثالا بـين عينى وحاجبى

وفيها ما نرى من الندم على ما قدم ، أو بدر منه من خطـأ فى حقـه أو مساس من بعيد أو قريب بمقامه ، واظهار لمدى ما مسه لهذا الخطأ من البحران والبعد عن جنابه ، وقد كان يجد فيه كل اطمئنان وهناء ، فهو اليـوم فى خـوف البطش والهلكة فى أنحائها • فيشعر وكان الليالى تطارده فى صورة وحش كاسر تعود الفتك بالفرائس •

---

(١) زخر الآداب ٦٤٩ •

ويعود فى آخر القول للتوبة معاهدا النفس على أن ينزع عن كل ما يكره ويجعل ذلك نصب عينيه . ويظل العتابى فى تودده واعتذاره ولعله لم يجد من الرشيد استجابة أول الامر ، ولما ضاقت عليه الحيل رأى أن يقدم على أن يقف بين يدى الرشـيد بنفسه ويتوسل للعفو عنه ، وعلى ما فى هذا من الاقدام والمخاطرة الا أنه آثر أن يفعله . وتحايل للدخول على الرشيد ، فيقال انه دخل عليه سرا مع المتظلمين بغير اذن ، فمثل بين يدى الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين قد آذتنى الناس لك ولنفسى فيك، وردنى ابتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكرك قناعة بغيرك ، ولنعم الصائن لنفسى كنت ، لو أعاننى عليك الصبر . وفى ذلك أقول :

اخفى المقام الغمر ان كان غرتى	سـناخلب أو زلت القدمان
أتتركنى جـدب المعيشة مقتـرا	وكفاك من مـاء النـدى تلفان
وتجعلنى سـهم المطامع معلمـا	بللت يمينى بالنـدى ولسانى

فأعجب الرشيد قوله ، وخـرج وعليه الخلع ، وقد أمـر له بجائزة ، قال الراوى : « فمـا رأيت العتـابى قط أبسط منـه يومئذ » (١) .

واتصل حبل ما انقطع ، وعاود التردد على مجالسه ، وعاود الرشيد سماع علمه ومأثور حكمه وأقواله عمـا خبر وجرب من أمور الحياة ، وما قرأ ومارس من ضروب المعرفة .

وذكر الحصرى أنه دخل على الرشيد فقال له : تكلم يا عتابى،

---

(١) الاغانى ١٢/١٢٣ .

فقال : الايناس قبل الابساس ، لا يمدح المرء بأول صوابه ، ولا يذم بأول خطئه ، لانه بين كلام زوره ، أوعى حصره ·

وبعد موت الرشيد اتصل حبله بالمأمون ، ولم يذكر في أخباره اتصاله بالامين ولا يعرف موقفه من النزاع بين الاثنين اثناءه · لكنه فيما يبدو قد ساءه قتل المأمون لاخيه ، وان كان قد التقى به أثناء خلافة أخيه ، ووجوده بخراسان ·

وذكر الحصرى أنه عاتب المأمون بعد أن لها عنه ولم يأذن له ، وكان قد سأله زيارته ان صار له من الامر شيء بهذه الابيات التى يعرض فيها بقتل أخيه وغدره به أو نكثه لما عقد الرشيد · قال :

ما على ذلك افترقنا بسندا ق ولا هكذا عهدنا الاخاء
لم أكن احسب الخلافة يزدا د بها ذو الصفاء الا صفاء
تضرب الناس بالمثقفة السمر على غدرهم وتنسى الوفاء

فلما قرأ المأمون هذه الابيات أمر أن يدخل عليه ، فلما سلم قال : يا عتابى بلغنى وفادتك فسرتنى ،وقد كانت بلغنى وفاتك فساءتنى ، وانى لحرى بالغم لبعدك والسرور بقربك ، فقال : يا أمير المؤمنين : لو قسم هذا الكلام على أهل الارض لوسعهم عدلا وأعجزهم شكرا ، وان لرضاك غاية المنى ، لانه لا دين الا بك ولا دنيا الا معك ···

وقال : « وقفت مرة بباب المأمون انتظر من يستأذن لى عليه فاذا أنا بيحيى بن أكثم ، فقلت استأذن لى على أمير المؤمنين · قال

لست بحاجب . قلت : صدقت ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل معوان . قال : سلكت بى غير سبيلى . قلت : ان الله قد أتحفك بجاه وهو عليك مقبل بالزيادة ان شكرت ، وبالتقصير ان كفرت . وأنا لنفسك خير منك لها . أدعــوك الى زيــادة النعمة وبقائها عليك فتأباها .

فدخل على المأمون وحكى له ما جرى بينى وبينه فاستحسنه وأذن لى » .

وقيل انه بلغ به من التقديم والاكرام أعلا محل .

واتصلت أسبابه بالمأمــون وكانت تــدور بينهما مساجلات كلامية ، يدلى فيها كل بقدرته البيانية وخبرته ومدى علمه ، وكان العتابى قد اكتهل ، واتصل برجال دولته الكبار أمثال طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر .

وقد علا قدره ، واعتزل الحياة فى بغداد فيما يبدو بعد أن هرم ، وقعدت به السن عن السعى ، فالتزم منزله بالرقة .

قال الحصرى واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنزل العتابى فقال : « أليس هذا منزل كلثوم بن عمرو قيل : نعم ، فثنى رحله ، ودخل عليه ، فألقاه جالسا فى بيت كتبه ، فحادثه ، وذاكره ثــم انصرف . فتحدث الناس فى ذلك وقالوا : ان الامير لم يقصد ، وانما اجتاز به فاضطر الى ذلك الزيارة . فكتب اليه :

يا من افادتنى زيارته ... بعد الخمول بناهة الذكر
قالوا الزيارة خطرة ... ومجاز خطرك ليس بالخطر
فادفع مقالتهم بثالثة ... تستنقد المجهود من شكرى
لا تجعلن الوتر واحدة ... ان الثلاث تتمة الوتر

فبعثه الابيات الى أن زاره ثلاثا ٠

صلاته بشعراء عصره :

وكان للعتابى صلاته المتعددة بكبار شعراء عصره ، ومنهم بشار بن برد الذى تأثر به فى اتجاهه الفنى ، وأبو نواس ، ومنصور النمرى ، والعباس بن الاحنف ٠

وتروى كتب الادب بعض ما دار بينه وبينهم من مطارحات شعرية أو مناظرات ومحاورات ٠ ومما يروى من ذلك قولهم انه لقى أبا نواس مرة فقال له : أما تستحى من الله بقولك :

واخفت اهل الشرك حتى انه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

فقال له أبو نواس : وأنت أيضا أما استحيت من الله بقولك :

ما زلت فى غمرات الموت مطرحا ... يضيق عنى وسيع الرأى من جبل
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى ... حتى اختلستحياتى منيلى اجلى

فقال العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ، ولكنك أعددت لكل سؤال جوابا (١) ٠

---

(١) خزانة الادب ص ٢٣٠ ٠

وكان الرشيد أمر بحبس أبى نواس حتى يدع الخمر فقال فى الحبس :

قــل للخليفــة اننــى حتى أراك بكــل بــاس
من ذا يكــون ابــا نوا سك ان حبست إبا نواسك
ان انت لــم ترفـع بـــه راسا هديت فنصف راسك

فقال العتابى : ما أحسن نصف رأس الخليفة يرفع ! فقال له : « جعلنى الله فداءك يا أبا عمرو لا تنبههم لهذا فتهلكنى » (٢) ٠

ومر العتابى بأبى نواس وهو ينشد :

ذكــر كــرخ نــازح الاوطــان فبكــى صبــوة ولات أوان

فلما رآه قام اليه ، وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك ، وأنت القائل وقد أنصفك الزمان :

قــد علقنا من الخصيب حبــالا أمنتنـــا طــوارق الحدثــان

وأنا القائل وقد جار على وأساء الى :

لفظتنى البلاد وانعلوت الالفـــ ـــاء دونى وملنـــى جـيرانى
والتفت حلقة على من الدهـــ ـــر فحاجت بكلكل وجـــران
نازعتنى أحداثها مبنية النفـــ ـــس وهنت احداثها أركانـــى
خاشـع للهمـوم مفتـرق القلـــ ـــب كئيب لنائبات الزمـان

وقد توفى أبو نواس قبله ، وعاش بعده العتابى حتى •

وكان ممن عاشره من الشعراء منصور النمرى ، وهو شاعر

(٢) الموشــح ٢٧٨ ٠

مشهور من شعراء العباسـيين ، من الجزيرة الفراتيـة ، التقى بالعتابى فلازمه وتتلمذ عليه وكان راويته · وذكر أبو الفرج انه أخذ عليه وبمذهبه تشبه فى الشعر ·

وقد فسدت الحال بينهما وتباعدت لامور لا تعرف تفصيلها ولكن نقف على آثارها بعضها من نقده شعره من ذلك ما يرويه الزجاجى فى مجالس العلماء قال : قال أحمد بن الحارث الخزاز : أنشد العتابى كلثوم بن عمرو :

يا ليلة لى بحـوارين سـاحرة ... حتى تكلم فى الصبح العصافير

فقال له منصور النمرى : العصافير تتكلم ؟ فقال العتابى : نعم تتكلم وتنطق ، ويقال ذلك لمـا أعرب عن نفسه بحـال ترى فيه فيقال : أخبرت الدار بكذا ، وتكلمت بكذا فكيف ما لـه نطق ، أما سمعت قول كثير :

سوى ذكرة منها اذا الركب عرسوا ... وهبت عصافـير الصريـم النواطق

وقـول الكميت :

كالناطقـات الصادقـا ... ت الواسقات من الذخائر

قال فسكت المنصور منقطعا (١) ·

وسعى منصور النمرى بالعتابى الى الرشيد ، فغضب عليه وأحل دمه ، وطلبه فستره جعفر بن يحيى · ومـازال يتحـايل للرشيد حتى استل ما فى نفسه وأمنه وعاد اليه (٢) ·

(١) مجالس العلماء للزجاجى ٢٣ ·

(٢) الاغـانى ١١٩/١٣ ·

وروى أبو الفرج أن منصورا النمرى شكا العتابى الى طاهر ابن الحسين فوجه طاهر الى العتابى فأحضره ، وأبقى منصورا فى بيت قريب منهما ، وسأل طاهر العتابى أن يصالحه ، فشكا سوء فعله به ، فسأله أن يصفح عنه فقال لا يستحق ذلك ٠ فأمر المنصور بالخروج فخرج وقال للعتابى لم لا أستحق هذا منك ٠ فأنشأ العتابى يقول :

اصحبتك الفضل اذلا أنت تعرفه	حقا ، ولاتك فى استصحابه أرب
لم ترتبطك على وصلى محافظة	ولا اعاذك مما أغتا لك الادب
ما من جميل ولا عرف نطقت به	الا الى وان انكرت بتنسب

قال فأصلح بينهما طاهر (١) :

بلاغته وأدبه :

واجتمع للعتابى الثقافة والاطلاع فى الكتب ، ويبدو مما وصلنا من أخباره أنه كان طلعة محبا للكتب والدفاتر ، فقد مر عليه بعض جيرانه ذات يوم وهو ينظر فى كتاب فقال : ايش ينفع العلم والادب من لا مال له ؟ فأنشد العتابى يقول :

يا قاتل الله اقواما اذا ثقفوا	ذا اللب ينظر فى الآداب والحكم
قالوا وليس بهم الا نفاسته	أنافع ذا من الاقتار والعدم
وليس يدرون ان الحظ ما حرموا	لحاهم الله من علم ومن فهم (٢)

---

(١) الاغانى ١٢/١١٨ ٠

(٢) الاغانى ١٢/١١٨ ٠

كذلك يروى أنه كانت لـه بمنزلـه بالسرفة « بيت كتب » اجتاز به مرة عبد الله بن طاهر فوجده جالسا فيه (١) .

وكان كاتبا عالمـا يطرق الكتابة والاقلام وما اليها حتى ان الاصمعي سأله مرة فقال له : أى الانابيب أصلح للكتابة ؟ وعليها أصبر فقال . ما تشفى بالهجير ماءه ، وستره عن تلويحه غشاؤه ، من البرية القشور الدرية الظهور . القضية الكسور . قال : فأى نـوع من البـرى أكتب وأصوب . قـال لـه : البريـة المستوية القط ... الخ (٢) .

وتروى في بلاغته وقوة بديهته ، وقدرته على الترسل والنظم أخبار كثيرة متعددة . فالجاحظ يقول : « ومن الخطباء الشعراء من كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابى ، وكتبه أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وضروة ومثاله فـى البديع يقـول جميع من ينكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الانصارى وأشباههما (٣) .

وقال الجاحظ : «وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن حرمة والعتابى».

---

(٣) زخر الآداب ٦٢١ .

(٤) رخر الآداب ٦١٩ .

(١) البيان والتبيين طبع هارون ١/٥٠ .

وقال الجاحظ : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجلهم فاقت لغتهم كل لغــة وأربت على كل لسان ٠ والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشــار حسن البديع ، والعتــابى يذهب شعره فى البديع » (٢) ٠

كذلك ذكره ابن المعتز فى طبقاته وقال : « وكان العتابى مصورا على الشعر ، عذب الكلام كاتبا جيد الرسائل حاذقا ٠ وقلما يجتمع هذا لاحد (٣) ٠

وقال ابن المعتز : « ما سمعت كلاما قط لاحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى وما رأيت كاتبا نعلو الشعر مع الكتابة الا وجدته ضعيف الشعر غــيره ، فانــه كان فحــل الشعر ٠ جــيد الكلام » (٤) ٠

وقال فيه أبو الفرج : « شاعر مترسل بليغ مطبوع ، منصرف فى فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية » (٥) ٠

وقال عنه الحصرى فى زهر الآداب : « وكان صاحب بديهــة فى المنظوم والمنثور حسن العقل والتميز ، والعــرب تقول : من تمنى رجلا حسن العقل ، حسن البيان ، حسن العلــم تمنى شيئا عسيرا ٠ وقد أصبغ ذلك كله للعتابى (٦) ٠

---

(٢) البيان والتبيين طبع هارون ٤/٥٥ ٠

(٣) طبقتا الشعراء المحدثين ٢٦٢ ٠

(٤) طبقات ابن المعتز ٢٦٢ ٠

(٥) الاغــانى ١٣/١٠٩ ٠

(٦) زخر الآداب ٦٢٠ ٠

ومما يروى من كلامه المنثور ، مقتطفات متفرقة يدور معظمها حول تجارب الدهر والحياة ، مسوقة فى قالب حكمة ، فى أسلوب موجز ، فيه كثير من القدرة البلاغية والالمام بمواطن الكلام حتى انه قد يعمق أو يغمض أحيانا على السامعين .

فمن ذلك قوله : « حظ الطالبين من الدرك يجب ما استصبحوا من الصبر » .

وكتب يقول : « أما بعد فانه ليس بمستخلص غضارة عيش الا من خلال مكروهيه ومن انتظر بمعالجة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الايام فرصته » .

وكتب الى بعض اخوانه (١) : « لو اعتصم شوقى اليك بمثل سلوك عنى لم أبذل وجه الرغبة اليك ، ولم اتجشم مرارة تماديك ، ولكن استخصتنا حبابتنا فاحتملنا قسوتك العظيم قد مودتك ، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من ابطائه » .

وله : « كتبت اليك ونفسى رهينة بشرك ، ولسانى علق بالثناء عليك والغالب على ضميرى لائمة لنفسى ، واستقلال لجهدى فى مكافأتك وأنت أصلحك الله فى عز الغنى غنى ، وأنا تحت ذل الفاقة الى عفوك وليس من اخلاقك أن تولى جانب النبوة منك من هو عان فى الضراعة اليك » .

وقال : أما بعد . فانه ما بين مستخلص غضارة عيش الا من

---

(١) زهر الآداب ، ص ٩٨٦ .

خلال مكروه ومن انتظر بمعاجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الايام فرصتها » ٠

وكتب الى آخر : « من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع فيك ، وانجاز الى مؤاخيك لم يخش المطنب فى الثنـاء عليك أن يكون مفرطا لمـا لا يأمن من أن يكون مفرطا فالاعتراف بالعجز عن بلوغ استحقاقك من التفريط أولى من الاطناب الذى غايتـه التقصير ومآله الى الحشو » (١) ٠

وقال يصف رجلا بليغا : « كان يظهر ما غمض من الحجـة ، ويصور الباطل فى صورة الحق ، ويفهمك الحاجة من غير اعادة ولا استعانة ٠ قيل له : وما الاستعانة ؟ قال : يقول عند مقاطعة كلامه : يا هناه ، واسمع ، وفهمت وما أشبه ذلك وهذا من امارات العجز ، ودلائل الحصر ، فانما ينقطع كلامه فيحاول وصله بهذا فيكون أشد لانقطاعه » (٢) ٠

وقال في البلاغة : البلاغة هو الكلام بمبانيه اذا قصر ، وحسن التأليف اذ طال (٣) ٠

وذكر له الجاحظ أقوالا فى البلاغة قال : « حدثنى صديق لى قال : قلت للعتابى : ما البلاغة قال كل من أفهمك ما فيه من غير اعادة ولا حبسه ولا استعانة فهو بليغ ، فـان أردت اللسان الذى

---

(١) معجم الادباء ص ٢١٥ ج ٦ ٠

(٢) زهـر الآداب ١/١٠٦ ٠

(٣) زهـر الآداب ١/١٢٧ ٠

يروقه الالسنة ، ويفوق كل خطيب ، فاظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل صورة الحق » (١) ٠

وقال في البلاغة : رسائل المـرء فى كتبه أول على مقـدار عقله ، وأصدق شاهدا على غيبة لك ، ومعناه فيك ، من اصفاف ذلك على المشافهة والمواجهة » (٢) ٠

وقال يخطب : « أما بعد فانه لا يخبر عن فضل المـرء أصدق من تركه تزكية نفسه ولا يعبر عنه فى تزكية أصحابه أصدق من اعتماده برعيته ، وانتمائه اياهم على حرمانه » (٣) ٠

وقال العتابى : « الشيب تاريخ الكتاب » لان تاريخ الكتاب يكون فى آخره ٠

وكان لهذه البلاغة والحكمة ، تعتبر أقواله من المأثورات التى تحفظ ويرويها العلماء والادباء ٠ وقد روى أن يحيى بن خالد قال لولده : « ان قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابى فضلا عن رسائله وشعره فلن تزدا أبدا مثله » (٤) ٠

شـــعره :

وأما شعر العتابى فقد اختلف الناس فيه ، فمن قائل أنـه

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٣ ٠
(٢) البيان والتبيين ١/٢٢١ ٠
(٣) البيـــان ٢/١٤١ ٠
(٤) الاغـــانى ١٣/ ٠

فيه كزازة وروى المرزباني ذلك فقال : ذكروا العتابي فقال رجل: هو كز لا رقة له ويروى أبو الفرج مثل ذلك ، وقد مدح ابن المعتز شعره فقال : « واشعار العتابي كلها عيون ليس فيها بيت ساقط (١) ، وروى له بعض مختار شعره ومنه قصيدته :

رمى القلب باس من سليمي فاقصدا وكان بها هيامة القلب مهندا

وقال ومن شعره :

ردت اليك ندامتي أملي وثنى اليك عنانة شكرى
وجعلت عتبك عتب موعظة ورجاء عفوك منتهى عذرى

واستحسن له أيضا :

تجنب دار العامرية انها تكلفه عهد الصبا والكواعب
منازل لم تنظر بها العين نظرة فتقلع الا عن دموع سواكب
ولا وصل الا أن تعاج مطية على دارس الاعلام عافى الملاعب

وقال دعبل : ما حسدت أحدا قط على شعر كما حسدت العتابي على قوله (٢) :

هيبة الاخوان قاطعة لاخي الحاجات عن طلبه
فاذا ما هبت ذا أمل مات ما املت من سببه

وذكر أبو الفرج أن جماعة تناشدوا شعر العتابي فقال بعضهم : فيه تكلفة ، ونصره بعضهم فقال شيخ ماضر : ويحكم أن يقال أن في شعره تكلفا وهو القائل :

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ٢٦٤ .
(٢) الاغاني ١١٦/١٣ .

رسـل الضمير اليك تترى ... بالشوق ظالعـة وحسرى
ما جف للعينين بعـدك يا قرير العين مجرى
فاسلم سلمت مبرءا ... من صبوتى أبدا معرى
ان الصبابة لم تدع ... منى سوى عظم مبرى
ومدامـع عبرى تسـلى ... كبد عليك الدهر حرى

أو يقال أنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخص يبين ... اذا ما تامله الناظر
كمقالته لك حتى تراه ... لتعلم أنى امرؤ شاكر

ووازنوا بينه وبين بعض شعراء عصره فروى المرزبانى والحصرى مناظرة أبى أحمد على بن يحيى بن المنجم رجلا يعرف بالمثقفة الموصلى فى العباس بن الاحنف والمغتابى • فعمل على فى ذلك رسالة أنقدها اليه •

البحـــترى

(٢٠٦ هـ - ٢٨٥ هـ)

هو الوليد بن عبيد الله البحترى الطائى ، ونسبته البحترى الى أحد أجداده بحتر . ولد بمنبج سنة ٢٠٦ هـ بالشام ، وتقع بين الفرات وحلب على مفترق الطرق التجارية القديمة الواصلة بين المشرق والمغرب عبر الجزيرة الفراتية وشمالى الشام .

ونسبته الطائى الى قبيلة طىء فقد كان منها والـده ، أمـا أمه فكانت شيبانية ،وأتيحت له نشأة عربية خالصة فـى بلدتـه منبج ، وفى باديتها وكان أهل منبج على عهـده عربـا خلصا ، ويضرب فى باديتها بطون من طىء تصل مـا بينهـا وشواطىء الفـرات .

وعاش البحترى معظم صباه فـى بلده ، وتنقـل فى مطلع شبابه فى بعض مدن الشام والتقى بأبى تمام فى حمص فسمع منه الشعر وشجعه ، وكتب الى بعض معارفه وممدوحيه بمعرة النعمان وغيرها يقرظه ويقدمه شاعرا .

ويبدو أن البحترى لازم أبا تمام زمنا ، وتخرج عليه فى قول الشعر ، فهو يقر بأستاذيته ، واقتدائه بـه ، وربمـا اعتمد على شعره فى كثير من لفظه ومعانيه على ما بين بعض النقاد .

وظل تنقل البحترى فى البـلاد حتى بلغت به قدمه بغـداد

عاصمة الخلافة ، وهناك التقى ببعض العلماء والشعراء ، وحظى في مجالس السادة من القـادة وكبـار الكتاب والوزراء ، وتقدم بمدائحه اليهم فنال ما تمنى من القربى والمـال والشهرة ٠

وقدمه أحد ممدوحيه الوزير الفتح بن خاقـان الى الخليفة المتوكل فلقى لديه قبولا وقربه ، وصار شـاعره الاثـير ٠ يكثر حضور مجالسه ومنادمته ، وشهد فـي النهاية مقتله هو ووزيره على يدى أحد جند الاتراك ٠

وغادر البحترى بغداد في رحلات ينتجع بلاد المسلمين طالبا العطاء وقاصدا بشعراء الامراء والولاة ٠ولقى بمصر خمارويه الطولونى فمدحـه ، وبقى بجواره زمنـا ٠

واتصاله بالخليفة العباسى وكبار رجال دولته قهر له السبيل كي يكون شاعر الدولة الرسمى ، وداعيـة عباسيا ٠ وقد ذكـر العلماء أنه كان عباسيا فى اتجاهه الرسمى اذا تحدث عن حقهم فى الخلافة والامامة وأشاد بهم ، ونافح عنهم ضد من ينكـرون حقهم ذاك ٠ وفى مدائحه المتوكل تعلـو هذه النغمـة ، فهو عنده الذى أحيى السنة بعد أن أصبح الناس حـيرى بعد أن ضلوا فـى رأيه بغلبة الاعتزال وعلم الكلام ٠ فقد نصر المتوكل أهل السنة على المعتزلة بعد أن غلبوا على بلاط الخلافة منذ زمن المـأمون ٠ يقـــول :

اسـلم امـير المؤمنـين لسنة   احييتها والناس حـيرى ضـلل

واذا كانت العباسية هي لونه الرسمي فان لاقوال العلماء في حقيقته اتجاها آخر ، ذلك أنهم رموه بالتقلب والتحـول ، يكون معتزليا ثم يتخلى عن خلك ليصبح سنيا • يروى المرزباني أنـه قيل له : ويحك ! أتقـول :

ويجرفون كلامـه المخلوقـا

أصرت قدريا ـ يعني معتزليا ؟ ـ فقـال : كان هذا دينـي أيـام الواثق ، ثم نزعت عنه أيام المتوكل •

البحترى الرجـل :

كان البحترى لا يحسن اختيار بزتـه ، طويل اللحيـة ، رث الهيئـة • وقد تواترت الاخبار في ذلك ، واتخذها بعض أعدائه من الشعراء سبة له ،يهاجمونه بها • وقالوا عنه : كان من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة ، وأبخلهم على كل شيء ، وكان له أخ وغلام معه في داره ، فكان يقتلهما جوعا ، فاذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان فيرمي اليهما بثمن أقواتهما مضيقا مقصرا •

وكان يلازمه غلام له اسمه نسيم لا يطيق فراقه ، أكثر من ذكره في شعره ومنـه قوله :

دعا عبرتي تجرى على الجود والقصد	اظن نسيما قارف الهم من بعـدى
خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه	فيا عجبا للدهـر فقد عـلى فقد

وكان نسيم غلاما روميا ليس بحسن الوجه ، وكان قد جعله بابا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويعتمد أن يصيره الى

ملك بعض أنامل المروءات ، ومن ينفق عنده الادب فاذا حصل فى ملكه شبب به وتشوقه ومدح مولاه · حتى يهبه له ، فلم ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره ·

وكانت هيئة البحترى عند انشاده الشعر تدعو الى السخرية منه · اذ كان من أقبح الناس انشادا · يتشادق ، ويتزاور فى مشيه مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، وفكيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله · ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت ؟! · هذا والله ولا يحسن أن يقوله أحد ·

شاعريته :

وقال البحترى شابا ، وكان يحب غلاما من أهل منبج يقال له شقران لقيه وقد نبتت لحيته فقال :

نبتت لحيــة شــقرا ن شفيق البقــى بعـدى
حلقت ! كيف اتتـــه قبـل أن ينجـز وعـدى

ويروى أن هذا أو شعر له قاله · ومن أوائل شعره كما يروى عن ابنه قوله يفتخر :

انما الغى أن تكون رشيدا

وقوله يصف الذئب : سلام عليكم لا وفاء ، ولا عهد

وقد التقى البحترى بعد أن نضج بأبى تمام فعرض عليه

وكان يقدمـــه ويحترمـــه ، ويجـل شعره ، وقدمه الى ممدوحيه أستاذيته ٠

ولمـا نضج فى فنه واشتهر ارتحل الى بغداد يطلب المجد ٠ فى مديح عالية القدم وبمعنى النفس ببلاط الخليفة ٠ وقد التقى ببغداد بكثير من رجال العلم ، والادب وكان يتـردد عليـه منهـم المبرد ٠ كان يقدم عليه فى مسجده الذى يجلس فيه لالقاء دروسه٠
وكانت صلته ببعض أدباء عصره كعبد الله بن الحسين القطربلى وطيدة ٠ وقد مدحه بقصائد منهـا :

خـان عهـدى معاوداخون عهدى

وقولـــه :

اهلا بذ لكم الخيـال المقبل

وقولـــه :

الـت وهل المامها لك نافع

ويتصل بالفتح بن خاقان ، ويقترب منه وتطول ملازمتـه له ، ، فيغدق عليه من ماله الكثير ويستغنى مما يخلع عليه ، وله فيه القصائد ذوات العدد ، والتى تعدو درر شعره مع قصائده فى المتوكل ٠

ويشير النقاد الى اعتذاراته لابن خاقان فيرونهـا من أجـمل شعر الاعتذارات بعد النابغة ويقول فى الفتح :

وانت الذى اعزتنى بعد ذلتى	فلاالقول مخضوض ولاالطرف خاشع
واغنيتنى عن معشر كنت برهة	اكافحهـم عن نيلهـم واقــارع
ملت ابالى جاد باللف باذل	عــلى راغب او ضن بالخـير مانع

مكانة البحترى الشعرية :

كان ابن المعتز يقول : « لو لـم يكن للبحترى من الشعر الا قصيدته السينية فى وصف ايوان كسرى فليس للعرب سنية مثلها · وقصيدته فى وصف البركة :

ميلو الى الدار من ليلى نحييها

واعتذاراته فى قصائده الى الفتح بن خاقان ، ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها · وقصيدته فى ابن دنيار التى وصف فيها ما لم يصفه أحد قبله التى أولها :

الم تـر تفليس الربيع المبكر

ووصفه حرب المراكب فى البحر · لكان أشعر الناس ، فكيف اذا أضيف هذا الى صفاء مدحه ورقة نسيبه فى قصائده ؟! ·

وكان ابن المعتز كثيرا ما ينشد له ، ويتعجب من جودته ·

وكان أبو تمام يرى فيه مخايل شاعرة مبكرة حين التقى بــه فى بدء قوله الشعر ، وقدمه الى أهل المعرة ، ويقال ان أول لقاء بينهما كان فى حمص ·

وكان البحترى كثيرا ما يذكر أبا تمــام وفضله عليه كلما سئل عمن أشعر فيهما أهو أم أبو تمام · وروى أنه قيل للبحترى:

الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام • فقال : والله ما ينفعنى هذا القول ، ولا يضر أبا تمــام • والله ما أكلت الخبــز الا به ، ولوددت أن الامر كما قالوا، ولكنى والله تابع له ، لائذ به آخــذ منه • نسيمى تركد عند هوائه ، وأرضى تخفض عند سمائه •

قال الصولى معقبا على هذا : « وهذا من فضل البحــترى أن يعرف الحق ويقر بــه ، ويــذعن له وانــى لاراه ينبع أبا تمام ومعانيه حتى يستعير مع ذلك بعض ألفاظه فلا يقع الا دونه » •

وسئل البحترى : أيكما أشعر أنت أم أبو تمــام ؟ • فقال : جيده خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه قال الصولى : وقــد صدق • جيد أبى تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه •

ويروى انه اجتمع فى دار عبد الله بن الحســين القطربلى ، وكان معهما المبرد وجماعة من الفضلاء فسأله المبرد (وكان ذلك سنة ٢٧٦ هـ) وقد أنشد شعرا : أنت فى هذا أشد من أبى تمام • فقال : كلا والله • ذاك الاستاذ الرئيس • والله مــا أكلت الخبز الا بــه • فقال له المبرد : تأبى الا شرفا من جميع جوانبك •

وقيل أن من فضائله فى الشعر سبقه الى التغرية عن النبات•

اغراضــه الشعرية :

وموضوعات شعر البحترى أو أغراضه عامة هــى الاغراض الطالبة على الشعر العربى وشعر التكسب أو الاحتراف اذا جاز لنا

هذا التعبير فى مجال الشعر · ومعظمه فى المديح قصد به الخليفة العباسى وكبار معاونيه من الوزراء والكتاب والقادة والرؤساء ·

مديحـــه :

وفى مديحه يعرف للمعانى العامة التى اعتادها شعراء العرب من اضافة صفات المثال الكامل للرجل ، وأولها بطبيعة الحال صفة الكرم ، والهيبة ، وكريم الشيم ، وتتردد فـى شـعره بصورهـا التقليدية مع تلوين فى العرض بما يناسب المقام ·

فيقــول :

ملك له فى كل يـوم كريهـة ... أقـدام ليث واعتـزام مجـرب
وتراه فى ظلم الوغـى فتخاله ... قمـرا يشد على الرجال بكوكب

ويقـــول :

أعطيتنى حتى حسبت جزيل ما ... أعطيتينـه وديعـــة لـم توهب
فشبعت من بـر لديك ونائـل ... ورويت من أهل لديك ومرحب

ويمــدح محمد بن بدر من ممدوحيه فيقول :

بات ابن بدر لنا بدرا نهذبـه ... سـد الظلام اذا امتـلت غياهبه
مناكـر لدنيئات الامـور تقى ... يزور عن جانب الفحشاء ، جانبه

وقد يذكر البحترى عشيرة الممدوح أو قبيلة ، وهو اذا تناول الخليفة فانما يعرض لبنى العباس وشمائلهم وفضلهم على الخلافة وذ بهم عنها كل معتد أو ضال وخارج · ويذكر حمايتهم للاسلام ، واقامتهم لا علامة وبسطهم لفته وعدلهم بين الناس · مع ما يضفيه الله عليهم من جلالة الامامة وبهاء الخلافة ·

يقول فى المتوكل وهو فى مقدمة ممدوحيه :

يعلو بقدر فى القلوب معظم ... ابدا وعز فى النفوس جديد
فى هضبة الاسلام حيث تكاملت ... انصاره من عدة وعديد
احيا الخليفة جعفر بفعاله ... افعال اباء له وجدود
تنكشف الايام من اخلاقه ... عن هدى مهدى ورشيد رشيد
فاسلم امير المؤمنين ولا تزل ... مستغلبا بالنصر والتاييد
نعتد عزك عز دين محمد ... ونرى بقاءك من بقاء الجود

ويقول فيه :

خلق الله جعفرا قيم الدنيا سدادا وقيم الدين رشدا
وشبيه النبى خلقا وخلقا ... ونسيب النبى جدا فجدا

ويليه من ممدوحه من رجال الدولة الكبار الفتح بن خاقان ، وكان مقربا من المتوكل • ويشير البحترى فى مديحه الى مكانته تلك مع الخليفة ، والى آياديه فى حفظ الدولة والذب عنها •

يقول :

سللت دون بنى العباس سيفوغى ... يدمى وعزما اذا ضرمته وقدا
آثار باسك فى أعداء دولتهم ... أضحت طرائق شتى بينهم قددا
اما قتيلا يخوف السيف مهجته ... أو نازعا ليس بنوى عودة أبدا
حتى تركت قناة الملك قيمة ... بالنصح لا عوجا تشكو ولا اودا

وهكذا تجد البحترى يكيل الصفات العامة لمدوحيه ، مثنيا بما قد يناسب المقام من صفات خاصة تتصل بشخصه ومكانته فى الدولة أو فى قومه ، وما يتولى من الاعمال • وهو تهج سلوك تعاوده الشعراء •

ولا جديد فى هذه المعانى ، وجميل من البحترى حسن ديباجته ، ورونق عرضه لمعانيه القديمة الجارية . ونضرب مثالا على هذا الجديد فى حسن العرض بوصفه لمهابته الخليفة .

فى المديح (الخليفة المتوكل) :

وللبحترى صياغة سلسة تجرى مجرى الماء رقة وعذوبة ، يعبر بها عن معناه فى وضوح لا يقدر عليه غيره . فيتناول معنى من معانى المديح ، مهابة الخليفة ، فيعبر عنه تعبيرا جميلا رائقا فيقول دون كلفة :

ولما حضرنا سدة الاذن أخرت	رجال عن الباب الذى انا داخله
فافضيت من قرب الى ذى مهابة	اقابل بدر الافق حين اقابله
الى مسرف فى الجود لو أن حاتما	لديه لامسى حاتما وهو عاذله
بدا لى محمود السجية شمرت	سرابيله عنه وطالت حمائله
كما انتصب الرمح الردينى ثقفت	أنابيبه للطعن ، واهتز عامله
وكالبدر وافته لتم سعوده	وتم سناه واستهلت منازله
فسلمت واعتاقت جنانى هيبة	تنازلنى القول الذى أنا قائله
فلما تاملت الطلاقة وانثنى	الى ببشر آنستنى مخائله
دنوت فقبلت الندى فى يد امرىء	جميل محياه سباط اناملة
صفت مثل ما تصفو المدام خلاله	ورقت كما رق النسيم شمائله

وقد أعجب النقاد هذا العرض فقالوا لم يقل أحد فى مثل ما قال .

وتتسم قصائد البحترى فى المديح بسمات هذا الموضوع فى الشعر العربى عامة ، وهو موضوع غايته التكسب أى أن يحصل الشاعر من ورائه على المال ، وتركت هذه الغاية أثرها فيما

يقول ، كالتعريض بالطلب ، أو الشكر الذليل رغبة فى زيادة العطاء ، أو الشكوى من الحاجة والفقر ، واللهفة على أن يكون للشاعر بفضل الممدوح ما يكفيه ، ويروى غلته ويسد حاجته .

وللبحترى فى هذا كثير من الشعر لا يدخل مداخل الفن ، بل هو أقرب الى السؤال والاستجداء .

يقول للحسن بن سهل :

أثنى عليك ثناء من الفتيه غفلا فعاد بنعمة موسوما

ويقول للخليفة المتوكل :

أمنت به الدهر الذى كنت أتقى ونلت به القدر الذى كنت آمله

ولكن قصائد المديح بعد ذلك تكون مجالا - أحيانا - لان يكشف الشاعر عن شاعريته وفنه بعد أن يفرغ من غايته تلك .

بناء القصيدة عند البحترى :

يبدأ فى القصيدة التقليد بمطلعة التقليدى فى النسيب أو الغزل ، وفى النسيب قد يذكر الديار والنزوح . والفراق ، ويذكر الشيب والشباب المولى .

يقول مثلا :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله وابدى الجواب الربع عما تسائله
افى ذاك برء من جوى ألهب الحشا توقده واستغزر الوضع جائله
هو الدمع موقوف على كل دمنة تعرج فيها أو خليط تزايله

وهو مفتن فى تنويع هذا المطلع ، يعرضه فى صور متعددة · كأن يقــول مثــلا :

عهدى بربعــك مانوسا ملاعبــه ... اشـباه آرامــه حسنا كواعبــه
يشبن للصب فىصفو الهوىكدرا ... ان وخط شيب أعدتــه ذوائبه

أو يقـــــول :

لدارك يا ليلى سـماء تجـودها ... وأنفاس ريح كل يـوم تعودها
وان خف من تلك الرسوم أنيسها ... وأخلق من بعد الانيس جديدها
منازل لا الايام تعدى على البلى ... رباها ولا أدب الخليط بعيدها
وعهدى بهامن قبلأن يحكم النوى ... على عينها أن لا تدوم عهودها

والىجانب عرض البحترى للمعانى التقليدية فىالنسيب والغزلمن ذكر للديار ، والدعاء لها بالسقيا وذكر معتادها من الوحش من العين والظباء ، وذكر الرحيل والفــراق وآلامــه ، والذكــرى ، واستعذابها واستعادة الايام الخوالى · الى جانب هذا كله نجــد البحترى يهتــم بالخيال ، أو طيف محبوبتــه ، فيسترجع به تلك الذكرى الماضية ، ولعل هذا الجديد الذى أدخله على هذا المطلع·

يقـــــول :

أرجم فى ليلى الظنون وأرتجى ... أواخــر حب خلفتنى أوائلــــه
وليلة هو منا على العيس أرسلت ... بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثى ... بعطفى غزال بت وهنــا أغازله
وكم من يـــد لليــل عندى حميدة ... وللصبح من خطب تذم غوائله

وقد يبدأ مباشرة بذكر الطيف فيقول :

قد كان طيفك مرة يغـرى بى	يعتـاد ركنى طارقـا ووكابى
فالان مـا يـزداد غــير مغبـة	ومن الصـدود زيـادة الاغباب

ثم يبدأ بعدها بذكر الديار فيقول :

جئنا نحيـى مـن اثيلة منزلا	جـددا معالمـه بـذى الانصاب
أدى الى العهـد مـن عرفانـه	حتى يـكاد يـرد رجـع جوابى

وقد يبدأ بداية تقليدية دون تجديد . كأن يقول :

ارسـوم دار أم سـطور كتاب	درست بشاشـتها مع الاحـقاب

على أن للبحترى صورا عذبة الوقع رقيقة الخطوط على تقليديته يقــول :

ترنـو فتنقلب القلوب للحظهـا	مرضى السلو صحائح الاوصاب
رفعت من السجف المنيف وسلمت	بانامــل منهــن درس خضــاب
وتعجبت مــن لوعتــى فتبسـمت	عن واضحــات لو لثمن عذاب

واذا خلص البحترى من هذا المطلع لم يحسن الانتقال ، وقد أخذ عليه هذا ، فقال النقاد لم يكن يحسن التخلص الى غرضه .

ومن جديـد شـعره :

وصف معركة بحرية بين المسلمين والـروم . يقول يصف قائدا مسلما بحريا :

ولما تولى البحر والجـود صنوه	غدا البحر من اخلاقه بين ابحـر
اضاف الى التدبـير فضل شجاعة	ولا عـزم الا للشـجاع المدبـر

اذا شجروه بالرماح تكسرت ... عواملها في صدر ليث غضنفر
غدون على الميمون صبحا وانما ... غدا المركب الميمون تحت المظفر
أطل بعطفيه ومر كانما ... تشرف من هادى حصان مشهر
اذا زمجر النوتى فوق علاته ... رأيت خطيبا في ذؤابة منبر
يغضون دون الاشتيام عيونهم ... وفوق السماط للعظيم المؤمر
اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له ... جناحا عقاب في السماء مهجر
اذا ما انكفا في هبوة الماء خلته ... تلفع في أثناء برد محبر
وحولك ركابون للهول عاقروا ... كؤوس الردى من دارعين وحسر
تميل المنايا حيث مالت اكفهم ... اذا أصلتوا حد الحديد المذكر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ... ليقلع الا عن شواء مقتر
صدمت بهم صهب العثانين دونهم ... ضراب كايقاد اللظى المتسعر
يسوقون أسطولا كان سفينه ... سحائب صيف من جهام وممطر
كان ضجيج البحرين رماحهم ... اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تقارب من زحطيهم فكانما ... تؤلف من اعناق وحش منفر
فمارمت حتىأجلت الحرب عنطلى ... مقطعة فيهم وهام مطير
على حين لا نقع تطوحه الصبا ... ولا أرض تلقى للصريع المقطر
وكدت ابنكسرى قبل ذاكوبعده ... مليا بان توهى صفاة لبن قيصر
جدحت له الموت الذعاف فعافه ... وطار على ألواح شطب مسمر
مضى وهومولىالريح يشكر فضلها ... عليه ومن يول الصنيعة يشكر
اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ... ثنى في انحدار الموج لحظة أفزر
تعلق بالارض الكبيرة بعدما ... تنقصة جرى الردى المتمطر

ابن الرومـى

(٢٢١ هـ - ٢٨٣ هـ)

هو الشاعر الكبير الفنان على بن العباس بن جريج أو جرجيس ، أو جرجس وكان وفق نظام المجتمع آنذاك مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر ، أحد بنى العباس • وينتمى فى أصوله الى العنصر اليونانى ، فجـده كما هو ظاهر من اسمه منه •

ولد سنة ٢٢١ هـ ببغداد بجوار قصر مولاه عيسى بن جعفر بن المنصور • فى بيت كان صاحبه مولى لامير عباسى كبير • وقد اكتسب جانبا من الجاه والمال من مولاه • وكان العباس بن جريج على ما يبدو مثقفا ، حرص على تثقيف أبنائـه وتربيتهم تربيـة لائقـة •

وقد عاصر ابن الرومى فى بغداد تغيرات سياسية واجتماعية كبرى فى الدولة العباسية • شهد فى صباه سيطرة الفكر الاعتزالى، والفلسفة ، واتجاه العلماء الى الكلام ، وتغير الخلفاء على أهـل السنة والحديث • ثم رأى فى شبابه التحول الكبير فى عصر المتوكل الى جانب أهل السنة ، وتعقب المعتزلـة والمتوكلين ، وتشريدهم وتعذيبهم •

وشاهد كذلك بعض الثورات الشعبية منشطار بغداد وعامتها على القادة والجند الاتراك تارة ، وعلى بعض الخلفاء والوزراء تـارة أخـرى •

ونضج الشاب ابن الرومى ، فارتاد قصور السادة والامراء والوزراء من رجال الدولة الكبار وقد عاصر من هؤلاء جماعة من بينهم سليمان بن وهب ، وعبيد الله بن خاقان من وزراء المعتمد ، وأبو الصقر سليمان بن بلبل الذى نسب نفسه الى شيبان وكانت صلة الشاعر به قوية، بين قربى وبعد ، مدحه فيها وهجاه ، ثم تقرب الى آل وهب وعلى الاخص عبيد الله والقاسم ونسب اليه موت ابن الرومى ، فيما قيل أنه دس عليه السم فى طعام لاقذاعه فى هجائه ٠

هذا وقد عاش ابن الرومى حياة بغداد فى القرن الثالث الهجرى بفرحه وترحه ، مباهجه ومنغصاته ، فكان ترجمانا صادقا له ، لما رزقه الشاعر من حس صادق ٠ وملكة مصورة ومقدرة على استخدام اللفظ ٠ مما مكنه من التقاط مشاهد الحياة وتسجيلها بالكلمة ٠

ومعظم ما صوره من بيئة بغداد الشعبية ، وقد عيب عليه فى بلاطات الكبراء هذه الصور الشعبية ، بالمقارنة مع صور ابن المعتز المشرقة بالنعمة والثراء ٠ روى ابن رشيق قال : ان لائما لامه فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز ، وأنت أشعر منه ؟ ٠ قال : أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ٠ فأنشده فى صفة الهلال ٠

فانظر اليه كزورق من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر

فقــال زدنى • فأنشده :

كــــان آذريونهـــــا والشمس فيـه كاليـة
مــــداهن مـــن ذهب فيهـا بقايـــا غاليـه

فصاح : واغوثاه ! • بالله لا يكلف الله نفسا الا وسعها • ذلك انما يصف ما عون بيته لانه ابن الخلفاء ، وأنــا أى شــىء أصف ؟ • ولكن أنظروا اذا وصفت ما أعرف ، أين يقع الناس كلهم منى ؟، هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفا على الارض دكنا وهى خضر على الارض
يطرزهــا قــوس الغمــام باصفــر على أحمــر فى أخضر وســط مبيض
كاذيال خــود اقبلت فــى غــلائل مصبغة والبعض اقصــر مــن بعض

وقولى من قصيدة فى وصف الرقاقة :

ما أنس لا انس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كــرة وبين رؤيتهــا قــوراء كالقمــر
الا بمقــدار ما تنداح دائــرة فى لجة المــاء يلقى فيه بالحجر

وتقلبت الحياة بأبى الرومى بين حــلو ومــر ، وكانت له من شخصيته ، وقلة حظه بين الناس وتوتره ، وتخوفــه ، وتشاؤمه وطيرته ما مكن لهذا الاحساس فى نفسه ، فأحس بتعاسة واقعة فى حياة مليئة بالبهجة والسرور ، ينهل الناس فيها ويعلون ، وكانت تعاوده بين الحين والحين ساعات الطرب ، والنشوة حين تزهو له الدنيا ، وتوطىء له كنفها ولكنها كانت ساعات قليلة يتغنى فيها فتحس باللــذة والمتعة فى كلماته •

ويصور ابن الرومي حياته تلك الضيقة،التي ألحت فيها عليه ضروب المعاناة والمنغصات فيشكو متوجعا ، يحسد الهانئين قائلا :

حرمت في سني وفي ميعتي	قراى مـن دنيـا تضيفتهـا
كـم آهـة لى قـد تاوهتهـا	فيهـا ، ومـن اف تاففتهـا
أغـدو ، ولا حـال تسخمتهـا	فيهـا ، ولا حـال تردفتهـا
أوسعتها صبرا عـلى لؤمهـا	اذا نقصتـه تطففتهـا

وهكذا كانت حال الشاعر في دنياه البغدادية ، بين أمل كبير في الشهرة وبلوغ المكانة في الشعر وهو جدير بهـا ، ويأس من الحياة ، وقنوط من بلوغ ما يريد . وقد لازمته شهرة أذاعها طبع فطر عليه ، شؤمه وطـيرته . ورويت في هـذا نـوادر تناقلها معاصروه ، فكانت مادة للمداعبة أو المشاكسة .

قالوا انه يتطير من قطة سوداء تعترضه اذا هم بالخروج من بيتـه ، فيرتد ليقبع طوال يومه لا يغـادره . وقالوا ان صحبته تكسب نحسا فتحاشاه الناس وأقربهم اليه . وأثـار هـذا فيـه غضبا ، وزاده توترا ، فلزمته سوداوية نظر من خلالها الى العصر وأهله ، فبادرهم بهجاء لاذع مرير ، يصب فيـه مـرارة نفسه ، وينفس عن كربته . واتخذ الكلمة سلاحا لنقمته .

وزاد هجـاؤه من وحشـته وانصراف الناس مـن حولـه ، وابتعادهم عنه للسانه ...

وكانت في طبع ابن الرومي حدة وتطرف ، كان اذا أحب

أحب بنهم ، وأقبل على من يحب أو ما يحب بكل جوارحـه ، واذا كره كره في عنف ، وأحس فيما يكره وفيمن يكره كل خصائص الشر والقبح ٠

وقد أهل ابن الرومي طبع فيه لنقد حال المجتمع ، فأبرز هذا جليا على غير العهد من شعراء العصر ممن مجدوا الحكام والقادة ، وتقربوا اليهم بكيل المديح ، والصفات التي لا يملكون منها سوى القليل ، بل لعلهـم يصفونهم على عكس ما يكونون تملقا وطلبا للمـال ٠

وظهرت امام عين ابن الرومي الناقدة عيوب مجتمعه وناسه في مرحلة اضطربت فيها الاحوال ، واختلطت القيـم ، فتقـدم الحقير ، وتأخر الكبير ، وملك من لا يستحق ، وأهمل كل صاحب حق ٠ قال ابن الرومي :

أتراني دون الاولى بلغوا الآما ... ل من شرطـة ومن كتـاب
وتجار مثـل البهائـم فـازوا ... بالمنى فـى النفوس والاحباب
فيهـم لكنـة النبيط ولـكن ... تعتهـا جاهلية الاعـراب
غـير مغنـين بالسيوف ولا الاقـلام في موطن ، غنـاء ذبـاب
ويظلـون في المناعـم واللـذا ... ت بـين الـكواعب الاتـراب
لهم المسمعات ما يطرب السـا ... مـع والطائفـات بالاكـواب
وجـوار كانهـن جـوار ... يتسـللن من ميـاه عـذاب
لابسـات مـن الشفوف لبوسـا ... كالهـواء الرقيـق أو السراب
لو ترى القـوم بينهـن لاجبرت ... صراحـا ، ولم تقـل باكتسـاب
مـن أناس لا يرتضون عبيـدا ... وهـم فـى مـراتب الاربـاب

وكان طبيعيا بعد أن يرى هذا الانقلاب الغريب فيالاوضاع، وسيادة قانون الغاب ، وتمكن من ينتهز الفرص ، أو يملك القدرة على القربى الزائفة من ذوى السلطان ، كان طبيعيا بعد هذا أن تزداد أحوال الناس اضطرابا ، لانشغال من يصرفون أمورهم بأحوالهم وملاذهم ويجمع الاموال ، ولا قدرة لديهم على تعريف شئون الامة وصلاح حال المجتمع · يقول :

اصبحوا ذاهلين عن شجن النا س، وان كانحبلهم ذا اضطراب
فى أمور ، وفى خمور ، وسمور وفى قاقم ، وفى سنجاب
وتهاويل غير ذاك من الرقم ومن سندس ومن زرياب
عندهم كل ما اشتهوه من الا كال ، والاشربات والاشواب

وكانت هذه صرخة شاعر يحس بآلام مواطنيه ، ويترجم عن صيحات الغضب التى تصدر هنا وهناك وتترجم أحيانا الى انتفاضات في شوارع بغداد ، ثورات للعامة ، أو العبيد ، أو فى صورة أعم كثورة الزنج فى جنوب العراق أيام المعتمد والمقتدر والمعتضد · وفى هذا القرن الثالث نفسه فى نصفه الثانى ، وقد عاصر هذا كله ابن الرومى ، وراقبه ، ونم شعره عنه ·

وقيل أن فى ابن الرومى وشعره روحا علوية ، وتصدى بعض الباحثين لعلاقته بالعلويين فخرج بعضهم بعلويته عقيدة ، ومال آخرون الى علوية بالهوى ، ولعل الرأى الاخير أصوب ولان الاتجاه العلوى فىذلك العصر كان يحتوى كل الغاضبين والساخطين على الدولة ، ولما كان هو غاضبا ساخطا فلم يكن غريبا اتجاهه

الى العلوية وانجذابه نحوهم · وقد لاقى ذلك الاتجاه ترحيبا عند بعض ممدوحيه مما كانت ميولهم شيعية أو علوية كآل توبخت ، وبعض البيوتات الفارسية الاصل من كبار رجال الدولة ·

ويمكن ان يقال ان ابن الرومي عاش معظم حياته في بغداد لم يغادرها الى ما جاورها من البلاد الا فـي القليل النـادر مثل خروجه الى سامرا أو واسط في العراق قاصـدا بعض ممدوحيه وكان غالبا ما يبعث بقصائده فيهم الى مواطن اقامتهم ·

ويسلك في طريقه الى سامرا طريق النهر فيصعد في دجلة ، وكان يخشى الماء وركوب البحر وقد سجل احدى رحـلاته هذه النهرية كاشفا عن مخاوفه · يقول :

واما بـلاء البحر عنـدى فانه	طواني على روع من الروح واقب
فايسر اشفاقى من المـاء أننـى	امر به في الكوز مـر المجانب
واخشى الردى منه على كل شارب	فكيف بأمنيـه عـلى الكل راكب
اظـل اذا هزتـه ريـح ولألأت	له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كأني ارى فيهن فرسـان بهمة	يليحون نحوى بالسيوف القواضب

شـعره :

وشعر ابن الرومي يدور معظمه من حيث الشكل في موضوعات المديح والهجاء والغزل والوصف ويستغرق المديح جـزءا كبيرا ، لانه شاعر محترف يتكسب بالشعر ، ويقصد به الرجال ليثيبوه عليه · وهو يسأل في شعره ، ويلح كثيرا في السؤال · فاذا أعطى رضي وواصل المديح ،وأضفى الثناء ، واذا منع عاتب ، ثم هجا ·

ويكشف شعره عن معرفة بالشعر العربى القديم ، كما يبوح بثقافته • وقد جمع أطراف الثقافات فى عصره على عمق معرفته بالعربية وآدابها •

وأشار الى بعض صحبته فى الدرس فقال :

أيام نسرح فى مراد واحد   للعلم تنتجع القلوب غريبه

كما ورد فى شعره بعض المعارف والاسماء المتداولة فى الشعر العربى القديم والعباسى • وفيه اشارات الى الشعراء من أمثال امرىء القيس والنابغة ولبيد ، وربما استشهد ببيت او بيتين لواحد منهم ، ومن شعراء المحدثين اشار الى أبى نواس ودعبل والحسين بن الضحاك •

واطلاعه على الشعر العربى ، وأخذه بأسباب الثقافة العربية لم يحرماه من التجديد فى شكل الشعر ، وأساليبه ، وبنائه •

وربما قال الشعر فى سن مبكرة ، وراض القول فيه فى العشرين أو الحادية والعشرين أى حوالى سنة ٢٤١ هـ •

وأهم ما فى شعر ابن الرومى أنه تسجيل لحياته ، وحياة بغداد فى عصره ، فشعره صورة حية للحياتين معا • وقارئه يقف أمام صور متتابعة لا يستطيع التاريخ أن يوحى بها وانما تشفها أبيات ابن الرومى وتلقى بها فى وجدان القارىء •

ونرى ملامح هذه الشخصية ظاهرا وباطنا ، فشعره به قدر

كبير من الذاتية ، والبوح بمكنونه ٠ وقد كان الشاعر فيما يروى دقيق الجسد جميل الصورة في شبابه الاول ٠

يقـــــول :

أنــا مــن خف واســتدق فمــا ينقــل أرضــا ولا يســد فضــاء

ويكشف عن مكنونه ونوازعه ، وتناقضات رغائبه ورهائبه فيقول بين آمال الهوى ونوازع الحياة ، وخوف السعى ، ورهبة المستقبل :

فاصبحت في الاثراء أزهد زاهد وان كنت في الاثراء أرغب راغب
حريصا جبانا ، أشتهى ثم انتهى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتــاه الفقر من كل جانب

ويكشف عن تردده وتخوفه الذى وسم شخصه فى قوله :

فقدمت رجــلا رغبة فى رغيبــة وأخرت رجــلا رهبــة للمعاطب

وخوفه المستقبل فى قوله :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن اين؟٠ والغايات بعد المذاهب

وفى نفسه سماحة الفنان ، يعفو ، ويقبل العذر ، ويحب ويقبل على من أحب كذلك هو فى كرهه لا يخف ٠

يقـــــول :

شكرى عنيــد وكذاك حقــــدى للخــير والشر بقاء عنــدى

وله فى الاخاء تلك القصيدة الجارية السائــرة على الالسن كلما ذكرت الصداقة ٠

يا أخي اين عهد ذاك الاخاء

ونفسه نهمة ، ونوازعه النفسية كنوازعه الجسدية عارمة ، فهو في شهوة الطعام والشراب مضرب المثل تتكشف أبياته عنها ، فاذا هو يلتهم ما يحبه بكل جوارحه ، ويتذوقه بكل أحاسيسه ألا تراه يقول في الموز وكان مفتونه بين الفاكهة :

للمــــرء احسـان بـلا ذنـوب ليس بمعـلود ولا محسوب
يكـاد من موقعـه المحبوب يدفعـه البلع الى القلـوب

وحين يصف لك أطايب الطعام والمآكل تشعر وكأن ريقه يتحلب في نظمه شهوة ونهما . يقول في قطائف :

قطـائـف قـد حشيت باللوز والسـكر المـاذى حشـو المـوز
تسبح في آذى دهـن الجــوز سررت لمـا وقعت فـي حـوزى
سرور عبـــاس بقـــرب فـوز

وهو شاعر في نهمه وطعامه ، لا يأكل ما بين يديه أكل البهيمة لا يدرى ما يقضم ، بل يتأمل ، ويعجب ، ويقوم الجمال ، ويشبع أحاسيسه به قبل أن يملأ بطنه . يقول وهو يرسم صورة العنب ، وكأنه يخط لوحة تعجب ، قبل أن تفتح الشهية للالتهام :

ورازقـــى مخطـف الخصـــور كأنـه مخـــازن البلـــور
قـد ضمنت مسـكا الى السطور وفي الاعالى مـاء ورد جـورى
لم يبـق منــه وهـج الحـرور الا ضيـاء فـي ظـروف نـور
لو أنـه يبقـى عـلى الدهـور قـرط آذان الحسـان الحـور

وابن الرومي فنان يتبع الجمال في الحياة أنى كان ببصره

وحسه وعاطفته ، يراه فى شاهد الطبيعة ، ويـراه فى المرآة ، ويراه فى الصوت الجميل ٠

ويرسم صورة لروضة تغرد طيورها على فننها المتراقص على هبات النسيم فيقول :

حيتك عنا شمال طاف طائفها ... بجنـة فجرت روحـا وريحانـا
هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه ... موسوسا ، وتنادى الطير اعلانا
ورق تغنـى عـلى خضر مهدلة ... تسمو بها وتمس الارض احيانا
تخال طائرها نشوان من طرب ... والغصن من هزه عطفيه نشوانا

أو يقول فى الربيع وقد تزينت له الدنيا بأنواع الزهر ، وتغنت طيره ، وامتلأت بالحياة فاقتتلت ، وتصاوحت :

أصبحت الدنيا تروق من نظـر ... بمنظـر فيـه جـلاء للبصـر
أثنت عـلى الله بـآلاء المطـر ... فالارض فى روض كافواب الحبر
نـيرة النـوار ، زهـرة الزهر ... تبرجـت بعـد حيـاء وخفـر
تبرج الانثى تصدت للذكـر

صور جمال الصورة والشكل ، ونبض الحياة، وتدفقها عبـر الكائنات بين الذكورة والانوثة وتلاقيها ليستمر الوجود ، وتتوالد الاجيال فترى موجات الخلق ، موجة بعد موجـة ، واحـدة تفنى لتتولد منها واحدة من جديد وهكذا ٠٠٠ والربيع زهرة الحيـاة والخلق تتبرج فيه الدنيا لتتلقـى نبض الحيـاة ، كتبرج الانثى تتلقى نبض الحياة ٠٠٠ مشابهةليست فـى الشكل ولكنها فـى المعنى وعمق الاحساس ، وهكذا يخط الشاعر لوحاتـه ، تنطـق خطوطه وألوانه بعمق أحاسيسه ، وصادق شاعريته ٠

ويجتمع جمال الحياة بمشاهدهـا الطبيعية بجمـال الانثـى دائما فى وجدان الشاعر وخياله ويصرح بهذا فى قصيدة نونيـة مشهورة يقول فيها :

أحبت لك الوصل اغصان وكثبان — فيهـن نوعـان تفـاح ورمـان
غصون بان عليها الدهر فاكهة — وما الفواكه مما يحمل البـان
تجاوزت فى غصون لسن من شجر — لكن غصون لها صد وهجـران

ويسجل شعر ابن الرومى وقائع حياته كذلك فى بيته وبين أبنائه وعلاقاته بالناس ، كبيرهم وصغيرهم بمن أحب منهم ومن كـره ·

وكانت علاقاته بكثير من رجالات عصره ، بين وزراء وكتاب، وشعراء وعلماء ، وفى مقدمة من شغل شعره بهم مديحا وهجاء من الوزراء والكتـاب آل صاعـد بن مخلـد ، واسماعيل بن بلبـل الشيبانى ، وبيت نوبخت ، وآل المنجم ، وآل وهب · وابن المدبر· وقد لعب هؤلاء أدوارا فى أحداث العصر ، يشير اليها ابن الرومى فى مديحه أو هجائه ·

واتصلت الاسباب بينه وجماعة من شعراء العصر المشهورين كأبى طاهر ، والبحـترى · وبعض من لـم يشتهر شـهرة هذين الشاعرين · وقد استمرت علاقة ابن الرومى بالبحـترى زمنـا شابها كثيرا من التوتر ·

وتناول شـعره هجـاء بعض هؤلاء مثـل خـالد القحبـى

الذى هجاه بأكثر من ستين قصيدة وأبى حفص الوراق الذى سخر منه كثيرا ، وكانت أهاجيه نصف أهاجيه فى خالد ٠

وذكر فى شعره بعض نساء العصر ممن كن من المشهورات فى وسطه ، أو نساءا لمن التقى بهم من الرجال زوجات أو جوارى مغنيات أو عازفات ٠

ومن أسمائهن عجائب ، وهى جارية تركية ، وجلنار راقصة على الطبل والصنج وبدعة محظية القاسم بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب ، وبستان جارية زوجة القاسم ، ودريرة ، جارية عازفة، وشاجى جارية عبيد الله بن عبد الله ، وكانت موسيقية بارعة ، ومغنية ، وفيها ينظم قصيدة بديعة

ووحيد التى خلدها بالقصيدة الفريدة ، من الجوارى المغنيات ٠

أولئك من استهوين الشاعر بظرفهن أو غنائهن أو رقصهن وجمالهن وحسن ايقاعهن على الآلات ، وهناك من أثرن سخطه فهجاهن بلسان حديد ٠ وأفحش فيهن ٠ كشنطف القارئة ، وكانت مغنية قبيحة الصوت ، وشاغل جارية سلامة بن صاعد ، ومحب زوجة أحمد بن صاعد ٠

ويسجل شعره كذلك وقائع الحياة البغدادية بين لهوها وجدها ، سرورها وشقائها ٠ غناها وفقرها ٠ وينتقل بك فى

مشاهدها ، فى سلسلة من الصور عبر الديوان • وللاحداث مكان فى ديوانه ، ومن أشهرها أحداث الزنج وما فعلوه بالبصرة ، وقد صنع فيها قصيدة فريدة •

ولا يقف ابن الرومى مع أحد من شعراء عصره فى اتجاهه الفنى ، فهو لا يذهب مذهب أبى تمام فى اتخاذ البديع طريقة فنية للتعبير عن معانيه ، ولا يوغل ايغاله فى اقتناص المعانى وكد الذهن ورائها ، ولا تحس فى شعره مدى الجهد فى البناء والصياغة •

كذلك هو لا يذهب مذهب البحترى فى طريقة العرب ، والميل الى الصياغة السهلة والبناء العربى الديباجة ، دون حاجة الى اسراف فى استخدام البديع •

فشعر ابن الرومى نسيج وحده ، ويقدر ما وصلنا من شعره فى مخطوطه القاهرة وأتم تحقيقها الدكتور حسين نصار بضعف شعر البحترى ، وأكثر من ضعفى ما وصلنا من شعر أبى تمام وربما كانت هذه النسخة شاملة لكل شعره • فقد عرف عنه كثرة الشعر ، واقتداره على نظمه • يروى أحد رفاقه أنه كان قادرا على نظم القصيدة الطويلة فى الساعات القليلة دون أن يعيد النظر فيها لتنقيحها •

ويقدر ريفون مست ما ضاع من شعره بثلاثة أرباعه ، وأن ما وصلنا منه لا يتعدى الربع على ضخامته •

ويصنف ابن الرومى بين الشعراء المطبوعين ، من أمثال السيد الحميرى وأبى العتاهية وأبان بن عبد الحيد اللاحقى من شعراء المرحلة السابقة فى عصر العباسيين • وكما جاء فى أخباره أنه كان لا يجهد نفسه فى عمل القصائد الطوال ، وكانت قصائده تطول فتبلغ الثلاثمائة بيت تقريبا وتبدأ قصيدة المديح بمقدمة تطول فتبلغ مائة بيت ، وقد تقصر ، ويتنوع موضوعها بين غزل يذكر فيه مفاتن المرأة على ما درج فى الشعر التقليدى ، وان كانت روحه أقرب الى غزل العصرين من محدثى العباسيين • وقد يمتزج الغزل بوصف الخمر أو الغناء ، أو وصف الطبيعة ومفاتنها • وقد يخرج فى هذه المقدمة عن الطابع العام الى موضوعات أخرى كالحديث عن انقضاء الشباب ، وكبر السن ، أو تقلب الزمن ، أو وصف مهرجان الى غير ذلك من الموضوعات •

وقد يستغنى عن المقدمة تماما ، ويبدأ فى موضوعه دون تمهيد • وتنتهى قصائد المديح غالبا بشكوى الحال ، والتعريض بالسؤال •

ويلى قصائد المديح فى العدد والطول قصائد الهجاء ، وقديما قال بشار بن برد : ان الهجاء آخذ بضبع الشاعر ، وهو كذلك ، وسيلة للكسب عن من لا يهزهم المديح ، فيخيفهم الهجاء • ولعله آخذ كذلك بنصيحة بشار حين قال : اذا أردت أن تكرم فى زمن اللئام فعليك بالهجاء •

وينقسم هجاؤه الى معتدل ومقذع، والمعتدل، يجرى فيه على نسق غيره من الهجائيين فى كيل صفات القبح ، وسلب المهجو كل فضيلة • والهجاء المقذع يتناول المثالب الشخصية ، ويعرض العيوب الجسدية فيجسمها فى سخرية مرة ، كطول اللحية ، وجحوظ العينين ، والحدب ، وقد يفحش القول فيتناول العورات ، والعمل الفاضح بصورة تخرج بالشعر الى السباب والتجريح •

ويدور غزل ابن الرومى فى المرأة وبعضه فى الغلمان ، يعرض فيه لمحاسن المحبوب ، وأحوال حبه معه ، وآثاره فى نفسه، وما يلقاه من الهجر ، والدل ، وقد يدور الحوار بين الحبيب والمحبوب ، أو مع بعض صحابته •

واشهر من تغزل بهن من المغنيات وحيد وشادى •

ولابن الرومى مقدرة خاصة فى الوصف ، وهو يبنى صوره الشعرية الوصفية بناءا واحدا مسلسلا ، يخرج فيه من الاطار العام الى الخاص ، وما يزال يمعن فى ذكر جزئيات الصورة ويتنقل من واحد الى آخر حتى يشفى منها غليله ، ويشبع فنه •

وقد عرف مقدرته على رسم الصور بخطوط بارعة أحسن التعبير عنها لفظا وايقاعا ومن أشهر لوحاته يصف خوفه من المغنيات الموسيقيات يحملن آلاتهن الموسيقية أو يحتضنها ، من عود وجنك ويربط :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقمات أطفالهن ثديا ... ناهدات كأحسن الرمان
كل طفل يدعى باسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
امه دهرها تترجم عنه ... وهو بادى الغنى عن الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر الا ... بالتزام من امه واحتضان
أوتى الحكم والبيان صبيا ... مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

وقد تأخذ اللوحة أبياتا طوالا كلوحته لوحيد ، والتى يبدؤها بقوله :

يا خليلى تيمتنى وحيد ... ففؤادى بها معنى عميد

أو فى البحر والسفين :

ذكرتك حين القت بى عصاها النـ ... ـوى يوما بنهر ابى خصيب
وقد أرست بنا فى ضفتيه الـ ... ـجوارى المنشآت مع المغيب

وقد تكون الصورة سريعة يرسمها فى خطوط قليلة لماحة ، كخط الكاريكاتير يبرز أوضح ملامحها • وهاهى صورة الاحدب :

قصرت أخادعه ، وغار قذاله ... فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة ... واحس ثانية لها فتجمعا

وفى وصف مغنية تجهد نفسها فى الغناء فتبرز عروق رقبتها ويكاد صوتها لا يغادر شفتيها :

تضغط الصوت الذى تشدو به ... غصة فى حلقها معترضة
فاذا غنت بدا فى جيدها ... كل عرق مثل بيت الارضة

ويقول فى صاحب لحية كبيرة :

ولحية يحملها مائق ... شبه الشراعين اذا أشرعا

لو قابـل الريح بها مـرة لم تنبعث من خطـوه اصبعا
أو غاص فى البحر بها غوصة صار بهـا حيتانـه أجمعـا

وفضيلة ابن الرومى التعبيرية غير الخيال المحكم والمقـدرة الفائقة على التقاط الصورة وتسجيلها بألفاظ مناسبة سهلة قريبة مقدرة لغوية ، فضيله بعد هذا لغة قريبة لا وعورة فيها ولا تكلف ، يشعر القارىء بأنها طبيعية بين يديه لا تعصاه تنساب مع فكره وخيالاته ومعانيه انسيابا، ويشقق منها ويلونها صوتا وبناء كما يريد ٠

وقاموسه اللغوى من جارى كلام عصره ، مع فصاحة ونقاء ، أقرب الى لغـة الكتاب ولهذا قالوا انه يبنى قصائده بناء الرسائل٠ وتختلط ببعض الالفاظ الفارسية والرومية من مستعمل اللغـة الذى انتقل مع ألوان الحضارتين ، والثقافتين الى الحياة والفكر الاسلامى والعربى فى هذه المرحلة ٠ وهى بعد لغة بغدادية نقية من شوائب الغريب البدوى الذى نلحظه فـى شعر الوافدين على بغداد من الشام أو أطراف الجزيرة وأواسطها ٠

يقول ريفون جست :

« ولغة ابن الرومى موجزة محكمة ، وألفاظه كثيرة ، ولكن أسلوبه عامة سهل ، وعربيته كثيرة الشبه بالعربية الادبية فى هذه الايام ، ولذلك يستطيع المثقفون من الناطقين بالعربية الآن فهم قدر كبير من شعره دون مشقة ، كما يتضح مـن المقتطفات الكثيرة

التي نشرها من شعره كامل كيلاني والعقاد اللذان قلما شعرا بحاجتهما الى اضافة كلمة لشرحها للقارىء ٠٠٠ وهو وان لم تستعبده التعبيرات غير المألوفة تحتوى قصائده على قدر كبير منها تضم ألفاظا غير مذكورة فى المعاجم أسماء وأفعالا ٠ ويستعمل قليلا من الالفاظ الفارسية التى ربما كانت قد صارت جزءا من العربية فى بغداد آنذاك » (١) ٠

وقد لاحظ بعض العلماء عليه أخطاء فى النحو ، لتساهله فى التعبير ، وقد تعقبه فى ذلك الاخفش النحوى ، ولهذا أثار حفيظته فهجاه ٠

موقف النقاد من ابن الرومى :

تفاوتت مواقف النقاد منه بين مقرظ ومعترض ، ومادح وقادح ٠ وكان قدح القادحين للسانه وكثرة هجائه ، مع بعض مآخذ فى لغته وتعبيراته ٠

ولكن كثرة النقاد من الواعين يقدمونه ويرون فيه شاعرا كبيرا ٠ وفنانا أصيلا ٠

يقول المرزبانى (٢) : « أشعر أهل زمانه بعد البحترى ، وأكثرهم شعرا ، وأحسنهم أوصافا وأبلغهم هجاء ، وأوسعهم

---

(١) ابن الرومى لرينوى حيث ترجمه حسين نصار ، ص ٨٧ ٠

(٢) معجم الشعراء ص ٢٨٩ ، والموشح ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ٠

في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه ، يركب من ذلك ما هو صعب فتناوله على غيره ، ويلزم نفسه مالا يلزمه ، ويخلط كلامه بالفاظ منطقية يجمل لها المعـاني ثم يفصلهـا بأحسن وصف ، وأعذب لفظ • وهو في الهجاء مقدم ، لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره ، غزارة قول ، وخبث منطق •

ولا أعلم أنه مدح أحدا من رئيس ومرءوس الا وعـاد عليه فهجاه ، ممن أحسن اليه أم قصر في ثوابه ، فلذلك قلت فائدته من قول الشعر ، وتحاماه الرؤساء ، وكان سببا لوفاته • وكانت به علة سوداوية ربما تحركت عليه فغيرت منه » •

ويقول ابن رشيق (١) : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه • وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به فصار يقال : « أهجى من ابن الرومي » • ومن أكثر من شيء عرف به • وليس هجاء ابن الرومي بأجـود من مدحـه ، ولا أكثر ، ولكن قليل الشر كثير » •

ويقول (٢) : « وكان ابن الرومي ضنينا بالمعاني ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يتركه حتى يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، والى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم

---

(١) العمـدة ١٩٤/١ •

(٢) العمـدة ٢٨٣/٢ •

أن لا مطمح فيه لاحد » • ويقول : « وأنا أقول ان أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومي » (١) •

ويقول الصفدى ان ابن الرومى كان شاعرا فحلا بعيد الغوص على المعانى • فاذا تناول معنى استقصاه حتى لا يترك منه شيئا مما أدى به الى حالة أحيانا • وقال ان تشبيهاته غير عادية وجيدة فاذا ما راقه أحدها تتبعه وكرره في كثير من قصائده • وذكر رأى الخالدين (توفيا سنة ٣٥٠ هـ - ٣٨٠ هـ) في أنهما لم يريا مثله حين ينفرد بمعنى ما ، ولكنه حين يأخذ معنى شاعر آخر يسقط فيه » •

ويقول بروكلمان : « وشعر ابن الرومى أقل طنطنة ودويا من شعر المتنبى ، ولكنه أبين وأذلق • وفن ابن الرومى يعتمد بالمرتبة الاولى على العيان والمشاهدة ، فهو يلمح بالنظرة الحادة النقائض والعيوب الجثمانية على الخصوص عند خصومه فيصوغها في هجاء مرير لاذع ، بيد أنه يصور بهذه النظرة اللماحة نفسها صور البهجة والحياة السعيدة كذلك ، لا سيما أعياد رجال الدولة ولذائذ المجتمع في القصور » •

ومما يشهد لابن الرومى أيضا بالقدرة على صياغة الاحاسيس والعواطف الصادقة رثاؤه لابنه محمد الذى يعده العقاد بحق من درر الشعر العربي •

---

(١) العمدة ٢/٢٤٤ •

وينسج ابن الرومي على منوال الخريمي ، فيجترىء أيضا على وصف المواقف التاريخية ، كما فـي شكايته من غلبة الزنج عـلى البصرة ٠

ويسير على غرار أبى على الحمدونى شاعر العامة ، فيجاريه فى شعره الذى يصف فيـه الطيلسان القانـى ويقتفـى النماذج الفارسية ، فيروض نفسه فى نظم المناظرات الشعرية ، كما فى مناظرته بين النرجس والورد وبين السيف والقلم ٠

ولكن قد يبعثه أيضا على قول الشعر منظر يراه فى الطريق ، كمنظر الخباز يدحو الرقاق ، بل هو ينظم كذلك أوصافا ووصايا للطباخين ليحتذوها فى مهنتهم ، فيجعل من نفسه رائدا فى هذا اللون الادبى للمأمونى البخارى (٣٨٢ هـ ـ ٨٧٢ م) وأبى اسحاق الشيرازى المتاخر عنه ٠

وابن الرومى على حق حـين يأبـى لنفسـه أن يفضل عليه البحترى القليل التنوع ، والذى قصر شعره عـلى فن واحد وهـو المديـح ٠

وقال حسبت ان نفـاد العرب القدمـاء اتفقوا على تفضيل البحترى على ابن الرومى ، أما الغربيون فالمرجح أنهم يفضلون ابن الرومى ٠ وربما كان البحترى أجمل لغـة ، وأكثـر صقـلا لالفاظه ، ولكن ابن الرومى أكثر اخلاصا لنفسـه ، وأقل ميـلا للمواصفات التقليدية فى الشعر ٠

وفى مرثيته لابنه حـرارة شـعور وعمق احسـاس لا يمكن التفوق عليها ، وفى هجائه قدر من الاحتقار والازدراء الحقيقيين يعوضان قدرا من اقذاعه المفحش ٠

ويظهر فى وصفه قوة ملاحظة بارعة ، ويعطى بعض أوصافه تأثيرات حية بواسطة لمسات سريعة ٠

ويقول جست : « ولا يمكن انكار أدبه ، وقد يعجب المرء من براعته فى العثور على أشياء طريفة يقولها حتى فى مدائحه التى كثيرا ما يطيلها طولا كثيرا ٠

ومن خصائص شعره اللافتة للنظر اتصال الجدل فيه وتماسكه فى مقابل جدل بعض شـعراء العرب الآخرين فـى عصره والذين يقدمون أشياء واضحة ، ولكنها غير متصلة بعضها ببعض الا اتصالا طفيفـا ٠

والخاصة الاخرى التى نلاحظها جرأته فى صوغ تجاربه فى صورة موضوعات وألوان من الحوار يدخلها فى العقيدة وفى طرق التعبير التى قلما ترد فى شعر غيره من شعراء عصره ٠

ومن مختارات شعره :

جنة المحبين

أجنت لك الوصل اغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك اعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء الوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به ... أطرافهن قلوب القدم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الظل يضربه ... وأقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان
ثمار صدق اذا عاينت ظاهرها ... لكنها حين تبلو الطعم خطبان
بل حلوة مرة ، طورا يقال لها ... شهد وطورا يقول الناس ذيفان

* * *

ياليت شعرى وليت غير مجدية ... الا استراحة قلب وهو أسوان
لأى أمر مراد بالفتى جمعت ... تلك الفنون وضمتهن أفنان
تجاورت فى غصون لسن من شجر ... لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتى فى أكمتها ... نعم وبؤس وأفراح وأحزان
يبلو بها الله قوما كى يبين له ... ذو الطاعة البر ممن فيه عصيان
وما ابتلاهم لا عنات ولا عبث ... ولا لجهل بما تطويه أبطان
لكن ليثبت فى الاعناق حجته ... ويحسن العفو والرحمن رحمن

* * *

ومن عجائب ما يمنى الرجال به ... مستضعفات لنا منهن اقران
مناضلات بنبل لا تقوم له ... كتائب الشرك يزجيهن خاقان
من كل قاتله قتلى وآسرة ... أسرى وليس لها فى الارض اثمان

يولين مـا فيه اغـرام وآونـة | يولين ما فيـه للمشغوف سـلوان
ولا تدمن عـلى عهـد لمعتقـد | أني وهن كما شـبهن بسـتان
يميل طورا بحمل ثم يعدمه | ويكتسى ثم يلفى وهو عريان
حالا فحالا ، كذا النسوان قاطبة | نـواكث دينهن الدهـر أديـان

* * *

تغدو الفتاة لها خل وان غدرت | راحت ينافس فيها الخل خـلان
ما للحسان مسيئات بنـا ولنـا | الى المسيئات طول الدهر تحنان
فـان يكن بعهد قلـن منـددة | انا نسينا وفى ، النسوان نسيان
يكفى مطالبنـا بالذكـر ناهية | أن اسمنا الغالب المشهور نسوان
لا نكرم الذكر انا لم نسم به | ولا منحناه بل للذكـر ذكـران
فضل الرجال علينا ان شيمتهم | جـود وباس وأحـلام واذهان
وأن فيهم وفاء لا نقـوم بـه | ومن يكون مع النقصان رجحـان
صدقن ما شـئن لكنـا تضصنا | منهن عـين تلاقينا وادمـان
انكى واذكى حريقا فى جوانحنا | خلق من المـاء ، والالوان نيران
ماء ونار فقد غادرن كل فتى | لابسن وهو غزير الدمع حران
تخضل منهـن عـين فهى باكية | ويسـعر فـؤاد وهـو هيمـان

* * *

يا رب حسانة فيهن قد فعلت | سـوءا وقد تفعل الاسواء حسان
تصمى المحب وتكفى وهى شاكية | كالقوس تعمى الرمايا وهى مرنان
واصلت منها فتاة فـى خلائقها | غدر وفى خلقها روض وغدران
هيفاء تكسى فتبدو وهى مرهفة | خود تعرى فتبدو وهى ميـدان
ترتج أردافهـا والمتـن مندمج | والكشح مضطمر والبطن طيـان
ألوف عطر تذكى وهـى ذاكية | اذا أساءت جدار العطر أبدان

نمامة المسك تلقى وهـى نائية — فتابهـا بنميـم المسـك لقيـان
نعيـم كل نهـار من مجامرهـا — ويشمس الليل منها وهو ضحيان
كانهـا وعشـار الغد يشملها — شس عليها ضبابـات وأدجـان
شمس أطلت بليل لا نجوم له — الا نجوم لها فى البحر أثمـان
وتلبس الحلى مجعولا لهـا عوذا — لا زينـة ، بل بها عن ذاك غنيان
لله يـوم أرانيهـا وقـد لبست — فيه شبابا عليهـا منـه ريعـان
وقد ترددت على سربـال بهجتها — فرعا غذته الغوارى فهو فينان
جاءت تثنى وقد راح المراح بها — سكرى تغنى لها حسن واحسـان
كانهـا غصن لـدن بمروحـة — فيـه صمائـم هاجتهن أشـجان
اذا تمايل فـى ريـح تلاعبـه — ظلت طرابا لهـا سـجع وارنان

* * *

يا عـازلى أفيقا انهـا أبـدا — عندى جديد وان الخلق خلقان
لا تلحيانى واياها عـلى ضرعى — وزهوها ، فكلا الامرين ديـدان
انى ملكت فـلى بالـدق مسكنة — وملـكت فلهـا بالملك طغيـان
اذلاما كان أصفى نعيم العيش اذدعيت — نعـم تجاورنـا والدار نعمـان
اذ لا المنـازل أطـلال نسائلها — ولا القواطـين آرام وطـثران
ظلنا تقول وأشباه الحسان بها — « سقيا لعهدك » والاشباه أعيان
بانوا فبان جميل الصبر بعدهمو — فللدمع مـن العينـين عينـان
لى مذ نادا وجنة ربـا بمشربها — من عبرتى وفـم ما عشت ظمآن

الشكوى من الزمان والفقـر وسوء الحظ فى الدنيا :

يقول من أبيات كتب بها الى القاسم بن عبيد الله : (ديوانـه ٣٢٢/١) :

ثم اشـكو اليك جـدبى والمـر — عى مريع ، والماء صاف شروب

ألك الامر والسياسة ، واسم المعتفيك الصعلوك ، والقرضوب
ثوبي الرث ، والثياب طراء وطعامي برغمي المجشوب
وخواني ملكك وقصاعي وبرامي ، فكلها مشعوب
وجفاني مصدوعة ، وجراري وقلالي ، فكلها مثقوب
ومحلى عارية وجدارا ت بيتي ، فكلها منقوب
ومقيلي في الصيف سخن بلا خيش فعظمي يكاد منه يذوب
ومبيتي بلا ضجيج لدى القصر ، وللوغد شادن رعبوب
ولي الخف ذو الرقاع أو النعل ، وللعبد سابح يعبوب
وهمومي محدثاتي ، وبستاني شوك ثماره الخروب
عكست أمرى النحوس فعنزى أبدا حائل ، وتيسي حلوب

ويشكو امتهان كرامته وانسانيته لوقوفه طويلا أمام أبواب أصحاب الجاه والسلطان ، ويسوءه أن يضطر الى الوقوف يحجبه عن صاحبه حاجب ثقيل ، يعامله معاملة غير كريمة ، فيحقر نفسه ، ويتولى غاضبا يلعن الحياة والناس ، ويلعن الزمن الذى اضطره الى هذا الموقف :

كم نسام الاذى كانا كلاب كم الى كم يكون هذا العتاب
كلما جئت قاصدا لسلام ردني عن لقائك الحجاب
ما كذا يفعل الكرام ولا ترضى بهذا في مثلي الاواب
أنا حر ، وأنت من سادة الا حراز أهل الحجا المصاحي اللباب
وقبيح بعد الطلاقة والبشر بذى المجد نبوة واحتجاب
كل ملك يفنى وتبقى على الدهر لاهل المكارم الاحساب

شكواه مرور العمر : (عند بلوغه الخمسين)

فكرت في خمسين عاما خلت كانت أمامي ثم خلفتها
تبينت لي اذ تذنبتها ولم تبين اذ تانفتها

أجهلتها اذ هـي موفـورة ... ثـم قضـت عنى فعرفتهـا
ففرحـة الموهـوب اعلمتها ... ونزهـة المسلوب أردفتهـا
لـو أن عمـرى مائـة هـدنى ... تذكـرى أنـى نصفتهـا
فكيف والآثـار قـد أصبحـت ... ترجـف بالعمـر اذ قفتهـا
كـد حيـاة كـان أنفقتـه ... علـى تصاريـف تصرفتهـا
لا عـذر لى فى أسـفى بعدهـا ... علـى العطايا ، عفتها ، عفتهـا

وقال يشكو حالـه : (ديوانه ص ٢١٣)

دع اللوم ان اللوم عون النوائب ... ولا تتجاوز فيـه حـد المعاتب
فما كل من حط الرحال بمخفق ... ولا كل من شد الرحال بكاسب
وفى السعى كيس والنفوس نفائس ... وليس بكيس بيعها بالرغـائب
وما زال مامول البقـاء مفضلا ... على الملك والارباح دون الحرائب
حضضت على حطبى لنارى فلا تدع ... ـلك الخير ـ تحذيرى شرور المحاطب
وأنكرت اشفاقى وليس بمانعى ... طلابى ان أبغـى طلاب المكاسب
ومن يلق مالاقيت فى كل مجتنى ... من الشوك يزهد فى الثمار الاطايب
اذ أقتنى الاسفار ماكره الغنى ... الى وأغرانـى برفض المطـالب
فاصبحت فى الاثراء أزهد زاهد ... وان كنت فى الاثراء أرغب راغب
حريصا، جبانا، أشتهى ثم انتهى ... بلحظى جناب الرزق فعل المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه ... فقير أتاه الفقر من كل جانب
ولمـا دعانـى للمثوبـة سـيد ... يرى المدح عارا قبل بذل المثاوب
تنازعنـى رغب ورهب كلاهما ... قوى، وأعيانى اطـلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبـة فى رغيبة ... وأخرت رجلا رهبـة للمعاطب
اخاف على نفسى وارجو مفازها ... وأسـتار غيب الله دون العواقب

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي؟ ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبت اعتساف الارض ذات المناكب
وصبري على الاقتار أيسر محملا على من التغرير بعد التجارب
لقيت من البر التباريح بعدما لقيت من البحر أبيضاض الذوائب
سقيت على ري به ألف مطرة شغفت لبغضيها بحب المجادب
ولم أسقها بل ساقها لمكيدتي تحايل دهر جد بي كالملاعب
الى الله أشكو سخف دهري فانه يعابثني مذ كنت غير مطايب
أبى أن يغيث الارض حتى اذا ارتمت برحلي أتاها بالغيوث السواكب
سقى الارض من أجلي فاضحت مزلة تمايل صاحيها تمايل شارب
لتعويق سيري أو دحوض مطيتي واخصاب مزور عن المجد ناكب
فملت الى خان مرث بناؤه مميل غريق الثوب لهفان لاعب
فلم ألق فيه مستراحا لمتعب ولا نزلا • أبان ذاك لساغب
فما زلت في خوف وجوع ووحشة وفي سهر يستغرق الليل واصب
يؤرقني سقف كاني تحته من الوكف تحت المدجنات الهواضب
تراه اذا ما الطين أثقل متنه تصر نواحيه صرير الجنادب
وكم خان سفر خان فانقض فوقهم كما انقض صقر الدجن فوق الارانب
ولم أنس مالاقيت أيام صحوة من القر فيه والثلوج الاشاهب
ومازال ضاحي البر يضرب أهله بسوطي عذاب جامد بعد ذائب
فان فاته قطر وثلج فانه رهين بساف تارة أو بحاصب
فذاك بلاء البر عندي شائيا وكم لي من صيف به ذي مثالب
ألا رب نار بالفضاء اصطليتها من الضح يودي لفحها بالحواجب
اذا أظلت البيداء تطفو آكامها وترسب في غمر من الآل ناصب
فدع عنك ذكر البر أني رأيته لمن خاف هول البحر شر المهارب

كلا نزليه ، صيفه وشتاؤه خلاف لما أهواه ، غير مصاقب
لهاث مميت تحت بيضاء سخنة وری مقيت ، تحت أسعم صائب
يجف اذا ما أصبح الريق عاصبا ويغدق لى، والريق ليس بعاصب
ويمنع منى الماء واللوح جاهد ويغرقنى والرى رطب المحالب
وما زال يبغينى الحتوف مواريا يحوم على قتلى ، وغير موارب
فطورا يغادينى بلص مصلت وطورا يمسينى بورد الشوارب
الى أن وقانى الله محذور شره بعزته ، والله اغلب غالب
فأفلت من ذؤبانه وأسوده وحرابه أفلات أتوب تائب
وأما بلاء البحر عندى فانه طوانى على روع من الروح واقب
ولو ثاب عقلى لم ادع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير ثائب
ولم لا ولو القيت فيه وصخرة لو افيت منه القعر اول راسب
ولم أتعلم قط من ذى سباحة سوى الغوص، والمضعوف غير مغالب
فايسر اشفاقى من الماء أننى أمر به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بامنيه على نفس راكب
أظل اذا هزته ريح ولألأت له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كانى أرى فيهن فرسان بهمة يليحون نحوى بالسيوف القواضب

وابن الرومى أمام هموم دهره وصروفه مرغم على الصبر ، ولا يملك غيره :

أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب فكيف اذا لم يكن عنه مذهب؟
هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه كالضرورة أوجب
فشد امرو بالصبر كفا فانه له عصمة أسبابها لا تقضب
هو المهرب المنجى لمن أحدقت به مكاره دهر ليس منهن مهرب
وقد يتظنى الناس ان أساهم وصبرهم فيهم طباع مركب
وأنهما ليسا كشىء مصرف يصرفه ذو نكبة حين ينكب

فان شـاء أن يأسى أطاع له الاسى ... وان شاء صبراجاءه الصبر يطلب
يصرفـه المختار منـا فتـارة ... يراد فياتـي أو يـذاد فيذهب
اذا احتج محتج على النفس لم تكد ... على قـدر يمنـى لهـا تتعتب
وساعدها الصبر الجميل فاقبلت ... اليها لـه طـوعا جنائب تجنب
وان هو مناها الاباطيل لم تزل ... تقابـل بالعتب القضـاء وتغلب
فتضحى جزوعا ان أصابت مصيبة ... وتمسى هلوعا ان تعـذر مطلب
فلا يعذرن التارك الصبر نفسه ... بأن قيـل ان الصبر لا يتكسب

وربما اتخذ ابن الرومى من الشكوى مطلعا لقصائده تحل منهـا محل ذكر الاطلال ، أو النسيب فى القصائد التقليدية • وقد يربط بين الموضوعين رباط نفسى واحد • وقد نهـج المتنبى من بعـده منهجه • ويمزج أحيانا بين الشكوى والنسيب • قال فى الحسن ابن عبيد الله بن سليمان :

ما أنسى لا أنسى هندا آخر الحقب ... على اختلاف صروف الدهر والعقب
يـوم انتحتنـى بسهميها مسالة ... تأتى جديداتها من أوجه اللعب
وعيرتنى بشيب الراس ضاحكة ... من ضاحك فيه أبكانى وأضحك بى
قدكنت تسقين خدى مرة وفمى ... يا هند من وشل طورا ومن ثغب
يغـل ريقـك أنيابـى وآونـة ... يستن دمعك فى خـدى كالسرب
فالآن أهـزأ بى شيبى وأوبقنى ... عيبى ، وان كنت لم أوبق ولم أعب
بالجلد أنداب دهر لست أنكرها ... وما بعرضى لعمـر الله من ندب
يا ظبية من ظباء كان مكنسها ... فى ظل ذى ثمر منى وذى هدب
فيئى اليك فقد هبت مصوحـة ... أضحى لها مجتنى لهو كمحتطب
سقت نبتتى ثم عادت بعد تهلمنى ... حتى رزحت رزوح العود ذى الجلب

وأعلت الرأس لوني دهره فغدا ... قد حال عن دهمة كانت الى شهب
والدهر يبلى الفتى منحيثينشئه ... حتى تكر عليه ليلة القرب
فى هدنة الدهر كاف من وقائعه ... والعمر أقدح مبراة من الوصب
قفيت ذلك من قولى الى فنق ... تلهو بمكتحل طورا ومختصب
حوراء فى وطف ، قنواء فى ذلف ... لقاء فى هيف ، عجزاء فى قبب
كالشمس ماسفرت،والبدرماانتقبت ... ناهيك من مسفر حسنا ومنتقب
جاءت تدافع فى وشى لها حسن ... تدافع الماء فى وشى من الحبب

شؤمه وهجاؤه :

وقد ترامى الناس اتهامه بالشؤم لعزوفه عنهم وانكبابه داخل بيته لا يخرج الا لماما ، ويتردد فى عزمه كلفا فجأة أمر أو وقعت عينه على ما يثير الطيرة فى نفسه • ودافع عن نفسه الشؤم الذى أراد أعداؤه وكائدوه الصاقه به فقال :

كذب الزاعمون أنى مشئو ... م ومانوا ، والثالب المثلوب
كذب الزاعمون أنى مشئو ... م كل زعم مكذب مكذوب
بل لى اليمن لا محالة كالصبـ ... ـح اذا لاح ضوؤه المشبوب

وقد أوغر هذا الاتهام صدره ، فأضاف سببا جديدا الى أسباب كثيرة دفعته دفعا الى الهجاء والى أن يقذع فيه ، وهو فى نفسه ليس شريرا لكنه خير يحب الناس، ويألفهم انما الناس يدفعونه الى الشر والى هجر القوم •

من اناس قد أوسعونى سبا ... بعد عرفانهم من المسبوب
وأرانى مسعرا لهم الحر ... ب ، وحربى اذا اعتزمت حروب

ولما ذاك أنني الرجل الشر   ير منى الغنا ومنى الوثوب
بل لدى الانصاف يشفعه الاحسـ   ـان ما قارب الالد الشغوب
عندى العدل كله لصديقى   وعلى ظالمى يثور العكوب

وهكذا عاش ابن الرومى معذبا بحاسيته ، ورهافة روحه ، وتضيق الحياة عليه ، وعدم فهم الناس ، وهو الشاعر المبدع المصور ، يستخدم اللفظ فى يسر ، ويسلسل له القول دون تصنع ، ويرسم فيجرى فى ملامح الصورة ماء الحياة ، ويعمد الى الامتناع ، فيشيع فى صوره صنوفا من المتعة ، ويطيع الجمال فينجذ باليه ويتعقبه فى كل جميل الصورة أو الطعم ، وهو يستمتع بحواسه جميعا لا يعطل واحدة منها • وعجيب لهذا الشاعر المفزع من الحياة ، المحب لها الراغب فى المتعة بها أشد الرغب ، الراهب للخوف أشد الرهب •

أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين الكندى

(ولد سنة ٣٠٣ هـ - وقتل سنة ٣٥٤)

ولد بالكوفة عام ثلاث وثلاثمائة قرب محلة تدعى بمحلة كندة ، وينسب أحيانا اليها · قال أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصبهاني : حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف بيت بين رواء ونساج » ·

وروى الخطيب البغدادى عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوى الزيدى قوله : « كان المتنبي وهو صبي ينزل في جوارى بالكوفة ، وكان يعرف أبوه بعبدان السقاء ·· يسقى لنا ·· ولاهل المحلة · وكان عبدان والد المتنبي يذكر أنه من جعفى ، وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من حلماء النساء الكوفيات (٢) » · ونقل هذا الخبر نفسه صاحب الصبح المنبى (٣) ·

وقال الثعالبى : « ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلثمائة (٤) » ·

---

(١) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ص ٦ · للاصبهاني بتحقيق ابن عاشور طبع تونس ·

(٢) ذكرى أبي الطيب ص ٣١ نقلا عن الخطيب البغدادى ·

(٣) الصبح المنبى ص

(٤) أبو الطيب وما له وما عليه ص ٢١ طبع مكتبة الحسين التجارية ·

ولم يذكر الاصبهانى شيئا عن والده ، وكان أقرب الرواة والعلماء اليه ، لانه عاصره وأخذ عن بعض رفاقه كابن جنى ، بل وعاش فى بلاط عضد الدولة فى شيراز • وربما قيل أنه تغاضى عن ذكر والده لحقارته • لكن ذلك لا يمكن ان يفهم من سياق القول ، فانه يستطرد بعد ذلك ذكر مولده فى محلة كندة التى كانت سكنا للسقائين والنساجين (٥) •

« واختلف الى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس العلوية شعرا ولغة وأعرابا ، فنشأ فى خير حاضره ، وقال الشعر صبيا » •

ولم يكن ليلحق بكتاب فيه أولاد أشراف الكوفة وهو وضيع النسب وابن سقاء • وحكاية نسبته الى كندة القبيلة اليمنية ، أو كندة الحلة المعروفة التى تنزلها كندة بالكوفة وسكنها كثير من الحشوة ، والعمال الصناع من السقائين والنساج يشوبها شىء من اللبس •

وقد ذكر البديعى أن ابن لنكك البصرى هجاه لما عرف بتألب شعراء بغداد على المتنبى ولم يولهم اهتماما ولا عبأ بهم • قال : ولما بلغ الحسن بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبى من وقيعة شعراء العراق فيه واستخفافهم به كقولهم فيه :

---

(٥) الواضح ص ٦ •

أى فضــل لشاعــر يطلب الفضـــــل مــن النــاس بـكرة وعشيا
عاش حينـا يبيع بالكوفـة المــــاء وحينـا يبيع مـاء المحيـا

وكان ابن لنكك حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجيا اياه ، زاعما أن أباه كان يسقى المــاء بالكوفة ٠ فشمت به وقال (١) :

قولوا لاهل زمان لا خـلاق لهم ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتموا المتنبى فـوق منيتـه فزوجـوه برغــم أمهاتــكم
لكن بغداد جـاد الغيث ساكنها نعالهم فى قفا السقاء تزدحـم

وهاجمه شعراء كثيرون فى نسبه ، سواء من ناحية أبيه ، أو من ناحية قبيلته ، وروى عن أبى فراس قوله له فى مجلس سيف الدولة : ومن أنت يا دعى كندة ؟ ٠

ولا أخرج هذا كله عن حد السباب الذى لا يرقى الى حقيقة ، انما هو عن حفيظة وحسد لمكانته واقتداره على الكلام ٠ وأحس هو بما يكيده الشعراء ويرمونه به من هذا الجانب ، فرد عليهم بقولـــه :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا حث والنجـل بعض مـن نجله
وانمـا يذكـر الجـدود لهـم من نفـــروه وأنفـدوا حيلـه

ولم يكن المتنبى ليذكر آباءه وأجداده لو لم يثره الحاقدون والحاسدون ، وما كان لشاعر أن يذكر أباه وأمه اللهم الا القليل ممن كان ذكر الآباء والامهات ضروريا عندهم فـى الفخـر أو المهاجاة ٠

(١) الصبح المنبى ص ١٤٥ ٠

ولم يكن أبو نواس ليذكر أباه وأمه ، ولا كان أبو تمام أو البحترى ممن ذكروا آباءهم وأمهاتهم ، وليس لنا أن نقول كما قال الدكتور طه حسين (٢) بأن اهمال أبى نواس ذكر أبيه وأمه من هوان ، وأن هذا الهوان قد عقد الشاعر أو أضر بـه ، ومـا كان أبو نواس ليهتم بقلة شأن أبيه ولا يضعه مكانة أمه جلبان رغم أن الشعراء هاجموه بها وعيروه ٠

وما كان أبو تمام ذاكرا لابيه وأمه فى الشعر رغم أنه أوخذ فى هذا واتهم بنسبه كذلك من أعدائه والكائدين له ٠

وكذلك كان البحترى ٠ وقليل من الشعراء كما قلت ذكروا الآباء والامهات وليسوا حجـة عـلى الكثيرين ممن لـم يذكـروا آباءهم وأجدادهم ٠

ونخرج من هذا البيت الذى نشـأ فيه الشاعر ، سواء أكان بيتا أصيل النسب فى كندة من ذوائبها أو كان من عامتها ٠ وليس شرطا أن يكون النابهون من ذوى الانساب ، انما هى دعوى عربية وفخفخة تشادق بها الناس ، ولم تكن لتعنى عندنا أمرا ذا خطـر ، والاسلام سوى بين الناس ، والنظرة الانسانية لا ترى فضلا لزيد على عمرو فى الدم فلم تعد فى نظر العقل للدماء زرقتها أو حمرتها شأن فى الفضل انما الفضل بالعمل والكسب ٠ كما قال شاعرنا :

---

(٢) راجع : مع المتنبى ص ١٤ ٠

وليفخر الفخر اذ عـلوت بـه مرتديـا خـيره ومنتعلـه
أنا الذى بـين الالـه بـه الـ أقـدار والمـرء حيثما جعلـه
جوهـرة تفـرح الشراف بهـا وغصـة لا تسيغهـا السفلـه

لقد ولد أبو الطيب اذا طفلا ذكيا موهوبا ، وعرف فيه والده هذه الموهبة ، فلم يرد أن تظل مدفونـة ، بل أراد أن يمهد لهـا الطريق كي تنمو ، ولـم يدخر وسـعا فى أن يوفر لابنـه العلم والمعرفة ، وأن يمهد له الصقل والفصاحة ، فبعث به الى البادية وفى البادية تخرج فصيحا لسنا ٠

وأضاف الى هذا التلقين ، وتلك التربية البدوية ، علما ، فى كتاتيب الكوفـة أولا ، ولدى مجالس علمائها ثانيا ٠

يقول الثعالبى : « وأن أباه سافر الى بلاد الشام ، فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه فى المكاتب ، ويردده فى القبائل ، ومخايله نواطق بالحسنى عنـه ، وضوامن النجاح فيه ، حتى توفى أبـوه وقـد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع (١) » ٠

وكانت الكوفة آنذاك تقع تحت سيطرة العلويـة أو الفكـر الشيعى عامة ، ولا شك أنه تأثر فى صبـاه ببعض معلمى الشيعة وشيوخهم ، والاصبهانى يقول : « ٠٠ فكان يتعلم دروس العلوية

---

(١) أبو الطيب ما له وما عليه ، ص ٣٢ ٠

شعرا ولغـة واعرابـا ، فنشـأ في خـير حاضره ، وقـال الشعر صبيـا (١) » .

ولا ندرى سببا لخروجه من الكوفة وهـو صبى ، والثعالبى يقول أنه غادرها مع أبيه الى بلاد الشام طلبا للعلم . وهناك من يقول أنه غادرها فـرارا من الثـورة القرمطية ، ولكنى أشك في هذا الخبر الاخير (٢) .

وقد كان الشاعر في صباه طلعة حافظا ، تروى عن ذكائه ، وقدرته على حفظ الاخبار والنوادر .

وقد كان لنبوغـه أولا ، وكبريائه ثانيـة ، واعتقاده بعض الآراء العلوية أو القرمطية ، ثالثا أثر في تحامل كثير من الناس عليـه .

قال الاصبهاني : « وهو في الجملة خبيث الاعتقاد ، وكان في صغره وقع الى واحـد يكنى أبـا الفضل بالكوفـة من المتفلسفة ، فهرسه ، وأضله كما ضل (٣) » .

وأبو الفضل هذا شـيخ قرمطـى ، قـال بعض الباحثين أن المتنبى تأثر بآرائه وأفكاره وأنه ربما عناه في قوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

(١) الواضـح ، ص ٦ .
(٢) راجع : ذكرى أبي الطيب لعبد الوهاب عزام .
(٣) الواضـــح ، ص ٧ .

وتتبع الباحثون هذه الاتجاهــات العلوية فى شــعره ، وفى صباه خاصة • وفى قصائده التى مــدح بهــا بعض العلوية فــى الشــام •

وللمتنبى الى الشام سفرتان سفرة فى الصبا الاول ، وهو لم يبلغ الحلم أو كاد ، وقد صحبه فيها والده ، وسفرة فى شبابه فى العشرين من عمره أو بعدها بقليل حــوالى سنة ٣٢٢ ، وقد قــدم اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلاثمائة كما يقول البديعى (٢)، وكان قد نبت شعر عذاره ، وأرسل شعر رأسه الى ما بعد شحمتى أذنيــــه •

ولسفرته هذه الثانية بالشام أثر خطــير فى حياته وشعره ، فقد ذكر الرواة أنه كان شديد الاعتداد بنفسه وأدبه ، وأنه لهذا الاعتداد اتهم بادعاء النبوة ، ولهذا الاتهام أسباب كثيرة فى حياته وخلقه وشعره ، منها أنه كان منذ صباه فتى ثائرا ، تعلق ببعض الافكار القرمطية أو العلوية التى ترى الخروج المسلح على الدولة ، وأنه كان يرى تغلب عناصر غير عربية على الخلافــة ، وأن هــذه الدولة لابد وأن تعود الى العرب ، وأن الخدم أو عبيد القصر ممن نزلوا الامــارة أو ولايــة بعض أقاليم الدولــة أمثــال كافــور ، والاخشيد أو الخــدم الذين سيطروا على الخلافة فى بغداد أمثال

---

(٢) الصبح المنبى ، ص ٥٢ •

مؤنس أو البويهيين من الفرس ممن كان لهم السلطان الحقيقى ٠ كل هؤلاء ينبغي أن يجلوا بالسيف وأن تعود الدولة عربية ، وأن يعود العرب للسيطرة عليها وتولى زمامها ٠

ولا شك أن اندفاع الصبا ، وهوس الشباب قد خيلا له أشياء كثيرة ، خاصة وأنه امتلك ناصية البيان ، فليته ارتأى أن يتخذ من مقدرته الشعرية وسيلة الى أن يجمع من حوله الجمع ، ليصل الى غايته ، فيثور بمن يتجمع حوله من مؤيديه ثورة قد يقتنص بها أرضا بالشام تكون ركيزة له ، وموطنا يتحصن به ليثب مرة أخرى ٠٠ وقد لا يستبعد أن يتخذ من ذكائه وسيلة للعب بعقول البسطاء من عامة الاعراب ، فيدعى النبوة أو شيئا قريبا منها ٠

والاخبار تطرد فى نبوءته ، منها ما يؤكدها ، ويؤكد ادعاءه بعض المعجزات ٠ وقد روى المعرى فى رسالة الغفران بعض أخباره تلك ، ورواها البديعى ، بينما أعرض عن ذكرها كثيرون كالاصبهانى والثعالبى ٠ واكتفى الاخير بأن صور الامر وكأنه محاولة للخروج على الخلافة أو الثورة لا ادعاء للنبوة ، فقال :

« وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا الى بيعته قوما من رائشى نبلة ، على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره الى والى البلدة٠ ورفع اليه ماهم به من الخروج ، فأمر بحبسه وتقييده » (١) ٠

---

(١) أبو الطيب المتنبى ما له وما عليه ، ص ٣٢ وراجع الصبح المنبى ص ٥٩ ٠

وتتبع أخباره يؤكد محاولته الخروج مرتين ، وقيده وحبسه مرتين ، فأما المرة الاولى فهى فـــى زمن متقدم من مبكـــر شبابه ، وقبل أن يذهب الى اللاذقية ، ولعل ذلك كان فى باديـــة العمر أو قريب منها ، وقد قال فيها قصيدته الدالية المشهورة :

أيا خـــدد الله ورد الخـــدود　　وقد قـــدود الحسان القـــدود

وفيها يستعطف الوالى الذى قيده وحبسه فيقول :

امـــالك رقـــى ، ومـــن شـــانه　　هبـــات اللجـــين وعنق العبيـــد
دعوتك عنـــد انقطاع الرجـــا　　ء ، والموت منى كحبـــل الوريد
دعوتك لمـــا بشرانى البـــلى　　واوهن رجـــلى ثقـــل الحديـــد

يقـــــول :

وقد كان مشيهما فـــى النعـــال　　فقد صار مشيهما فى القيـــود
وكنت من الناس فـــى محفـــل　　فها أنا فى محفـــل مـــن قـــرود
تعجل فـــى وجـــوب الحـــدود　　وحـــدى قبـــل وجوب السجود

ويشير فى البيت الاخير الى صغر سنه مبالغا حتى أنه لا يقع عليه الحـــد ، اذ لا يقع عليه التكليف بعد بـــأداة الصلاة • قـــال الثعالبى : « أى انما تجب الحدود على البالغ وأنا صبى لم تجب على الصلاة بعد • ويجوز أن يكون قد صغر سنه وأمـــر نفسه عند الوالى ، لان من كان صبيا لم يظن به اجتماع الناس اليه للشقاق والخلاف • وكان خروجه هذه المرة فى بنى عـــدى ، وقبض عليه

---

(٢) المصدر نفســـه •

ابن على الهاشمى فى قرية كوتكين (١) • وله أبيات أخرى ذكر فيها السجن ، وخاطب من اسمه أبو دلف بقوله :

أهون بطول الثواء والتلف … والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بى … والجوع يرضى الاسود بالجيف
كن أيها السجن كيف شئت فقد … وطئت للموت نفس مقترف
لو كان سكناى فيك منقصة … لم يكن الدر ساكن الصدف

ولا ندرى متى خرج مرة أخرى وسجن ثانية ، لكن أخبارا تقول أنه خرج فى بادية الشام ، وانه كان هذه المرة الثانية فى بنى كلب وادعى أنه علوى ، وربما ادعى الامامة كذلك أو أنه المهدى أو شيئا من هذا القبيل فتبعه منهم خلق كثير • وقيل أن لؤلؤة أمير حمص من قبل الاخشيد فى مصر قبض عليه وسجنه عامين ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بألا يعود الى دعوته •

ولا ندرى ماذا قال فى هذا السجن الثانى ، فلم يهتم بذكره ، ولم تفصل الاخبار فى ذلك ولكنا قد نلتمس بعض الضوء فيما يروى عن تنبئه مرة ثانية فيما فسر به أنصاره هذا الخبر حكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت أبا الطيب يقول : انما لقبت بالمتنبى لقولى :

أنا ترب الندى ورب القوافى … وسهام العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها اللـ … ـه غريب كصالح فى ثمود

(١) الصبح المنبى ، ص ٥٩ •

وفى هذه القصيدة يقول :

مـا مقامـى بارض نخـلة الا ... كمقـام المسيح بين اليهـود

ولا شك أن مرحلة حياته بالشام قبل لقائه بدر بن عمار ، ثم سيف الدولة كانت مرحلة قلق واضطراب ، وأن أخباره فيهـا نادرة غير بينة ، مختلطة أحيانا ، وزادهـا هو غموضا بالسكوت عنها • وربما كان سكوته عنها ندما ، أو رغبة فى أن تمحى من عمره مرحلة لا يريد ذكرها ، لالمهـا فى نفسه ، أو لمـا لاقاه فيها من عنت ، أو تشرد ومعاناة •

واذا كان المتنبى قد عانى فـى هـذه المرحلة آلام السجن ، واضطهاده الولاة ، وتهددهم اياه وتأكيدهم عليه بعدم اللجوء الى ما أدعى من نبوة أو ما لجأ اليه من جمع الناس من حولـه للثورة ، فان آثارها باقية فى شعره ، صادقة التعبـير عن ثورته ورفضه ، صادقة التعبير عن ميله الى القتل والحـرب والضرب • وقد ذكر الثعالبى أن حب الولاية ما زال يدور فى رأسه ، فيظهر ما يضمر من كامن وسواسـه فـى الخـروج على السلطان ، والاسـتظهار بالشجعان ، والاسـتيلاء على بعض الاطـراف • ويسـتكثر مـن التصريح بذلك فى مثل قوله :

لقد تصبرت حتـى لات مصطبر ... فالآن أقحـم حتى لات مقتحـم
لاتركن وجـوه الخـيل سـاهمة ... والحرب أقوم من ساق على قـدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها ... حتى كأن بها ضربا على اللمـم
قد كلمتها العوالى فهى كالحـة ... كأنما الصاب مذرور على اللجـم
بكل منصلت مـا زال منتظرى ... حتى أدلت له من دولة الخـدم

والى جانب هذا الهوس بالولاية ، والرغبة المتحرقة الى القتل والاستيلاء بالقوة على البلاد فانه كان يشعر بالمرارة لانه يضطر الى التكسب بالشعر ، والى أن يقصد من لا يستحق منه ليبيع الشعر في سوق الكساد ·

قال الاصبهانى : « أنه فـى تطوافه فـى أطراف الشـام ، واستقرائه بلاد العرب ، قاسى الضر وسوء الحال ونزارة الكسب ، وحقارة ما وصل اليـه بشعره حتى أنـه « أخبرنـى أبو الحسن الطرائفى ببغداد ، وكان لقـى المتنبى دفعـات فى حـال عسره ويسره ـ ان المتنبى مدح بدون العشرة والخمسة دنانير (١) » ·

وكان كثير الرحلة ، أما فاتكا ، أو قاصدا ممدوحا ، يعـود منه بالنذر اليسير · قال الثعالبى (٢) : « وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة ، أبعد من آماله ، ويمشى فى مناكب الارض ويطوى المناهل والمراحـل ، ولا زاد الا من ضرب الحـراب على صفحـة المحـراب (٣) ، ولا مطية الا الخف أو النعل كما قال :

لا ناقتـي تقبـل الـرديف ولا ... بالسوط يـوم الرهـان أجهدها
شراكها كورهـا ومشفرهـا ... زمامها والشـموع مقودهـا

وكما قال فى الاعتداد بالسفر ، والقدرة على الرحلة :

---

(١) الواضـح ، ص ٩ ·
(٢) أبو الطيب ، ص ٣٥ ·
(٣) المحـراب : العنـق ·

ومهمــة جبتــه على قدمــى   تعجـز عنه العرامس الذلل

قال الثعالبى : « وكان قبــل سيف الدولــة يمــدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركى والعندليب » • ويحكى أن عليا ابن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته فيه التى أولهــا :

بأبى الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلابيــا

ومنهـــا :

حال متى علم ابن منصور بها   جـاء الزمان الى منهـا تائبــا

الا دينارا واحدا ، فسميت الدينارية •

وقال الاصبهانى : « وأخبرنى الحسن الطرائفى قال : سمعت المتنبى يقول : أول شعر قلته وابيضت أيامى بعده قولى :

انا لائمى ان كنت وقت اللوائم   علمت بما بــى بين تلك المعالم

فانى أعطيت بها بدمشق مائة دينار (٦) • »

وذكر فى الديوا نأن القصيدة فى الامير أبى محمد الحسن ابن عبد الله بن طفج الاخشيد •

وقد حق لابى الطيب بعد هذا أن يضجر وأن يذم هذه الحال التى اضطرته الى أن يبيع الشعر فى سوق الكساد • يقول :

---

(٤) العرامس : النوق الشديدة ، والذلل جمع ذلول وهى السلسة القياد •

(٥) أبو الطيب ، ص ٣٦ •

(٦) الواضـــح ، ص ٩ •

الى كـم ذا التخلف والتوانـي وكم هذا التمادى فى التمـادى
وشغل النفس فـي طلب المعالى ببيع الشعر فى سـوق الكساد

وامتدت هذه المرحلة بالشام خمسة عشر عامـا يذرع فيهـا البلاد شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، تراه فى بادية الشام وحمص حينا ، ثم فى اللاذقية أحيانا ، ويعود الى طبرية فدمشق فالرملة ، فطرابلس ، فانطاكية • يلقى من الناس ألوانـا ، من القـادة ، والولاة والكتاب ، وأمراء الجيوش ، وزعمـاء القبائل ، وشيوخ العشائر ، وكلا يمدح ، وكل يعطى على قدر مروءتـه أو ثرائـه أو مكانته •

وخلفت هذه المرحلة فى شعر المتنبى كثـيرا من مظاهر حياته وحركاته ، ومـن مكامن أحاسيسه وانطباعاته ، ومن آرائـه فى الحياة والناس •

لقد كان فى أول هذه المرحلة ثائرا ، مزيدا ، مرعدا ، يقوده هوس الشباب وخيلاؤه وتحفزه أوهام الصبى ، ويدفعـه تيـاره الصاخب الجارف ، فشعره يهدر ، ويتوعد • فيه القتال ، والقتل ، ووقع الرماح ، وصليل السيوف ، وغبار الكـر والفـر ، ووقع الخيل ، ورؤى الدم المراق ••• وفيها الهواجس ، وسـوء الظن والشعور بالعداء ، والرغبة فى الاعتداء •

ثم تتغير هـذه النغمة بعد السـجن ، وتتلون بتلك الالوان القاتمة ، ويكثر من الحديث عن الاعداء والحسـاد ، والكيـد ،

ويتخوف الطريق ، وهو المقدام ، ولكنه يشعر بأن العيون ترصده، والكائدين يدبرون له في كل خطوة أمرا ۰ وهو ينظر اليهم نظرة تعالى وازدراء ، يقول :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن	يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وانما نحن فـي جيـل سواسية	أخنى على الحر من سقم على بدن
حولى بـكل مـكان منهـم خلق	تخطى اذاجئت فياستفهامها بمن
لا أقتـرى بلدا الا عـلى غـرر	ولا أمر بخـلق غـير مضطغـن
ولا أعاشر من أملاكهـم أحـدا	الا أحق بضرب الرأس من وثن
انـى لاعذرهـم مما أعنفهـم	حتى اعنف نفسى فيهـم وأنـى

ويقول فيهـــا :

قد هون الصبر عندى كل نازلة	ولين العزم حـد المركب الخشن

وقال عن نفسه :

تغرب لا مستعظما غـير نفسه	ولا قابلا الا لخالقـه حكمـــا
ولا سـالكا الا فـؤاد عجاجـه	ولا واجـدا الا لمكرمـة طعمـا
يقولون لى ما أنت ؟ فيكل بلدة	وما تبتغى؟ ماابتغى جلأنيسمى
كـأن بنيهـم عالمـون بأننـى	جلوب اليهـم من معادنه اليتما

ويقول في هذه المرحلة ميميته الشهيرة التي يأسى فيهـا لانه صاحب همـة ، وعبقرية ، ولكن همتـه لا تبلغ بـه مـا يريد ، وعبقريته مهانة ، لا يقدرها أحد ، ويحز هذا في نفسه ، ولا أشد من أن يشعر العبقرى بأنه مهدر في قومه وبين عشيرته ، يقول :

فـؤاد مـا تسليه المـدام	وعمر مثل مـا يهب اللئـام
ودهـر ناسـه نـاس صغـار	وان كانت لهـم جثث ضخـام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أهو شعور بالغربة اذن ؟ لان الشاعر لم يوفق بين آماله وواقعه ، ولانه فشل فيما حاول من ثورة ، ولانه يشعر بالامتياز ولا يجد من يقدره حق قدره · بل لقد انقلب الامر عليه ، فصار ينظر اليه فى كل مكان يذهب اليه نظرتين نظرة العداء ، والريب والحسد من جانب الكثرة · والشعراء من حوله مقرون به يذمونه ويسلقونه بألسنة حداد :

انى وان لمت حاسدى فما أنكر انى عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قدم

ويقول :

ارى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقالوا ان المتنبى كان يقول ولا يفعل · ولو لم يفعل ففيم هذه الاخبار ، وفيم سجنه ، لعله لم يبلغ من الفعل النجح ، أو لعل فعله كان على قدر ضئيل من الاثر ، لكنه هم على أية حال ، ودعا الناس اليه وصدقه الناس · وانه ارتحل وضاق بالبقاء والاستقرار ، وقطع الفيافى والقفاز بحثا وراء غايته لعله أن يجد فرصة ، أو تسنح له بادرة يستغلها أو يعثر على من يقدر فيه نبوغه ·

كذلك فان فى هذه المرحلة اختمرت فلسفة المتنبى ، ونضج فكره ، وبدت آثار علمه الذى اكتسب من قبل ، وفى هذه المرحلة

قصائد فيها آثار فكر تشاؤمى رواقى ، وفيها ميل الى الغموض ، مع بعض آراء شيعية ، وفكـر علوى ، مختلط بصوفيـة أو غيبية (ميتافيزيقية) ونقف عند قصيدته الهمزية :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء   اذ حيث كنت من الظلام ضياء

فنـراه يصطنع هـذا المنهـج الصوفـى مـن حيث الغموض والالتواء ، وعدم القصد الى معانيـه مباشرة كما كان يفعل فـى شعره السابق عليها ٠

واتصل بعد بأبى العشائر الحسن بن على بن حمدان ٠ قال ياقوت (١) : « ولم يزل المتنبى بعد خروجه من الاعتقال فى خمول وضعف حال فى بلاد الشام حتى اتصل بأبى العشائر ومدحه بعدة قصائد أولها :

أتراهـا لكثـرة العشـاق   تحسب الدمع خلقـة فـى المآقى

وقد أكرمـه أبو العشائـر ، وعرف منزلتـه ، وكـان والى أنطاكية من قبل سيف الدولة ، ولمـا قدم سيف الدولة الى أنطاكية قدم المتنبى اليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرفه منزلته مـن الشعر والادب (٢) ٠ وقال الاصبهانى : « ثم اتصل بأبى العشائر ، فأقام ما أقام ، ثم أهداه الى سيف الدولة ٠

وعندما التقى بسيف الدولة لم يرد أن يعامل معاملة غيره من

---

(١) ارشاد الاريب ، وراجع الصبح المنبى ، ص ٦٨ ٠

(٢) الصبـح المنبى ، ص ٧١ ٠

الشعراء ، بل من عليه القوم ممن يفدون على الامير • قال البديعي: « واشترط المتنبى على سيف الدولة أول اتصاله به أنه اذا أنشده مديحه لا ينشد الا وهو قاعد ، وأنــه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه ، فنسب الى الجنون • ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلع الى ما يرد منه وذلك فى سنة ٣٣٧ سبع وثلاثين وثلاثمائه ، وعمره أربع وثلاثون سنة » •

وكان أول ما أنشده قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاســمه بان تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

قال الاصبهانى : « ثم أقــام المتنبى عند سيف الدولــة على التكرمة البليغــة فى أسناء الجائزة ورفيع المنزلة • ودخــل مع سيف الدولة بلاد الروم فى غزوتى المصيبة والفناء » •

وقال البديعى : « وحسن موقعــه عنده ، وقربه ، وأجــازه الجوائز السنية ، ومالت نفسه اليه وأحبه ، فسلمه الى الرواض ، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، وصعب سيف الدولة فى عده غزوات الى بلاد الروم ، ومنها غزوة الفناء التى لم ينج منها الا سيف الدولة بنفسه وستة أنفار منهم المتنبى • وأخــذت الطرق عليهم الروم ، فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وخرق الصفوف ، وبدد الالوف » •

وقد لبس المتنبى لامة الحرب ، وتعلم الفروسية اذا ، وخاض معارك سيف الدولة مع الروم • ووصف هذه المعارك وصفا رائعا •

وتروى رواية عن لبسه الدروع فارسا ، حكى ابن جنى قال: حدثنى الصنوبرى قال : خرجت من حلب أريد سيف الدولة ، فلما برزت من السور اذا أنا بفارس متلثم قد هوى نحوى برمح طويل وسدده الى صدرى فكدت أطرح نفسى عن الدابة فرقا · فلما قرب منى ثنى العنان وحسر لثامه فاذا المتنبى وأنشدنى :

نثرنا رءوسا بالاحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال ، كيف ترى هذا القول ؟ أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك قد قتلتنى يا رجل · قال ابن جنى : فحكيت هذه الحكاية بمدينة السلام لابى الطيب فعرفها وضحكها (١) ·

والتقى فى بلاط سيف الدولة بجماعة من العلماء والشعراء ، وكانت تعقد مجالس الشعر والنقد ، وكان سيف الدولة يشارك فيها بذوقه وعلمه · وممن اجتمع فى بلاطه غير المتنبى : السرى الرفاء ، والصنوبرى ، والنامى ، وأبو فراس الحمدانى ، والرقى · ومن العلماء ابن خالويه ·

وبارى الشعراء المتنبى فغلبهم · حكى أن السرى الرفاء حين قصد سيف الدولة أنشده بديها :

انى رأيتك جالسا فى مجلس قعد الملوك به لديك وقاموا
فكانك الدهر المحيط عليهم وكانهم من حولك الايام

ثم أنشده بعد ذلك ما كان قاله فيه من الشعر ، وبعد ثلاثة

---

(١) أبو الطيب ، ص ٣٨ ·

أيام أنشده المتنبى قصيدة قافية ، فأمر له بفرس وجارية وأول القصيدة :

أيدرى الربع أى دم أراقا   وأى قلوب هذا الحى شاقا (٢)

وحكى أن سيف الدولة كان يميل الى أبى العباس النامى الشاعر ميلا شديدا الى أن جاءه المتنبى فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا به وعاتبه وقال : أيها الامير لم تفضل على ابن عبدان السقا ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلج وألح وطالبه بالجواب ، فقال : لانك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر   وقد أغذ اليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضبا ٠

وقرر الامير سيف الدولة للشاعر جائزة سنوية ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد كل عام حتى أن أبا فراس الشاعر وابن عم الامير حسده ، ولامه على ذلك ٠ قال : ان هذا المتشدق كثير الادلال عليك ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره ٠

ولم يسلم المتنبى من كيد الكائدين وحسد الحاسدين ، وانما فتحت لهم بعض تصرفاته سبيل ذلك ، كاعتداده بنفسه ، واقلاله من الشعر مع رغبة سيف الدولة فيه ، وتعمده السخرية من غيره وخاصة من أبى فراس ابن عم الامير وبعض خواصه كابن خالويه٠

(٢) الصبح المنبى ، ص ٧٩ ٠

ومما يروى من أحداث بينه وبينهم : حضر المتنبي مجلس أبي أحمد بن نصر البازيار وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوي ، فتباريا في أشجع السلمي وأبي نواس البصري فقال ابن خالويه أشجع أشعر اذ قال في هارون الرشيد :

وعلى عدوك يابن عم محمد   رصدان ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا   سلت عليه سيوفك الاحلام

فقال المتنبي : لابي نواس ما هو أحسن في بني برمك :

لم يظلم الدهر اذ توالت   فيهم مصيباته دراكا
كانوا يجيرون من يعادى   منه فعاداهم لذاكا

وقد جرت بحضرة سيف الدولة مسألة لغوية بين أبي الطيب اللغوي والمتنبي ساكت ،فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ، فتكلم فيها بما قوى حجة أبي الطيب اللغوي ، وضعف قول ابن خالويه فأخرج هذا من كمه مفتاحا حديدا ليلكم به المتنبي ، فقال له المتنبي : اسكت ويحك ، فانك أعجمي وأصلك حوذى ، فمالك وللعربية ؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح ، فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي من ذلك اذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا ٠ فكان ذلك أحد أسباب فراقه سيف الدولة (١) » ٠

وحضر مرة أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في

(١) الصبح المنبي ، ص ٨٧ ٠

الوقيعة فى حق المتنبى ، وانقطع يعمل القصيدة التى أولها :

واحـر قلبـاه ممن قلبه شبـم   ومن بجسمي وحالى عنده سـقم

وجاء وأنشدها ، وجعل يتظلم فيها من التقصير فى حقه كقوله :

مالى أكتم حبا قد برى جسـدى   وتدعى حب سيف الدولة الامـم
ان كان يجمعنـا حب لغرتـه   فليت أنا بقـدر الحب نقتسـم
قد زرته وسيوف الهند مغمـدة   وقـد نظرت اليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله فى حضرة سيف الدولة لشدة ادلالـه واعراض سيف الدولة عنه ، فلما وصل فى انشاده الى قوله :

أعيذهـا نظـرات منـك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال : ومن أنت يادعى كندة حتى تأخذ أعراض أهل الامير فى مجلسه • واستمر المتنبى فى انشاده ولم يرد ، وأبو فراس يتعقبه ، ويحرض سيف الدولة عليه حتى غضب سيف الدولة ، وضربه بالدواة التى بين يديه •

ولم تطب الحياة بعدها للمتنبى فى حلب ، وعزم على الرحيل وقد عرض به فى ذلك القصيدة حين قال :

لئن تركن ضمـيرا عن ميامننا   ليحدثن لمن فارقتهم نـدم

وفارقه متجها جنوبا قاصدا مصر ، وراغبا الى كافور ، لعله أن يجد فى رحابه ما عز عليه فى جناب سيف الدولة بحلب •

ولقد كانت هذه المرحلة فى حلب من أغنـى مراحـل حياته وشعره ، وقال فيها عيون قصائده ولم يكن سيف الدولة بالنسبة

اليه مجرد ممدوح أمير أو ملك ، بل أنه أحب فيه شخصه وخلاله ، وتمثل فيه فتوة عربية ، وشهامة ومروءة ، وكفاحـا فى سـبيل الدولة ، وحفاظا على الارض ضد غزو الروم ٠ فلم يكن غريبا اذا أن صدق فى شعره معه ، وأن جاء فيـه بكل رائع فريـد ٠ وقد اغتنى وكثر مالـه ، كما ارتفع شعره اذ قيل أنه حصل فى مـدة أربع سنوات ٣٥ خمسة وثلاثين ألف دينار (١) ٠

ومن درره المذكورة فيه قولـه :

اذا كان مدح فالنسيب المقـدم	أكل فصيح قال شعرا متيـم

وقولـــه :

غيرى باكثر هذا الناس ينخدع	انقاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وقولـــه :

فديناك من ربع وان زدتنا كربا	فانك كنت الشرق للشمس والغربا

وقولـــه :

ليـالى بعد الظاعنـين شـكول	طوال وليـل العاشـقين طويـل

وقولـــه :

لكل امرىء من دهره مـا تعودا	وعادات سيف الدولة الضرب فى العدا

وقولـــه :

على قدر أهل العزم تاتى العزائم	وتاتى على قدر الكرام المكـارم

وقد بلغت مدائحه فيه ٣٨ قصيدة و ١٥١٢ بيتـا فـى تسع سنوات من سنة ٣٣٧ هـ الى ٣٤٦ هـ ، منها أربع عشرة قصيدة فى

---

(١) الواضـح ، ص ١٢ ٠

حروبه مع الروم ، وأربع في وقائعه مع القبائل العربية ، وخمس عشرة في المدح دون وصف الوقائــع ، وخمس فى الرثــاء ، ومن القطع اثنتان في حوادث الروم ، والاخريات فى مقاصد شتى(٢) ٠

واتصل المتنبى بكافور ، وقد بعث الى والى الرملة محمد بن طفج ليبعث به اليــه ، وكانت دولــة الاخشيد فى مصر منافســة للحمدانيين فى شمالى الشام ٠ وكانت تبسط نفوذها على جزء كبير من بلاد الشام ٠ وربما كان مقصد المتنبــى الى كافور رغبــة فى الانتقام لكرامته مما لقيه فى بلاط سيف الدولة عــلى كره منه ٠ وشتان بين سيف الدولة وكافور ، فهو قاصد لكافــور ، مغيظــا ، محنقا ، لا مقتنعا بسجاياه ، ولا باستحقاقه للمديح ٠ ولهذا بدأه بمديح فيه هذا الجفاء ، وفيه هذا الاحساس بالالم لفراق سيف الدولة ٠ وان حاول المداراة واصطناع المديح ، لكنه جاء متكلفا ثقيلا ، أو مصنوعا بين الصنعة ، مبالغا واضح المبالغة ٠

قال الاصبهانى : « فلما انتهت مدته عند سيف الدولة استأذنه فى المسير الى الطاعــة (١) ، فاذن لــه ، وامتد باســطا عنانه الى دمشق ، الى أن قصد مصر ملما بكافور فأنزله وأقام ما أقام الا أن أول شعره فيه ، فيه دليل على ندمه لفراق سيف الدولة وهو قوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن امانيــا

---

(٢) مقدمة الديوان لعبد الوهاب عزام ٠

(١) الواضــح ، ص ١٣ ٠

حتى انتهى الى قولـه :

قواصد كافور تـوارك غـيره　　　ومن قصد البحر استقل السواقيا

ومكث بمصر أربع سنوات ، كانت لـه مدائح فـى كافـور وأهاج ، ومدائح فى فاتك ومرثيته العينية التى قالها عند خروجه من مصـر .

ووقع فاتك من نفسه موقعـا حميدا فأعجب بـه ، ولم يبخل عليه فاتك بالمـال . قال الاصبهانى : لقيه المتنبى فى الميدان على رقبة من كافور فقال :

لا خيـل عندك تهديهـا ولا مـال　　　فليسعد النطق ما لم يسعد الحال

فوصل اليه من أنواع صلاته وأصناف جوائزه ما تبلغ قيمته عشرين ألف دينار . ثـم مضـى فاتك لسبيله فرثـاه المتنبى وذم كافورا حيث قـال :

أيموت مثل أبى شجاع فاتك　　　ويعيش حاسـده الخصى الاوكع

على أن أحسن ما نظمه أبو الطيب فى هذه المرحلة بائيته :

من الجـآزر فـى زى الاعاريب　　　حمـر الحلى والمطايا والجلابيب

وميميته فى وصف الحمى :

ملومكمـا يجـل عن المـلام　　　ووقـع فعالـه فـوق الكـلام

وقولــه :

بم التعـلل لا أهـل ولا وطن　　　ولا نديـم ولا كأس ولا سـكن

وداليته فى هجاء كافور فى ذكرى العيد :

عيد بأيـة حـال عدت يا عيد　　　بما مضى أم لامر فيك تجديد

ويذكر النقاد أن شعره في هذه المرحلة كان أقل جـودة من شعره مع سيف الدولـة · قـال البديعي : « وأحسن قصائد أبي الطيب في سيف الدولة ، وتراجع شـعره بعد مفارقته وسئل عن سبب ذلك فقال : قد تجوزت في قولي ،وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحـة منـذ فارقت آل حمدان » (١) ·

وشعره في مصر عليه سمة الحزن ، والتفكير العميق في حاله وما جرى عليه من الاحداث طوال السنوات التي قضاها في حياة قلقة عاصفة أيام شـبابه الاول بالشام وفـي عنفوانه مع سـيف الدولة ورجاله وشعرائه بحلب · ولاشك أن أبا الطيب قد أضاف الى خبرته في الحياة ، وتمرسه بها وتعامله مع أصناف متغايرة ، ومتنوعة من البشر قد أتاحت له تجارب واسعة يستمد منها معاني غزيرة لشعره ، كما أضاف الى تلك التجارب قراءات واسعة منوعة أيضا ، فالرجل كان طلعة يحفظ الشعر ويعرف بغريب اللغـة ، ويحمل في رحله دائما كتب الادب والمعرفة ·

ولقد كان طالبا لكثرة المـال حتى يمكن أن يبلغ به الدرجة التي يطلبها لنفسه ، ولعله بلغ من كثرة المـال ما أراد أو أكثر مما أراد ، ولكنه لم يسـكن ، فطلب المنصب والجـاه ، أن يحصل على ولاية ، ورأى أنه جدير بهذا ، وأن أدبـه سيبلغه المنصب ، وقد حصل من سيف الدولة على المال ولم يحصل على الولاية ، فأراد أن

---

(١) الصبـح المنبي ، ص ٩٨ ·

يجرب حظه مع كافور لعله أن يبلغ بـه الولايـة ٠ وهكذا طلبها صراحـة ٠ فقال :

اذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية   فجودك يكسونى وشغلك يسلب

يلتمس ولاية صيـداء ٠ فأجابـه كافـور : لست أجسر على توليتك صيدا ، لانك على ما أنت عليه تحـدث نفسك بما تحدث ، فان وليتك صيدا فمن يطيقك ؟ (٢) ٠

وهذا التعريض نفسه بما أراد فى قولـه :

فارم بى حديث ما أردت فانى   أسـد القلب ، آدمى الـرواء
وفـؤادى من الملـوك وان كا   ن لسانى يـرى من الشـعراء

ولم يظفر المتنبى مما قصد اليه ، ولا مما أملـه على شىء ، وضاق بالمقام فى مصر ، وزاد ضيقه حين أحس بأن كافورا بـدأ يضيق الخناق عليـه ، وينشر من حولـه العيـون ليقيدوا عليـه حركاته ٠

وبدأ هجاءه كافورا ، تنفيسا عن ضيق نفسه ، وعقابا لهـا على ما ارتكبت من قصده ، وليس جديرا بقوله ، انما هى عنجهية بسببها خيرا الى شر ، وأهلا لشعره الى غير أهل ٠ يقول من قصيدة مطلعها :

أفيقاء خمار الهم نغصنى الخمرا   وسكرى من الايام جنبنى السكرا

---

(٢) الواضـح ، ص ١٠ ٠

ومنهـــا :

صحبت ملوك الارض متتبطا بهم وفارقتهم ملآن من حنق صـدرا
ولما رأيت العبـد للحـر مالكا أبيت اباء الحـر مسترزقا حـرا
ومصر لعمرى أهـل كل عجيبة ولا مثل ذا المخصى اعجوبة نكرا
يعـد اذا عـد العجـائب أولا كمايبتدا فيالعد بالاصبعالصغرى
فيا هرم الدنيا ويا عبرة الورى ويا أيها المخصى من أمك البظرى

* * *

ويقــول فيهــا :

قضـاء مـن الله العـلى أراده ألا ربمـا كانت ارادتـه شرا
ولله آيـات وليس كهـذه أظنك يا كافور آياته الكبرى

* * *

عثرت بسيرى نحـو مصر فلالعا بها ولعا بالسير عنها ولا عشرا
وفارقت خير الناس قاصد شرهم وأكرمهم طـرا لألامهـم طـرا
فعاقبنى المخصـى بالغـدر جازيا لان رحيلى كان عن حلب غـدرا
وما كنت الا فائل الرأى لم أعن بحزمولا استصحبت فيوجهتيحجرا

ذرانـى والفـلاة بـلا دليـل ووجهـى والهجـير بـلا لثـام
فانـى أسـتريح بـذى وهـذا وأتعب بالاناخـة والمقـام

* * *

أقمت بارض مصر فـلا ورائى تخب بى الركـاب ولا أمامـى
وملنـى الفـراش وكان جنبـى يمـل لقـاءه فـى كـل عـام
قليل عائـدى ، سـقم فـؤادى كثير حاسـدى ، صعب مرامـى

---

(١) الواضـح ، ص ١٣ .

ألا ياليت شعر يدى أتمسى | تصرف فى عنان أو زمام
وهل أرمى هواى براقصات | محلاة المقاود باللغام

* * *

يقول لى الطبيب أكلت شيئا | وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه أنى جواد | أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبر فى السرايا | ويدخل من قتام فى قتام

وأمكنه بعد هذا الضيق أن يحتال ويدبر الامر ليخرج خفية من مصر .

قال الاصبهانى : « فاحتال بعده فى الخلاص من كافور ، فانتهز الفرصة فى العيد ، وكان رسم السلطان أن يستقبل العيد بيوم تعد فيه الخلع والحملانات ، وأنواع المبار لرابطة جنده ، وراتبة جيشه . وصبيحة العيد يفرق ، وثانى اليوم يذكر له من قبل ومن رد واستزاد . فاهتبل المتنبى غفلة كافور ، ودفن رماحه برا وسار ليلته ، وحمل بغاله وجماله ، وهو لا يألو سيرا ، وسرى هذه الثلاثة الايام » .

ومضى المتنبى فى طريقه هروبا من مصر ومن كافور ، ومن ضيقه بطول المقام ، وشيع مصر وكافورا بقصيدة دالية فى ذلك العيد ، وكان رحيله فى يوم عرفة سنة خمسين وثلاثمائة قال :

عيد بأية حال عدت يا عيد | بما مضى أم لامر فيك تجديد
أما الاحبة فالبيداء دونهم | فليت دونك بيدا دونها بيد

وفيها يشكوهم نفسه ، وأنه خرج من مصر ورحلته اليها صفر اليدين ، ولا مال سوى المواعيد المطولة :

ماذا لقيت من الدنيا؟، وأعجبها	أنى بما أنا باك منه محسود
أمسيت أروح مثر خازنا ويدا	أنا الغنى وأموالى المواعيد
انى نزلت بكذابين ضيفهم	عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدى وجودهم	من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود

وتنتهى مرحلة من حياة المتنبى وشعره ، غريبة فيما جرى بها ، غريبة فيما دار حولها ، وما قيل فيها من الشعر ، فكثير من شعر المتنبى فيها جيد ، صقلته التجربة ، وبدت شخصيته فذة قوية غلابة ، لم تتضاءل ولم تنطو ، لكنها شخصية جديدة ، لم يكن يطبعها الكبرياء وحده ولا الثورة ، ولا القول فى الحساد الكائدين ، فلم يكن بمصر من الشعراء من نافسه كما كان الحال فى بلاط سيف الدولة ، ولم تكن مجالس يطول فيها القول بين العلماء ، ويكثر الجدل ، ويطرح شعر الشاعر على بساط النظر ، فيوجه اليه النقد حينا فى رفق ، وحينا فى عنف وتحامل ٠

كانت حياة المتنبى ساكنة من جميع جوانبها ، لهذا مل هذا السكون ، ولغة شعره تلفها هذه الوحشة الساكنة ، لم يعد يتدفق، فيرعد ويبرق ، بل هو يجتر آلامه وآماله فى نغم هادىء حزين ، وا نكان نفاذا مريرا ٠

---

(١) ديوانه ، طبع عزام ، ص ٤٨٨ ٠

وتبدأ هذه الرحلة الطويلة من مصر الى الكوفة فى بيداء العرب ، يعبر فيها صحراء سيناء وتيه بنى اسرائيل ، ثم صحراء النقب ، فشرقا الى الكوفة .

وقد دبر الشاعر خطته فى دهاء وحيطة ، واتصل ببعض رؤساء الاعراب فى الشرقية بمصر . وكان منهم واحد يذكره فى أبيات له اسمه عبد العزيز بن يوسف الخزاعى فى بلبيس باقليم الشرقية (١) . قالوا : وأخفى طريقه فلم يأخذوا له أثرا ، حتى قال بعض أهل البادية هيه سار ، فهل محا أثره ؟ وقال بعض المصريين : انما أقام حتى عمل طريقا تحت الارض .

وتبعته البادية والحاضرة ، ومن وثقوا به من الجند ، وكتبوا الى عمالهم بالحوفية والجفار وغزة والشام وجميع البوادى . وعبر أبو الطيب فى الطرق الوعرة حتى خرج الى ماء على حدود سيناء يعرف بـ « نخل » فلقى عنده فى الليل ركبا وخيلا صادرة عنه فقاتلوه ، فأخذهم وتركهم ، وسار حتى قرب من النقب ، فرأى رائدين لبنى سليم على قلوصين فركب وطردهما حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ، وأوعدوه النزول ذلك اليوم بين يديه ، فاستبقاهما ورد عليهما القلوصين وسلاحهما ، وسار وهما معه حتى توسط بيوت بنى سليم آخر الليل ، فضرب له ملاعب بن أبى النجم خيمة بيضاء ، وذبح له .

---

(١) ديوانه ، طبع عزام ، ص ٤٨٨ .

وغدا فسار الى النقع فنزل ببادية من معن وسنيس ، فذبح له عفيف المعنى غنما وأكرمه وغدا من عنده وبين يديه لصان من جذلم يدلانه في الطريق • فصعد في النقب المعروف بتربان ، وفيه ما يعرف بعرندل (وهى قرية من أرض السراة بالشام ، فسار يومه وبعض ليلته • ونزل •

وأصبح فدخل حسمى • وحسمى هذه أرض طيبة ، تنبت سائر النبات ، مملوءة جبالا في كبد السماء متناوحة ، ملس الجوانب ، اذا أراد الناظر الى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها بشدة ومنها مالا يقدر أحد أن يصعده ، ولا يكاد القتام يفارقها •

ومن جبالها جبل يعرف بأرم ، عظيم العلو ، تزعم البادية أن به كروما وصنوبرا ، فوجد بني فزارة به شاتين ، فنزل بقوم من عدى فزاره •

وبقي في ضيافة فزارة بعض الوقت ، وكانت بينه وبين أمير بني فزارة حسان بن حكمة مودة وصداقة فنزل بجار للقوم اسمه وردان من طى أفسد على المتنبى غلمانه ، قيل أنه كان يجلسهم مع امرأته ، فيسرقون له من رحل المتنبى الشىء بعد الشىء •

وطاب المقام في حسمى للمتنبى فبقى بها شهرا لم يعكرها سوى وردان وغلمانه الذين خانوه وسرقوا متاعه • وحاول أحد عبيده سرقة سيف ثمين له والهرب به ، ولكنه عاجله وقتله ، وحمل متاعه وعبيده وغادر حسمى متمما رحلته الى الكوفة ، وكانت رسل

كافور دائبــة البحث عنه لاقتناصه قبل أن يبلغ غايته (٢) » .

بدأ هــذه الرحلة فـــى العاشر من ذى الحجة سنة خمســين ، واستمر طوال ما يقرب من أربعة أشهر حتى بلغ الكوفة فى شهر ربيع الآخر سنة احدى وخمسين وثلاثمائة . ونظم فى هذه الاثناء بعض قصائده المشهورة ، وأولها الميمية التى يذكر فيها بدء الرحلة ورثاء فاتك ، وهمومه ، ومستقبله الغامض الذى يحاول أن يشق عنه حجبه . يقول : (يقال أنشدها بالكوفة سنة ٣٥٣ هـ) .

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم   وما سراه على ساق ولا قــدم

وفيها يذكر شيبه ، وقد داهمه الشيب مبكــرا فــى أخريات الثلاثينات من عمره وأوائل العقد الرابع ويبدو أن هذا الشيب تكاثر فى رأسه بعد أن قاربت سنه الخمسين ، وشعر بالحاح الزمن والايام عليه وقد تعاقب عليه هجــر الرحلة ولازمتــه الشمس ، وتعاقب الايام ، فسودت هذه وجهه وبيض ذاك شعره . يقول :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا   ولا تسود بيض العذر واللمــم
وكان حالهما فى الحكم واحــدة   لو احتكمنا من الدنيــا الى حكم
ونترك المــاء لا ينفك من ســفر   ما سار فى الغيم منه سار فى الادم

ونقف عند هذا البيت العجيب وهذه المقابلة بين ماء الغمام ، وماء الحياة ، أو الدم والرونق ، ومن ماء الغمام الحيــاة للنبات والانسان ، ومن ماء الحياة كذلك ، ولكن هــذا يســير فى الغمام

---

(٢) فى رحلته هذه ، راجع ديوانــه ص ٤٨٨ ـ ٤٩٣ طبع عــزام ، والصبــح المتبى ، ص ١٢٤ ـ ١٢٦ .

يجود على بلد ويبخل على أخرى وهو ما ينفك سائرا ، وماء الحياة يسير كذلك ، فى رحلة الانســان على الارض ، والادم ، أو الجلد يبلى ، وينتهى ٠٠ فسيره مع الزمن الى البــلى والفساد ، الى الموت والفساد ، الى الموت وهو ماء الحياة ٠٠٠

ويقـــول :

لا أبغض العيس لكنى وقيت بها   قلبى من الحزن أو جسمى من السقم
طردت من مصر أيديها بأرجلها   حتى مرقن بنا من جوش والعلم

وجوش والعلم موضعان قرب حسمى التى أناخ بها بعد أن اطمأن به المسير ، وابتعد عن منطقة نفوذ كافــور ورجالــه فى الشام ٠ ويذكر ركبه بين غلمانه وعبيده فى عدة الفتك :

فى غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا   بما لقين ، رضا الايسار بالزلم
بيض العوارض طعانون من لحقوا   من الفــوارس شــلالون للنعــم

* * *

مازلت أضحك أبلى كلما نظرت   الى من اختضبت أخفافها بــدم
أســيرها بــين أصنام أشــاهدها   ولا أشــاهد فيهــا عفــة الصنم
حتى رجعت وأقلامــى قوائل لى   المجد للسيف ليس المجــد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب بــه   فانمــا نحن للاســياف كالخــدم
أسمعتنى ودوائى ما أشرت بــه   فان غفلت فدائى قلــة الفهــم
من اقتضى بسوى الهندى حاجته   أجاب كل ســؤال عن هل بلــم

أهى ردة جديدة من المتنبى وعود الى موقفه الاول قبل لقــاء سيف الدولة ، وايمانه بالسيف والحرب والضرب والقتال ، وجحد للشعر قوله ، وقدرته فى أن يبلغ الانسان مطلبه فى الحياة ؟ ٠٠

أم هي ضجرة جديدة ، وعبثية متشائمة ، جناها ، أو أثارتها من مكامنها في نفسه رحلة الصحراء ، وما لقى فيهـا من لقـاء مع الاحداث والاخطار وجها لوجه ، وسيفه بيـده ، يقتحـم المهالك والاخطار ، ويطرد اللصوص ، والفتـاك ، ويغضب ما يريـد ، ويحوزه ولا رقيب ولا سلطان عليه ·· أهي شريعة القوة والفتك، والحق لمن غلب ؟ ! ·

لقد صب المتنبي تجاربه ثانية فـي هـذه الرحلـة (١) في قصيدته المقصورة القافية :

الا كـل ماشــية الخيـزلى	فـدى كـل ماشـية الهيـد بى

* * *

ضربت بها التيـه ضرب القمار	فامـا لهـذا وامـا لـذا
اذا فزعت قدمتهـا الجيــاد	وبيض السيوف وسمر القنـا
فبـرت بنخــل وفـي ركبهـا	عن العالمين وعنـه غـنى
وامست تخبرنـــا بالنقـــاب	ووادى المياه ووادى القـرى
وقلنا لها أين أرض العـراق ؟	فقالت ونحن بتربـان : هـا
وهبت بجسمي هبـوب الدبـور	مســتقبلات مهب الصبـا

* * *

فلما أنخنـا ركزنـا الرمـاح	فـوق مكارمنـا والعـلى
وبتنـا نقبـل أسيافنـا	ونمسحها مـن دمـاء العـدى
لتعلـم مصر ومـن بالعـراق	ومن بالعواصم أنى الفتـى
وأنـى وفيت وأنـى أبيت	وأنـى عتـوت عـلى مـن عتـا
وما كل من قـال قـولا وفـى	ومـا كل من سيم خسفا أبـى

واستقبل بالعراق مرحلة جديدة من حياته ، وهو فى الخمسين من عمره ، غلب البياض على لحيته ، وحنكتـه التجارب ، وصقلت شعره الايام والسنون ، وفى عودته الى العراق عـودة الى الدرس والمناظرة ، وعودة الى الحضر والاستقرار ، وكان صيته قد تردد فى الخافقين وسبقه الى العراق ، وجاءه وهو مـدرك لهذا ، وبين يديه حصيلة كبيرة من الشهرة والمقدرة ، وبين يديه قدر وافر من المـال ، وكان طبيعيا أن يلقى الناس بين مرحب به متمن للقائه والانتفاع بعلمه والافادة من شعره ، وبين طالب مدح ، ليذكـره الناس كذكرهم ممدوحيه الكبار أمثال سيف الدولة وابن عمـار وفاتك وغيرهم ، أو طالب شعره ليتأدب به ويزود نفسه ان كان من أصحاب الادب أو علماء اللغـة ، وفريق آخر ممن لقيه لم يكونوا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء انما هم من المتشاعرين ، أو الحاقدين الذين ساءهم أن يبلغ هذا الرجل ما بلغ مـن المكانـة حتى تهافت عليه الملوك يرجون مديحه ، وهو يدل عليهم باقتداره واغرابـه فضلا عن براعتـه واعجازه ٠

وهكذا بلغ الكوفة ، وبقى بها بعض الوقت ، وغادرهـا الى بغداد ، فأقام زمنا ، التقى فيها بجماعة من مشاهير الادباء والنقاد والعلماء من أمثال الحاتمى ، الذى لقيه لقـاء عاصفا سـجله فى رسـالة اعترض فيها عـلى بعض عيوبـه فـى شـعره وسـماها الموضحة (١) ٠ وكان الحاتمى فى أول لقائـه بالمتنبى غاضبـا

---

(١) نشرت الرسالة مرتين ، مرة باسم « الحاتمية » ومرة ثانية باسم الموضحة ٠

عنيفا ، ولكن اللقـاء هدهد من غضبه وهدأ من ثورته ، فقلل من حملته على الشاعر واعترف بفضله ، وألف فيه رسالة ثانية تبين معارضته لارسطو في بعض حكمه (١) وفلسفته · وكان قد ترفع في بغداد عن مدح وزيرهـا المهلبـي ، فحـرض عليه كما قيـل الحاتمي (٢) ·

قال الحاتمي :

« كان أبو الطيب عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة ، يخيل له أن العلم مقصور عليـه ، وأن الشعر لا يغترف عذبه غيره ، ولا يقتطف نواره سواه ، ولا يرى أحـدا الا ويرى نفسه مزية عليه ، حتى اذا تخيل أنه نسيج وحده ، وأنـه مالك رق العلم دون غيره ، وثقلت وطأته على أهـل الادب بمدينة السلام ، وطأطأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحـه ، واطمأن عـلى التسليم جأشه ، وتخيل أبو محمد المهلبي أنه لا يتمكن أحـد مـن مساجلته ومضارعته ، ولا يقوم لمجادلته والتعلق بشيء من مطاعنه، وساء معز الدولة أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولم يكن بمملكته أحـد يماثله فيما هـو فيه ، ولا يساويـه في منزلته ، يبدى لهم عواره ، ويكفى آثاره ، ويهتك أستاره ، ويمزق جلابيب مساويه · فتوخيت أن يجمعنا مجلس أجرى أنا واياه في مضماره ليعرف السابق من المسبوق ، فلما لم يتفق ذلك قصدت

---

(١) الحاتمية الثانية سبق نشرها ·

(٢) راجع الثعالبى فى أبو الطيب ما له وما عليه ·

مجلسه ، فوافق مصيرى اليه حضور جماعة يقرءون عليه شيئا من شعره ، فحين استؤذن لى نهض من مجلسه ودخل بيتا الى جانبه ونزلت عن بغلتي وهو يراني ، ودخلت الى مكانه ، فلما خرج الى نهضت اليه فوفيته حق السلام غير مشاح له فى ذلك ٠

وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لى عند الدخول اليه ٠

ولبس سبعة أقبية ملونة ٠ وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف ، وأحق بتخفيف اللبس ، فجلس ، وأعرض عنى ساعة لا يعيرنى طرفا ، ولا يكلمنى حرفا ، فكدت أتميز غيظا وأقبلت أستخف رأيى فى قصده ، وأعاتب نفسى فى التوجه الى مثله ، وهو مقبل على تكبيره ملتفت الى الجماعة الذين بين يديه ، وكل واحد منهم يومىء اليه ، ويوحى بطرفه ، ويشير الى مكانى ، ويوقظه من سنة جهله ، ويأبى الا أزورارا ونفارا ، جريا على شاكلة خلقه ، ثم توجه الى ، فوالله ما زادنى على قوله :

ــ أى شىء خبرك ؟

فقلت ــ ما جنيته على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى من السعى الى مثلك ٠ ثم انحدرت عليه انحدار السيل ٠

وقلت ــ ابن لى عافاك الله ما الذى يوجب ما أنت عليه من العظمة والبكرياء ؟ ٠ هل هنا نسب يورثك الفخر ، أو شرف توجت به دون أبناء الدهر ، أو علم أصبت فيه علما يقع

الايماء اليه ، أو مورد تقف الهمم عليه ؟ • وهل أنت الا
وتد بقاع فى شر البقاع ؟ وانى لاسمع جعجعة ولا طحن •

فامتنع لونه ، وجعل يعتذر عن جنايته •

وأقول له ـ يا هذا اذا أتـاك شريف فـى نسبه تجاهلت عليه ، أو
عظيم فى أدبه صغرت قدره أو مقـدم عند سلطانه لم
تعرف موضعه • هل العز تراث لك دون غيرك ؟ •• كلا
والله ، ولكنك مددت الكبر سترا ، وضربته رواقا دون
جهلك •

فعاد الى الاعتذار • وأخذت الجماعة فى تليين جانبى ، والرغبة
فى قبول عذره ، واعمال مياسرته ومسامحته • ويحلف بالله أنه لم
يعرفنى • فأقول : يا هذا ألم يستأذن عليك باسمى ونسبى ؟ ••
أما كان فى الجماعة من يعرفك بى ان كنت تجهلنى ؟ • وهب كان
ذلك ، ألم ترتحتى بغلة رائعة ، يعلوها مركب ثقيل ، وبين يـدى
عدة غلمان ، أما شاهدت لباسى ؟ أما شممت نشرى ؟ •• أما راعك
شىء من أمرى أتميز به عن غيرى ؟ ـ وهو خافض جناح الذل •
وقد زال عنه ما كان فيه ، وأقبل على ، وأقبلت عليه » •

ويروى الاصبهانى مجلسا آخر له فى بغداد بحضرة المهلبى :
قال : « فلما حصل المتنبى ببغداد نزل ريض حميـد ، فركب الى
المهلبى ، فأذن له فدخل وجلس الى جنبه وصاعد خليفته دونـه ،

وأبو الفرج الاصفهانى صاحب كتاب الاغانــى • فأنشــدوا هذا البيت :

سقى الله أمواهـا عرفت مكانها جراما وبلكوما ، وبذر فالغمرا

وقال المتنبى : هو « جرابا » • وهذه أمكنه قتلتهـا علما ، وانما الخطأ وقع من النقله ، فأنكره أبو الفرج الاصبهانى • قال الشيخ: هـذا البيت أنشـده أبو الحسن الاخفش صاحب سـيبويه فـى كتابه جراما بالميم ، وهو الصحيح • وعليه علماء اللغـة •

وتفرق المجلس على هذه الجملة ، ثم عاوده اليـوم الثانــى ، وانتظر المهلبى انشاده فلم يفعل وانما صده ما سمعه من تماديه فى السخف ، واستهتاره بالهزل ، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه • فلما كان اليوم الثالث أغروا به ابن الحجاج حتى علق لجام دابتــه فى صينية الكرخ ، وقد تكابس الناس عليه من الجوانب ، وابتدأ ينشده :

يا شيخ أهـل العلم فينـا ومن يلزم أهـل العلـم توقـيره

فصبر عليه المتنبى ، ساكتا، ساكنا ، الى أن أنجزها ، ثم خلى عنان دابتــه • وانصرف المتنبى الى منزلــه وقد تيقن اسـتقرار أبى الفضل ابن العميد بأرجان وانتظاره له ، فاستعد للمسير (١) •

وهجاء شعراء العراق • قال الثعالبى :

« ولمـا قدم أبو الطيب من مصر بغداد وترفع عن مدح المهلبى

---

(١) الاصبهانى • الواضـح ، ص ١٥ •

الوزير بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبى ، فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه ، وتباروا فى هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة ، والحاتمى ، وأسموه ما يكره ، وتماجنوا ، وتمادوا عليه ، فلم يجبهم ، وقيل له فى ذلك فقال : انى فرغت من اجابتهم بقولى لمن هم أرفع منهم طبقة :

أرى المتشاعرين غروا بذمى   ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وقولى :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر   ضعيف يقاوينى ، صغير يطاول
لسانى بنطقى صامت عنه عادل   وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل

وبلغ أبا الحسين بن لنكك البصرى الشاعر ما جرى على المتنبى من وقيعة شعراء بغداد فيه ، واستحقارهم له ، وكان حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجيا اياه ، فشارك فى الهجاء والذم ٠

وقد كان ما ناله المتنبى من الثراء ، وما عاش فيه من بحبوحة العيش مما زاد حسد الناس له ، وحقد الشعراء عليه ٠ وذكر ذلك ابن لنكك حين قال :

ما أوقح المتنبى   فيما جنى رادعاه
أبيح مالا عظيما   حتى أباح قفاه
يا سائلى عن غناه   من ذاك كان غناه

يريد أن يتهمه بالتذلل لمن يقصده بشعره فى سبيل الحصول على المال ٠٠

ومهما يكن من أمر فان وجود المتنبى بالعـراق قـد أكسب النقد حركة ، كما أثار فى الشعر ثـورة ان تكن كلهـا مستهدفة الشاعر وشعره ، فانها قد أفادت الادب ، وخلفت لنا تراثا طيبا حول الشاعر وشعره ، وحصيلة هذا كله قصائد كثيرة وان تكن فى الهجاء ، وكتب ومحاورات فى جيد شعره وقبيحه ، وفـى معانيه ومراميه ، وسرقاته ، وما حاكى فيه الحكماء أمثال أرسطو ، وما انفرد به من وحشى اللغـة وغريبها لفظا وتركيبا ٠

وتقترب آثاره فى هذا المجال من آثاره فى حلب مع شعرائها وعلمائها فى بلاط سيف الدولة ٠

وان يكن النقد قد أفاد فان الشعر لم يظفـر من أبى الطيب بقصائد من فرائده ٠ ولم تطل اقامته ببغداد ، فسرعان ما حث الركاب الى الشرق ٠

ولا نذكر له فى العراق سوى قصيدة لامية يمدح بها قائدا جاء الى الكوفة يعين أهلها على بعض الخـوارج الذين ألمـوا بهـا وأصابوا مقاتل من أهلها ، وشـارك المتنبى فى الدفاع عنهـا ، وقابل القائد أبا الفوارس دلير بن لشكروز وأنشـده اياهـا فى الميدان ٠ قال :

كدعواك كل يدعى صحة العقل ومنذا الذى يدرى بمافيه منجهل

« وحمله دلير على فرس بمركب ذهب » (١) ٠

---

(١) الواضـح ، ص ١٣ ٠

وقصد أبو الطيب أبا الفضل ابن العميد فى أرجان · قال الاصبهانى :

« وكان السبب فى قصده أبا الفضل ابن العميد على ما أخبرنى على بن شبيب القاسانى ، ــ وكان أحد تلامذتى ، ودرس على بقاسان سنة ٣٧٠ ثلاثمائة وسبعين ــ أن المعروف بالمطوق الشاشى كان بمصر وقت المتنبى ، فعمد الى قصيدته فى كافور :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وجعل مكان أبا المسك « أبا الفضل »· وسار به الى خراسان· وحمل القصيدة عن المتنبى الى أبى الفضل ، وزعم أنه رسوله ، فوصله أبو الفضل بألفى درهم · واتصل هذا الخبر بالمتنبى ببغداد فقال : رجل يعطى لحامل شعرى هذا ، فما تكون صلته لى ؟ · · ·

وكان أبو الفضل ابن العميد يخرج فى السنة من الرى خرجتين الى أرجان يجبى بها أربع عشرة مرة ألف ألف درهم فنا حديثه الى المتنبى بحصوله بأرجان ·

قال الثعالبى : « ثم ان أبا الطيب اتخذ الليل جملا ، وفارق بغداد متوجها الى حضرة أبى الفضل ابن العميد مراغما للمهلبى الوزير ، فورد أرجان ، وأحمد مورده (٢) ·

---

(٢) أبو الطيب ، ص ٤٢ ·

قال ابن جنى (٣) عن على بن حمزة البصرى قال : كنت مع المتنبى لما ورد أرجان ، فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدر والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال : تركت ملوك الارض وهم يتعبدون لى ، وقصدت رب هذه المدرة ، فما يكون منه ؟ .. ثم وقف بظاهر المدينة . وأرسل غلاما على راحلته الى أبى الفضل ابن العميد ، فدخل عليه وقال : مولاى أبو الطيب خارج البلاد . وكان وقت القيلولة وهو مضطجع فى دسته ، فثار من مضجعه أبو الفضل ، واستثبته ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب ، واستركب من لقيه فى الطريق ، ففصل عن البلد بجمع كثير ، فتلقوه وقضوا حقه ، وأدخلوه البلد ، فدخل على أبى الفضل فقام له من الدست قياما مستويا ، وطرح له كرسى عليه مخدة ديباج . وقال أبو الفضل : مشتاق اليك يا أبا الطيب ، ثم أفاض المتنبى فى حديث سفره ، وأن غلاما له احتمل سيفا وشذ عنه .

وأخرج من كمه عقيب هذه المفاوضة درجا فيه قصيدته :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك ان لم يجر دمعك أو جرى

وقيل أنه ورده بارجان فى ربيع الاول سنة أربع وخمسين وثلاثمائة .

فوحى أبو الفضل الى حاجبه بقرطاس فيه مائتا دينار ،

---

(٣) الواضح ، ص ١٦ .

وسيف غشاؤه فضة وقال : هذا عوض عن السيف المأخوذ . وأفرد له دارا نزل بها ، فلما استراح من تعب السفر كان يغشى أبا الفضل كل يوم ويقول : ما أزورك أكبابا الا لشهوة النظر اليك ، ويؤاكله . وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ، ويتعجب من حفظه وغزارة علمه .

وأظلهم النيروز ، فأرسل أبو الفضل بعض ندمائه الى المتنبى ليقول : كان يبلغنى شعرك بالشام والمغرب وما سمعته دونه . فلم يحر جوابا الى حضرة النيروز وأنشده مهنئا ومعتذرا :

هل لعذرى الى الهمام أبى الفضل	قبول سواد عينى مداده
ما كفانى تقصير ما قلت فيه	عن علاه حتى ثناه انتقاده
اننى أصيد البزاة ولكن	أجل النجوم لا أصطاده
ما تعودت أن أرى كأبى الفضل	وهذا الذى أتاه اعتياده

ومطلع هذه القصيدة :

جاء نوروزنا وأنت مراده	وورت بالذى أراد زناده

قال الاصبهانى : فأخبرنى البديهى سنة ثلاثمائة وسبعين أن المتنبى قال بأرجان : الملوك قرود يشبه بعضهم بعضا ، لا على الجودة يعطون .

وكان حمل اليه أبو الفضل خمسين ألف دينار توابعها . وهو من أجاد زمان الديلم .

وأثار المتنبى فى حضرة ابن العميد نقاشا حول شعره بين

المعجبين والمعترضيين • قيل أنه بعد ما أنشد رائيته فيه • تنازع ندماء ابن العميد فى البيت الاخير وهو قوله :

فتـرى الفضيلة لا تـرد فضيلة   الشمس تشرق والسحاب كنهورا

فقال أثبتـوه حتى أتأملـه فأثبت البيت ووضع بين يديه ، فأطرق مليا يفكر فيه ، ثم قال : هذا يعطلنا عن المهم ، وما كان الرجل يدرى ما يقول •

وهكذا أتيح للمتنبى ناقد من ممدوحيه مـرة أخـرى يسمع الشعر ويجرى فيه البحث والنظر وأشـار الى تعقب ابن العميـد لشعره ونقـده فى قوله :

هل لعذرى الى الهمام أبى الفضل   قبـول سـواد عينـى مـداده
انـا من شـدة الحيـاء عليـل   مكرمـات المعلى عـواده

* * *

رب مـالا يعبـر اللفظ عنـه   والذى يضمر الفـؤاد اعتقاده

وقصيدة فى النيروز من أربعين بيتا بعث بها اليه ، هدية فى هذا العيد ، كما اعتاد الناس الهدايا • وكان من عادة الفرس فى ذلك اليوم حمل الهدايا الى ملوكهم فقال أبو الطيب :

كثر الفكر كيف تهدى كما اهد   ت الى ربهـا الرئيس عبـاده
والذى عندنا من المـال والخيـ   ـل فمنـه هباتـه وقيـاده
فبعثنـا باربعـين مهـار   كل مهـر ميدانـه انشـاده
عدد عشته يـرى الجسـم فيـه   اربـا لا يـراه فيمـا يـزاده
فارتبطهـا فـان قلبـا نماهـا   مربـط تسبق الجيـاد جيـاده

قال البديعى (١) : « وهذا من احسان أبى الطيب ، واحتج عن تخصيص أبياته الاربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة ، وهى أنه جعلها كعدد السنين التى يرى الانسان فيهـا من القـوة والشباب ، وقضاء الاوطار مالا يراه فى الزيادة عليها ، فاعتذر بألطف اعتذار فى أنه لم يزد القصيدة على هذه العدة » ٠

وكان بين مؤيديه والمنتصرين له أبو الفتـح ابن العميد ابن أبى الفضل ، وكان بالسرى ، ونسخت القصيدتان اللتـان مدح بهما الشاعر والده ، فعاد الجواب يذكر شـوقه الى أبـى الطيب ، وسروره به ٠ وانفذ أبياتا طعن فيها على المعترضين لقول الشعر٠ فقال أبو الطيب والكتاب بيده ارتجالا :

بكتب الانـام كتـاب ورد	فدت يـد كاتبـه كل يـد
يعبـر عمـا لنـا عنـده	ويذكر من شوقـه ما نجـد
فاخرق رائيـه ما قد رأى	وأبرق ناقـده ما انتقـد
اذا سـمع النـاس ألفاظـه	خلقـن له فـى القلوب الحسـد
فقلت وقـد فرس الناطقين	كذا يفعـل الاسـد بن الاسـد

وقد أتيح للمتنبى فى هذه المرحلة المشرقية من حياته جماعة من العلماء والادباء والرؤساء نقدوا شـعره ، وتعقبوا سقوطه ، وهولوا ، وملأوا الجو ضجيجا ٠ وعيبا ٠

وأولهم الاديب الوزير الناقد الصاحب بن عباد ٠ وقصته مع

---

(١) الصبح المنبى ، ص ١٥٥ ٠

أبى الطيب ، قصة كل حاقد رأى أمامه الفضل فتمناه لنفسه فلما عـزه ، حمل عليه ، وأزرى بـه ٠

قال الثعالبى (٢) : « يحكى أن الصاحب أبا القاسم طمع فى زيارة المتنبى اياه بأصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب ، وحالة حويلة ، ولم يكن استوزر بعد ، وكتب اليه يلاطفه فـى استدعائه ، وتضمن لـه مشاطرته جميع ماله ، فلم يقم له المتنبى وزنا، ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده »٠

ولم يهتم أبو الطيب بأمـر هـذا الفتى ، بـل كان رده عليه تعاليا واحتقارا لشأنه ٠ وروى البديعى أن المتنبى قال لاصحابه : ان غليما معطاه بالرى يريد أن أزوره وأمدحه ، ولا سبيل الى ذلك ٠

وغادر حضرة ابن العميد الى شيراز حيث الامير البويهى عضد الدولة ٠ قال الاصبهانى (٣) : « ثم ان أبا الطيب المتنبى لمـا ودع أبا الفضل بن العميد ، ورد كتاب عضد ليستدعيه ، فعرفـه أبو الفضل ، فقال المتنبى : مالى وللديلم ، فقال أبو الفضل : عضد الدولة أفضل منى ، ويصلك بأضعـاف مـا كنت وصلتك بـه ٠ فأجاب بأنى ملقى من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد ، وأملكهم شيئا يبقى بقاء النيرين ويعطوننى عرضـا فانيـا ، ولى ضجرات واختيارات فيعوقوننى عن مرادى ، فأحتاج الى مفارقتهم

---

(٢) أبو الطيب ، ص ٤٢ ٠

(٣) الواضـح ، ص ٢٠ ٠

فكاتب أبو الفضل عضد الدولة بهذا الحديث ، فأجاب بأنه مملك مراده فى المقام والطعن ·

فسار المتنبى من أرجان ، فلما كان على أربعة فراسخ من شيزار استقبله عضد الدولة بأبى عمر الصباغ · (أحد علماء اللغة عنده) فلما تلاقيا وتسايرا استنشده ، فقال : الناس يتناشدون فاسمعه فقال أبو عمر أنه رسم له ذلك عن المجلس العالى ، فبدأ بقصيدته التى فارق مصر بها :

الا كل ماشية الخيزلى فدا كل ماشية الهيدبى

ثم دخل البلد فأنزل دارا مفروشة ·

ورجع أبو عمر الصباغ الى عضد الدولة وأخبره بما جرى ، وأنشده أبياتا من كلمته وهى :

فلما أنخنا ركزنا الرماح حول مكارمنا والعلا
وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن العراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفيت وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتى

فقال عضد الدولة : هو ذا يتهددنا المتنبى ·

ثم لما نفض غبار السفر واستراح ، ركب الى عضد الدولة، فلما توسط الدار انتهى الى قرب السرير مصادمه فقبل الارض واستوى قائما ، وقال : شكرت مطية حملتنى اليك ، وأملا وقف بى عليك ·

ثم سأله عضد الدولة عن مسيره من مصر وعن على بن حمدان·

فذكره . وانصرف وما أنشد . وروى عن القاضى عبد العزيز بن يوسف الجرجانى ، وكان كاتب الانشاء فى بلاط عضـد الدولـة عظيث المنزلة منه (١) أنه قال : لمـا دخل أبو الطيب المتنبى مجلس عضد الدولة وانصرف عنه ، أتبعه بعض جلسائه ، وقال له : سله كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الامراء الذين لقيهم منا ؟ قال : فامتثلت أمره ، وجاريت المتنبى فى هذا الميدان ، وأطلت معه عنان القول ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه منى أن قال : ما خدمت عيناى قلبى كاليوم .

ولقد اختصر اللفظ ، وأطال المعنى ، وأجـاد فيـه . وكان ذلك منه أوكد الاسباب التى حظى بها عند عضد الدولة » .

ويقال أن أول قصيدة أنشده اياها قوله (٢) :

أوه بديـل من قولتـى واهـا لمن نات والبديـل ذكراهـا

أنشدها سنة أربع وخمسين وثلاثمائة .

ولكن الاصبهانى يذكر أن قصيدة الشعب النونية هى أول ما أنشـده (٣) . قال الاصبهانى أنه بعد أيام من وصوله شيراز حضر سماط عضد الدولـة ، وقـام بيـده درج فأجلسه عضـد الدولة وأنشد :

---

(١) الصبـح المنبى ، ص ١٦١ .

(٢) هكذا فى الصبح المنبى وديوانه ، طبع عزام ، ص ٥٥٢ .

(٣) أبو الطيب ص ٤٠ .

مغاني الشعب طيبا فـي المغاني بمنزلة الربيع مـن الزمان

فلما أنشدها وفرغوا من السماط حمل اليه عضد الدولة من أنواع الطيب في الاردية والامنان من بين الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقلد فرسه الملقب بالمجروح ـ وكان اشترى له بخمسين ألف شاة (عملة فارسية) ، وبدرة دراهما عدلية ، ورداء حسـوه ديباج رومي مفصل ، وعمامـة قومت خمسمائة دينـار ، ونصلا هنديا مرصع النجاد والجفن بالذهب » .

ويحكي الثعالبي (٢) : أنه لـما أنشـد المتنبي عضد الدولـة قصيدته هذه ، وانتهى الى قوله :

والقي الشرق منها فـي ثيابي دنانـيرا تفـر مـن البنـان

قال عضد الدولة : لاقرنها في يديك . ثم فعل .

القريب الى المنطق رواية الاصبهاني ، لأن المتنبي حين بـدأ القصيدة بوصف شعب بـوان وكان في طريقـه الى شزيار كان يجرى على عادة شعراء العرب فـي وصف الرحلـة الى الممدوح ، والمعقول أن يصف رحلته اليه بعد زمن يقضيه في جنابه ثـم أن روح القصيدة ، وما فيها من جو التفاؤل ينبيء بهذا .

قال الاصبهاني : « وبعد ذلك كان ينشده في كل حدث يحدث قصيدة الى أن حدث يوم نثرا لورد ، فدخل عليه والملك على السرير في قبة يحسر البصر فـي ملاحظتها بأبـواب ، والاتراك ينثرون

---

(٢) الواضـح ، ص ٢١ .

الورد ، فمثل المتنبى بين يديه وقال : ما خدمت عينى قلبى قبل اليوم وأنشد يقول :

قد صدق الورد فى الذى زعما　　أنك صيرت نثره ديما
كانما مائج الهواء به　　بحر حوى مثل مائه عنما

فحمل على فرس ومركب ، وألبس خلعة ملكية ، وبدرة بين يديه محمولة ٠

وكان هذا اليوم من أعيادهم ، وكان عضد الدولة جلس للشراب ، وطاف به غلمانه من الاتراك ينثرون عليه الورد ٠

وطابت له الاقامة بشيراز ، ولقى الترحيب والاكرام ، والتف حوله العلماء والنقاد فمنهم المعجب المخلص له كابن جنى ، وعلى بن حمزة الاصبهانى ، والقاضى على بن عبد العزيز صاحب الوساطة ، ومنهم الناقد العائب مثل أبى على الفارسى ، ومحمد بن أبى اليثاب البغدادى ٠

وكان شعره فى بلاط شيراز أجود من غيره من الشعر الذى قاله قبل فى أرجان ، وان لم يبلغ درجة شعره عند سيف الدولة ولا فى مصر ، ولا فى رحلته منها الى الكوفة ٠ ولعل عضد الدولة لاحظ هذا أو لعل أحدا من مجالسيه من العلماء لفت نظره اليه ٠

قال الاصبهانى :وقال عضد بشيراز : المتنبى قال جيد شعره بالعرب ٠ فأخبر المتنبى به فقال : الشعر على قدر البقاع ٠

وفى هذا القول نغمة تعصب للعرب ومحبة لاهله ووطنه ،

وقد لازمه هذا الشعور طوال بقائه فى فارس سواء فى أرجان أو شيراز · ونم عنه شعره فى عضد الدولة خاصة حين يقول :

أوه ممن لا أرى محاسنها وأصل واها وأوه مرآها
شامية طالما خلوت بها تبصر فى ناظرى محياها

الى أن يقول :

أحب حمصا الى خناصرة وكل نفس تحب محياها

ويقول فى قصيدة الشعب :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

ويقول :

ولو كانت دمشق ثنى عنانى لبيق الثرد ، صينى الجفان

وكان قد كره الذهاب الى هؤلاء الملوك بالمشرق ، وقال لابن العميد وهو يغريه بالذهاب الى شيراز مالى والديلم ؟ · لكنهم ألحوا عليه وأغدقوا المال والعطايا ، فلم يجد مندوحة من الذهاب ، طمعا فى المال ، ورغبة فى الشهرة · ولعله اتخذ موضوع المديح داعيا للقول ، وسببا الى الثراء ، لكن طبعه كان يفيض بالشعر لانه شاعر ، ولانه يريد أن يرضى الادباء والعلماء ممن ينتظرون كل جديد منه ، ويتلهفون على سماعه ·

حدث ابن جنى عن على بن حمزة الاصبهانى قال : كنت حاضرا بشيراز وقت عرضه لهذه القصيدة : (يعنى شعب بوان) وقد سئل عن معنى هذا البيت :

وكـان ابنـا عـدو كاثـراه ... لـه يـاءا حـروف انيسيان

قال فالتفت الى (المتنبى) وقال : لو كان صديقنا ابن جنى حاضرا لفسره . قال ابن جنى وقـال لى يومـا : أتظن أن عنايتى بهذا الشعر مصروفة الى من أمدحه بـه ؟ ليس الامـر كذلك . لو كان لهم لكفاهـم منـه البيت ، قلت : فلمن هو ؟ قـال : هو لك ولاشباهك .

وكانت زورته لعضد الدولة ناجحـة بمـا جنـى من الثروة والشهرة ، ولقاء أفاضل الادبـاء والعلمـاء ممن اهتموا بشعره وقدروه حق قدره ، أو من حسدوه وحقدوا عليه ، وكان حسدهم مدعاة للحديث عن شعره ، ذموه ، فزادوه شهرة ، وتحدثـوا عنـه فنشروا محاسنه كما قال أبو تمام :

واذا اراد الله نشـر فضيلـة ... طويت أتاح لهـا لسان حسـود
لولا اشتعال النار فيما جـاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العـود

قال البديعى (١) :

« ولما أنجحت سفرته ، وربحت تجارته بحضرة عضد الدولة ، ووصل اليه من صلاته أكثر من مائتى ألف درهم أستأذن فى المسير عنها ، ليقضى حوائج فى نفسه ، ثم يعود اليها ، فأذن له ، وأمر بأن يخلع عليه الخلع الخاصـة ، وتعـاد صلته بالمـال الكثـير ، فامتثل لذلك ، وأنشده هذه القصيدة :

---

(١) الصبح المنبى عن حينية المتنبى ، ص ١٦٧ ، وراجع أبو الطيب للثعالبى ، ص ١٤٢ .

فلو أنى استطعت خفضت طرفى ‏ فلم أبصر بـه حتـى أراكـا

وقال الاصبهانى (٢) :

« فلما أقام مدة مقامه ، وسمع ديوان شعره ارتحل وسـار بمراكبـه ، وظهـوره ، وأثقالـه وأحمالـه الى أن نـزل الجسر بالاهواز » ·

وكان أبو الفتح ابن أبى الفضل ابن العميـد قد بعث اليـه بكتاب من الرى ، ومضمونه الشوق الى لقـاء المتنبى وتشوقه الى تطرقه عليه ، فأجابه المتنبى :

بكـتب الانـام كتـاب ورد ‏ فـدت يـد كاتبـه كـل يـد
اذا سـمع النـاس ألفاظـه ‏ خلقن له فى القلوب الحسـد
فقلت وقـد فـرس الناظريـ ‏ ـن كذا يفعل الاسـد بن الاسد

فلما أعاد الجواب الى أبى الفتح جعل الابيات سورة يدرسها ويحكم للمتنبى بالفضل على أهل زمانه (٣) ·

وكان أبو الفتح يتعصب للمتنبى ، لكن الشاعر لم يجد فرصة للقائه ، وكان فى عجلة من أمـره حنينا الى بـلاده ، وربما ساقه حنينه ، واستعجله أجلـه ·

وكان خروجه من شيراز الى الاهواز رحلته الاخيرة فى الحياة·

---

(٢) الواضـح ، ص ٢٤

(٣) الواضـح ، ص ٢٣ ·

قال البديعى : « فلما فارق أعمال فارس حسب أن السلامة تستمر به كاستمرارها فى مملكة عضد الدولة فقتل » ٠

وترك المتنبى شيراز فى رمضان سنة ٣٥٤ هـ وبلغ مدينة واسط بالاهواز ، وعند ضيعة هناك قرب مكان يقال له دير العاقول خرج عليه فاتك الاسدى ، وكان من الفتاك المشهورين وكان موتورا منه لان الشاعر هجا من يقال له (ضبة) فى أثناء مقامه بالكوفة ، وتعرض فيها لامه ٠ وكانت أخت فاتك هذا ، فأقسم لئن اكتحلت عينه به أو جمعته واياه بقعة ليسفكن دمه ٠

وما زال يترصد له حتى علم بخروجه من عند عضد الدولة متجها الى الاهواز ٠ وبلغ أبو الطيب المكان ليلا ، ومعه رحله وولده وعبيده ، فخرج عليه فاتك ومعه سبعون رجلا من الاعراب الفتاك ومن أبناء عمومته ممن كانوا يضمرون للشاعر ما يضمره لتشهيره بابنة عمهم وقتلوا كل من كان فى صحبته ، وحمل فاتك على المتنبى وطعنه ، فوقع من فوق فرسه ٠ ونهبوا ماله وكل ما معه حتى دفاتره ٠

وكان لمقتله أثره المروع فى نفوس محبى شعره ورثاه الشعراء والعلماء مراثى فيها فجيعة الفقد ٠

والمتنبى فى الشعر العربى يمثل شخصية جبارة ، لها خصائصها المميزة التى تكشف عن نفسها وقلما نجد فى الشعر العربى من ظهرت شخصيته فى شعره ظهور شخصية أبى الطيب ٠

وأول ما يلقانا من هذه الشخصية قوة الذات ، وارتفاع نبرة الانا • فيقول :

أنا الذى بين الاله به الاقـ ـدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها وغصة لا تسيغها السفله

هذا الاعتداد بالنفس كان فيما يبدو خلقة فيه وعززه موهبته الشعرية ، وذكاء مفرط الى دهاء ربما صرفه الى غير الخير ، أو للعبث بعقول الناس والسخرية منهم •

قال ابن فورجة : « كان المتنبى داهية ، مر النفس ، وخيل اليه منذ حداثته أنه مخلوق ممتاز ، يفوق الناس جميعا ، ولا يروق له أحد منهم ، ولا يسمو اليه وأنه انما بلغ ما بلغ خلقة وطبعا لم يأته التفوق وراثة عن آبائه وأجداده :

لا بقومى شرفت ، بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجانى وغوث الطريد
ان أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا رب الندى ورب القوافى وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح فى ثمود

وهذا العجب ، وتلك الكبرياء ليس عجيبا منه ، لانه هو نفسه عجيب ، وظاهرة فريدة فى وسط قومه وعصره ، ولهذا فهو غريب بين قول لا يدركون فضله ، ولا يحسنون فهمه ولا يقدرونه قدره •

ويحمل بين جنبيه همة عالية ، جاءته من طبعه ، وحساسيته ،

وشعوره بالتفوق ويبالغ فى التعبير عن تلك الهمة فى شبابه ، وعن غايته ما هـى ؟ ··· ويجيب عن تساؤل الناس من هو ؟ ومـاذا يبغـى ؟ :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ... ويجـهل علمـى أنـه بى جاهل
ويجهل أنى مالك الارض معسر ... وأنى على ظهر السماكين راحل
تحقـر عندى همتى كل مطلب ... ويقصر فى عينى المدى المتطاول

ويقــول :

أمط عنك تشبيهى بمـا وكانه ... فما أحد فوقى ولا أحد مثـلى

ويقــول :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابـلا الا لخالقـه حـكما
يقولون لى من أنت فى كل بلدة ... وما تبتغى،ما ابتغى جل أن يسمى

غربة فى الزمان ، غربة بين الناس ، تعال وشعور عارم بالتفوق ، يدفعه الى التعالى ، والتعالى حتى على نفسه :

واقفا عند أخمصى قدر نفسى ... واقفـا عنـد أخمصى الانـام

لاشك أن هذه النفس الكبيرة المرة ، فقدت تكيفها مع المجتمع من حولها ، وبدت آثار غربتها فـى مظاهر عـدة يحكمها الملـل والقلق ، وعدم الرضا بانسان ، ولا مكان ، زمان تحكمها الثورة ارادة التغيير ، والعنف فتبدو الرغبة فى الهدم والقتل ، ويبدو التعطش الى الدم · ويحكمها الغضب ، والمرارة ، وعـدم الرضا بانسان ، ولا مكان ، ولا زمان تحكمها الثـورة ارادة التغيير ، والعنف فتبدو الرغبة فى الهـدم والقتل ، ويبـدو التعطش الى

الدم • ويحكمها الغضب والمرارة ، وعدم الرضا بنعيم العيش ، ولا الركون الى الدعــة ، والتنعم بالملاذ ومطايب الحيــاة من نساء وخمر ولعب ، يحكمها النظرة الى كل شيء من عل ، فيرى كل شيء صغيرا ، حقيرا ، الناس ، والدنيا ، والزمن والحياة •

اذا نبعت عن هــذه النفس المتعاليــة ، والاحساس بالغربة صفات غلبت على شعره منذ صباه الى وفاته •

فأما احساسه بالغربة ، وبأنه منفرد فى هذا الزمان ، وبأنه وحيد ، فنجده فيما عرضنا من شعره فى احساسه بالامتياز ، وبأنه عجيب فلهذا يشعر الناس بعجبه ، وهو يعجب لانه يرى فى نفسه ظاهرة غريبة ، وهو غريب كغربة صالح فى ثمود ، وكغربة التبر فى التراب •

وهو لا يهتم بأن يتجاهله الناس أو يجهلونه ، فذلك لا يغير من جوهره ، والدر در برغم من جهله :

ويظهــر الجهل بــى واعرفـــه   والــدر در برغــم مــن جهلــه

وظاهرة القلق ، ظاهرة طبيعية لهذه النفس التى لا تطمئن الى الحياة ، ولا تجد من يقدرها ولا تجد فى الارض مثوى ، فكل أرض تضمها تنفضها ، وكل منزل تنزله تلفظه •

أرق عــلى أرق ومثــلى يــارق   وجــوى يزيد وعبــرة تترقــرق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى   عـــين مســهدة وقلب يخـفق
مــالاح بــرق أو ترنــم طائــر   الا انثنيت ولى فــؤاد شـــيق

أبيات فى الغزل والنسيب ، وشكوى الحب فى ظاهرها ، لكن حبه ذاك ، هو همه ، أو ما تنطوى عليه نفسه ، ولا يجد السبيل اليه •

عذيرى من عذارى من أمور سكن جوانحى بدل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عصر عن الاسياف لسن عن الثغور
ركبت مشمرا قدمى اليها وكل عذافر قلق الضفور

وهكذا القلق يدفعه الى الرحلة دائما ، وعدم الاستقرار فى مكان :

أوانا فى بيوت البدو رحلى وآونة على قتب البعير
أعرض للرماح الصم نحرى وأنصب حر وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى كأنى منه فى قمر منير

ويقول فى رغبته فى الرحلة وقلقه :

ألفت ترحلى وجعلت أرضى قتودى والغريرى الجلالا
فما حاولت فى أرض مقاما ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتى أوجهها جنوبا أو شمالا

وهذا الهم ، أو الامل الذى يأخذ عليه مجامع نفسه يتخايل له دائما ،فيصوره فى صور مختلفة ، فهو فى مطلع قصائده حبيبة بعيدة المنال ، ويوسوس له هاجسه بأنه لن ينالها حتى الموت ، ولعله يموت دون لقياها :

يا حادبى غيرها واحسبنى أوجد ميتا قبيل أفقدها
قفا قليلا بها على فلا أقل من نظرة أزودها
ففى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها
شاب من الهجر فرق لمته فصار مثل الدمقس أسودها

ويقــــول :

أبعـد نـاى المليحــة البخـل   في البعـد مـالا تكلف الابـل
ملولة مـا تـدوم ، ليس لهـا   مـن ملـل دائـم بهـا ملـل

ويقــــول :

بقائي شـاء ، ليس هم ارتحـالا   وحسن الصبر زمـوا لا الجمالا

ويقــــول :

فى الغد أن عزم الخليط رحيلا   مطر تزيد به الخـدود محـولا

فى مطلع قصيدة يمدح بها بـدر بن عمـار • ويقول فـى مطلع قصيدة يمدح سيف الدولة ، ويذكر غزوة له فى أرض الروم :

ليـالى بعد الظاعنـين شـكول   طوال ، وليل العاشقين طويل
يبن لى البـدر الذى لا اريـده   ويخفين بدرا مـا اليـه سـبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة   ولكننى للنائبـات حمـول
وان رحيلا واحـدا حـال بيننا   وفى الموت من بعد الرحيل رحيل
اذا كان شم الروح أدنى اليكم   فلا برحتنـى روضـة وقبـول
وما شرقى بالمـاء الا تذكـرا   لمـاء به أهـل الحبيب نـزول
يحرمـه لمـع الاسـنة فوقـه   فليس لظمـآن اليـه وصـول
أما فى النجوم الساريات وغيرها   لعينى عـلى ضـوء الصباح دليل
ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتى   فتظهـر فيـه دقـة ونحـول

ففى هذه المقدمة يضمن المتنبى أحـاسيسه ومشاعره ، هـو يحب حبيبا ، وينطوى صدره على هوى كبير عظيم ، يعرى جسـده ويضنيه ، ضنى من الشوق ، وضنى من الرحلة هـواه مرتحـل لا يقيم ، وشوقه وجسده وراءه فى رحيل غـير مقيم ، هـواه كذلك

بعيد بعيد ، عزيز ، منيع ٠٠ وهو مع ذلك لا يمله ، وانما يسعى اليه رغم ما يلقى من متاعب وآلام ٠

وقد يتراءى له هذا الهوى ، أو الهم بعيدا بعيـدا ٠ تحوطه الظلال ، والمتاهات ولا يتبين طريقه اليه ، ويبدو وكأنه يساير النجم فى الظلم ، ويتساءل :

حتام نحن نسارى النجم فى‌الظلم   وما سراه على ساق ولا قـدم

فهو دائب الرحلة يرافقه النجم فى الظلم ، والنجم يلقى اليه بنوره الامل ، بصيصا منه ، لكن الظلام من حوله داكن ، وهو فى رحلة الدهر ، ومسيرة الايام لا يلقى غير ضنى وحرب لا تهدأ ٠٠ هو الخاسر فيها :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا   ولا تسود بيض العذر واللمـم

فالايام تمضى ، وهى تأخذ منه شبابه ، وتحيل لون أديمـه ، وكم فى الدنيا من متناقضات :

أطاعن خيـلا من فوارسها الدهر   وحيداوما قولى‌كذا ومعى الصبر

ويجعل الايام عدوه ، والدهر متربصا بـه ، والحـرب بينهما على سـاق :

ومن لم يعشق الدنيا قديمـا ؟   ولكن لا سـبيل الى الوصـال
نصيبك فـى حياتـك من حبيب   نصيبك فـى منامـك من خيـال
رمانـى الدهـر بالارزاء حتـى   فؤادى فـى غشـاء مـن نبـال
فصـرت اذا اصابتنـى سـهام   تكسـرت النصـال على النصـال
وهـان فمـا ابـالى بالرزايـا   لانـى ما انتفعت بـان أبالـى

فهو يستهين بالدهر لانه لم يعد يخشاه فقد لقى كل مـا يمكن أن يلقى من مصائبه ، وبـلاه بكل ما يمكن أن يبتـلى الناس ، وهو يناضله ، ولا يستسلم ، ولكنه مـع ذلك يعترف فيما بينـه وبين نفسه أن غاية كل هذا الفناء والعدم ، فلا بقاء مع الايام ٠ وقد تبدو فى بعض لحظاته مشاعر تشاؤمية أو كما قيل آثار فلسفة رواقية سوداء كقوله فى هذه الابيات :

ابنى أبينا نحـن أهـل منـازل	أبدا غراب البين فيهـا ينعـق
نبكى على الدنيا ومـا من معشر	جمعتهم الدنيا ولم يتفرقوا
أين الاكاسرة الجبابرة الالى	كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه	حتى ثـوى فحـواه لحـد ضيق

والناس أبناء هذا الدهر ، أمثاله :

ودهـر ناسـه نـاس لئـام	وان كانت لهم جثث ضخـام

ويتمنى أن يتمثل له الدهر انسانا ، أو هو يقول أنه لو تمثل له انسانا لقتله ، وتمنى أن يقتل من الناس من يكره :

ولو برز الزمـان الى شـخصا	لخضب شـعر مفرقـه حسـامى

فهو ثائر عليه وعلى الناس لا يرضى بأن ينقاد له ، ولا لاحد ممن يملكهم الزمام ، فهو لا يلقى زمامه لاحد :

ومـا بلغت مشيئتهـا الليـالى	ولا سـارت وفى يدهـا زمامى

ويسلك الناس مع الزمان ، فهو غاضب عليهم وعليه :

اذم الى هـذا الزمـان أهيلـه	فاعلمهم فـدم وأحزمهم وغـد
وأكرمهـم كلب وأبصرهـم عـم	وأشهدهم فهـد وأشجعهم قـرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى	عدوا له ما من صداقتـه بـد

فقلبه مـلىء بالحقد عـلى الناس ، لانهـم خاسرون ، مخطئـون ، كاذبون ، خادعون ، منافقـون ، جبنـاء ، ويدعـون الشجاعة ، وبخـلاء ، يدعون الكـرم :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن	يخلو من الهـم أخلاهم من الفطن
وانما نحن فـى جيل سواسيـة	أخنى على الحـر من سقم على بدن
حـولى بكل مكان منهـم خلـق	تخطى اذا جئت فى استفهامها بمن
لا أقترى بلدا الا عـلى غـرر	ولا أمـر بخـلق غـير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهـم أحـدا	الا أحق بضرب الرأس من وثن

والدنيا ، أو الزمن والدهر لا يقيم مقاييس عادلة ، بل الحـال فيها حائل ، والاوضـاع متقلبـة لا تعطـى بمقدار مـا يستحق الانسان من طبع أو خلق ، أو قدرة ، أو علم ، أو ذكاء :

ولو لـم يعـل الا ذو محـل	تعالى الجيش وانحـط القتـام

ويقـــول :

ودهـر ناســه ناس صغـار	وان كانت لهـم جثث ضخـام
أرانب غـير أنهـم ملـوك	مفتحـة عيونهـم نيـام

ويقـــول :

وشـبه الشىء منجـذب اليـه	وأشبهنا بدنيانـا الطغـام

فأبو الطيب ثائر على الدهر اذا وعلى الناس ، ولا دواء لثورته ، ولا شفاء لنفسه الا القـوة • ففلسفته القوة ، هـى عقيدته فـى الحياة ، فالدنيا لمن غلب :

الموت أعذر لى والصبر اجمل بى	والبر اوسـع والدنيا لمن غلبا

والموت فى سبيل الحق أمر محبب لدى الرجال ، ولا يخافه سوى

الرعديد الجبان ، وان حياة الدعة تورث الخذلان ، والاستسلام :

ولعله بذلك يستثير همم العرب ، وقد رأى فيهم التخاذل أمام الشعوبية العارمة ، وتسلط العناصر غير العربية على الدولة ، فارتفعت مقاديرهم على حساب أصحاب الامر ، وملك العبيد أمور السادة ، وغلب الخدم على الارباب والملوك • وتراه يخاطب العربى فى نفسه أو يخاطب نفسه ويريد العربى الابى لا المغلوب على أمره :

الى أى حين أنت فى زى محرم   وحتى متى فى شقوة والى كم
والا تمت تحت السيوف مكرما   تمت وتقاسى الذل غير مكرم
فثب واثقا بالله وثبة ماجد   يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

وازاء هذه النفس العارمة المتعالية ، فان الاشياء والشخوص تتضاءل وتتضاغر وهو يشمخ ويسمو ، فلا يجد ما يدانيه مكانة أو يساويه قدرا :

أى محل ارتقى   أى عظيم اتقى
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى   كشعرة فى مفرقى

لقد أوردته هذه النفس موارد التهلكة ، فى الفعل والعقيدة ، وان جرأته فى الجهر بما يعتقد وتسرع لسانه الى ما يجرى ، ويثور فى خلده جر عليه كثيرا من الشرور والآثام • وأثار حفائظ الناس عليه ، فكادوا له وأوغروا الصدور من حوله ، وكثر أعداؤه وكائدوه ، وكثر حساده وغائظوه ، فتمثل فى كل خطوة

عدوا ، بل لقد تمثل فى كل أكمــة متربصا ، وخلف كل ربــوة رصدا أو عينا • يخاطب الدهر :

عدوى كل شــىء فيــك حتــى	لخلت الاكم موغــرة الصدور
فلو أنى حسدت على نفيس	لجدت به لــذى الجــد العثــور
ولكنــى حســدت عــلى حياتــى	وما ضر الحيــاة بــلا ســرور

أحب المتنبى المجد ، وافتخر بالقوة ، واعتز بالشجاعة والاقــدام والكرم ، وكره ما ضد هذا كله كره الضعة ، والذل ، والضعف ، والجبن والبخل •

فماذا حقق المتنبى فى نفسه من هذا كله ، لقد عشق المجد وحاول تحقيق شىء ما لنفسه فى صورة اغتصاب للامر بالقوة ، أو بالنبوة ، اذا صح هذا • ولقد تــروى الروايات عن ادعائــه النبوة ، ولئن لم تصدق كلها فقد يصدق بعضها ، ولعله لم يدع نبــوة كاملة ، بل لعل شبابه خيل له أمرا مــا ، قد يكون ادعــاء الامامة ، أو المهدية أو شيئا من هذا القبيل ولقد رأى فى نفسه قدرة ، وذكاء ، وعبقرية فــى البيان • قالــوا انه ادعى تقليد القرآن •• ولم ينف أبو العلاء بعض أخبار تنبؤه •

ولقد بلغ من المجد ما مكنه من أن ينشد الملوك والامراء وهو جالس اليهم ، بل أن بعض ممدوحيه كابن طاهر العلوى أجلسه مجلس الممدوح وجلس اليه بين يديه ينشده ولقد راسله الملوك يطلبون مديحه ، بعد أن سار شعره فى الآفــاق ، وخشى بعضهم أن يمر بهم متجاهلا اياهم ، فلا يخلدون فى التاريخ ، ولا تتناقل

الالسنة أسماءهم · وكان منهم من لم يعبأ بهم أبو الطيب استصغارا لشأنهم كالصاحب بن عباد ومنهم من جاملهم كأبـى الفضل بن العميد · ولقد كان ابن العميد يخشى أن يعبر بـه ولا يزوره فيبقى ذلك عارا يلصق به أبد الدهـر ·

لقد بلغ اذا من الشهرة مبلغا ، وأحب القوة ، واستخدام السيف ، لقد عشق الفروسية منذ شبابه الاول ، ولم يرض حياة الدعـة والترف فى الدور والقصور ، لقد كره كل مظاهر الخنوع والضعف حتى هذه الضفيرة الصغيرة من الشعر التى ترسل للصبى كرهها لمـا فيها من مظاهر التدليل ·· وقال :

لا تحسن الوفـرة حتى تـرى   منشورة الضفرين يوم القتال

ويفتخر بأنه لا يدع صهوة فرسه ، ولا يخلع لامـة الحرب :

مفرشى صهـوة الحصـان ولكن   قميصى مسـرورة من حديـد

وعندما ذهب الى سيف الدولة تعلم الفروسية ، وفنـون القتال ، وشارك سيف الدولة فى بعض حملاته ، وصمد فى بعض غزواته بأرض الروم · وقابل فى رحلاته بعض المتاعب من الاعراب أو رجال الصحراء فلقيهم بالقتال ، وكان فاتكا ، داهيـة ، ولا يطعن فى فروسيته تغلب فاتك الاسدى عليه وقتله اياه · وانه لم يجبن عن لقائه ، بل تقول الروايات أنه حذر من اتخـاذ الليـل رداء لرحلته الى الاهواز ، وخوف من ترصد عدوه لكنه لم يعبأ ، وغامر بالخروج ، لكن فاتكا تغلب عليه بكثرة عدده ومفاجأته فى كمين لم يستعد له ·

لم يكن أبو الطيب اذا جـرىء اللسان متخـاذل الجنان كما حاول أن يصوره بعض ناقديه أو الحاقدين عليه · وقد يختلف الناس معه فى عقيدته أو طباعه ، ولكن هذا الخلاف لا ينبغى أن يؤدى الى قلب الحقائق أو تصويرهـا فى صـور مغرضة ، تحيل فضائله رذائل أو رذائله فضائل ·

ربما كان فى بعض تصرفه غريبا أو متناقضا مع نفسه أو مع ما شاع من خلقه ، ولعلنا نلمس بعض صور الضعف فى مواقف بعينها فى حياته كذلك الموقف فى سجنه حين تصاغر أو ادعى صغر السن أعتذارا والتماسا للعفو · وكلجوئه الى كافور وهو عبد محتقر عنده وقد ارتضى لنفسه سؤاله وتعريضه به ، وربما رأى بعض الناس فى هذا مذلة أو مهانة · ولكنه كان يدرك فى أعماقه أنه قصد من لا يليق قصده ، وأن يدل شرا بخير ، وأراد أن يعاقب نفسه ونطق شعره بهذا العقاب ، خاصة وأنه لم يبلغ منـه مراده ·

غرض بالطلب فى قولـــه :

أبا المسك هل فى الكاس فضل أناله	فانى أغنـى منذ حـين وتشرب
وهبت على مقـدار كف زماننا	ونفسى على مقدار كفيك تطلب
اذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية	فجودك يكسونى وشغلك يسلب

وعاتب نفسـه فى قولـــه :

عثرت بسيرى نحـو مصر فلالعا	بها ولعا بالسير عنها ولا عشرا
وفارقت خير الناس قاصد شرهم	وأكرمهم طـرا لألأمهم طـــرا

فعاقبنى المخصى بالغـدر جازيا   لان رحيلى كان من حلب غـدرا
وما كنت الا قائل الراى لم اعن   بحزم ولا استصحبت فى وجهتى حجرا

وأحب المتنبى الغنى وسعى فى سبيل جمع المـال ورأى أنه لا مجد فى الدنيا لمن قل مالـه :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله   ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
وفى الناس من يرضى بميسور عيشه   ومركوبه رجلاه ، والثـوب جلده
ولكن قلبـا بين جنبـى مالـه   مدى ينتهى بى فى مراد احـده

وقالوا أنه جعل همه جمع المـال ، ولم يقنع بما أتيح من الثروة ، والغنى ، وقد حصل كثيرا من المـال ٠

قال البديعى : قال ابن فورجـه : كان المتنبى داهية ، مـر النفس ، شجاعا حافظا للادب عارفا بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا بخله وشرهه بالمـال ٠

وقال أبو البركات بن أبى الفرج المعروف بابن زيد التكريتى الشاعر قال : بلغنى أنه قيل للمتنبى : قد شاع عنك من البخل فى الآفاق ما قد صار سـمرا بين الرفاق ، وأنت تمدح فـى شعرك الكرم وأهله ، وتذم البخـل وأهله ٠ ألست أنت القائل :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافـة فقر فالذى فعل الفقـر

ومعلوم أن البخل قبيح ، ومنك أقبح ، لانك تتعاطى كبر الفضل ، وعلو الهمة ، وطلب المـال ٠ والبخل ينافى سائر ذلك ٠ فقال : ان لبخلى سببا ، وذلك أنى أذكر وقد وردت فى صباى من الكوفة الى بغداد ، فأخذت خمسة دراهم فـى جانب منديـلى ، وخرجت

أمشى فى أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ، فرأيت عنده خمســة من البطيخ باكــورة . فاستحسنتها ونويت أشتريها بالدراهم التى معى ، فتقدمت اليه وقلت : بكم تبيع هذه الخمسة البطاطيخ ؟ ، فقال بغير اكتراث : اذهب ، فليس هذا من أكلك ، فتماسكت معه : أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن . فقال : ثمنها عشرة دراهم . فلشدة ما جبهنى به ما استطعت أن أخاطبه فى المساومة . فوقفت حائرا ، ودفعت له خمسة دراهم ، فلم يقبل . واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ، ذاهبا الى داره ، فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه ، ودعا له وقال : يا مولاى ، هذا بطيخ باكور ، بأجازتك أحملــه الى منزلك ، فقال الشيخ : ويحك بكم هذا ؟ . قال : بخمسة دراهــم . فقال : بل بدرهمين . فباعه الخمسة بدرهمين ، وحملها الى داره ، ودعا له ، وعاد الى دكانه مسرورا بما فعل . فقلت له : يا هذا ، ما رأيت أعجب من جهلك ، استمت على فى هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم ، فبعتــه بدرهمين محمولا . فقال : اسكت . هذا يملك مائة ألف دينار . فعلمت أن الناس لا يكرمون أحدا اكرامهم ممن يعتقدون أنه لا يملك مائة ألف دينار . وأنا لا أزال على مــا تــراه حتى أسمع الناس يقولون : ان أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار (١) .

ولا ندرى مدى صحة هذه القصة ، ولكن أخبار بخله كثيرة .

---

(١) الصبح المنبى ، ص ٩٦ .

وقد يكون حريصا ، ولكنه لم يبلغ هذه الصورة الذميمة للبخل ودناءة النفس التى صورها بعض ناقلى أخباره (١) ٠

وكان أبو الطيب جادا ، حرا ، لا يميل الى اللهو ، عزوفا عن النساء وشرب الخمر والسماع ٠ حكى على بن حمزة البصرى قال : بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة ، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ، ولا لاط (٢) ٠

ويقول (٣) :

في الناس أمثلة تدور ، حياتها ... كمماتها ، ومماتها كحياتها
هبت النكاح حذار نسل مثلها ... حتى وفرت على النساء بناتها

ويقول :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فماالمجد الا السيفوالفتكة البكر

ويرى أن خلقه بما يجمع من المروءة والفتوة والاباء كمنعه من أن يتدنى الى اللهو الرخيص أو التشاغل باللذات عن الخمر والنساء :

وترى المروءة والفتوة والابو ... ة فى كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتى لذتى ... فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها
ومطالب فيها الهلاك أتيتها ... ثبت الجنان كأننى لم آتها

---

(١) راجع الصبح المنبى ، ص ٩٢ وما بعدها ٠ وأبو الطيب ما له وما عليه للثعالبى ، ص ٣٩ ٠

(٢) الصبح المنبى ، ص ٩٤ ٠

(٣) ديوانه ، ص ١٧٤ ٠

ورأيه فى المرأة لم يكن بالرأى فهى عنده مثال للخلف بالوعد ، والتقلب ، وجمال المظهر مع سوء المخبر :

ومن خبر الغوانى فالغوانى ضياء فى بواطنه ظلام

وأكره ما يكره من النساء الحضريات ، وقد علل كراهيته بأن حسنهن حسن مصنوع ، ولكن البدويات ذوات حسن طبيعى ، وهو يحب البداوة ، ويكره الحضر ففى الحضر تتمثل الاخلاق التى ينفر منها : التملق ، والمداهنة ، والكذب :

من الجآذر فى زى الاعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

يقول :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة، فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام، ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن ، صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصدق فى قولى وعادته رغبت عن شعر فى الوجه مكذوب

- ٣ -

لقد ظهر الشاعر المتنبى ، فحجبت شهرته الشعراء فى عصره، وتلقف الناس قصائده ، وتركوا قصائد غيره . وأتيح له من الحظ ما لم يتح لغيره ، ولقد بلغ من أمره ما أراد من قوله :

وتركك فى الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وعرف قدر أدبه فى النفوس • فقال :

أنا الذى نظر الاعمى الى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

ويقول مرة أخرى معتدا :

ولقد خبأت من الكلام سلافة   وسقيت من نادمت من جريالـه
واذا تعثرت الجياد بسهله   برزت غير معثر بجبالـه

فهو مالك ناصية البيان ، لا يصعب عليه الشعر مهما حـرن أو عزب ، وانه ليأتى بكل عجيب فيه • ويترك الناس حياله حائرين•

قال عنه الثعالبى : « نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر فى صناعة الشعر ، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب اليه ، المشهور به • اذ هو الذى جذب بضبعيه ، ورفع من قـدره ، ونفق سعر شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه ، فى البـدو والحضر ، وكادت الليـالى تنشده ، والايام تحفظه ، كما قال وأحسن ما شاء :

وما الدهر الا من رواة قصائدى   اذاقلت شعرا أصبحالدهر منشدا
فسار بـه من لا يسير مشمرا   وغنى به من لا يغنـى مغـردا •

وكما قـال :

ولى فيـك ما لـم يقـل قائـل   وما لم يسر قمـر حيث سـارا
وعنـدى لك الشـرد السائـرا   ت لا يختصصن من الارض دارا
اذا سـرن مـن مقـول مـرة   وثبن الجبال وخضـن البحـارا

قال الثعالبى : فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبى الطيب

من مجالس الانس ، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد ألفت الكتب في تفسيره وحل مشكلة عويصة ، وقصرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه . وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن أبكار كلامه وعونه . وتفرقوا فرقا في مدحه والقدح فيه والنضح عنه ، والتعصب له وعليه . وذاك أول دليل دل على وفور فضله ، وتقدم قدمه وتفرده عن أهل زمانه ، يملك رقاب القوافي ، ورق المعاني . فالكامل من عدت سقطاته والسعيد من حسبت هفواته (١) .

وقد كان أبو الطيب من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري (٢) . يقول الاصبهاني (٣) : جملة القول في المتنبي أنه من حفاظ اللغة ، ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب مستقى من الغريب المصنف ، سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة ، وهو قوله :

وأطوى كما يطوى المجلنة العقد

وأما الحكم عليه وعلى شعره ، فهو سريع الهجوم على المعاني ، ونعت الخيل والحرب من خصائصه وما كان يراد طبعه في شيء مما يسمع به ، يقبل الساقط الرذل ، كما يقبل النادر البدع ، وفي متن شعره وهي ، وفي ألفاظه تعقيد ، وتعويض .

---

(١) أبو الطيب ، ما له وما عليه ، ص ٣١ .

(٢) مقدمة ديوانه ، ص (لا) .

(٣) الواضح ، ص ٢٩ .

وكـان المتنبى يحفظ كثـيرا من الشعر الحديث ، وأعجب بشاعرين كبيرين من المحدثين هما أبو تمام والبحترى ، وأضاف اليهما بعض العلماء ابن الرومى (١) . قال الاصبهانى : « وكان المتنبى يحفظ ديوانى الطائيين ، ويستصحبهما فـى أسفاره ، ويمجدهما ، فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديـوان البحترى الى بعض الدارسين وعليه خط المتنبى ، وتصحيحه فيه (٢) » .

ومن هنـا اتهم أبـو الطيب بأخـذ بعض معانيـه منهما ـ الطائيين ـ وروى أنه قيل له : معنى بيتك هذا أخذته من الطائى ـ أبى تمام ـ فأجاب : الشعر جادة ، وربما وقع حافر على حافر .

وذكر العلماء مآخـذه من أبى تمـام ، وعدوهـا سرقات ، واتهموه بأنه اعتمد عليه كثيرا وانكر ذلك الاعتماد . وألف ابن الدهمان فى القرن الخامس كتاب « المآخذ الكندية من المعانـى الطائيـة » (٣) .

قال ابن رشيق (٤) : « وقال بعض من نظـر بين أبى تمام وأبى الطيب : انما حبيب كالقاضى العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه بعد طول النظـر ، والبحث عن البيئة ، أو

---

(١) الصبح المنبى ، ص ١٨٦ .

(٢) الواضـح ، ص ١٠ .

(٣) استدرك عليه ضياء الدين بن الاثير فى كتاب سماه « الاستدراك فى الاخذ على المآخذ الكندية من المعانى الطائية » .

(٤) العمـدة ٩٣٢/١ .

كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ، ويتحرج خوفا على دينه • وأبو الطيب كالملك الجبار ، يأخذ ما حوله قهرا ، وعنوة أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريده لا يبالى ما لقى ، ولا حيث وقع » •

واهتم العلماء بشعر المتنبى بين شارحى الديوان ، أو مفسرى مشكله ، أو متتبعى حسناته وسقطاته ، ومقيدى سرقاته ، وبدأ الحديث فيه بالحاتمى فى رسالتيه • الموضحة فى المآخذ ، وما شابه فيه أرسطو ، والصاحب بن عباد فى كشف مساوئه ، وابن وكيع التنيسى فى سرقاته ، والقاضى عبد العزيز الجرجانى فى الوساطة بينه وبين خصومه ، وابن الدهان فى مآخذه من أبى تمام ، وابن الاثير فى الاستدراك عليه ومعارضته ، والاصبهانى أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن فى توضيح مشكلاته والرد على ابن جنى ، والواحدى النحوى فى بيان مشكل أبياته •

ومن شراح ديوانه : ابن جنى ، وأبو العلاء المعرى فى كتابى : « اللامع العزيزى » ، ومعجز أحمد ، والواحد ، والتبريزى فى الموضح ، وعبد القاهر الجرجانى ، وأبو منصور السمعانى ، وأبو القاسم ابراهيم بن محمد الاقليلى الاندلسى (توفى سنة ٤٤١ هـ) ، والاعلم الشنتمرى ، وابن الانبارى ، والعكبرى ، وأبو اليمن الكندى (توفى سنة ٦١٣ هـ) ، وعبد الواحد بن زكريا ، وابن فورجه فى كتاب « التجنى على ابن جنى ، والفتح على أبى الفتح له أيضا •• وكثيرون غير هؤلاء •

قال البديعى (١) : « ولم يسمع بديوان شعر فى الجاهلية ولا الاسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول على ألسنة الادباء فى نظم ونثر أكثر من شعر المتنبى» ٠

ولابى الطيب المعانى البديعة ، والمحاسن البارعة التى فاق بها السابقين ، ومنها حسن مطلع القصائد ، كقوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول ، وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة   بلغت من العلياء كل مكان

وكقولـــه :

أعلا الممالك ما يبنى على الاسل   والطعن عند محبيهن كالقبل

وكقولـــه :

فؤاد ما تسليه المدام   ـ   وعمر مثل ما تهب اللئام

وكقولـــه :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

ومما يتصل بحسن المطالع براعة النسيب ـ على قلة اهتمامه به ، وتطلعه الى المرأة ـ مثل مطلعه الغزلى :

من الجآذر فى زى الاعاريب   حمر الحلى والمطايا والجلابيب

وكمطلعه الغزلى :

أيدرى الركب اى دم أراقا   وأى قلوب هذا الحى شاقا
لنا ولاهله أبدا قلوب   تلاقى فى جسوم ما تلاقى

---

(١) الصبح المنبى ، ص ٠ ٢٧ ٠

وفى هذا الغزل يقع بيته الجميل الرقيق فى معناه :

فليت هـوى الاحبة كان عـدلا ‏ ‏ ‏ فحمـل كـل قلب مـا أطاقـا

ومنها معانيه الرائعة يسوقها فى صور من التشبيه أو الاستعارة فتقع مواقعها فى النفوس كقوله :

ترنو الى بعـين الظبى مجهشـة ‏ ‏ ‏ وتمسح الطل فوق الورد بالعنم

وقولــه :

واستعار الحديد لونـا وألقـى ‏ ‏ ‏ لونـه فـى ذوائب الاطفـال

وقولـه فى الحمى :

وزائرتى كأن بهـا حيـاء ‏ ‏ ‏ فليس تزور الا فـى الظـلام
بذلت لهـا المطارف والحشـايا ‏ ‏ ‏ فعافتهـا وباتت فـى عظـامى

وكقولــه :

وانما نحن فى جيـل سـواسية ‏ ‏ ‏ شر على الحر من سقم على البدن
حـولى بكل مكان منهـم خـلق ‏ ‏ ‏ تخطىءاذا جئت فىاستفهامها بمن

وقد أحسن التصرف فى معانى الشعر ، كمعانى المديح ، وخاصة فى سيف الدولة ، فقد اتخذ من لقبه واسمه مـادة لصوغ معانى مديحـه كقولــه :

تهاب سيوف الهند وهى حدائد ‏ ‏ ‏ فكيف اذا كانت نزاريه عربـا

وكقولــه :

أتحسب بيض الهند أصلك أصلها ‏ ‏ ‏ وانك منها ، سـاء مـا تتوهـم
اذا نحن سـميناك خلنا سيوفنا ‏ ‏ ‏ من التيـه فى أعمادها تتبسـم

وكقوله فى معنى المديح بالكرم وعلو الشأن :

تمشى الكرام على آثار غيرهم   وأنت تخلق ما تاتى وتبتدع
من كان فوق محل الشمس موضعه   فليس يرفعه شىء ولا يضع

وامتاز المتنبى بقدرته على أن يسوق المعانى الفلسفية ، سوق الحكمة والمثل ، فى صياغة رائعة رصينة ، فتصبح جارية على كل لسان ، كقوله :

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايلام

وكقوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكقوله :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقال يمدح سيف الدولة سنة ٣٤٢ هـ :

ليالى بعد الظاعنين شكول   طوال وليل العاشقين طويل
يبن لى البدر الذى لا أريده   ويخفين بدرا ما اليه سبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة   ولكننى للنائبات حمول
وان رحيلا واحدا حال بيننا   وفى الموت من بعد الرحيل رحيل

* * *

اذا كان شم الروح يدنى اليكم   فلا برحتنى روضة وقبول
وما شرقى بالماء الا تذكرا   لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الاسنة فوقه   فليس لظمآن اليه وصول
اما فى النجوم السائرات وغيرها   لعينى على ضوء الصباح دليل

ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتى   فظهر فيـــه رقـــة ونحـــول
لقيت بدرب القلـة الفجر لقية   شفت كمدى والليل فيه قتيـل
ويوما كأن الحسن فيه علامـــة   بعثت بها والشمس منك رسول
وما قبل سيف الدولة آثار عاشق   ولا طلبت عند الظـلام ذحـول

* * *

ولكنه يأتى بكـل غريبـــه   تروق على استغرابها وتهــول
رمى الدرب بالجرد الجياد الى العدا   وما علمـوا أن السهام خيـول
شوائل تشوال العقارب بالقنـا   لهـا مرح من تحتـه وصهيـــل
وما هى الا خطرة عرضت لـه   « بحـران » لبتها قنـا ونصول

* * *

همام اذا ما هم أمضى همومـه   بأرعن وطء المـوت فيـه ثقيل
وخيل براها الركض فى كل بلدة   اذا عرست فيهـا فليس تقيـل
فلما تجلى من دلـوك وصبجـة   علت كل طـود رايـة ورعيـل
على طرق فيها على الطرق رفعـة   وفى ذكرها عند الانيس خمـول

* * *

فما شعروا حتى رأوهـا مغـيرة   قباحـا ، وأمـا خلقهـا فجميل
سحائب يمطرن الحديـد عليهم   فـكل مكـان بالسيوف غسـيل

وقال يمدح سيف الدولة :

لا الحلم جـاد بـه ولا بمثالـه   لولا ادكـار وداعـــة وزيالـــه
ان المعيد لنا المنـام خيالـــه   ـ كانت اعادتـه خيـــال خيالـه
بتنـا يناولنـا المـدام بكفـه   من ليس يخطر أن نـراه ببالـه
نجنى الكواكب من قلائد جيـده   ونـنـال عين الشمس من خلخاله
بنتم عن العين القريحة فيكـم   وسـكنتم ظن الفـؤاد الوالـــه
فدنوتم ، ودنوكم مـن عنـــده   وسـمحتم وسـماحكم من مالـه
انى لايغض طيف من احبتـه   اذ كان يهجرنا زمـان وصالـه

مثل الصبابة والكآبة والاسى | فارقته فحدثن من ترحاله
وقد استقدت من الهوى وأذقته | من عفتي ما ذقت من بلباله

* * *

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة | تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوه من الكلام سلافه | وسقيت من نادمت من جرياله
واذا تعثرت الجياد بسهله | برزت غير معثر بجباله
وحكمت في البلد العراء بناعج(١) | معتاده ، مجتابه ، مغتاله
يمشي كما عدت المطي وراءه | ويزيد وقت جمامها ، وكلاله
وتراع غير معقلات حوله | فيفوتها متجفلا بعقاله
فغدا النجاح وراح في أخفافه | وغدا المراح وراح في ارقاله
وشركت دولة هاشم في سيفها | وشققت خيس الملك عن رئباله
عن ذا الذى جرم الليوث كماله | ينسى الفريسة خوفه بجماله
وتواضع الامراء حول سريره | وترى المحبة وهي من آكاله (٢)

وقال في عتاب سيف الدولة :

أنشدها اياه في محفل من العرب والعجم :

واحر قلباه ممن قلبه شبم | ومن بجسمي وحالي عنده سقم
مالي أكتم حبا قد برى جسدي | وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته | فليت أنا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة | وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان احسن خلق الله كلهم | وكان أحسن ما في الاحسن الشيم

* * *

يا أعدل الناس الا في معاملتي | فيك الخصاموانت الخصموالحكم

---

(١) الناعج الناقة الخفيفة السريعة ، أو الفحل من الابل السريع ·
(٢) الآكال : القطائع ، واحدتها أكل ·

أعيذها نظـرات منـك صادقـة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظـره ... اذا استوت عنده الانوار والظلم
أنا الذى نظر الاعمى الى أدبـى ... وأسمعت كلماتى من به صمم
انام ملء جفونى عن شـواردها ... ويسهر الخلق جراهـا ويختصم

* * *

وجاهل مده فـى جهله ضحكـى ... حتى أتتـه يـد فراسـة وفـم
اذا رأيت نيـوب الليث بـارزة ... فـلا تظـنن أن الليث يبتسـم
ومهجـة مهجتى من هم صاحبها ... أدركتهـا بجـواد ظهـره حـرم
رجلاه فى الركض رجل واليدان يد ... وفعله ما تريد الكف والقـدم

* * *

ومرهف سرت بين الجحفلين بـه ... حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والحرب والضرب والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا ... حتى تعجب منى القـور والاكم
يا من يعز علينا أن نفارقهـم ... وجد اننا كل شىء بعدكم عدم
ما كان أخلقنـا منكـم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنـا أمـم
ان كان سركم ما قـال حاسدنا ... فما لجـرح اذا أرضاكـم ألـم
وبيننا لـو رعيتـم ذاك معرفة ... ان المعارف فى أهـل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبـا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتـون والكـرم

* * *

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ... أنا الثريا وذان الشيب والهـرم
ليت الغمام الذى عندى صواعقه ... يزيلهـن الى من عنـده الديـم
أرى النوى تقتضينى كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخـاذة الرسـم
لئن تركن ضمـيرا عن ميامننا ... ليحـدثن لمن ودعتهـم نـــدم

---

(١) القـور جمع قاره وهى المرتفع من الارض ٠

اذا ترحلت عن قوم وقد قــدروا　　أن لا تفارقهم فالراحلون هــم
شر البلاد بــلاد لا صديق بهــا　　وشر ما يكسب الانسان ما يصم
وشر ما قنصتــه راحتــى قنص　　شهب البزاة سواء فيه والرخــم
باى لفظ تقول الشعر زعنفــة　　تجوز عندك ، لا عرب ولا عجم
هــذا عتابــك الا أنــه مقــة　　قد ضمن الــدر الا أنــه كلــم

وقــال فــى كافــور :

من الجــاذر فــى زى الاعاريب　　حمر الحلى والمطايــا والجلابيب
ان كنت تسال شكا فى معارفها　　فمن بــلاك بتسـهيد وتعـذيب
سوائر ربما ســارت هوادجهــا　　منيعــة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدى المطى بهــا　　على نجيع من الفرسان مصبوب
كم زورة لك فى الاعراب خافية　　أوهى،وقد رقدوا،من زورةالذيب
أزورهم وســواد الليل يشفع لى　　وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

* * *

قنوافقوا الوحش فىسكنى مراتعها　　وخالفوها بتقويض وتطنيب
جيرانها وهم شر الجوار لهــــا　　وصحبها وهــم شــر الاصاحيب

* * *

فــؤاد كل محب فــى بيوتهــم　　ومال كل أخيــذ المــال محروب
ما أوجه الحضر المستحسنات به　　كاوجــه البدويــات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطريــة　　وفى البداوة حسن غير مجلــوب
أين المعيز مــن الآرام ناظــرة　　وغير ناظرة ، فى الحسن والطيب

* * *

أفدى ظباء فــلاة مــا عرفن بها　　مضغ الكلام، ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن مــن الحمــام مائلــة　　أوراكهن صقيــلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة　　تركت لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصدق فىقولى وعادته　　رغبت عن شعر فى الوجه مكذوب

ليت الحوادث باعتنى التى أخذت ... منى بحلمى الذىأعطت وتجريبى
فما الحداثة من حلم بما نعة ... قديوجد الحلم فىالشبان والشيب
ترعرع الملك الاستاذ مكتهلا ... قبل اكتهال ، أديبا قبل تاديب
مجربا فهما من قبل تجربة ... مهذبا كرما من قبل تهذيب
حتى أصاب من الدنيا نهايتها ... وهمه فى ابتداءات وتشبيب
يدبر الملك من مصر الى عدن ... الى العراق فارض الروم فالنوب

وقال فى مصر يشكو طول الاقامة بلا طائل ، وقد أصابته الحمى :

ملومكما يجل عن الملام ... ووقع فعاله فوق الكلام
ذرانى والفلاة بلا دليل ... ووجهى والهجير بلا لثام
فانى أستريح بذى وهذا ... وأتعب بالاناخة والمقام
عيون رواحلى ان حرت عينى ... وكل بغام رازحة بغامى

* * *

فقد ارد المياه بغير هاد ... سوى عدى لها برق الغمام
يذم لمهجتى ربى وسيفى ... اذا احتاج الوحيد الى الذمام
ولا أمسى لاهل البخل ضيفا ... وليس قرى سوى مخ النعام
ولما صار ود الناس خبا ... جزيت على ابتسام بابتسام

* * *

وصرت اشك فيمن أصطفيه ... لعلمى أنه بعض الانام
يحب العاقلون على التصافى ... وحب الجاهلين على الوسام
وآنف من أخى لابى وأمى ... اذا ما لم أجده من الكرام
أرى الاجداد تغلبها كثيرا ... على الاولاد أخلاق اللئام
ولست بقانع من كل فضل ... بان أعزى الى جد همام

* * *

اقمت بارض مصر فلا ورائى ... تخب بى الركاب ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى ... يمل لقاءه فى كل عام
قليل عائدى ، سقم فؤادى ... كثير حاسدى ، صعب مرامى

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

* * *

وزائرتي كان بها حياء فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجسم عن نفسي وعنها فتوسعه بانواع السقام
اذا ما فارقتني غسلتني كانا عاكفان على حرام

* * *

كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها باربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر اذا القاك في الكرب العظام
أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام

* * *

جرحت مجرحا لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام
ألا ليت شعر يدي أتمسي تصرف في عنان أو زمام
وهل أرمي هواي براقصات محلاة المقاود باللغام
فربتما شفيت غليل صدري بسير أو قناة أو حسام

* * *

وضاقت خطة فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الفدام
وفارقت الحبيب بلا وداع وودعت البلاد بلا سلام
يقول لي الطبيب أكلت شيئا وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه اني جواد أضر بجسمه طول الجمام

* * *

تعود أن يغبر في السرايا ويدخل من قتام في قتام
فامسك لا يطال له فيرعى ولا هو في العليق ولا اللجام
فان أمرض فما مرض اصطباري وان أحمم فما حم اعتزامي

وان أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام
تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى - سوى معنى انتباهك والمنام

ويقول :

منى كن لى أن البياض خضاب فيخفى بتبيض القرون شباب
ليالى عند البيض فوداى فتنة وفخر ، وذاك الفخر عندى عاب
فكيف أذم اليوم ما كنت أشتهى وأدعو بما أشكوه حين أجاب
جلا اللون عن لون هدى كل صلب كما انجاب عنضوءالنهار ضباب

* * *

وفى الجسم نفس لا تشيب لشيبه ولو أن مافى الوجه منه حراب
لها ظفر ان كل ظفر أعده وناب اذا لم يبق فى الفم ناب
يغير منى الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب
وأنى لنجم تهتدى صحبتى به اذا حال من دون النجوم سحاب

* * *

غنى عن الاوطان لا يستخفنى الى بلد سافرت عنه اياب
وعن ذملان العيس ان سامحت به والا ففى أوكارهن عقاب
وأصدى فلا أبدى الى الماء حاجة والشمس فوق اليعملات لعاب
وللسر منى موضع لا يناله نديم ولا يقضى اليه شراب

* * *

وللخود منى ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقاء تجاب
وما العشق الا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادى للغوانى رمية وغير بنانى للزجاج ركاب (١)
تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعاب

---

(١) يعنى زجاج الكؤوس ·

تصـرفه للطعن فوق حواذر (١) ... قـد انقصفت فيهن منـه كعاب
أعز مكان فى الدنا سرج سابح ... وخير جليس فـى الزمـان كتاب

ويقول فى مناسبة العيد وقد عزم على الرحيل من مصر يوم عيد الاضحى سنة ٣٥٠ هـ :

عيد بأية حـال علت يا عيـد ... بما مضى؟ أم لامر فيك تجديد
أما الاحبـة فالبيـداء دونهـم ... فليت دونك بيدا دونها بيـــد
لولا العلا لم تجب بى ما اجوب بهـــا ... وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان أطيب من سيفى مضاجعه ... اشباه رونقه الغيـد الاماليـــد
لميترك الدهر منقلبى ولا كبدى ... شـيئا تتيمـه عـين ولا جيـد
يا ساقيى اخمر فى كؤوسـكما ... أم فـى كؤوسـكما هم وتسهيد
أصخرة أنـا مـالى لا تحركنـى ... هذى المـدام ولا هذى الاغاريد
اذا أردت كميت اللون صافيـة ... وجدتها وحبيب النفس مفقـود
ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبـه ... أنى بما أنا باك منــه محسـود
أمسيت أروح مثر خازنا ويـدا ... أنا الغنـى وأمـوالى المواعيـد

* * *

أنى نـزلت بكذابـين ضيفهـم ... عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدى وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسامن نفوسهم ... الا وفى يـده من نتنهـا عـود
من كل رخو وكاء البطن منفتق ... لا فى الرجال ولا النسوان معدود
أكلما اغتال عبد السوء سـيده ... أو خانه ، فله فى مصر تمهيد
صار الخصى أمام الآبقـين بهـا ... فالحر مستعبد والعبـد معبـود
نامت نواطـير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنـى العناقيد
العبد ليس لحـر صالـح بـاخ ... لو أنه فى ثياب الحـر مولـود

---

(١) يعنى خيلا تحذر الطعن .

لا تشتر العبد الا والعصا معه ... ان العبيــد لانجـاس مناكيـد
ما كنت أحسبني أحيـا الى زمن ... يسيء لى فيه كلب وهو محمـود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا ... وأن مثل أبى البيضاء موجـود

وقال يصف رحلته من مصر سنة ٣٥١ هـ :

ألا كـل ماشـــية الخيـزلى ... فـدى كل ماشية الهيدبى
وكل نجـــاة بجاويـــة ... خنوف وما بى حسن المشى
ولكنهن حبـــال الحيـــاة ... وكيـد العداة وميط الاذى
ضربت بها التيه ضرب القمار ... أما لهـذا وأمـــا لـذا
اذا فزعت قدمتهـا الجيـاد ... وبيض السيوف وسمر القنا
فمرت بنخـل وفـى ركبهـا ... عن العالمـين وعنـــه غنـى
وأمست تخبرنـا بالنقاب ... وادى الميـاه ووادى القـرى
وقلنا لها اين أرض العراق ؟ ... فقالت ونحـن بتربـان هـا
وهبت بجسمى هبوب الدبور ... مسـتقبلات مهب الصبـــا

* * *

فلما أنخنا ركزنـا الرمـاح ... نـوق مكارمنـا والعـــلا
وبتنـا نقبـــل أسيافنـا ... ونمسحها من دماء العـدى
لتعلـم مصر ومــن العـراق ... ومن بالعواصـم أنى الفتـى
وأنـــى وفيت وانـــى أبيت ... وأنى عتوت على مـن عتـى
وما كل من قـال قولا وفى ... وما كل من سـيم خسفا أبى

وقال وقد غادر مصر يرثي فاتكا الاخشيد سنة ٣٥٢ هـ :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم ... وما سراه على ساق ولا قدم
ولا يحس بأجفان يحس بها ... فقد الرقاد غريب بات لم ينم
تسود الشمس منا بيض أوجهنا ... ولا تسود بيض العذر واللمم

وكان حالهما فى الحكم واحـدة لو احتكما من الدنيـا الى حكم
ونترك المـاء لا ينفك من سفر ما سار فى الغيم منهسار فى الادم
لا أبغض العيس لكنى وقيت بها قلبى من الحزن أوجسمى من السقم
طردت من مصر أيديها بارجلها حتى مرقن بنا من جوش والعلم
تبرى لهن نعـام الـدو مسرجة تعارض الجدل المرخـاة باللجـم
فى غلمةأخطروا أرواحهم ورضوا بما لقين رضا الايسار بالزلـم
تبدو لنا كلما ألقـوا عمائمهم عمائم خلفت سودا ، بـلا لثم
بيض العوارض،طعانون من لحقوا مـن الفوارس ، شـلالون للنعم
قد بلغوا بفتاهم فـوق طاقتـه وليس يبلغ مامنهم مـن الهمـم
فى الجاهليـة الا أن أنفسـهم من طيبهـن به فى الاشهر الحرم

* * *

ما زلت أضحك أبلى كلما نظرت الى من اختضبت أخفافها بـدم
أسيرها بـين أصنـام أشـاهدها ولا أشاهد فيها عفـــة الصنـم
حتى رجعت وأقلامى قوائـل لى المجـد للسيف ليس المجد للقلـم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب بـه فانما نحن للاسياف كالخـــدم
اسمعتنى وشفائى ما أشرت بـه فان غفلت فدائى قلة الفهـم
من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هـل بلـم
توهم القـوم أن العجـز قربنا وفى التقرب ما يدعو الى التهم

* * *

هون على بصر ما شـق منظره فانمـا يقظـات العـين كالحـلم

وقال فى عضد الدولة ، ويصف شعب بوان :

مغانى الشعب طيبا فى المغانـى بمنزلة الربيع مـن الزمـان
ولكن الفتـى العربـى فيهـا غريب الوجـه واليـد واللسـان

---

(١) يسخر ممن يخضبون أقدامهم بالحناء ٠

ملاعب جنة لـو سـار فيهـا سليمان لســار بترجمــان
طبت فرسـاننا والخيـل حـتى خشيت وان كرمن من الحــران

* * *

غدونا تنفض الاغصـان فيــه على أعرافهـا مثــل الجــمان
فسرت وقد حجبن الشمس عني وجئن من الضياء بما كفانــي
وألقى الشرق منهـا فـي ثيابي دنانـيرا تفـر مــن البنـان
لهـا ثمـر يشـير اليك منــه بأشربـة وقفن بــلا أوانـــي
وأمواه تصل بهـا حصاهـا صليل الحلى في أيدى الغوانــي

* * *

منازل لـم يـزل منهـا خيـال يشيعنى الى النوبيــذ جـــان
اذا غنى الحمـام الورق فيــه أجابتـه اغــانى القيــان
ومن بالشعب أحوج من حمــام اذا غنى ونـاح ، الى البنــان
وقد يتقـارب الوصفـان جـدا وموصوفاهمــا متباعــدان
يقول بشعب بــوان حصانــي أعن هـذا يسار الى الطعــان
أبوكــم آدم ســن المعاصــي وعلمكم مفارقــة الجنــان

* * *

القسـم الثـالث

جماعـة مـن الكتـاب

الجاحـظ

أبو عثمان عمرو بن بحـر

مولده ونشأته :

لم يتفق المؤرخون على السنة التى ولد فيها بل ان أكثرهم لم يذكر سنة مولده ، وذكر سنة وفاته ، وقالوا انه نيف على السبعين ، وينفرد ياقوت بقوله ان الجاحظ قال : أنـا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت فى أول سنة ١٥٠ هـ وولد فى آخرها ٠ وذكر ياقوت تاريخين آخرين لمولد أبى نواس سنة ١٤٥ هـ وسنة ١٣٦ هـ ٠

الا أن الراجح من أقوال المؤرخـين والادباء أنـه ولـد فى السنوات العشر الاولى من النصف الثانى من القرن الثـانى ، أو حوالى سنة ١٥٦ هـ ٠

واسمـه عمرو بن بحر بن محبوب ، كنانى ليثى ، نسبة الى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ـ وقالوا انه كان مولى أبى القلمس عمرو بن قلع الكنانى ثم الفضيمى وقيل انه كنانى صليبة لا ولاء ٠

وكان جده أسودا يقال له فزارة ، كان جمالا لعمرو بن قلع الكنانى ٠

وقد ولد الجاحظ أسود اللون كآبائه ، جاحظ العينين ، لذلك لقب بالجاحظ لجحوظهما ٠ كما لقب بالحدقـى أيضا ، ولم يكن

الجاحظ مفرطا فى الطول ، بل ربعــة وقد تنــدر بقبح صورته فقال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفت ٠

أدب الجاحــظ

ثقافــة الجاحــظ :

ربما غلبت على ثقافته فى مرحلة اقامتــه بالبصرة العربيــة من اللغــة والشــعر والحديث والتفســير ٠ مع بعض الثقافات الكلامية المتأثرة بالفلسفة والعقليات مع أساتذته من المعتزلة ٠ ويرجــح شــارل بللا قراءتــه لكتب اليونانيــين فــى المرحــلة البغداديــة (١) ٠

معرفة الفارسية :

ويرجح معرفته للفارسية وليس اجادته لها ، وقد واتته هذه المعرفة بحكم صلته بالوسط البغدادى فى القرن الثالث ويفترض أن يكون هذا الوسط وخاصة طبقة الخاصة فيه واقعا تحت تأثير الفرس ، والثقافة الفارسية متداولة فيه ، ولا يبتعد أن تتداول بعض الالفاظ ٠ ويقــول بللات : « أغلب الظن ـ ولا مجــال هنا للتأكيد ـ أن الجاحظ قد أشبع رغبته بمطالعة الكتب المترجمة

---

(١) بللات : « الوسط البصرى واثره فى تكوين الجاحظ » ، ص ١١٥ ٠ وراجع « الجاحظ معلم الفغل » لشفيق جبرى ، ص ٧٦ ٠

عن الفارسية التى وصلت اليه · ولم تكن هذه عديدة ولكنها كافية لاعطائه معلومــات عامــة عــن تاريــخ الفرس يمكن افهامها بمعلومات شفهية لم يحــرم الجاحظ نفسه منها » ·

أســاتيذه :

فــى اللغــة والنحــو : أبو عبيــدة والاصمعى وأبو زيــد الانصارى ، وأبو الحسن الاخفش وفــى الحديث : أبو يوسف بن ابراهيم القاضى ويزيد بن هارون والسرى بن عبدوية والحاج ابن محمد بن حماد بن سلمة · وشمامة بن وس الذى لازمه فى بغداد · وأخذ الكلام عن ابراهيم بن سيار النظام ·

ولا شك أن الجاحظ تعرف على النظام فى البصرة فى حلقــة أبى الهذيل العلاف وصحبه الى بغداد وصار من مريديه · وروى الخطيب البغدادى ما يفيد هذا المعنى قال عن لسانه : « اجتمع أبو شمر ، وتمامة ، وعلى بن هيثم وابراهيم النظام وخرجوا الى باب الشماسية فنظروا الى موضع استطابوه فاجتمعوا فيه ووجهوا بى لاشترى لهم من السوق ببغداد مايحتاجون اليه » (١) · ويرجح أنه صحب النظام ببغداد منــذ سنة ٢١٠ هـ · وقــد كان يكبــر أستاذه بعشرين عامــا الا أن الاســتاذ كان يتمتع لا ريب بمنزلة عالية فى علم الكلام وبمكانة اجتماعية رفيعة ·

الجاحــظ وروايــة الشــعر :

كان يروى عن رواة الشــعر الكثــيرين الذين يترددون على

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغداد ، ج ٦ ، ص ٩٨ ·

البصرة آنذاك كما أخذ على علمائه الكبار المعاصرين من أمثال الاصمعى وأبى عبيدة . قال :

« ... وقد أدركت المسجديين والمربديين . ولن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الاعراب ، والارجاز الاعرابية القصار ، وأشعار اليهود والاشعار المنصفة فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة ، ثم استبردوا ذلك كله . ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والنقر والنتف من كل شيء . ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الاحنف ، فما هو الا أن أورد عليهم خلف الاحمر نسيب الاعراب ، فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الاعراب ثم رأيتهم منذ سينات وما يروى عندهم نسيب الاعراب الا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتياني متغزل . وقد جلست الى أبى عبيدة والاصمعى ويحيى بن نجيم وأبى مالك عمرو بن كركرة مع من جلست من رواة البغداديين فما رأيت أحدا منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده . وكأن خلف يجمع ذلك كله .

ولم أر غاية المتحدثين الا كل شعر فيه اعراب ، ولم أر غاية رواة الاشعار الا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أر غاية رواة الاخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل . ورأيت عامتهم ـ وقد طالت مشاهدتى لهم ـ لا يقفون الا على الالفاظ المتميزة والمعانى المنتخبة وعلى الالفاظ العذبة وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى اذا صارت في الصدور

عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الاقلام على مواطن الالفاظ ، وأشارت الى حسان المعانى • ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر ، ولقد رأيت أبا عمرو الشيبانى يكتب أشعارا من أفواه جلسائه ليدخلها فى باب التحفظ والتذاكر وربما خيل الى أن أبنـاء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبـدا أن يقولوا شعرا جيدا لمكان أعراقهم من أولئك الآباء •

ولولا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك فى هذا الكتاب ما سمعت من أبى عبيدة ومن هو ابعد فى وهمك من أبى عبيـدة » (١) •

وكان بين الجاحظ والاصمعى الراوية صلات كثيرة ، وربما وقف منه الاصمعى مواقف المعارضة والمخاشنة أحيانا •

ذكر ياقوت (٢) : حدث أبو العنياء قال : قال الجاحظ كان الاصمعى منا • فقال له العباس بن رستم : لا والله ، ولكن تذكر حين جلست اليه تسأله ، فجعله يأخذ فعله بيده ، وهى مخصوفة بحديد ويقول : نعم قناع القدرى • فعلمت أنه يعنيك » •

يريد الجاحـظ أن يقول أن الاصمعـى كان يأخذ بـآراء المعتزلة ، ولكن صاحبه نفى ذلك وذكره بهجومه عليه فى مجلس معه ، وحملته على القدرية « المعتزلة » •

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٣٥ ـ ٢٣٦ •

(٢) معجـم الادبـاء ، حـ ٦/٥٦ •

رحلاتـــه :

وكانت رحلاته ، مصدرا من مصادر معرفتـه وعلمه ، فقد سـافر أولا من البصرة الى بغداد وتردد بينهما كثيرا ، وسافر الى الشام ، وحل بدمشق ، وصحب بهـا الوزير الفتـح بن خاقان ، تحدث عن جامع دمشق الكبير ، كما تحدث عن براغيث دمشق وربما ذهب الى أنطاكية ومصـر ٠

الجاحظ والاعتزال وعلم الكلام :

تتلمذ الجاحظ فى مذهب الاعتزال على النظام وتأثر به ٠ وأعجب به ، وترى أثر الاعجاب باديا فى مواضع كثيرة من كتبه ٠ ولم يكن هذا الاعجاب مع ذلك داعيا لان يسلم الجاحـظ لاستاذه بكل آرائه ، بل ، لقد وقف منه أحيانا موقف المناقشة والمعارضة ٠

ومن أمثلة ما جاء فى كلام الجاحظ من اجلال وتعظيم للنظام قوله : « الاوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحا ، فهو أبو اسحاق النظام » وقال مـرة أخرى : « ما رأيت أحدا أعلم بالكلام والفقه من النظام » ٠

وذكر تأثيره فى الاعتزال وجماعة المعتزلة فقال : « أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيهـا المنفعـة ، وشملتهم بها النعمة » ٠

وقال فى معرض نقـده أحيانا :

« كان ابراهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ فى باب

الصدق والكذب · ولم أزعم أنه قليل الزيغ ، على أن ذلك قد كان يكون منــه وان كان قليلا ، بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء ، وأنت لست تريد حياء البتة » ·

وانما عيبه الذى لا يفارقه سـوء ظنــه وجـودة قياسه على العارض والخاطر السابق الــذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بــدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاص ، ولكنه كــان يظن الظن ، ثـم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فاذا أتفق ذلك أيقن ، جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحــة معناه · ولكنه كان لا يقول : سمعت ، ولا رأيت · وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » ·

وانفرد النظام بآراء خاصة فى اعتزال تبعه فيها جماعة من تلاميذه واتباعه عرفوا بالنظامية · وهى فرقــة من المعتزلة كما يذكر الشهرستانى ·

وكان أهم ما يأخذ به النظام نفسه فى علمه العقل والقياس · وكان كثير الشك والسخرية بأصحاب الحديث والاثر من المفسرين · كان يقول لاصحابه :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين ، وان نصبوا أنفسهم للعامــة ، وأجابوا فى كل مسألة فان كثيرا منهم يقول بغير دراية ،

على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب اليهت. وليكن عندكم عكرمة والكلبي ، والسدى ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الاصم في سبيل واحدة . فكيف أثق بتفسير ، وأسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله عز وجل « وان المساجد لله » ان الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها ، بل انما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة . وقالوا في قوله تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » انه ليست الجمال والنوق ، وانما يعنى السحاب » .

وكان يأخذ في منهجه الفكرى بالشك أولا ثم يبحث منه عن الحقيقة حتى يصل اليها . ومن أقواله : « الشاك أقرب اليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل احد من اعتقاد الى غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

واهتم النظام بعلوم الفلسفة والكلام ، وعلوم الطبيعة ، وتأثر فيما يبدو بأرسطو ومنهجه العقلى .

وانتقلت آراء النظام الى تلميذه الجاحظ ، فآمن بالعقل ، ولم يسلم الى المفسرين ، بل عاداهم كثيرا وسفه آرائهم ، كما عارض اللغويين الذين يأخذون بظاهر النص ولا يتعمقون وراء المعنى .

ويرى الجاحظ أنه لولا المتكلمين والمعتزلة خاصة ، لضل الناس ، وأن العالم الذى يتصدى لامور العقيدة ينبغى أن يلم

بعلوم العقل والطبيعة حتى تتسع مداركه • يقـول (١) : « ولا يكون المتكلم جامعا لاقطار الكـلام متمكنا فى الصياغـة ، يصلح للرياسة حتى يكون الذى يحسن من كـلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة • والعالم عندنا هو الذى يجمعها » •

وأتم الجاحظ ثقافته بالاطلاع على كثير من الكتب التى وقعت له ، وكان رجلا طلعــه لا يكف عن القـراءة • وكـان معاصروه يعرفون فيه هذا الشغف الشديد بالكتاب • قال أبو هفان : « ولم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر •

وقد وقف على كثـير من كتب اللغـة والادب التى عرفت فى عصره ، وقرأ فـى كتب الفلسفة والطبيعة ، قـرأ كتــاب المنطق لارسطو طاليس وبعض كتب أقليدس ، وكثيرا مما ترجمه السريان أو القوة فى هذا المجال • وقد نقل عن ما سرجويه وأفليمون وحنين ابن اسحاق وتتبع الدكتور الحاجرى نقول الجـاحظ فـى كتاب الحيـوان •

وأحب الكتاب حبا بدا فى مواضع كثيرة من مؤلفاته ، ومنها قوله فى كتاب الحيوان : « والكتاب نعم الذخـر والعمدة ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ونعـم المشتغل والحرفة ،

---

(١) كتاب الحيوان ، ٢/١٣٤ •

ونعم الانيس لساعة الوحدة . ونعم المعرفة ببلاد الغربة . والكتاب وعاء مليء علما وظرف خشي ظرفا (١) » .

ووقف الجاحظ على ثقافات بعض الامم التى خالطت الفكر العربى فى عصره . كالفارسية واليونانية . وكان يقول : ان الامم التى فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم أربع هى : العرب ، والهند ، وفارس ، والروم ـ يعنى اليونان .

ويرى أن العرب تفضلها جميعا فى البيان « لانهم أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والامثال التى ضربت فيها أجود وأسير ، والبديهة مقصورة عليها، والارتجال والاقتضاب خاص بها » .

وكتب الجاحظ ورسائله العديدة دليل على ثقافته الواسعة المتعددة ، المصادر وهى حافلة بمعارفه الكثيرة الواسعة ، وتنم رسالته « التربيع والتدوير » عن قدرته على الخوض فى مواضيع شتى ، وتعطينا برهانا على مدى اتساع معارفه (٢) .

موقف الجاحظ من الاتجاهات الاجتماعية والمذاهب الدينية فى عصره :

موقفه من الشعوبية :

يقول : « واعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية

---

(١) الحيوان ، جـ ١ .

(٢) شارل بللات : بيئة البصرة وأثرها فى الجاحظ ، ص ١١٠/١١١ .

ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنان فى قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة » .

وألف الجاحظ بعض كتبه يرد على الشعوبية والطاعنين على العرب ، وأولها كتاب « البيان والتبيين » لان البيان خاصة العرب والميزة التى عرفوا بها ونزل بها كتاب الله فى لغتهم ليكون بيانا للناس هاديا لهم . ويقول فى الجزء الثانى من البيان والتبيين :

« أردنا ــ أبقاك الله ــ أن نبتدىء صدر هذا الجزء الثانى من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية وطعنهم على خطباء العرب وملوكهم ، اذ وصلوا ايمانهم بالمخاطر ،واعتمدوا على وجه الارض بأطراف القسى والعصى ... » .

كذلك فان كتاب البخلاء أراد أن يسخر فيه من البخل والبخلاء لانه ضد الكرم طبيعة العرب ومفاخرهم . وصدر كتابه هذا برسالة لسهل بن هارون ، فيها التمدح بالبخل وذم الكرم . وأخذ على بعض الموالى ومن جاراهم ممن يدينون بالشعوبية اتصاف أهل فارس بالبخل وخاصة أهل خراسان ، بل أنه خصص للشعوبية كتابا أشار اليه فى « البخلاء » . يقول :

« ... وهذا الباب يكثر ويطول . وفيما ذكرنا دليل على

ما قصدنا اليه من تصنيف الحالات • فان أردته مجموعا فاطلبه فى كتاب « الشعوبية » ، فانه هنالك مستقصى » (١) •

ووقف من بعض اتجاهات عصره موقف العداء والسخرية ، كموقفه من الجهمية والمشبهة وأصحاب الظاهر ، والمفسرين والمحدثين ، والذين يروون الاخبار ويفسرون بعض آى القرآن بغير علم ولا تعقل •

يقول فى تفسير قوله تعالى : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله » •

فذهب الجهمية (أتباع جهم بن صفوان) ومن أنكر ايجاد الطبائع مذهبا ، وذهب ابن حائط ومن لف لفه من أصحاب الجهالات ، مذهبا ، وذهب ناس من غير المتكلمين ، واتبعوا ظاهر الحديث ، وظاهر الاشعار ، وزعموا أن الحجارة كانت تعقل ، وتنطق ، وانما سلبت المنطق فقط • فأما الطير والسباع فعلى ما كانت عليه •

قالوا : والوطواط ، والقرد ، والضفدع مطيعات ومثابات ، والعقرب والحية والحدأة والغراب والوزع والكلب ، وأشباه ذلك عاصيات معاقبات •

---

(١) راجع كتاب « الجاحظ » ، حياته وآثاره • للدكتور طه الحاجرى ، ص ٣٠٠ •

ولم أقف على واحد منهم فأقول له : « ان الوزعة التى تقتلها على أنها تضرم النار على ابراهيم أهى هذه أم هى أولادها ؟ فمأخوذة هى بذنب غيرها ؟ · أم تزعم أنه فى المعلوم أن تكون تلك الوزغ لا تلد ولا تبيض الا من يدين بدينها ويذهب مذهبها ؟ ·

وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الاحاديث ، وأى ضرب منها يكون مردودا وأى ضرب منها يكون متأولا ، وأى ضرب منها يقال: ان ذلك انما هو حكاية عن بعض القبائل · ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام ، واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » (١) ·

وقد ضايق هذا الموقف جماعة المحدثين ، وأئمة أهل السنة فوقفوا من الجاحظ موقف العداء ، والهجوم واتهموه بالمروق لانه يعبث بالحديث وأصحابه ، ولانه يأخذ بالعقل والفلسفة والرأى · وهو منهج يخالف مناهجهم يقول ابن قتيبة الفقيه وعالم أهل السنة المعاصر له · (توفى سنة ٢٦٧ هـ) : « وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم · وهو مع هذا من أكذب الامة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » (٢) ·

---

(١) الحيوان ، ٤/٢٨٧ ـ ٢٨٩ ·

(٢) تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٢ ·

موقفـه من الزنادقـة :

قال الجاحظ : « والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها ملك مملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » ٠

وهو يعنى أن الزندقة شيع متفرقة من الناس لا تجمعهم على كلمة واحدة ، ولا أمة واحدة كالامة الاسلامية ، وأنهم لخروجهم عن حدود الدين ومعارضتهم لامور الشريعة وقواعدها ، ولتهجمهم على مقدسات العقيـدة يحاربون وينبـذون ويعاقبـون بالقتـل والمطاردة ٠

وقد تعقب الجاحظ الزنادقة والملحـدين تعقبـه للخارجـين المارقين ، وجادل المفكرين منهم أو أصحاب الزندقة الفكرية ، لانه من المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عن هذا الدين الاسلامى وعن عقيدة الاسلام وعن الكتاب القرآن الكريم بالرأى والحجة ٠

وتتبع الزنادقة من الادباء والشعراء ، وحمل عليهم وأزرى بهم ، سواء من تزندق منهم زندقة فكرية أو كان فى زندقته خارجا عن قواعد المجتمع وعرف الحياة الاسلامية وأصول الدين ٠ ومن بين من عرض لهم فى مؤلفاته من شعرائهم حماد عجـرد ، ذكـر أبياتا له فى هجاء عمارة بن حربية يقول فيها :

لو كنت زنديقا عمـار حبوتنى   أو كنت أعبد غـير رب محمـد

أو كنت عندك أو تراك عرفتنى   كالنضر أو ألفيت كابن المقعد

أو كابن ضماد ربيئـة دينـكم   حبل وما حبل الغـوى بمرشـد

كننى وحلت لربى مخلصا فجفوتنى بغضا لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت والارض خالقها لها لم يمهد
والنسم مثل الزرع آن حصاده منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : « وحماد أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذى هجاه بهذه الابيات وأما قوله : وحبوت من زعم السماء تكونت ٠٠ البيت ٠ فليس يقول أحد أن الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه » ٠

ويذكر أبيات أبى نواس فى هجاء أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، والتى يقول فيها :

جالست يوما ابانا لا در در ابان
ونحن حضر رواق الامير بالنهر وان
حتى اذا ما صلاة الـ أولى دنت لاوان
فقال : كيف شهدتم بذا بغير عيان
لا اشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت : سبحان ربى فقال سبحان مانى
فقلت : عيسى رسول فقال من شيطان
فقلت : موسى كليم المهيمن المنان
فقال : ربك ذو مقلة اذن ولسان
فنفسه خلقته أم من ؟ فقمت مكانى
عن كافر يتمرى بالكفر بالرحمن

يقول الجاحظ : « وتعجبنى من أبى نواس ، وقد كان جالس المتكلمين أشد من تعجبى من حماد حين يحكى عن قوم من هؤلاء قولا لا يقوله أحد ، وهذه قرة عين المهجو ٠ والذى يقول سبحان

مانى يعظم أمر عيسى تعظيما شديدا ، فكيف يقول أنه من قبيل شيطان • وأما قوله : فنفسه خلقته أم من ؟ فان هذه المسألة نجدها ظاهرة على ألسن العوام • والمتكلمون لا يحكمون هذا عن أحد •

وعاد الجاحظ فى موضع آخـر فاتهـم أبا نواس بالخروج والكفر عندما عرض لقوله :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبـة قم سيدى نعص جبار السماوات

قال : هذا البيت مع كفره مقيت جدا • وكان يكثر فى هذا البـاب •

وقد تحدث عن الزنادقة فى أكثر من موضع بكتابه «الحيوان» وذكر عجيب اعتقادهم وفرقهم •

كتبــه :

وعرف الجاحظ بكثرة تاليفه ، فقد نقل أنه ألف كثـيرا من الكتب ، وذكر جماعة من المؤرخين قوائـم لمؤلفاته ، يختلط بها ما ليس له ، وقد يسقط منها بعض ما ألف وتردد ذكره فى مصادر مختلفة ، ككتابه فى الشعوبية الذى لم يذكره ياقوت فى قائمة كتبه مع أنه جمع له عددا وافرا من الكتب والرسائل •

وأشهر قائمتين لمؤلفاته فى كتابى « الفهرست » لابن النديم و « معجم الادبـاء » لياقوت الحموى •

ونشر ودرس عدد كبير منها فى مقدمتها :

١ ـ كتاب الحيوان فى ٧ أجزاء بتحقيق عبد السلام هارون •

٢ ـ كتاب البخلاء بتحقيق الدكتور محمد طه الحاجرى ٠

٣ ـ كتاب البيان والتبيين بتحقيق عبد السلام هارون ٠

٤ ـ مجموعات من رسائله تم تحقيقها أكثر من مرة وجمع مجموعة منها عبد السلام هارون ، في جزئين ، وأشهرها :

رسالة (العثمانية) ، و (مناقب الترك) ، و (فخر السودان) و (رسالة فى القيان) و (التربيع والتدوير) و (وحجج النبوة) و (المعادو المعاش) و (الجد والهزل) و (القول فى البغال) و (التبصر بالتجارة) و (طبقات المغنين) (١) ٠

وهناك بعض الكتب الهامة التى فقدت وأشار اليها هو فى مؤلفاته ككتاب « نظم القرآن » ، أو أشار اليها بعض العلماء مثل رسالته فى مدح مصر التى أشار اليها القلقشندى فى « صبح الاعشى » ٠

ونسبت بعض الكتب اليه خطأ مثل كتاب (التاج وكتاب (المحاسن والاضداد) وكتب الجاحظ تؤلف موسوعة علم ووثائق للحياة الاجتماعية والفكرية فى عصره ٠ ففى كتاب « البيان والتبيين » نجد الرسالة الشهيرة التى بعث بها عمر بن الخطاب الى أبى موسى الاشعرى، كذلك يحوى قائمة بأسماء النساك والقصاص الاوائل ٠

---

(١) نشر مجلة المنتقد ، مجلد ٢ ، ج ٨ ٠

(٢) طبع بعناية أحمد زكى باشا ٠

(٣) طبع بتحقيق المستشرق فان فلوتن فى لندن سنة ١٨٩٧ م ٠

ويفيدنا كتاب « الحيوان » بأوسع المعلومات التى أفاد منها المستشرقون أحيانا عن بعض الفرق الدينية والمذاهب كالزنادقة والدهريين ·

ويقول شارل بللات (٤) : ويمكننا كتاب البخلاء من التقاط مظاهر الفعالية الاجتماعية فى البصرة بسرعة ، ومشاهدة برجوازية المال فيها » ·

ونسطيع كذلك عن كتبه أن نلم بكثير من المعارف عن حياة الجاحظ وفكره ، فهو يتجلى فيما يكتب ، فتكاد تنطق كلماته بروحه وتبدى سطوره رسم شخصه ·

ونهج فى تأليفه نهجا مغايرا لنهج معاصريه ، فمال بكتبه ورسائله الى الوضوح والبساطة والصدق · وكان يأخذ على بعض علماء عصره التعقيد فى كتبهم ، فقد ذكر فى كتاب الحيوان أنه سأل أبا الحسن الاخفش العالم النحوى :

أنت أعلم الناس بالنحو ، فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ · وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ ·

قال ــ أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله · وليست هى من كتب الدين · ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلت حاجاتهم

---

(٤) البصرة وحياة الجاحظ ، ص ١٦ ·

الى فيها . وانما كانت غايتى المنالة . وأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس ما لم يفهموا . وأنا قد كسبت فى هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت . ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم أكثرها (١) .

ولكن الجاحظ اختلف عن هؤلاء ولعله كان « أول من اتخذ التأليف صناعة له يبرز بها نفسه ، ويظهر فيها مواهبه ، ويستجيب بها لنزوعه الفنى . ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظى نمطا جديدا فى التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، ويتجه الى جمهرة القراء على اختلاف قواهم ومداركهم لا الى طائفة خاصة منهم (٢) . فهو عامى خاصى » يقول فى صفة الكتاب :

« وليس الكتاب الى شىء أحوج منه الى افهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية . ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الاعراب ووحشى الكلام ، وليس له أن يهذبه جدا . وينقحه ، ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى حذف فضوله وأسقطت زوائده ، حتى عاد خالصا لا شوب فيه ، فانه فعل ذلك لم يفهم عنه الا بأن يجدد لهم أفهاما مرارا وتكرارا ، لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

---

(١) الحيوان ١/٩١ _ ٩٢ .

(٢) الجاحظ للحاجرى ، ص ١٨٠ .

وذكر أبو حيان التوحيدى الجاحظ وكتبه ورسائله، ونقل عن أحد علماء عصره صفته لها بقوله : « وكتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة » .

وقال عنه : « جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والادب ، وبين الذكاء والفهم . طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به . لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب » .

وقال أبو حيان : « قلت لابى محمد الاندلسى - يعنى عبد الله ابن حمود الزيدى، وكان من عدد أصحاب السيرافي: قلت اختلفت أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى صاحب النبات ووقع الرضا بحكمك ، فما قولك ؟ .

فقال - أنا أحقر نفسى عن الحكم لهما وعليهما .

فقيل له - لابد من قول .

قال - أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة . ومعانى أبى عثمان لائقة بالنفس سهلة فى السمع . ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب .

قال أبو حيان : « والذى أقول واعتقد وآخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تفريطهم

ونشر فضائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم أحدهما هذا الشيخ أى أبو عثمان عمرو بن بحر ، والثانى أبو حنيفة الدينورى والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى .

ولو تناصرت الينا أخبارهما - يعنى أبا حنيفة الدينورى وأبا زيد البلخى - لكنا نحب أن نفرد لكل واحد منهما تقريظا مقصورا عليه ، وكتابا منسوبا اليه كما فعلت بأبى عثمان » .

وكان الجاحظ يعمد فى كتبه الى مزج الفكاهة بالجد ، فيخرج بالقارىء من ملل الى انتعاش ، وهو يسوق اليه النادرة فى طى الكلام ليرفه عنه ، ويجدد نشاطه ويبعث الحياة من جديد فى ذهنه .

ولا يتعفف الجاحظ عن ايراد نوادره بأساليب العامة ملحونة أحيانا ، يرويها كما هى كما قيلت دون أن يصرفها بالفصحى وذلك أطرى بالنادرة وأملح وقعا فى النفوس عنده .

وتمتاز كتبه كذلك بتنوع الموضوع والاستطراد والخروج من معنى الى آخر فى كثير من التشويق والامتاع وان بدا فى نظر بعض المعاصرين تشعيثا فى الافكار واضطرابا فى النهج .

وقد يكون هذا الاختلاط الذى دخل الى بعض كتبه كالحيوان أو البيان والتبيين راجعا الى اشتداد العلة عليه مما لم يمكنه من التنسيق وضم الفصول بعضها الى بعض كما أشار هو بنفسه .

لكن كتبه ورسائله على أية حال رياض للنفوس ، وواحات

للعقول تستجم بها وتتزود بعديد من المعــارف · وفيهــا رياضة للفكر فيما يشغل بال الناس فى عصره من قضايا سياسية وعقدية ودينية أو اجتماعية أو أدبيــة ·

يقول عنه شارل بللات : « انه ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ » · ويقول ، وقد ظهر الجاحظ كمجدد حقيقى يجيد استعمال اللغــة بمهارة فائقــة · يجمع على ذلك أصدقاؤه وخصومه · ويقول عنه المسعودى : « وكتب الجاحظ تجلو صدأ الاذهان وتكشف واضح البرهان لانه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ · وكان اذا تخوف ملل القارىء وسأمه السامع، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغــة الى نادرة طريفــة » (١) ·

أســـلوبه :

وللجاحظ فى كتبه أسلوب امتــاز بــه وعرف بين معاصريه ولاحقيه ، فيه السهولــة والوضوح ، والأبتعــاد عن التعقيد فى المعانى وحوشى اللغــة · لا يعمد الى التقعر أو التباهى بالمعرفة · وأكسب كلامه ضروبا من التلوين المعنوى واللفظى ·

فهو يعمد الى خاصية المزج بين الجد والهزل ، والى الاستطرا: من موضوع الى آخر ، ، معتمدا على تداعى المعانى والافكار ، أو تواصل الموضوعات ، ويزاوج القول فى التعبير عن المعنى الواحد

---

(١) البصرة وتكوين الجاحظ ، ص ٣ ـ وراجع مروج الذهب ٣٤/٨ ·

فيورده مرددا مزاوجا أو ملونا بلون مـن الصياغة فيـه ايقاع موسيقى تطول فيه الفقرات وتعصر توارد المعانى ، واتصالها أو انفصالها ٠

ولا يميل الى السجع الرتيب ، لكنه مع ذلك يوفـر لفقراته ضربا من الموسيقى تأتيه طواعية دون تكلف ٠

وقد يبدو فى تلك المزاوجة مسرفا فى القول ومطنبـا أو لا يقصد المعنى مباشرة بل يدور حوله ، مما قد يسمه بعدم الدقة ، مع كونه آخذا منهج أصحاب الفلسفة والمنطق ، لكنه أديب لا يكتفى بأن تؤدى العبارة المعنى وحسب ، بل لابد من الايقاع فى الاداء ، ولهذا فهو يحب التعبير المشرق الجميل وان بدا مطيلا أو غير دقيق فى أداء معانيه ٠

وبالرغم من هذا كله فانه يبرأ مما يعيب بعض أساليب كتاب العربية، وهورغم ما يضمن كتبه ورسائله منقضايا عقلية،وجدل منطقى ، وتعقب لبعض الافكـار العلمية الجافة فانـه لا يعدم الطلاوة والتشويق بما أشرنا اليه من عناصر تشد القـارىء أو السامع ٠

وهكذا نجح الجاحظ فـى أن يحتفظ باهتمام قرائه الى حد يجعل جميع كتبه ورسائله تقرأ بلـذة على الرغـم من التكرار ، وفقدان النهـج المنطقى ، وعـدم تسلسـل الافـكار ، وكثـرة الاستطرادات التى تعطى أسلوبه طابعه وطعمه الخاصين ٠

وان هذا الاسلوب الذى يبدو فى ظاهره بسيطا سهلا مرسلا طلقا ، يخفى فى طياته كثيرا من القضايا الغامضة والافكار المتجددة التى تستمد مادتها من الدين ٠

أهم موضوعات كتبه :

القضايا والجوانب الاجتماعية :

« لعل اهتمامه بقضايا المجتمع فى عصره دعا بعض المستشرقين الالمان الى مقارنته بفولتير Voltaire الكاتب الفرنسى الاجتماعى المشهور ، كما يمكن مقارنته بالكتاب الانسانيين Humanistes ، بل لعله يستحق أكثر من أى كاتب عربى قديم آخر هذا اللقب (١) » ٠

وتناول بعض الباحثين فى أدب الجاحظ هذا الجانب فى دراساتهم أمثال شارل بللات فى كتابه « بيئة البصرة وأثرها فى تكوين الجاحظ » (٢) والدكتورة وديعة طه النجم فى كتاب : « الجاحظ والحاضرة العباسية » (٣) ٠

ويعرض الجاحظ فى كتبه لكثير من قضايا المجتمع ، ومنها الخلافات السياسية بين المذاهب والفرق المختلفة ، مثل ما يدور فى رسالة « العثمانية » ، فيتعرض لوجوه الخلاف بين العلوية والعثمانية وأقوال كل منهم ورد الطرف الاخر عليها ٠ ولكنه

---

(١) بللات ، ص ٥ ٠

(٢) نشر هذا الكتاب بفرنسا ، باريس ٠

(٣) الجاحظ والحاضرة العباسية ، طبع بغداد سنة ١٩٦٥ ٠

يميل ميلا واضحا على العلوية ، ويفند الفضائل التى ينسبونها الى الامام على رضى الله عنه .

ورسالة بنى أمية (١) ، وهى تمثل صورة من الجدل السياسى والمذهبى الذى كان سائدا فى عصره بين المعتزلة وأهل الحديث حول الحكم على معاوية وبنى أمية ، فأهل الحديث يتأثمون ويتحرجون ويرون التوقف فى الحكم ، وأما جمهور المعتزلة فيعلنون التبرأ منه . ويمثل الجاحظ فى هذه الرسالة رأى المعتزلة الذى أخذ به المأمون فى عصره والذى قال الطبرى أنه أمر مناديا فنادى : « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله عليه وسلم » .

وارتبط المحدثون بالدفاع عن معاوية ، وبذلك كانت قضية من مسائل الخلاف الرئيسية بينهم وبين المعتزلة .

والرسالة الثالثة فى هذا الموضوع « امامة بنى العباس »(٢) وتدعو الى اثبات حق العباسيين فى الخلافة من ناحية الوراثة ، ومناقشة الآراء المختلفة التى كانت تثيرها هذه المسألة (٣) .

وتأتى بعد ذلك مجموعة من الرسائل تترى فى الامامة ، ووجوبها ومن يستحقها (٤) والامامة عند الشيعة ، والرافضة والزيدية .

---

(١) من مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٢٩٢ .
(٢) بقيت منه قطعة فى مجموع رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣ .
(٣) الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ١٩٣ .
(٤) فى مجموع مختارات فصول الجاحظ رسالة بعنوان « استحقاق الامامة » ص ٢٤٠ ـ المتحف البريطانى .

وتظهر بعض جوانب التعصب القبلي والعرقي في انتاجه ، كالصراع بين القحطانية والعدنانية يقول في آخر كتابه « النابتة » : « وقد كتبت ـ مد الله في عمرك ـ كتبا في مفاخرة قحطان وفي تفضيل عدنان ، وفي رد الموالى الى مكانهم في الفضل والنقص .. » .

وقال مرة أخرى في مقدمة الحيوان : « .. وعبتني بكتاب القحطانية ، وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية » . وذكرت أني تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية وأني لم أصل الى تفضيل العدنانية الا بتقصي القحطانية (١) » .

ويعرض لمشكلة الصراع بين الموالى والعرب في كتاب آخر أشار اليه أكثر من مرة هو « العرب والموالى » يقول في مقدمة الحيوان كذلك : « وعبتني بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أني بخست الموالى حقوقهم ، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم (٢) » .

ويعرض لبعض الاقوال في هذه القضية التي قال فيها الشعوبية كثيرا ، وتحاملوا على العرب وفضلوا الفرس خاصة . ومنها ما قاله في مواضع من كتاب « النابتة » : « وقد نجمت عن الموال ناجمة ونبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه قد صار

---

(١) راجع الجاحظ لطه الحاجرى ، ص ٢٣١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣١ ـ ٣٣/ .

عربيا ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : (مـولى القوم منهـم) ولقوله : (الولاء لحمة كلحمة النسب ، لا يباع ولا يوهب) ٠

وذكر ابن عبد ربه فى العقد جـزءا من الكتـاب فى كتاب « الشيمية فى النسب وفضائل العرب » ٠ وجزءا آخر فى كتاب « الياقوتة الثانية فى الالحان واختلاف الناس فيه » ٠ ويبدو من كلام ابن عبد ربه أن الجاحظ تكلم عن بعض شعراء الموالى مثل أبى نواس وقرظ شعره وأحسن الاختيار منه ٠ قال فيه : « ومن الموالى الحسن بن هانىء ، وهو من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيـه » ٠ وكتابات الجاحظ تعكس موقفا جديدا للموالى ، فبعد أن كانوا شعوبية متعصبين صدر الدولة العباسية وطوال أيام المأمون بدأوا فى التخفيف من حدة هذه العصبية ضـد العرب ، وبدأوا يفامرون بالولاء للعـرب كذلك فـان المنتصرين للعرب بـدءوا يهدئون من غلوائهـم فى الهجـوم ، لسيطرة الفرس على الدولة وخاصة فى عصر المأمون والواثق ٠

واذا كان سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون زعيم الشعوبية فى عصره ، وألف كتبا كثيرة فى التعصب للفرس ضد العرب (١) فان العرب وجدوا من الجاحظ وابن قتيبة من يتصدى للرد على هؤلاء ٠ وقد افتتح الجاحظ كتاب البخلاء برسالة سهل بن هارون هذا ٠ وتولى فى الكتاب كله الرد عليها ٠

---

(١) بللات ، ص ٣١٢ ، وراجع جولد تسهر : العقائـد والشريعة فى الاسـلام ١٦٢/١ ٠

وقريب من هذه القضية العرفية أو فيما يدور حولها من موضوعات الاجناس ومواقفها فى المجتمع الاسلامى فى ذلك تجرى بعض رسائله مثل « كتاب الصرحاء والهجناء » (١) و « فخر السودان على البيضان » .

ويذكر السودان فى كتابه الاول على أساس أنهم « السمر » ويعنى بهم العرب فى مقابلة الحمران وهم العجم من روم وصقالية وفرس وخراسانية . ويذكر ما يقال فى ذلك أيامه من مثل سائر هو : ما يخفى ذلك على الاسود والاحمر ، أى العربى والعجمى ، ويكرره المبرد .

وفى الكتاب الثانى يعنى بالسودان الزنج من أهل النوبة والحبشة ومن اليهم وهو السودان الاصليون ويضاف اليهم أهل الهند والسند وسكان جزائر البحر الجنوبى (بحر العرب والمحيط الهندى) .

وقد كان للسودان أدوار فعالة فى التاريخ الاسلامى . تبدأ فى يوم حنين حين قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : هل لك فى جيش بنى المعيزة تستعين بهم ؟ فرفض الرسول هذا العرض . ثم كانت ثورتهم بالمدينة أيام أبى جعفر المنصور ، اضطروا واليه عليها الى الفرار ، وما زالت عناصر السودان تعمل حتى بلغت ثورتهم الكبرى فى القرن الثالث ، واستشعار الجاحظ لقوتهم فى مجتمع

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ٢٤٠ .

البصرة وخطورتهم آنذاك مما حفزه على كتابة هذه الرسالة . وقد كان للسودان كما كان لغيرهم من العصبيات والطوائف شعراء ذكر بعضهم الجاحظ فى هذه الرسالة ، ويذكر منهم كبار الرجال ومشاهير الامة ممن قاموا بأدوار هامة فى الجاهلية والاسلام أمثال عنترة بن شداد ، وسليك بن السلكة وبلال بن رباح مؤذن الرسول وأخيه وعمار بن ياسر وآل ياسر الذين لاقوا من العذاب أشده فى سبيل رسالة الاسلام أول أمره . ومنهم كذلك سعيد بن جبير ، وهو من هو فى صدق الايمان وصفاء البصيرة وقوة العزيمة . وعمير بن الحباب ، والحجاف بن حكيم وقد أقاما الدولة الاموية وأقعداها . الى غير هؤلاء من أبطال الحرب ورجال الدين والعلم . ويقول فى هذه الرسالة (١) :

« .. والناس مجمعون على أنه ليس فى الارض أمة السخاء فيها أعم . وعليها أغلب من الزنج . وهاتان الخلتان لم توجدا قط الا فى كريم .

وهى أطبع الخلق على الرقص الوقع الموزون ، والضرب بالطبل على الايقاع الموزون ، من غير تأديب ولا تعليم .

وليس فى الارض أحسن حلوقا منهم ، وليس فى الارض لغة أخف على اللسان من لغتهم ولا فى الارض قوم أذرب ألسنة ، ولا أقل تمطيطا منهم .

(١) رسائل الجاحظ ، طبع عبد السلام هارون ج ١ ، ص ١٩٥ .

وليس في الارض قـوم ألا وأنت تصيب منهم الارت (١) ، والفأفاء ، والعين ، ومن في لسانه حبسة ، غيرهم ·

والرجل منهم يخطب عنـد الملك بالزنـج من لدن طلـوع الشمس الى غروبها ، فلا يستعين بالتفاته ولا بسكته حتى يفرغ من كلامه ·

وليس في الارض أمـة في شدة الابدان وقوة الاسر أعم منهم فيهما · وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم · وهم شجعان أشداد الابدان ، أسـخياء · وهذه خصال هى الشرف » ·

ويقول عنهم فى الرسالة نفسها في موضع آخر :

« قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا ، منها الغالية ، وهى أطيب الطيب ، وأفخره ، وأكرمه ومنها النعش وهو أستر للنساء ، وأهون للحرم ، ومنها المصحف ، وهو أوفى لمـا فيه ، وأحصن له وأبهى له ·

قالوا : ونحن أهول في الصدور ، وأملأ للعيـون ، كما أن المسودة أهول في العيون وأملأ في الصدور من المبيضة ، وكما أن الليل أهول من النهار ·

قالوا : ودهم الخيل أبهـى وأقوى ، والبقـر السود أحسن

---

(١) الارت الذى في لسانه عقدة وحبسة ·

وأبهى ، وجلودهـا أثمن وأنقى ، والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى . وسود الشاء أدسم ألبانا ، وأكثر زبدا ، والدبس أغزر من الحمـر (١) .

وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الاسود ، ولا أعم منفعة ، ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقـوى مـا تكون اذا كانت سـود الجذوع .

قالوا : وأحسن الخضرة ما ضارع السواد . قال الله جل وعلا : (ومن دونهما جنتـان) ثم قـال لمـا وصفهمـا وشـوق اليهما (مدهامتان) قال ابن عباس : خضراوان من الرى سوداوان .

وليس فى الارض عود أحسن خشبا ولا أغلى ثمنا ، ولا أثقل وزنا ، ولا أسلم من القوادح ولا أجدر أن ينسب فيه الخط من الآبنوس . وقد بلغ مـن اكتنازه والتئامه ، ملوسـته وشـدة تداخله ، أنه يرسب فى الماء دون جميع العيدان والخشب ، وقد غلب بذلك بعض الحجارة ، اذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب.

والانسان أحسن ما يكون فى العين مـا دام أسـود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الانسان حدقتاه ، وهما سوداوان . وأكرم الاكحال الاثمد ، وهو أسود . ولذلك جاء أن الله يدخل جميع المؤمنين الجنة جردا مردا مكحلين .

وأنفع ما فى الانسان له كبـده التى بهـا تصلح معدته .

---

(١) الدبس : الحمر المشوبة بالسواد .

وينهضم طعامه ، وبصلاح ذلك قام بدنه ، والكبد سوداء ٠

وأنفس ما فى الانسان وأعـزه سـويداء قلبه ، وهى عنقة سوداء تكون فى جوف فؤاده تقوم فى القلب مقـام الدمـاغ فى الرأس ٠

ومن أطيب ما فى المرأة وأشهاه شفتاها للتقبيل ، وأحسن ما يكونان اذا ضارعتا السواد ٠ وقال ذو الرمـة :

لمياء فـى شفتيها حـوة لعس ... وفى اللثـاة وفى أنيابهـا شنب

وأطيب الظل وأبرده ما كان أسود ٠ وقال الراجز :

سـود غرابيب كاظـلال الحجـر

وقال حميد بن ثور :

ظللنا الى كهف وظلت ركابنـا ... الى مسـتكفات لهـن غــروب
الى شـجر ألمى الظــلال كأنها ... رواهب أحر من الشراب عذوب (١)

ومن حلقات هذه الدراسـات فـى الاجناس رسالة « مناقب الترك»(٢)، وقد وجهها الى الفتح بنخاقان وزيرالخليفة المتوكل، والذى قتل معه سنة ٢٤٧ هـ ، وعنوان الرسالةكاملا» مناقب الترك وعامة جند الخلافة» ٠ ومعروف أن الخليفة المعتصم كان قد بدأ يكثر من العناصر التركية فى جيشه ٠ والاتراك جنس كله يعيش فى مشارق أرض الخلافة شمال شرق خراسان وفى البلاد الواقعة شرقى بحر قزوين ٠

---

(١) عذوب جمع عاذب وهو الذى لا يأكل ولا يشرب ٠
(٢) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٥ ٠

وفى الرسالة حوار أو منافرة ومفاخرة بين عناصر مختلفة كالعرب والخراسانية كذلك ويبدو من حديثه أنه استشعر ما كان يستعر بين تلك العناصر من الخلاف والمنافرة ورأى خطرها فأراد أن يعرف لكل عنصر حقه وفضله يقول :

« وكتابنا هذا انما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التى كانت مختلفة ، ولتزيد الالفة ان كانت مؤتلفة ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت فى النسب ، وكم مقدار الخلاف فى الحسب ، فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة وشبهات مزورة (١) ·

وتراه يعود الى نغمته السائدة فى مثل هذه الرسائل والكتب وهى نغمة المؤاخاة بين العناصر المؤلفة للمجتمع العربى الذى يظله الاسلام بظله ويمد عليه جناحيه فلا يفرق بين زنجى وفارسى وعربى وتركى والجميع عرب ومسلمون ، ما داموا يقرءون القرآن بالعربية ، ويتعلمون علوم العرب ، وينظمون ويؤلفون باللغة العربية :

« وقد جعلوا اسماعيل وهو ابن عجميين عربيا ، لان الله تعالى فتق لهاته بالعربية المبنية على غير النشوء والتقدير· وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل الى بدنه تلك الاجزاء ، وركبه اختراعا

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٢٩ ·

على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ثم حباه من طبائعهم ومنحه من خلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جعل ابراهيم أبا لمن يلده ، فالبنوى خراسانى من جهة الولادة ، والمولى عربى من جهة المدعى والعاقلة .

ويقول ان الله خلق العباد وله أن يجعل من عباده من شاء عربيا ، ومن شاء عجميا ومن شاء قرشيا ، ومن شاء زنجيا (١) .

ويقول : « وما الذى قسم الله — عز اسمه — بين الناس .. ألا كما صنع فى طينة الارض ، فجعل بعضها حجرا ، وبعض الحجر ياقوتا ، وبعضه ذهبا ، وبعضه نحاسا ، وبعضه رصاصا وبعضه حديدا أو بعضه ترابا ، وبعضه فخارا ..ومن يحصى عدد أجزاء الارض وأصناف الفلز ؟ .

واذا كان الامر على ما وصفنا فالبنوى خراسانى، واذا كان الخراسانى مولى ، والمولى عربى ، فقد صار الخراسانى والمولى والمولى والعربى واحدا .

ولوفى ذلك أن يكون الذى فيهم من خصال الوفاق غامرا ما فيهم من خصال الخلاف بل هم فى معظم الامر وفى أكبر الشأن

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٣٢ .

وعمود النسب متفقون . والاتراك خراسانية .. فقد صار التركي الى الجميع راجعا ، وصار شرفه الى شرفهم زائدا (١) . واذا عرف سائر ذلك سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ومات الضغن ، وانقطع سبب الاستثقال ، فلم يبق الا التنافس والتحاسد الذى لا يزال يكون بين المتقاربين فى القرابة والمجاورة .

على أن التوازر والتسالم فى القرابات وفى بنى الاعمام والعشائر أفشى وأعم من البعداء . وهو حين يذكر مناقب الترك فانما يقتصر على ذكر محاسنهم وفضائلهم ولا يعرض لمثالب غيرهم يقول : « وان كان لا يمكن ذلك فى مناقب الاتراك الا بذكر مثالب سائر الاجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب .. ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوىء ، دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها، فهذا لا يعرف . وقد قال النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث ، أى الرجال المهذب

وقال قريش السعدى :

أخ لى كايام الحياة أخاؤه ... تلون ألوانا على خطوبها
اذا عبت منه خلة فتركته ... دعتنى اليه خلة لا اعيبها

وقال بشار :

اذا كنت فى كل الامور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٣٤ .

فعش واحدا اوصل اخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه

وبدأ أبو عثمان فى التعريف بفضائل الترك ، وطباعهم ، وخاصة فى القتال ٠

يقول : « والتركى يرمى الوحش والطير والبرجاس (١) ، والناس ، والمجثمة ، والمثل الموضوعة ويرمى وقد ملأ فروج دابته مدبرا ومقبلا ، ويمنة ويسرة ، وصعدا وسفلا ٠ ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجى سهما واحدا ، ويركض منحدرا من جبل ، أو مستفلا الى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجى على بسيط الارض ٠

وللتركى أربعة أعين : عينان فى وجهه ، وعينان فى قفاه ٠٠ والتركى فى حال شدته معه كل شىء يحتاج اليه لنفسه وسلاحه ، ودابته وأداة دابته ٠

فأما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى وقطع البلاد ، فعجيب جدا ٠٠ ولو حصلت عمر التركى وحسبت أيامه لوجدت جلوسه عى ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الارض ٠ والتركى يركب فحلا أو رمكة (فرسا) ، ويخرج غازيا أو مسافرا ، أو متباعدا فى طلب صيد ، أو سبب من الاسباب فتتبعه الرمكة وأفلاؤها ، ان أعياه اصطياد الناس اصطاد الوحش،

---

(١) البرجاس : هدف فى الهواء على رأس رمح أو نحوه ٠

وان أخفق أو احتاج الى طعام قصد دابة من دوابه ، وان عطش حلب رمكة من رماكه ، وان أراح واحدة تحته ركب أخرى من غير أن ينزل الى الارض ٠

وليس في الارض أحد الا بدنه ينتفض على اقتيات النحم وحده غيره ، وكذلك دابتـه تكتفـي بالعنقر (القصب)والعشب والشجر ، لا يظلها من شمس ولا يكنها من برد (١) ٠

ومن قضايا الحياة والمجتمع التي عرض لها أبو عثمان ضروب المعايش واختلافها وتنوعهـا ، وأسـباب كسب الرزق من تجـارة وصناعة وزراعة وغيرها ٠ ويعرض لنا كتاب التبصر بالتجارة صورة لهذه الحرفة التاريخية القديمة قدم الانسان ، وقد ألم بها الجاحظ ، وعرف بأسرارها لنشأته في البصرة ، وهي وسط تجاري ممتاز ٠ ومنها رسائله (التبصر بالتجارة) و (المعاش والمعاد) و (غش الصناعـات) و (كتـاب الـزرع والنخـل والزيتـون والاعناب (٢) ، ورسالة مدح التجار وذم عمل السلطان (٣) ٠

التبصر بالتجارة ، ومدح التجار :

ونعلم أن الجاحظ نشأ في وسط تجـاري هو البصرة ، بل عمـل هو نفسه ببيع بعض الاشياء الصغيرة أي بائعا جائلا على نهر

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٤٨ ٠

(٢) نشرت بالمجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٣٢ م ، وبالقاهرة ١٩٣٥ م ٠

(٣) الجاحظ للدكتور الحاجري ، ص ٢٨٤ ، وتوجد منها قطعة في مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبي ، ص ١٥٥ ٠

سبحان ، واتصل بأحد كبار التجار وهو محمد بن عبد الملك الزيات الاديب الشاعر الكاتب والوزير الخطير فى عهد المتوكل وكان صديقا له بعث اليه بالرسائل ، ومؤلف وخص رسالة « مدح التجار » بالاشادة به وبمهنة التجارة وشرفها ، لانه ، أى ابن الزيات ــ لقى كثيرا من السخرية والاستهزاء بمهنته بعد توليه الوزارة ، وكأن الجاحظ أراد أن يرد اليه اعتباره ، وأن يرفعه بشرف المهنة .

وقد بقيت لنا من هذه الرسالة قطعة تتألف من أربعة فصول . يدافع عن التجارة فيقول : « .. وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهى معولهم ، وعليها معتمدهم ، وهى صناعة سلفهم وسيرة خلفهم .. وقد غبر النبى صلى الله عليه وسلم برهة من دهره تاجرا ، وشخص فيه مسافرا ، وباع واشترى حاضرا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولم يقسم الله مذهبا رضيا ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا ، الا وحظه منه أوفر الحظوظ ، وقسمه فيه أجزل الاقسام . ولشهرة أمره فى البيع والشراء قال المشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق) فأوحى الله اليه : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق) . فأخبر أن الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات .

وذكر أن التجارة لا تمنع صاحبها من علم ، ولا تحجبه عن

أدب · يقول : « فأى صنف من العلم لم يبلغ التجار فيه غاية ، أو يأخذوا منه بنصيب ؟ أو يكونوا رؤساء أهله وعليتهم ؟ · هل كان فى التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل ؟ · وقد كان تاجرا يبيع ويشترى ، وهو الذى يقول : ما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على رضوان الله عليهم قضاء الا وقد علمته · وكان أعبر الناس للرؤيا ، وأعلمهم بأنساب قريش » ·

وكتاب التبصر بالتجارة محاولة من الجاحظ لعرض بعض أسرارها وصنوفها ، وما يجلب على البلاد المختلفة منها ·· الى غير ذلك مما يتعلق بها · وهى معلومات تفيد كثيرا من الناس الذين يتصلون بهذه المهنة ، ولابد لهم من التعرف عليها كالمحتسبين ، فالمحتسب وظيفته قريبة الصلة بالاسواق والتجارة والمكاييل والموازين ، لانه الرقيب عليها جميعا ، والمنفذ للشريعة وأصولها، والراعى لمصالح الامة بين التجار والصناع فى الاسواق · وقد ألف كثير من العلماء فى الحسبة ، واتصلوا من قريب بأصول التجارة وأسرار السوق ، ودخائل كل حرفة وصناعة ، حتى لا يغيب شىء عمن يلى هذه الرتبة ، وليطبق حدود الله ، ويحفظ حق الناس ، ويردع كل من تسول له النفس غشا أو تدليسا أو كسبا حراما غير مشروع ·

ومما يتصل بكتابات الجاحظ فى الموضوعات الاجتماعية ما يتعلق بحياتهم فى لهوهم وملاذهم ، وقد كتب فى ذلك جملة من

رسائله ، فضلا عما تخلل كتبه من فصول متنوعة • وأولى هـذه الرسائل « رسالة القيان » ، والمفاخـرة بين الجـوارى والغلمان وكتاب « طبقات المغنين » •

ورسالة القيان محاولة لعرض حال الغناء والمغنيات فى ذلك العصر، ويعرض فيها للجوارى عامة ، ولموقف النساء ، وعلاقات النساء بالرجال ، والقول فى العشق والحب يقول :

والحب اسم واقع على المعنى الذى رسم له ، ولا تفسير له غيره، لانه قد يقال : ان المرء يحب الله ، وان الله جل وعز يحب المؤمن ، وان الرجل يحب ولده ، والولد يحب والده ويحب صديقه وبلده وقومه، ويحب على أى جهة يريد ، ولا يسمى ذلك عشقا ، فيعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به فى معنى العشق حتى تضاف اليه العلل الاخر ، الا أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه حب الهوى ، فربما وافق الحق والاختيار وربما عدل عنهما •

وهذه سبيل الهوى فى الاديان والبلدان وسائر الامور • ولا يميل صاحبه عن محبه واختباره فيما يرى • ولذلك قيل : « عين الهوى لا تصـدق » وقيـل : حبك الشىء يعمى ويصـم ، يتخذون أوثانهم أربابا لاهوائهم ، وذلك أن العاشق كثيرا ما يعشق غير النهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم ان سئل عن حجته فى ذلك لم تقم له حجة •

ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقا ، فيكون ذلك

فى الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفرش والدواب. فلم نر أحدا منهم يسقم بدنــه ولا تتلف روحــه من حب بلده ولا ولده ، وان كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق ٠

وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق ٠ فعلم أنه اذا أضيف الى الحب والهــوى المشاكلة ، أعنى مشاكلة الطبيعــة ، أى حب الرجــال النساء وحب النساء الرجال ، المركب فى جميع الفحول والاناث من الحيــوان ، صار ذلك عشقا صحيحا ، وان كان ذلك عشقا من ذكر لذكر فليس الا مشتقا من هذه الشهوة ، والا لم يسم عشقا اذا قامت الشهوة ٠

ثم لم نره يكون مستحكما عند أول لقياه حتى يعقد ذلك الالف ، وتغرسه المواظبة فى القلب فينبت كما تنبت الحبة فى الارض حتى تستحكم وتشتد وتثمر ، وربما صار لها كالجذع السموق والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقف فصار فيه بوار الاصل ، فاذا اشتمل على هذه العلل صار عشقا تاما ٠ ثم صارت قلة العيان تزيد فيه وتوقد نــاره ٠ والانقطــاع يسعره حتى يذهل العقل وينهك البدن ويشتغل القلب عن كل نافعة ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق والغالب على فكرته ، والخاطر فى كل حالة على قلبــه ٠

واذا طال العهد واستمرت الايام تقضى على الفرقة،واضمحل على المطاولة ، وان كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسومها ، وكذلك الظفر بالمعشوق يسرع فى حل عشقه ٠

والعلة فى ذلك أن بعض الناس سرع الى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب فى الرقة والقسوة ، وسرعة الالف وابطائه ، وقلة الشهوة وضعفها ٠

وقل ما يظهر العاشق للمعشوق عشقا الا عداه بدائه، ونكت فى صدره وشغف فؤاده ، وذلك بين المشاكلة ، واجابة بعض الطبائع بعضا ، وتوقان بعض الانفس الى بعض وتقارب الارواح ، كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به فينعس ، وكالمتثائب يراه من لا تثاؤب به فيفعل مثل فعله ، قسرا من الطبيعة ٠

وقل ما يكون عشق بين اثنين يتساويان فيه الا عن مناسبة بينهما فى الشبه فى الخلق والخلق ، وفى الظرف ، أو فى الهوى ، أو فى الطباع ٠ ولذلك ما نرى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحب الحسن ٠ ويختار المختار الاقبح على الاحسن ، وليس يرى الاختيار فى غير ذلك فيتوهم الغلط عليه ، لكنه لتعارف الارواح وازدواج القلوب » ٠

وهكذا يعرض الجاحظ فلسفة الحب والمحبة ، أو الالفة والآلاف ، ودرجات الحب وأنواعه وربما كان الجاحظ أول كاتب عربى طرق هذا الموضوع على تلك الصورة المبسوطة محللا لهذه العلاقة بين الرجل والمرأة ٠ وقد تبعه فى ذلك بعض الكتاب ، كابن حزم فى كتاب « طوق الحمامة » وصاحب «تزيين الاشواق» وابن الجوزى فى «ذم الهوى» ،كما طرق أبو حيان التوحيدى الموضوع فى

مواضع من كتبه. وعرض للصداقة فى كتاب الصداقة والصديق على اعتبار أنها رابطة مسجلة وألف يجمع بين اثنين .

كذلك عرض لها الوشـاء فى كتـاب « الموشى » فى الظرف والظرفاء .

وعرض الجاحظ فى كتاب القيان طباع القينات ، المغنيات خاصة ، والجوارى عامة وأحوالهن مع المترددين على بيوت القيان التى عرفت واشتهرت فى المجتمع العباسى وكان الناس يقصدونها لقضاء أوقات من المتعة فى السماع واللهو .

يقـول الجاحـظ :

« .. ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس اليهن ، وأنهن يجمعن للانسان من اللذات مالا يجتمع فى شىء على وجه الارض .

« .. واذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغنى حدق اليها الطرف، وأصغى نحوها السمع وألقى القلب اليها الملك ، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدى الى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه فيتوافيان عند حبة القلب ، فيفزعان ما وعياه ، فيتولد منه السرور حاسة الملمس ، فيجتمع له فى وقت واحد ثلاث لـذات لا تجتمع لـه فى شىء قط ، ولم تؤد اليه الحواس مثلها ، فيكون فى مجالسته للقينة أعظم الفتنة ، لانه روى فى الاثر : « اياكم والنظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة » . وكفى بصاحبها فتنـة ، فكيف بالنظـر والشهوة اذا صاحبهما السماع ، وتكانفتهما المغازلة .

ان القينة لا تكاد تخالص فى عشقها ، ولا تناصح فى ودها ، لانها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشـرك للمتربصين ، ليقتحموا فى أنشوطتها • فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت بالشرب عند شربه ، وأظهـرت الشوق الى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحـزن لفراقه • فـاذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد تعقل فى الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو اليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها ، وبلت السحاءة بريقتها ، وأنه شجنها وشجوها فى فكرتها وضمـيرها ، فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه ، ولا تنوى انحرافا عنه ، ولا تريده لماله ، بل لنفسه • ثم جعلت الكتاب فى مسدس طومار ، وختمته بزعفران ، وشـدته بقطعة زير (وتر العود) ، وأظهرت سترة عن مواليها ، ليكون المغرور أوثق بها • وألحت فى اقتضاء جوابه ، فان أجيبت عنه ادعت أنها صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته وأنشدت :

وصحيفـة تحكـى الضمـــير مليحـــة نغماتهـــا
جاءت وقد فـرح الفـؤا د لطـول مـا استبطاتهـا
فضحكت حـــين رأيتهـا وبكيت حـــين قراتهـا
عينـى رأت ما انكـــرت فتبـادرت عبراتهـــا
اظلوم ، نفســى فى يديـــك ، حياتها ووفاتهـا

ثم تغنت حينئذ :

بات كتاب الحبيب ندمانـى محدثى تـارة وريحـــانى

اضحكنى فى الكتـاب أولـه ثم تمـادى بـه فابكـانى

ثم تجنت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله، وحمته النظر الى صواحبها، وسقته أنصاف أقداحها، وجمشته بعضوض تفاحها، وتحية من ريحانها ، وزودته عنـد أنصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من قرطها ، وشظية من مضرابها ، وأهدت اليه فى النيروز تكة وسكرا وفى المهرجان خاتما وتفاحـة ، ونقشت على خاتمها اسمه ، وأبدت عند العثرة اسمه ، أغنية اذ رأته :

نظر المحب الى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليك عظيـم

ثم أخبرته أنها لا تنام شوقا اليه ، ولا تهنـأ بالطعام وجدا به ، ولا تمل ـ اذا غاب ـ الدموع فيه ٠ ولاذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت، وأنها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه ٠٠ » ٠

ويعرض الجاحظ لجوانب من حياة مجتمعه وأخلاق الناس فيه ، فيبدى من مساوىء السلوك ومقابح الخلـق عند الناس ٠ وينصح لهم بالسداد وسلوك الطريق القويم فى الحياة ، وربما كانت رسالة المعاد والمعاش صورة لهذا اللون من كتابته ٠

رسالة المعاد والمعاش : أو الاخلاق المحمودة والمذمومة :

كتب بها الى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد يقول له فيه : « فرأيت أن أجمع لك كتابا من الادب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الاشياء ، وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الامم ٠٠ » ٠

ويقول : « فألفت لك كتابى هذا اليك ، وأنـا واصف لك فيه الطبائع التـى ركب عليهـا الخلق ، وفطرت عليهـا البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون والى وجودها فى أنفسهم مضطرون وفى المعرفة بما يتولد عنها متفقون » ·

يقول فيهـا :

« اعلم أن الآداب انما هى آلات تصلح أن تستغل فى الدين وتستعمل فى الدنيا وانما وضعت الآداب على أصـول الطبائع ، وانما أصول أمور التدبير فى الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة فى الدين فسدت فيه المعاملة فى الدنيا ، وكل أمـر لم يصح فى معاملات الدنيا لم يصح فى الدين · وانمـا الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخـرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولـولا ذلك مـا قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة · ولذلك قـال الله عز وجـل : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سـبيلا) قال ابن عباس فى تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دبرت أمور الدنيـا ، فكذلك هو اذا انتقـل الى الدين ، فانما ينتقل بذلك العقـل ، فبقـدر جهله بالدنيـا يكون جهله بالآخرة أكثر ، لان هذه شاهدة وتلك غيب ، فاذا جهل ما شاهد ، فهو بما غاب عنه أجهل ·

ويقـــول :

« اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجترار

المنافع ، ودفع المضار ، وبغض ما كان بخـلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب وحيلة مفطورة . لا خلاف بين الخلق فيه ، موجود فى الانس والحيوان . لم يـدع غيره مـدع من الالين والآخرين . وبقدر زيارة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضـاء . فنقصانه كزيادته تميل الطبيعة معهما كميل كفتى الميزان ، قل ذلك أو كثـر » .

وهاتان جملتان داخل فيهما جميع محامد العباد ومكارمهم . والنفس فى طبعها حب الراحة والدعـة والازديـاد والعلـو ، والعز والغلبة ، والاستطراف والتفوق وجميع ما تستلذ الحواس من المناظـر الحسنة ، والروائـح العبقة والطعـوم الطيبـة ، والاصوات الموقعة ، والملامس اللذيذة ومما كراهيته فى طباعهم أضداد ما وصفت لك وخلافته .

فهذه الخلال التى تجمعها خلتان غرائز فى الفطر ، وكوامن فى الطبع ، حيلة ثابتة وشيمة مخلوقة . على أنها فى بعض أكثر منها فى بعض ، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة الا الذى دبرهم .

فلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهـم من الارض أرزاقهم ، وجعل فى ذلك ملاذا لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم وتطلعت اليه أنفسهم ..

وعلم الله أنهم لا يتعاطفون ، ولا يتواصلون ، ولا ينقادون الا بالتأديب ، وأن التأديب ليس الا بالامر والنهى ، وأن الامر والنهى غير ناجعـين فيهـم الا بالترغيب والترهيب اللذين فى

طباءهم ، فدعاهم الى جنته ،وجعلها عوضا ممــا تركوا فى جنب طاعته ، وزجرهــم بالترهيب بالنــار عن معصيته ، وخوفهــم بعقابها على ترك أمره • ولو تركهم جــل ثنــاؤه والطباع الاول جروا على سنن الفطرة ، وعادة الشيمة •

ثم أقام الرغبة والرهبة على حدود العدل وموازين النصفة ، وعد لهم تعديلا متفقا ، فقال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) •

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل فى تدبيره الخلل ، ولا جائز عنده المحاباة ، ليعمل كل عامل على ثقة ممــا وعــده ، وواعده ، فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، فاطرد التدبير، واستقامت السياسة ، لموافقتهما مــا فــى الفطــرة ، وأخذهما بمجامع المصلحــة •

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تلذ • ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : (حفت الجنــة بالمكاره والنار بالشهوات) •

ويقول : واحفظ هذه الابواب التى يوجب بعضها بعضا ••

المنفعة توجب المحبة ، والمضرة توجب البغضـــاء ، والمضادة توجب العداوة ، وخلاف الهــوى يوجب الاستثقال ، ومتابعتــه توجب الالفــة ، والصدق يوجب الثقة ، والكذب يورث التهمة ، والامانة توجب الطمأنينــة ، والعــدل يوجب اجتماع القلوب ،

والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبر يوجب المقت ، والتواضع يوجب الثقة ، والجود بالقصد يوجب الحمد ، والبخل يوجب المذمة ، والتوانى يوجب التضييع ، والجد يوجب رخاء الاعمال والهوينا تورث الحسرة ، والحزم يورث السرور ، والتغرير يوجب الندامة ، والحذر يوجب العـذر ... » .

ويقـــول :

واحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التوانى فى صورة التوكل ويسلبك الحـذر ، ويورثك الهوينا باحالتك الى الاقدار ، فان الله انما أمـر بالتوكل عند انقطـاع الحيـل ، والتسليم للقضاء بعد الاعذار ، بذلك أنـزل كتابه ، وأمضى سنته فقـال : (خذوا حذركم) و (ولا تلقوا بأيديكـم الى التهلكة) .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اعقلها وتوكل » . وسئل ما الحزم فقال : الحذر . واعلم أن تثمير المال آلة للمكارم ، وعون على الدين ، ومتألف للاخوان ، وأن من قد فقد المـال قلت الرغبة اليه والرهبة منه . ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره فاجهد الجهد كله الا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة ، فى دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ولا تثمير معه لقليل ، ولا

تصلح عليه دنيا ودين . وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه فقال : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) . . وقالت الحكماء : القصد أبقى للجمام .

فداوم حالك وبقاء النعمة بتقديرك أمورك على قدر الزمان ، وبقدر الامكان . فقد قال الشاعر :

من سابق الدهر كبا كبوة   لم يستقلها من خطى الدهر
فاخط مع الدهر على ما خطا   واجر مع الدهر كما يجرى

ويقول :

« واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء ، فنال بها الجاهل فى نفسه ، المختلط فى تدبيره مالا ينال الحازم الاريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك الى التضييع والاتكال على مثل تلك الحال . فان الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر فجاءت المقادير بخلاف ما قدر كان عندهم أحمد رأيا وأوجب عذرا ممن عمل بالتفريط وان اتفقت له الامور على ما أراد . ولعمرى بأن كان ذلك يجىء الا فى أقل الامور .

ولا تكونن لشىء مما فى يدك أشد ضنا ،ولا عليه أشد حدبا منك بالاخ الذى قد بلوته فى السراء والضراء ، فعرفت مذاهبه ، وخبرت شيمه ، وصح لك غيبه ، وسلمت لك ناحيته ، فانما هو شقيق روحك ، وباب الروح الى حياتك ، ومستمد رأيك ،

وتوأم عقلك . ولست منتفعا بعيش مع الوحدة ولابد من المؤانسة ، وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فان صفا لك أخ فكن به أشد ضنا منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقا أو خلقين تكرههما ، فان نفسك التى هى أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة فى كل ما تريد ، فكيف بنفس غيرك ؟ وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد قالت الحكماء : « من لك بأخيك كله » . « وأى الرجال المهذب » .

ويتصل بهذه الرسالة فى الموضوع رسالته فى « كتمان السر وحفظ اللسان » .

حب الاوطان : أو « رسالة فى الحنين الى الاوطان » :

(مجموعة رسائل الجاحظ لهارون ج ٢/٣٨٤) قال :

« لقد قالت العجم : من علامة الرشد أن تكون النفس الى مولدها مشتاقة ، والى مسقط رأسها تواقة . وقالت الهند : حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لان نظراءك منهماوعداءهما منك . وقال آخر : احفظ بلدا رشحك غذاؤه وارع حمى أكنك فناؤه . وأولى البلدان بصبابتك اليه بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه .

يقول : « ومما يؤكد ما قلنا فى حب الاوطان قول الله عز وجل حين ذكر الديار ، يخبر عن مواقعها من قلوب عباده . فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من

ديارهم . وقال تعالى : (وما لنا ألا نقاتل فـى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) .

وقال عمر رضى الله عنه : (عمر الله البلدان بحب الاوطان) .

وكان يقال : لولا حب الناس الاوطان لخسرت البلدان .

وقال عبد الحميد الكاتب يذكر الدنيا : نفتنا عن الاوطان، وقطعتنا عن الاخوان .

الموضوعات الدينية والكلامية فى كتبه ورسائله :

وشملت كتبه ورسائله كذلك موضوعات دينيـة متنوعة ، منهـا كتـاب « حجـج النبـوة » و « كتـاب نظـم القـرآن » وكتاب « آى القرآن » وكتاب « مسائل القرآن » وكتاب « خلق القرآن » وكتاب « الرد على المشبهة » وكتاب « الرد على النصارى » وكتاب « الرد على اليهود » .

ويعكس الجاحظ فى هذه الكتب والرسائل آراءه الخاصة فى اطار فلسفته الاعتزالية العامة .

ومما قاله فى اليهود من كتاب الحجة (١) :

« ومتى أحببت أن تعرف غى بنـى اسرائيل ونقص أحلام القبط ، ورجحان عقول العرب ، وأحلام كنانة ، فانظر بواديهم ورباعهم ، وانظر الى بيئتهم وبقاياهم كما نظـرت الى غى بنى

---

(١) الجاحظ للدكتور طـه العاجرى ، ص ٣٦٧ .

اسرائيل ونقص بين من مضى من القبط تعتبر ذلك وتعرف ما أقول : .. وكيف لا تقضى عليهم بالغى والجهل ولم تسمع لهم بكلمة فاخرة أو معنى نبيه ، لا ممن كان فى المبدأ ، ولا ممن كان فى المحضر ، ولا من قاطنى السواد ، ولا من نازلى الشام ، ثم أنظر الى أولادهم مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا ، هل غير ذلك من أخلاقهم وشمائلهم وعقولهم وأحلامهم وآدابهم وفطنهم ؟ فقد صلح بنا كثير من أمور النصارى وغيرهم ، وليس النصارى كاليهود ، لان اليهود كلهم من بنى اسرائيل الا القليل ، فلم يغرب فيهم غيرهم ، لان مناكحهم مقصورة فيهم ، ومحبوسة عليهم فقصور أولهم مؤداه الى آخرهم ، وعقول أسلافهم مردودة على أخلاقهم ، ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام : (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها .

وكقولهم : (أرنا الله جهرة) ، وكعكوفهم على عجل صنع من حليهم يعبدونه من دون الله بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم ، وكقولهم : (اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون) . وكذلك ما وعد محمد صلى الله عليه وسلم بنار الابد كوعيد موسى بنى اسرائيل بالقاء الهلاك على زرعهم ، والهم على أفئدتهم ، وتسليط الموتان على ماشيتهم ، وباخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم ، فكان تعجيل العذاب الادنى فى استدعائهم

واستمالتهم وردعهم ، كتأخير العذاب على غيرهـم ، لان الشديد المؤخر لا يزجر الا أصحاب النظر فى العواقب ، وأصحاب العقول التى تذهب فى تلك المذاهب » ٠

مثل من تفسيره للقرآن :

وهو يعرض لآيات الكتاب لتفسيرها ، لا يأخذ بالظاهر ولا بمجرد المدلول المحدود للفظ ، يستبطن المعانى ، ويجول جولة مع السياق ومع غاية التعبير القرآنى وينشد أثره النفسى ، والعقلى، ويكشف الجاحظ عن اقتدار فى اكتشاف أسرار التعبير ٠ فانظر الى تفسيره لقوله تعالى : (قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) وقال مرة أخرى (بشهاب قبس) ٠

وان المسافر فى هذا البيد المترامى من العرب لا يدرى طريقه ، والرمال من تحته ممتدة على مرمى البصر ، والسماء فوقه لا تريم متى يصل بأمان الى مخيم ، قد يخطىء ظنه وتقديره، وينفذ زاده ، وينضب ماؤه ، ويفقد الطريق ، ويضل السبيل ، فيضرب بلا هدى ، ولا تسل عن حيرة هذا المسافر الضال ، وعن مدى ما يشعر به من وساوس وهواجس ، ثم ما يداعب به نفسه من آمال وبينما هو غارق فى هواجسه وآماله ، والليل مغلق عليه ، والابل تئط من التعب والضنى ، وبطنه الطاوى يكاد يلتصق من السغب ، وريقه يكاد يجف من العطش ، وهو فى متاهة لا تبصر العين فيها أثرا لحياة ، لا تسل عن حال هذا الضال وسعادته كيف يلقى قبسا من النار يطلع له من الافق

البعيد طلوع الامل الباسم يناديه ، ويفتح له الطريق أمام حياة بعد أن كاد يفقد الامل ، وتعمى السبل فيهرول وهو يمنى النفس بشبع ورى ، وراحة وأنس ·

هذا ما أراد به الجاحظ من تفسيره للآية ، وما أراد أن يعلنه حين نقل قول أبى عقيل فى قوله تعالى : (وقال موسى لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بشهاب قبس) فقال أبو عقيل لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل ومن الجائع المقرور (١) ·

والقرآن استخدم اللفظين « بخبر » و « بشهاب قبس » والمعنى واحد ، والاختلاف فى اللفظ · والنار فى الحالين هى القصد ، فعندها الخبر بما يحب السائرون السبيل وفيها القرى والدفء له · والمعترض ها هنا ـ وأغلب الظن أنه من الموالى غير العرب ـ لم يحس بما للنار فى البوادى لانه لم يحى حياة العرب البادين ، ولم يسمع منهم عن شأنها وقدرها · فأنكر أن يغير القرآن اللفظ على لسان موسى ، وحسب أن المعنى اختلف ، وأن التنزيل خالف نفسه وهو الذى لم يفهم قصد التنزيل ، ولم يلم بالمعنى المراد الماما شاملا ، فوقع فى الخطأ ، ويحسب أنه قد ظفر على القرآن بحجة فى تناقض نظمه ·

ويعرض الجاحظ للتفسير المجازى للقرآن ، والذى لا يؤخذ

---

(١) البيان والتبين ، طبع هارون ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ ·

فيه بظاهر القول فيواجه الظاهرية والمعترضين بالحجج البينة ، وينالهم بالسخرية اللاذعة ليسفه آراءهم فيقول مثلا فى قوله تعالى : (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فكهون) ٠

« وأصحاب الجنة لا يوصفون بالشغل ، وانما ذلك جواب لقول القائل : خبرنى عن أهل الجنة بأى شىء يتشاغلون ؟ أم لهم فراغ أبدا ؟ فيقول المجيب : لا ،ما شغلهم الا افتضاض الابكار وأكل فواكه الجنة وزيارة الاخوان على نجائب الياقوت ٠

وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس ، حين أقبل من جهة الحلبة وهو بالشام ــ من سبق ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل فمن صلى : قال أبو بكر ٠ قال : انما أسألك عن الخيل قال : وأنا أجيبك عن الخير ٠ وهو كقول المفسر حين سئل عن قوله : (لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فقال : ليس فيها بكرة ولا عشى ٠ وقد صدق القرآن وصدق المفسر ، ولم يتناكرا ولم يتنافيا ، لان القرآن ذهب الى المقادير ، والمفسر ذهب الى الموجود من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها (١) ٠

وفى قوله تعالى : (حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم ياتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ٠ فجعل للنار خزائن ، وجعل لها خزنة ،

---

(١) البيان ، ٢٧٦/٦ ٠

كما جعل فى الجنة خزائن وجعل لها خزنة · ولو أن جهنم فتحت أبوابها ونحى عنها الخزنة ، ثم قيل لكل لص فى الارض ولكل خائن في الارض دونك فقد أبيحت لك لما دنا منها · وقد جعل لها خزائن وخزنة ، وانما هذا على مثال ما ذكرنا · وهذا كثير فى كلام العرب ·

وقال فى قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) وقال تعالى : (وجعلناها رجوما للشياطين) · ونحن لم نجد قط كوكبا خلا مكانه · فماينبغى ان يكون واحد من جميع هذا الخلق من سكان الصحارى والبحار ومن يراعى النجوم للاهتداء ، او يفكر فى خلق السماوات أن يرى كوكبا واحدا زائلا ، مع قوله وجعلناها رجوما للشياطين ·

قيل لهم : قد يحرك الانسان يده أو حاجبه أو اصبعه فتضاف تلك الحركة الى كله ، فلا يشكون أن الكل هو العامل لتلك الحركة ، ومتى فصل شهاب من كوكب ، فاحترق وأضاء فى جميع البلاد ، فقد حكم كل انسان باضافة ذلك الاحراق الى ذلك الكوكب · وهذا جواب قريب سهل ·

ومنهج الجاحظ فى تفسيره يميل الى الاعتدال ، فلا يأخذ بظاهر القول ، وغريبه ، ولا يتأول أو يذهب بعيدا كفعل الباطنية انما يفسر القرآن على ما يفهمه العرب أصحاب اللغة التى نزل بها ، آخذا فى اعتباره ما يجوز فيها من وجوه التعبير

المختلفة كالمجاز والتشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير وما اليها.
وفي تفسير قوله تعالى في سورة النحل : (يخرج من بطونها شراب) يقول : « فالعسل ليس شرابا ، وانما هو شيء يحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا كما ترى شرابا اذا كان يجيء منه الشراب . وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جلت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

زعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط .

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها . ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا . وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت . وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة ، وهذيلا ، وضواحي كنانة . وهؤلاء أصحاب العسل . والاعراب أعرف بكل صمغة سائلة ، وعسلة ساقطة . فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب ؟ أو طعن عليه ؟ من هذه الجهة (١) » .

وكذلك الايجاز وترك الفضول ، لجأ اليه القرآن في مثل قوله تعالى : (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) في صفة خمر أهل الجنة . « وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا . وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة (لا مقطوعة ولا ممنوعة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني وفي

---

(١) كتاب الحيوان ، جـ٢ ، ص ٤٢٥/٤٢٦ .

التشبيه قوله تعالى : (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين) فزعـم ناس أن رءوس الشياطين ثمـر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه • والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا : انما عنى رءوس الشياطين المعروفين بهذا الاسـم من فسقة الجـن ومردتهم • فقـال أهـل الطعن : كيف يجوز أن يضرب المثل بشىء لم نـره فنتوهمه ، ولا وصفت لنـا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق •

ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة ، والتفريع منها، على أنه لو كان شىء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره• فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لا يفزعون الا من شىء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صور لهم واصف صـدوق اللسان بليـغ فـى الوصف ، ونحن لم نعاينها ، ولا صورها لنـا صادق • وعلى أن أكثر الناس من هذه الامم التى لم تعايش أهل الكتابين ، وحملة القـرآن من المسلمين ولـم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما ؟

قلنا : وان كنا نحن لم نر شيطانا قط ، و لاصور رءوسها لنا صادق بيده ، ففى اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى صاروا يضعون ذلك فى مكانين ، أحدهما أن يقولوا : لهـو أقبح من الشيطان ، والوجـه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا ، على جهة التطير له ، كما تسمى الفرس الكريمة « شوهاء » ، والمرأة الجميلة حماء وقرناء وخنساء وجربـاء وأشـباه ذلك على جهة

التطير لها ، ففي اجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من قبيح (١) .

وهكذا نجد الجاحظ في تفسيره انما ينظر الى القرآن نظرة بيانية وعقلية ، لا يأخذ بمأثور الكلام والخبر ، أو بآراء المحدثين والمفسرين ، انما يعمد الى تحليله للآيات وفق ما تقتضيه أصول البيان العربي ، ووفق ما يعتقده من آراء المعتزلة والمتكلمين .

البيان والنقد والبلاغة :

وكان اهتمام الجاحظ في كتبه بالبيان عدل اهتمامه بقضايا الفكر والحياة والدين ومعلوم أن المعتزلة اهتموا بالبيان ، وعلموا ناشئتهم البلاغة ووصفوا لهم أصولها ، وفي صحيفة بشر ابن المعتمر في البلاغة التي رواها الجاحظ دليل على ذلك .

ويخصص الجاحظ كتابا كبيرا من كتبه لهذا الموضوع « البيان والتبيين » يبحث فيه البيان العربي في صوره المختلفة من خطابه وشعر ورسائل ومثل وحكمة ، وان كان اهتمامه منصبا على الخطابة وحدد الجاحظ البيان ، ووجوهه ، كما عرف بالبلاغة وعناصرها ، وحاول أن يوقف متعلمي البيان طرق التبيين وأصوله .

ولم يقتصر حديثه في البيان ، و لانظراته البيانية والبلاغية

---

(١) كتاب الحيوان ، ٦ ٢١٢ - ٢١٣ .

على كتاب البيان والتبيين بل تعددت فى مواضع كثيرة من كتبه ، كلما تعرض لتفسير آية أو بيت شـعر أو مثل أو حكمة ويضع مقياسا عاما للحسن فى البيان فيقول :

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نيـة صاحبـه ، وتقوى قائله ، فاذا كان المعنى شريفا بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاسـتكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا من التكلف صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة (١) ٠

ويدور البيـان عند الجـاحظ على عنصرى اللفظ والمعنى بمدلولاتهما القريبة ، المفردة والمركبة ، فقد يعنى اللفظ النطق أو العبارة أو الكلمة الواحـدة ٠ وقـد يعنى المعنـى المضمون والموضوع ويعنى العبارة والمعنى القائـم فى النفس والمعنـى المحدود ، والمعنى الجزئـى للكلمة ، والمعنـى المجـازى والمعنى اللغـوى ٠

وللجاحظ آراء كثيرة فى النقد والبلاغة (٢) مفرقة تتعرض لبناء العبارة فى الشعر والكلام وما ينبغى أن تتصف به البليغة

---

(١) البيان والتبيين ، ٧٣/٢ ٠

(٢) راجع أثر القرآن فى تطور النقد العربى » للدكتور محمد زغلول سلام ؛ ، وبلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامة ، ص ٥٤ - ٥٧ ، والبيان العربى من الجاحظ الى عبد القاهر للدكتور طه حسين ، فى مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ٠

منها من التلاؤم والقــرن (١) ، كما يتحدث عن السرقات والمآخذ المعنوية فى الشعر (٢) ، والصدق والكذب فى البيان (٣) ، وأن الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (٤) · ويتحدث عن الطبع والصنعة فى الشــعر (٥) ·

روح الفكاهة والسخرية فى أدب الجاحظ :

يقول ابن قتيبة عن الجاحظ أنه يلجأ فى كتبه الى المضاحيك والعبث ·

وروح الفكاهة والسخرية سمة دالــة فى كتاباته ، وربما كانت من أبدع خصائص فنــه الكتابى ، فالفكاهة اقتدار وهبة من عند الله ، وهى تدخــل على نفس القــارىء النشاط وتروح عنــه ·

ومن أجمل ما كتب متضمنا روح الفكاهة والسخرية كتابه الخالد « البخــلاء » ورسالته « التربيع والتدوير » وبعض فصول فى كتاب الحيوان ، وفى رسائل أخرى متفرقة ·

وتراه فى البخــلاء يسخر منهم ويعرض حرصهم على طعامهم

---

(١) راجع البيان والتبيين ، ١/٢٠٥ ·
(٢) البيــان ، ١/١٥٤ ·
(٣) البيــان ، ١/٥٠ ·
(٤) البيــان ، ١/٨٣ ·
(٥) البيان ، ٢/٢٠٠ ـ ٢٠ ·

بصور مضحكة كقوله في أحد بخلائه وقد دعاه هو وبعض أصحابه الى طعام كان خبزه قليلا ، على قدر كل واحد رغيف :

« وكنت أنا وأبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وقطرب النحوى وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خـوان فلان بن فلان والخوان من جزعـة ، والغضـار صيني ملمع أو خلنجيه كيماكية ، والالوان طيبة شهية وغذيـة قديـة ، وكل رغيف في بياض الفضة كأنه البدر ، وكأنه مرآة مجلوة ، ولكنه على قدر عدد الرءوس ، فأكل كل انسان رغيفه الا كسرة ، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشيء فيتموا أكلهم والايدى معلقة ، وانما هي في تنقير وتنتيف .. »

ويقول في آخـر :

« .. قد رأيناه ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عرس ولان يطعن طاعن في الاسـلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثاني . ولشق عصا الدين أشد عليه من شق رغيف . لا يعد الثلمة في عرضه ثلمة ، ويعدها في ثريدته من أعظم النقم .. » .

وفي رسالة التربيع والتدوير نرى الجاحظ يفتن في رسم صور ساخرة هزلية لشخص محمد بن عبد الوهاب الذى أدار حوله الرسالة . وهي تعد من أبرع رسائل الهجاء في أدبنـا النثرى ، وقد شرع بها للناثرين من بعده طريقا ، اقتحموه ، وتفاوتوا في في سلوك دروبه ونواحيه .

كتاب الحيوان ، بين الادب والجدل الدينى والاجتماعى :

يمثل كتاب الحيوان للجاحظ صورة واضحة متنوعة الجوانب لشخصية الجاحظ الادبية والمذهبية والفكرية والاجتماعية ٠

فهو كتاب جامع لهذا كله ٠ وان بدا مختصا بموضوع الحيوان ٠

١ ـ منها أن موضوع الحيوان يشمل الحديث فى الحياة وأسرارها ، وفيها عناصر البحث عن الخالق وقدرته ، والدليل على وحدته ، وعدله ، وحكمته ، فهو موضوع جليل لكشف حقائق الايمان ، وتدعيم جدل المعتزلة ٠ أو يمكن أن يستمد هؤلاء منه مددا كبيرا لافكارهم وحججا لهم على معارضيهم ٠ وقد أشار الجاحظ الى اهتمام بعض المتكلمين فى عصره بالكلب والديك والمناظرة بينهما (١)٠

٢ ـ ومنها أن موضوع الحيوان كان تراثا دينيا أو هو فى وجدان كثير من الشعوب التى دخلت الاسلام يتلون بألوان عقائد الاسلاف التى تحيط الحيوان بضروب من الافكار ، والعقائد انحدرت اليهم من ماضيها السحيق حين كانت تقدس الحيوان وتجعل منه آلهة للخير أو الشر ٠ وتحوك حوله الاساطير والخرافات لتثبيت هذه العقيدة أو تلك ٠ ويشير الى هذه العقائد والاساطير فى مواضع كثيرة من

---

(١) راجع الجاحظ للدكتور طه الحاجرى ، ص ٤٠٣ والحيوان ١/٠٠/ و٢١٦ ٠

الكتاب . كما أكد هذه الحقيقة فى المجتمع العباسى فى عصره ما رواه الحصرى فى أخبار أبى نواس قال الحصرى :

« لما حبس الامين أبا نواس دخل عليه خال الفضل بن الربيع وكان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم ، وكانت فيه غفلة ، فأتى أبا نواس فقال : ما جرمك حتى حبست فى حبس الزنادقة ؟ أزنديق أنت ؟ . قال : معاذ الله . قال : أتعبد الكبش ؟ قال : ولكنى آكله بصوفه . قال : أفتعبد الشمس ؟ . قال : والله ما اجلس فيها من بغضها . فكيف أعبدها ؟ . قال : أفتعبد الديك ؟ قال : لا والله بل آكله ولقد ذبحت ألف ديك ، لان ديكا نقرنى مرة ، فحلفت ألا أجد ديكا الا ذبحته (١) .

وقد اتصل حديث الديك والاعتقاد الدينى فيه بالاسلام ، فأحدث الناس حوله بعض الاحاديث كذلك الحديث الذى رواه الطبرانى فى معجمه :

« ان لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه موشيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق وجناح بالمغرب . ورأسه تحت العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يؤذن فى كل سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السماوات ، وأهل الارض الا الثقلين الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الارض ، فاذا دنا يوم القيامة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ضم جناحيك وغض صوتك ،

---

(١) جمع الجواهر للحصرى ، ص ١٣٤ طبع الرحمانية .

فيعلـم أهـل السموات والارض الا الثقلـين أن السـاعة قـد اقتربت (١) .

وقد ارتبط هـذا المعنى الدينى فـى الديك عند المسلمين لصياح الديكة قرب طلوع الفجر ، والفجر عندهم موعد فريضة الصلاة الاولى (الصبـح) . وربمـا ارتبط المعنى الدينى عند ثنوية الفرس لانه مبشر بالضياء وخروجه من الظلمة ..

ويشير الجاحظ فى غير موضع من كتابه الى اعتقاد الناس فى تقسيم أنواع الحيوان الى شرير وخير ، وربما كان ذلك أثرا من آثار بعض عقائد الفرس القدماء من المجوس خاصة فى أن الحيوان قسمة بين الهى الخير والشر ، بعضه من خلق اله الخير هرمز ، والآخر من خلق اله الشر أهريمان . ويتصل الاعتقاد فى الحيوان كذلك فيما يتطير منه أو يتفاءل به من الحيوان ببعض عقائد الكلدانيين .

٣ ـ أن موضوع الحيوان كان من عناصر الحياة الشعبية اليومية فى المجتمع العباسى المعاصر فقد شغل بعض الناس بضروب من الحيوان ، فى لهوهم ، فاتخذوا منه أداة لقضاء الوقت وشغل الفـراغ أو أداة للمفاخـرة والمبـارزة ، كاقتنائهم الديكة للمهارشـة ، والكباش ، والحمائـم وغـيرها .. وكتعصبهم عرقيا لهذا الحيوان أو ذاك . ومنـه تعصب العرب للبعير الناقة ، والفرس ، والهند للفيل مثلا ..

---

(١) راجع ، الجاحظ للدكتور طه الحاجرى، ص ٤٠٥ .

٤ ـ ان هذا الموضوع نفسه كان موضوعـا فلسفيا ، طرقه من قبل فلاسفة اليونان ، وألف فيـه فيلسوفهم أرسطو (٢) كتابا ، أغلب الظن أن الجاحظ وقف عليه ، لكنه اختط لنفسه طريقا آخر مغايرا له ٠

أما الدور الاجتماعي للحيوان ، وان كان متصـلا بوشائج متينة ببعض العقائد والاسـاطير الدينية ، الا أن هذا الاتصال اليومي بين الحيوان والانسان في الحياة ، والمشاركة في بعض أعبائها جعل الروابط بينهما مدعـاة لضروب من القصص ، أو الاسـاطير ٠

ويختلف الحـال في بعض المجتمعات التي يغلب عليها نوع خاص من الحيوان على بعضهـا الاخـر فتـرى مجتمع الباديـة وحيوانه ، وعلاقـة الناس والحيوان بعضهم ببعض يختلف عن مجتمع البلاد البحرية ، أو الزراعية وعلاقات الناس والحيوان فيها بالضرورة ٠

والمجتمع العباسي في عصر الجاحظ يجمع عناصر عديدة من مجتمعات بدوية صحراوية أو زراعية ريفية ، وجبلية ، وبحرية ، تتعدد بيئاتها ويتعدد حيوانها ٠

وتختلط علاقات الناس بأنواع الحيوان ، لاختلاف بيئاتهم ، فحيوان الصحـراء كالبعـير والكلب والكبش ، قريب الى نفوس

---

(٢) توجد ترجمة له غير منسوبة بالمتحف البريطاني مخطوطة ـ ويشير ابن النديم الى أن ابن البطريق ترجم كتاب الحيوان لارسطو ٠

البدو أثير لديهم ، لانه يشاركهم أعباء الحياة فيها ويتحمل معهم عناءهـا ، فيحملهم ويصبـر على الرحلة ، أو يدفع عنهـم شر الغريب ، وينبههم الى الغـارة أو يذود عنهـم عوادى الحيوان المفترس كالذئب والسبع ، أو يمدهم بالطعـام ، من لبن ولحـم وحيوان البحار كالحوت والاسماك ، وطيـور البحـر لها كذلك علاقات بأبناء الجزر ، والثغور وقد كان بالبصرة موطن الجاحظ جماعة كبيرة من البحريين· رووا كثيرا من القصص عن حيوان البحار ، ولاحظ الجاحظ عليهم التزيد والاغراب · ومنها مـا يرويه أولئك من صداقة بين بحارة السفن وبعض الطيور التى تدلهم على الشاطىء ·

يقول الجاحظ :

« ويزعـم البحريون أن طائرين يكونان ببـلاد السفالة ، أحدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهـم قبل أن يمكن البحـر من نفسه لخروجهم فى متاجرهم فيقول الطائر : « قـرب آمـد » · فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا ، وأن الامكان قد قرب · قالوا : ويجىء طائر آخر وشكل آخر فيقول : سمارو ،وذلك فى وقت رجوع من قد غاب منهـم ، فيسمون هذين الجنسين من الطـير « قـرب » و « ســمارو » ·· فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين لا يطير أحدهما الا فى اناث ، وأن الآخر لا يطـير أبـدا الا فى ذكورة (١) » ·

---

(١) الحيـوان ، ٣/٧ ·

وربما كان من وحي أحاديث هؤلاء البحريين التي يروي الجاحظ طرائف منها حول الحيوان نبع قصص ألف ليلة وليلة التي تدور في البحار من أمثال قصص السندباد والرخ وما اليها ·

والحيوان موضوع « فلسفي » ، واهتم بـه الجاحظ ، من باب اهتمامه الفلسفي ، والعلمي وقد قرأ في كتب الفلاسفة والاطباء عن الحيوان ، فأراد أن يحيط علما بهـذا العالم الذي تعطي المعرفة به زادا علميا وفكريا عظيما · ويشير الجاحظ الى ما جاء من معارف عن الحيوان عن طريق العرب وأخبارهم وأشعارهم وما جاءه عن طريق العلم والمعرفة من فلاسفة وحكماء وأطباء ·

« وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة · وقرأناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه في أشعار العرب والاعراب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا (١) » · فالالمام بأنواع الحيوان ، وطبائعه ، وتوالده ، وحياته من أمور المعرفة أو العلم الضرورية للفيلسوف والعالم ·

وقد مال الجاحظ في هذا الجانب من كتاب الحيوان أحيانا الى التجريب والملاحظة البصرية والمعاينة ، أو الاتصال بالتجربة اتصالا مباشرا ·

ولا يصدق الجاحظ ـ مدفوعا بهذا الروح العلمي ـ كل ما

---

(١) الحيوان ، ٤٩/٧ ·

يقع لسمعه من أخبار حول الحيوان ، وطبائعه ، وعيشه وتناسله، فهو يضعها موضع المناقشة والشك والتجريب والنظر ، فما ثبت منها لهذا كله أخذ به ، وما لم يثبت أنكره ، ونفاه حتى لو وقع له في الكتب أو من أفواه العلماء ٠

يقــول مثــلا :

« ومما لا أكتبه من الاجناس العجيبة التى لا يجسر عليها الا كل وقاح ، أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب ، يقرؤها ويدارس أهل البصرة ، ويتحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاما ذكرا وعاما أنثى ،وسمعت هذا من جماعة ، منهم من لا أستجيز تسميته » ٠ ثم يقول : « وأولئك بأعيانهم هم لذين يزعمون أن النمرة تضع فى مشيمة واحدة جروا وفى عنقه أفعى قد تطوقت بــه » ٠

ويعد كتاب الحيوان من آخر ما ألف من الكتب، وهو يشكو فيه علته التى مات بها وتظهر عليه آثار الاضطراب لهذه العلة ، ولن وسمته ســمات النضوج والتجــارب العديدة فــى رحــلة حياته الطويلة ، ومن ذخيرة فكره الحافلة المنوعة ٠

ابن قتيبة في عصره

١ - نشأته

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (١) ، كان والده فارسيا من مرو الروز (٢) وتختلف المصادر فى البلد الذى ولد فيه ابن قتيبة ، فيذكر ابن النديم أنه الكوفة (٣) ، ويذكر الخطيب البغدادى أنه بغداد (٤) . ويبدو أنه ولد بالكوفة ، ولم يقم بها كثيرا فانتقل فى صباه على الارجح الى مدينة السلام ، فطالت اقامته بها حتى عد من أبنائها .

وقد أثرت حياة بغداد فى نشأته الفكرية ، اذ أنه تلقى العلم على جماعة من علمائها الاجلاء ، فأخذ الحديث عن أئمته المشهورين فيه مثل اسحاق بن راهوية ، وتلقى النحو عن جماعة من علماء الكوفة والبصرة ،مثل أبى حاتم السجستانى .

وتأثر فى شبابه بما كان يدور فى أوساط العلماء من جدل وتناظر بين المعتزلة وأهل السنة ، ولمس فى فجر حياته غلبة

---

(١) دينور : ودينهور فى المصادر السريانية مدينة من أهم مدن جبال يرجع تأسيسها الى الجاهلية وكانت فى عهد الخليفة عمر أعمر مدينة فى اقليم همذان وقد سلمها الوالى الفارسى للعرب عقب وقعة نهاوند الحاسمة مباشرة (حوالى عام ٢١ هـ) وقد ازدهرت أيضا اذدهارا كبيرا فى عهد الامويين والعباسيين .

(٢) (الاشربة) لمحمد كرد على - ص ١ .

(٣) (الفهرست) طبع أوربا .

(٤) (تاريخ بغداد) ١٠ ، ١٧٠ .

المعتزلة على الحياة الفكرية ، فأعجب ـ على ما يبدو ـ بآرائهم كما يحكى فى « تأويل مختلف الحديث » (١) ٠

وقد اختير قاضيا لمدينة الدينور ، وهى بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين كان بها جماعة من العلماء والمحدثين والمشايخ المشاهير (٢) ، وقضى بالدينور زمنا اتصل فيه بأولئك المحدثين والفقهاء ، وتدارس أمور الدين والفقه ، ثم عاد الى بغداد ، وهناك وجد شمس المعتزلة آخذة فى الافول بعد أن تولى الخلافة جعفر المتوكل ، وساعد أهل الحديث والسنة على الظهور على منافسيهم ٠ فتقدم هو ليدلى بدلوه ، وينتصر للسنة ، ويجمع من الآراء والكتب ما يعينه على ذلك ٠

واتصل ابن قتيبة فى بغداد برجال الدولة كعادة غيره من العلماء والادباء وعرف منهم فى ذلك الوقت الوزير آبا الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابنه المعتمد (٣) وأهدى اليه كتابه « أدب الكاتب » ٠

واستمرت حياته العلمية ببغداد ، فاشتغل بالتدريس للناس زمنا (٤) ، وكان يقرأ كتبه على تلاميذه ، ومن بينهم جماعة من

---

(١) (تأويل مختلف الحديث) ص ٧٤ ٠

(٢) قرميسين : تشمل الاراضى السفلى من جبال قرميسين أما دينو ـ فتشمل الاراضى العليا منها ٠

(٣) الانساب ـ ٢٣٨ ط أوربا ٠

(٤) وفيات الاعيان ـ ٢/٢٤٦ ط محى الدين ٠

العلماء الذين نبهوا بعد ذلك وكان لهم نتاج معروف مثل ابنه أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى حدث بكتب أبيه فى مصر حين ولى القضاء بها ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الكاتب الفارسى صاحب « أدب الكتاب » .

وقد شارك مشاركة جدية فى محاربة نزعات الشك والفلسفة التى غلبت على العقول فى ذلك الوقت ، وسيتضح هذا عند تناول اتجاهاته المختلفة فى كتبه . وقد توفى ابن قتيبة بعد أن قضى حياته فى خدمة الدين والادب سنة ست وسبعين ومائتين على الارجح (١) ، وكانت وفاته فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ثم أغمى عليه ، ومات . وقيل انه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه الى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ .

٢ ـ ثقافته وآراؤه وعقائده

ذكرنا عند الكلام عن ثقافة العصر أن المعتزلة أثاروا حركة فكرية واسعة فى عصر المأمون والمعتصم ، وأن كثيرا من الكتب اليونانية وغيرها من مختلف الثقافات قد نقلت الى العربية وأثرت تأثيرا عظيما فى ثقافة العصر وثمراته الباقية ، وأشرنا الى النضال الفكرى بين المعتزلة وأهل السنة ، ولما كان ابن قتيبة

---

(١) اختلفت المصادر فى سنة وفاته بين ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ . راجع (ابن خلكان) طبع باريس ٣٥٤/١ و (تاريخ بغداد) طبع السعادة ١٩٣١ ، ١٧٠/١٠ ـ ١٧١ .

أحد أبطال ذلك النضال ، فينبغي أن نقف عنده لنتعرف الى جوانبه ·

اتجه ابن قتيبة فى مطلع حياته الى علم الكلام ، واجتذبته أضواؤه ، فجلس الى كثير من علماء المتكلمين وأخذ عنهم واغتر بكلامهم فقد قال : « وقد كنت فى عنفوان الشاب وتطلب الاداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتربهم طامع أن أصدر عنه بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدى لرشد ، فأرى من جرأتهم على الله تعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس أولئلا يقع انقطاع ، ما أرجع معه خاسرا نادما (١) » ·

وقد أفاده اطلاعه على آراء المتكلمين فى جدله معهم ، اذ قارعهم الحجة بالحجة وكال لهم بالكيل الذى كالوا به لاهل السنة والحديث ، وتأثر ابن قتيبة بآراء أبى حاتم السجستانى وشيخه المحدث اسحاق بن راهويه ودافع عنها (٢) ·

ويبدو أنه كان ملما بالفارسية (٣) ، مطلعا على كثير مما جاء فى الكتب السماوية مترجما فقد استشهد فى كثير من آرائه بما جاء فى التوراة والانجيل ·

وفى كتبه دلائل كثيرة على المامه بالفلسفة ، منها ما ينقله

(١) تأويل مختلف الحديث — ص ٧٤ ·

(٢) تأويل مختلف الحديث — ص ٦٥ ·

(٣) كثيرا ما يذكر فى كتبه (قرأت فى كتب العجم كذا وكذا) ·

عن أرسطو صاحب المنطق كما ينقل عنـه بعض المعلومات فـى الطبيعة كأن يقول « وكيف لا يعجبون من حجر يجذب الحديد من بعد ويطيعه حتى يذهب به يمينا وشمالا بذهابه ، وهذا حجـر المغناطيس وكيف صدقوا بقول أرسططاليس فى حجر المستقبل انه اذا ربط على بطن صاحب الاستقساء نشف منه الماء ۰۰۰۰ ۰۰۰ الخ (١) ۰ كما أنه يذكر فى تأويـل مختلف الحديث « أنه اتصل بأيوب المتطبب ، وحنين بن اسحاق ۰

واختلطت دراساته الفلسفية ، والمنقولة عن العجم واليونان بآرائه الدينية ، ومع أنه كان من المنتصرين لاهل السنة المدافعين عن مبادئهـم وآرائهـم ، فقد اتهمه بعضهم بالخـروج ۰ قال الذهبى (٢) : « وقال الحاكم أجمعت الامة على أن القتبى كذاب ، واتهم بأنه كان خبيث اللسان يقع فى كبار العلماء (٣) » ۰ كما اتهم بأنه منحرف عن العترة ، وأنه يميل الى التشبيه ، ويرى رأى الكرامية الذين يغالون فى التشبيه والتجسيم ۰ قـال الذهبى : « قال البيهقى كان يرى رأى الكرامية » (٤) ۰

ولم يرض عنه أنصـار الفلسفة ، وسـاءهم هجومـه عليها وتقليله من شأنها ، فاتهم بالجهل بها وعدم المعرفة ۰

---

(١) ادب الكاتب ، وشرح أدب الكتاب ــ للبطليوسى ــ ص ٤٣٨ ۰

(٢) مقدمة « الاشربة » لمحمد كرد على ــ ص ٢ ۰

(٣) نفس المصدر ــ ص ٥ ۰

(٤) ميـزان الاعتـدال ۰

ولكنه على الرغم من تلك الاتهامات التى وجهت اليه ظـل محتفظا بمكانته العلمية الرفيعة وظل يمثل الجاحظ فى أهل السنة ، ولم ينس فضله جماعة من فضلاء المؤرخين فأشادوا به ٠ ومن هؤلاء الخطيب البغدادى ، والحافظ الذهبى ، والسيوطى ـ وقد سخر من قول الحاكم « اجتمعت الامة على أنه كذاب » فقال : « وما أعلم الامة اجتمعت الا على كذب الدجال ومسيلمة (١) » ٠ وقدره ابن تيمية حق قدره ، ووضعه فى المكان اللائق ونفى عنه ما وجه اليه من طعن وتجريح ودافع عنه تهمـة التشبيه وقوله بآراء الكرامية واعترف بأنه أمام أهل السنة فى زمن كان الجاحظ فيه امام المعتزلة وخطيبهم قال : « وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة فـى ابن قتيبة يتهـم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه (٢) ٠

وذكر يوهان فك فى « العربية » أنه أبـرز الادباء الممثلين للتجديد السنى (٣) ٠

ويعتبر ابن قتيبة كاتب أهل السنة فى النصف الاخـير من القرن الثالث ، فقد ألف كثيرا من الكتب تناول فيها قضية السنة والحديث ، وما وجه اليهما من اتهامـات على أيـدى المعتزلة ، وانتصر للمذهب ، وللمحدثين ومناهجهم فـى العلم والعقيدة ، وأظهر هذه الكتب وأسيرها كتاب « تأويـل مختلف الحديث » ،

---

(١) بغيـة الوعـاة ٠

(٢) تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ـ ص ١٣٣ ط المنيرية بمصر /سنة ١٣٥٢ ٠

(٣) العربية ـ ص ١٣١ ٠

« والاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبة» و «المسائل والاجوبـة » ·

والاساس الذى تقوم عليه آراؤه هنا لا تتضح حتى نعرض لمـا كان يوجهه المعتزلة لاهـل السنة من اتهامـات ، فقد عرف المعتزلة بأنهم أهل التوحيد والعدل لانهاأصل عقيدتهمالفكرية أو الدينية ، والتوحيد عندهم أن الله واحد منزه عن الخلق لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء ، وكل ما يمس هذا الاعتقاد من قريب أو بعيد عندهم فهو باطل مشكوك فيه ، ويتفرع على هذا أن اللـه تعالى لا تنفصل صفاته عن ذاته ، ولا يجوز أن يشبه خلقه فى شىء من تلك الصفات ، لذلك تأولوا ما جاء فى القرآن من ألفاظ قد توحى بغير عقيدتهم · ويرى أهل السنة التسليم بما جـاء فى القرآن والحديث كما هو لا يتأولونه ، وهم وراء هذا يرون أن صفات الله تعالى منفصلة عن ذاته ، فالله عالم بعلم وقادر بقدرة · وقد يوضح هذا الخلاف ما ذكره الطبرى فى تفسير قوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان) قـال : وقد اختلف أهل الجـدل ـ وهـم المتكلمون ـفى تأويل قوله تعالى : (بل يداه مبسوطتان) قال بعضهم عنى باليد النعمة أو القوة أو الملك ، وقال آخرون : بل يد الله صفة من صفاته ، هى يد غـير أنهـا ليست بجارحـة ، واستدلوا على استحالة المعنى الاول بأدلة منهـا قالوا : وذلك أن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر عن خصوصية آدم بما خصه به من خلقه

اياه بيده ، وكان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم ، اذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ، ومشيئته فى خلقه نعمه ، وهو لجميعهم مالك · قالوا : واذا كان - تعالى ذكره - قد خص آدم بذكره خلقه اياه بيده دون غيره من عباده ، كان معلوما أنه انما خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق ، واذا كان كذلك بطل قول من قال : معنى اليد من الله القوة أو النعمة أو الملك » (١) ·

وأما مبدأ العدل أن الله عادل لم يخلق الناس وهو مقدر لما يعملون من خير أو شر ، والا ما كان ثواب الجنة وعذاب النار ، فأعمال الانسان فى الحياة باختياره ، ليس من العدل نسبتها للقدر · وانما غاية الامر أن الله تعالى يصطفى من عباده الاخيار ممن يرضى عنهم فيهبهم اللطف الذى يعينهم على السير فى طريق الخير ، ويحجبه عن عبادة الذين لا يرضى عنهم فيسيرون كما توحى لهم أنفسهم ·

ويرى أهل السنة عكس ذلك ، وأن القدر يتدخل فى أعمال الانسان، لذلك سموا المعتزلة بالقدرية ، لانهم نسبوا القدر الى أنفسهم ·

تلك هى الاصول ، وأما الفروع فما اختلفوا فيه منها القول فى اعجاز القرآن ، فقد خرج النظام على جماعة المسلمين برأى فى الاعجاز مؤداه أن القرآن معجز لان الله صرف الخلق عن الاتيان

(١) تفسير الطبرى - وراجع « مذاهب التفسير » لجولد تسيهر - ص ٩٥ ·

بمثله قال الشهرستاني : « انه كان يرى أن اعجاز القرآن من حيث الاخبار عن الامور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتعجيزا ، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما (١) » .

وقال الجاحظ تلميذه : ان النظام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان (٢) .

ويرى أكثر المعتزلة وأهل السنة أن القرآن معجز ببيانه وأسلوبه الرائع الذى لا تستطيعه العرب ، والذى ظهر عجزهم عنه منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم . يقول الجاحظ أن معجزة النبي في القرآن كانت قاطعة ، وكان موقعها في العقل كموقع فلق البحر بالنسبة للعين (٣) كما يذكر أن العرب لم يقدروا على الاتيان بمثله عجزا ووهنا ، لا تهاونا ولا تغافلا لان الاتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم شر قتل الانفس والاولاد. ثم يرى أن الاعجاز متصل بالنظم وحده ، أى الاسلوب ، بصرف النظر عن معانيه (٤) .

---

(١) الملل والنحل – طبع ليزج – ص ٣٩ .

(٢) *رسائل الجاحظ ، طبع السندوبي – ص ١٤٧ .*

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٤) أثر القرآن فى تطور النقد – لمحمد زغلول سلام – ص ٧٥ .

وتعرض كثير من العلماء في عصر الجاحظ لاعجاز القرآن من ناحية نظمه وبيانه وتعرض ابن قتيبة من وجهة نظر أهل السنة لهذه المسألة فى كتابه « مشكل القرآن » على ما سنعرض له عند تحليل الكتاب ٠

وكان الخلاف بينهم حول تفسير ما جاء فى القرآن من آيات المجاز والتشبيه والاستعارة وما يماثلها كذلك فى الحديث : قال الجاحظ فى تفسير قوله تعالى : (انها شجرة تنبت فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين) ، وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة ولكن لما كان الله تعالى قد جعل فى طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل فى ذلك . رجع بالايحاء والتنفير ، وبالاخافة والتقريع الى ما قد جعله الله فى طباع الاولين والآخرين وعند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن (١) ٠ وقال : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير » وقال النظام : لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين » ٠

واختلف ابن قتيبة مع المعتزلة والجاحظ ، فانه كان يرى كما قلنا رأى مذهبه ولا يحاول أن يبعد فى التأويل ، بل يفسر

---

(١) الحيوان ـ ٣٩/٤ ٠
(٢) نفس المصدر ـ ٢١٢/٦ ٠

فى حدود النص تفسيرا لغويا محدودا على قدر ما تسمح به معانى الالفاظ الظاهرة • وقد اتهم بالتشبيه والتجسيم ، ولعل ذلك راجع الى بعض ما أورده فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » ولكنه أوضح موقفه بصورة ناضجة فى « تأويل مشكل القرآن » ، فهو فيه معتدل لا يأخذ بمذهب أصحاب الظاهر من اللغويين ، كما ينفى تفسير المشبهة ، ويعرض فى كتاب « الرد على الجهمية والمشبهة ما انزلق اليه هؤلاء من أخطاء •

وعارض المعتزلة المحدثين حول ما يمكن الاعتماد عليه من الحديث ، فكان عمرو بن عبيد لا يثق بهم (١) • وقد ذكر ابن قتيبة أنهم اتهموا أهل الحديث بالكذب والتناقض وأن النظام أنكر حجية الاجماع ، وغلب عليه القياس المنطقى ، والجواز العقلى ، كما أنهم نالوا من المحدثين بالسخرية ، والاتهام بالجهل وقلة المعرفة بالشعر واللغة ، أو بأنهم « أجهل الناس بما يحملون وأندر الناس حظا فيما يطلبون » وقالوا فى ذلك :

زوامل فى الاشعار لا علم عندهم ... بجيدها الاكعلم الاباعر

لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا ... بأحماله ، أرواح، ما فى الغرائر

وأنهم قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه • ورضوا بأن يقولوا : فلان عارف بالطرق راوية للحديث ، وزهدوا فى أن يقال : عالم بما كتب أو عامل بما علم (٢) » •

---

١) أثر القرآن فى تطور النقد ـ ص ٦٧ •

٢) تأويل مختلف الحديث ـ ص ١٠ ـ ١١ •

ويرد ابن قتيبة على هذه الآراء ردا شاملا جامعا فيرى : « أن معانى الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر ، والكيفية والكمية ، والاينية ، ولو ردوا المشكل منهــا الى أهل العلم بها ، وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج (١) . وعنده أن اطلاق الامر للرأى والقياس فى المسائل الدينية الدقيقة مثل صفات الله تعالى، وقدرته ،ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يدعو الى الخلاف والزيغ والاحسن فيها أن نلجأ الى الحديث ونؤمن بما جــاء به متعلقا بها ، لانها فى رأيه « أمور لا يعلمهــا نبى الا بوحــى من الله تعــالى (٢) » .

وبالرغم من دفاع ابن قتيبة عن الحديث ، فانه لم يكن محدثا بالمعنى المعــروف قــال الحافظ الذهبــى : « أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الروايــة (٣) » ، وقال : « ابن قتيبة من أوعية العلم ، لكنه قليل العمل فى الحديث (٤) » وله كتاب فى « غريب الحديث » وآخر فى « اصلاح الغلط فى غريب الحديث لابى عبيد » .

وكان يذهب فــى الفروع مذهب أحمد بن حنبل : فقــد

---

(١) تأويل مختلف الحديث ــ ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر ــ ص ٧٧ .

(٣) ميزان الاعتــدال ــ ٢/٧٧ .

(٤) تذكرة الحفاظ ــ ٢/١٨ .

عاصره وأخذ عنه ، قال ابن تيمية : « ابن قتيبة من المنتسبين الى أحمـد » (١) ٠

٣ - بين ابن قتيبة والجاحظ

ذكر ابن قتيبة أنه أخـذ عن الجاحظ وأنه أجـازه ببعض كتبه (٢) ، وقال ابن تيمية : ويقال هو لاهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فانه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة ٠ وقد ذكر محمد كرد على في مقدمة كتاب« الاشربة » ما كان بين ابن قتيبة والجاحظ ،وكيف أنه عنف في ردوده على الجاحظ ، واتهمه بالكذب ، وكان فيما يبدو مندفعا فـي حمية الذود عن آرائه وآراء شيوخه وأصحابه ، فأفلتت منه عبارات فيها عنف وتجريح لعالم جليل وأستاذ من أساتذة الفكر العربى ٠ قال فى شأنه : « ثم نصير الى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشـدهم تلطفـا لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ،ويحتج لفضل السودان على البيضان وتراه يحتج مرة للعثمانية على الرافضـة ، ومـرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه ، ومرة يؤخره ، ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ويتبعه قال الجماز وقال اسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش ،

---

(١) تفسير سورة الاخلاص - ص ١٢١ ٠

(٢) عيون الاخبار - ج ٣ - ص ١٩٩ ٠

ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر فى كتاب ذكرا فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر وسطرين ، ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة ، كأنه انما أراد تنبيههم على مـالا يعرفـون وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيـذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ــ وهو مع هذا من أكذب الامـة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل (١) » ·

٤ ــ تأثـره وتأثـيره

وتنوعت دراسات ابن قتيبة اللغوية ، وقـد سـبق ذكرنا لاساتذته فى هذا الميدان· ولعل من أبرزهم أبا حاتم السجستانى تلميذ الاصمعـى ، وروى عن الكوفيين ، وأخـذ عن البصريين وخلط بين المذهبين · قال ابن النديـم : « انه كان يغلـو فى البصريين الا أنه خلط فى كتبه عن الكوفيين وكان صادقـا فيما يرويه عالمـا باللغـة والنحو (٢) » · وكان البطليوسى يقول انه ذو مذهب ضعيف فى النحو (٣) ، وهـو مـع ذلك ــ كما عـده السيوطى ــ من النحويين (٤) ويعتبر اماما لمدرسـة بغداد التى مزجت بين آراء الكوفة والبصرة (٥) ·

---

(١) تأويل مختلف الحديث ــ ٧١ ــ ٧٢ ·
(٢) الفهرست ــ ص ٧٧ ــ ٧٨ ·
(٣) الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ــ ٢٣ ·
(٤) بغيـة الوعـاة ــ ٢٩١ ·
(٥) دائرة المعارف الاسلامية ــ م ٢٦٠ ·

والباحث في كتبه يرى أنه يستشهد بآراء علماء المدينتين ، ويختار لنفسه مذهبا بينهما وتارة يفضل آراء علماء أحد الفريقين ، وترى هذا كثيرا في كتبه ، فهو يفضل آنا رأى أبي حاتم ، وآنا آخر راى أبن السكيت ، وتارة يأخذ بما قال الفراء ، وتارة بما قال السكاكي .

وذكر الازهرى ما ألفه ابن قتيبة في اللغة ، وما رد به على علمائها ، فقال : « وأما أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ، فانه ألف كتبا في مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب « غريب الحديث » ،وكتابا في الانواء ، وكتابا في أدب الكتبة ، ورد على أبي عبيد حروفا في غريب الحديث سماها « اصلاح الغلط » ، وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التي غلط فيها ، وعلى الاكثر الذى أصاب فيه . فأما الحروف التي غلط فيها فاني أثبتها في مواقعها من كتابي ، ودللت على موضع الصواب فيما غلط فيه . وما رأيت أحدا يدفعه عن الصدق فيما يرويه عن أبي حاتم السجستاني ، والعباس بن الفرج الرياشي ، وأبي سعيد المكفوف البغدادى . فأما ما يستبد فيه برأيه ، من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حرف غريب ، فانه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة . وألفيته يحدث بالظن فيما لا يعرفه و لايحسنه ، ورأيت أبا بكر ابن الانبارى ينسبه الى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة ، وقد رد عليه قريبا من ربع ما ألفه من مشكل القرآن (١) » .

---

(١) التهذيب ـ للازهرى ـ ص ١٣ .

ويذكر الازهرى فيما يذكر أنه قيل عن أبن قتيبة أنه يروى عن سيبويه والاصمعى وأبى عمرو وهو لم ير منهم أحدا ، ولم ير فى هذا نقصا أو انحرافا لانه أخذ عن جماعـة ممن حضروا عليهـم (١) » .

وقد ترك لنا فى مجموعة كتبه ما يشهد على علو كعبه فى اللغـة رواية ودرايـة ، ومنهـا « كتـاب غريب الحديث » ، و « اصلاح الغلط فى غريب الحديث لابى عبيد » ، و « تفسـير غريب القرآن » « وكتاب الانواء » ، وكتاب « أدب الكاتب » .

وكان الى جانب علمه باللغـة أديبا واسع الاطلاع ، صاحب ذوق وبيان ، جامعا لعلوم الادب بمعناه العـام ، راويـة للشعر وأخباره ، ملما بدقائقه ، محيطا بكثير من المعارف العامة التى ينبغى للاديب أن يتزود بها ، وكان فى كتبه الادبية رجلا ذواقة يحسن الاختيار (٢) ، ينظر فى الشعر برأى صائب ، ولم يحب تحكيم المنطق والعقل كما لم يمل للتمنت اللغوى ، بالصورة التى كان يلقى بها اللغويون شعر المحدثين ، وكان ذوقه الادبى رائده فى تفسير المشكل من آيات القـرآن ، فكان يرجع للذوق العربى ولا يحكم القياس .

وقد جمع الى جانب هـذا وذلك كثـيرا مما يتصل بثقافة

---

(١) راجع مقدمـة « مشكل القرآن » بتحقيق السيد أحمد صقر - ص ٣٨ .

(٢) قيل فى حسن الاختيار :

قد عرفناك باختيـارك اذكـا ن دليـلا على اللبيب اختياره

الكاتب والاديب من معارف عامة وسار على الدرب الذى انتهجه من قبل أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى ، ولذلك كان كثير من كتبه الادبية يدور حول تربية الملكة العربية و « تعبيب اللغـة الى الدارسين والشادين (١) » وكان يقصد من ورائها الى ارشاد طبقة الكتاب وتعليمهم ، ووضع ثمرات ناضجة بين أيديهم يسهل عليهم هضمها والافادة منها ، ولعل كتابه « أدب الكاتب » خير ما يمثل هذا الاتجاه الداعـى الى ثقافـة الكتاب • يقول فى مقدمته « فانى رأيت كثـيرا من كتاب زماننـا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز وأعفـوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير •• الخ ولهذا يقول : « فلما رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت أن يذهب رسمه ، ويعفو أثره جعلت له حظا من غايتى وجزءا من تأليفى ، فعملت لمغفـل التـأديب كتبـا خشـافا فـى المعرفـة وفـى تقويـم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل لانشطة لتحفظه ودراسته (٢) » •

وقد أعجب الناس بكتبه الادبية ، ذكر السمعانى أن الامير أبا نصر الميكالى قال : « تذاكرنا المتنزهات يومـا ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الاماكن غوطة دمشق وقال آخرون : بل نهر الابلة • وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نهروان بغداد وقال بعضهم : شعب بـوان بأرض فارس ، وقال

---

(١) محمد كرد على فى مقدمة « الاشربة » ـ ص ٦ •

(٢) مقدمة « ادب الكاتب » •

بعضهم: نوبهار بلخ فقال هذه متنزهات العيـون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ .. قلنا : وما هي يا أبا بكـر ؟ قال عيـون الاخبار للقتيبي والزهرة لابن داود (١) .

وقد عد ابن خلدون كتابه « أدب الكاتب » من دواوين الادب الاربعـة .

وكثرت مؤلفات ابن قتيبة في مختلف علوم الدين واللغـة والادب حتى أربت على الخمسين في قول كثير من العلماء ، وزادها بعضهم الى ستين ونيف وبلغ بها آخرون زهاء ثلاثمائة (٢) .

---

(١) « الاشربة » نشر محمد كرد علي ـ ص ٩ .

(٢) تفسير سورة الاخلاص ـ ١٢٠/١٢١ .

أبوحيـان التوحيـدى

على بن محمـد العباسـى

يعد أبو حيان من كتاب العربية المشهورين فى القرن الرابع الهجرى ، وهو من الادباء الموسوعيين الذين جالوا فى شتى ميادين المعرفة ٠

ولد أبو حيان فى بغداد فى العشر الاول من القرن الرابع الهجرى (سنة ٣١٠ هـ) من أبوين فقيرين ، وقد صمتت مصادر التاريخ والتراجم عن أخبار أسرته ونشأته ، واضطربت فى عام ولادته ، والاهمال الذى لاقاه التوحيدى من العلماء والادباء أمر يدعو الى العجب فهو على علو قدره ، مجهول الذكر ٠ قال ياقوت : « لم يذكر التوحيدى أحد فى كتاب ولا دمجه ضمن خطاب (١) »٠ وكم من نابه من رجال الفكر أسدلت عليه ظلالالنسيان وحجبته السنون ، وأغفلت ذكره الصحف ، لامـر مـا ، يصعب تحديده أحيانا ، وقد نجد العلة فيه ونعثر على السبب فى انكاره٠ والشاعر ابن الرومى مثال واضح على تجنى المؤرخين ، واهمال المؤلفين ٠

ومهما يكن من أمر فان ما بقى من أنباء عنـه ، وما حفظته الايام من كتبه يمكن أن يرسـم لنا صـورة وان لم تتضح معالمها لشخصه ، وحياته ، وصورة طيبة أكثر وضوحا وبيانـا لفكـره وأدبـه ٠

---

(١) معجـم الادبـاء ٠

عاش أبو حيان في بغداد بالعراق فى القرن الرابع الهجرى ، والخلافة تظلها الدولة البويهية الفارسـية الشيعيـة ، وتفرض عليها حمايتها • وغلب على هذا العصر الفتنة والاضطراب وكثرة المنازعات والحروب الداخلية بـين عناصر الدولـة ، وأمرائهـا وقادتها ، وكان العراق في شماله وجنوبه مضطربا بين منازعات رؤساء القبائل وزعماء الطوائف فى الجنوب ، وانتفاضات كثير من الفئات الكادحة كثورة الزنج بالبصرة ، ومنازعات الحمدانيين وبعض الامراء فى شمالى العراق وبعض أقاليم الشام •

ورغم هذا الاضطراب السياسى ، والفوضى الاجتماعية التى سادت القرن الرابع في العراق ، فان عصر ازدهـار حضارى فى جوانب الفن والعلم والادب كان يظلل القرن لانه كان عصر حصاد للماضى الطويل المجيد، الذى بنى فيـه العرب والمسلمون أركان دولتهم ، ودعموا أسس حضارتهم ، حتى استحصدت وأثمرت فى هذا القرن الرابع بعد أن أزدهرت فى القرن الثالث فـى عصور الخلفاء العظام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل •

ومن مظاهر هـذا النضج الحضارى ، تنـوع الحياة الثقافية بجوانبها ، من فلسفة وعلم وأدب ولغـة ، وظهور جماعة من كبار العلماء والادبـاء ، والشعراء ، كان لهـم دور واضح فى تاريخ الثقافة العربية والاسلامية على مدى العصور أمثـال ابن سينا ، وابن مسكويه وأبى سعيد السـيرافى ، وأبـى الحسن الاشعرى ، وابن العميد ، وأبى على الفارسى وابن جنى ، وأبى الطيب المتنبى،

وأبى حيان التوحيدى ، والحاتمى ،وأبى الحسن الرمانى ، وأبى بكر الصولى ، والمرزبانى ، وأبى هلال العسكرى والقاضى الجرجانى وابن نباته السعدى ، والسرى الرفاء ، وأبى بكر الصنوبرى ، وأبى فراس الحمدانى .

وكانت دور العلم من مدارس ، ومساجد ، ومجالس فى القصور مجالا للدرس والبحث والمناظرة ، كما كانت دكاكين الوراقين ، وأماكن السمر واللهو منتديات للادب والفن تجمع بين الفكر والفن ، وكم اهتم الشعراء بقضايا الفكر ، والمعانى ، والتجارب الانسانية اهتمامهم بالفن من غناء وطرب ، وجمال بناء ، وزينة ورياض .

ففى شعر شعراء العباسيين والبغداديين خاصة صور بينة لهذا كله ، ففى شعر ابن عبد القدوس والوراق وأبى العتاهية وبشر ابن المعتمر من الفلسفة والحكمة ، والالهيات والزهد ، كما فى شعر أبى نواس ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد وابن الرومى وابن المعتز من وصف لمظاهر الحضارة الزاهرة كمجالس الطرب والانس، وجميل الرياض، وأدوات الشراب والطعام ، من كئوس الذهب والفضة ، والقصور الفارهة الشاهقة ، والبرك ، والبساتين والتماثيل وما اليها مما يمكن جمعه وتصور الحياة الناعمة من خلاله تصورا حيا نابضا ، يختلف عن تصورها من خلال التاريخ .

ومضى الادب فى القرن الرابع مرتبطا بالفكر والفن جميعا ، واذا كان كتاب القرن الثالث من أمثال الجاحظ وابن قتيبة وسهل

ابن هارون يجمعون بينهما فيتحدث الجاحظ عن قضايا الفكر فى الحيوان ، ومشكلات الحياة والمجتمع فى رسائله فخر السودان ، والتجارة ، فانه عرض للحياة الفنيـــة كذلك من خـــلال كتاباته الاجتماعية وخصها بالحديث فى أكثر من فصل ورسالة مثل رسالته فى القيـــان ٠

وتابع الادباء فى القرن الرابع الحديث فى الفكر والفن والحياة ، فكانت رسائل الصابى ورسائل اخوان الصفا ، وكتاب الموشى للوشاء ، وكتابات أبى حيان التوحيدى فى مؤلفاته من كتب ورسائل فضلا عن مسكويه وابن سينا وأبى سعيد السيرافى ٠

وشارك الشعر فى هذا الاتجاه ، فكان صورة للحياة الفكرية والفنية الزاهرة ٠

نشأ التوحيدى اذا فى هذا القرن الرابع فى بغداد ، فكان طبيعيا أن يتم تكوينه فى هذه البيئة ، فيأخذ منها بعض ملامحه ، أو تؤثر فيه البيئة ببعض معالمها أو كلها ٠

وأول المؤثرات فى أبى حيان هو المكان والمجتمع ، وما كان يضطرب فيه من الاحداث والقيم ٠ ولعله فى ذلك كان مستجيبا للمجتمع استجابة الجاحظ ، وان اختلفت الصورة ٠

اهتم التوحيدى منذ طفولته وصباه الاول بالدرس والقراءة ، وصرفه الاهتمام بالقراءة والدرس عن الزواج ، فلم يعرف عنه أنه تزوج و رزق أبنـــاء ٠

وتردد في درسه على كثير من مجالس العلم وعدد من الشيوخ وكبار العلماء ، ولم يقنع فـي طلبه بلون من ألوان المعرفة ، بل أراد أن ينوع مصادرها ، وأن يزود فكره بزاد غنى ، فألم من كل علم بطرف ٠

وقد كان أبو حيان رجلا طلعة ، وكان« شخصية فلسفية طلعة تستخلص الاسئلة من كل ما يقع أمامها ، سواء أكانت خلقية أو اجتماعية ، و لغوية أو اقتصادية أو نفسية ٠٠ » ٠

ومن أساتيذه النابهين أبو سليمان المنطقى : محمد بن طاهر ابن بهرام السجستاني الذى كان فيلسوفا ومنطقيا ، ولغويـا ، وصاحب نظر عميق فى اللغـة والادب ٠
قال عنـه أبوحيـان (١) :

« أما شيخنا أبو سليمان فانه أدقهم نظرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا وظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنه ناشىء مع العجمة وخلة نظر فى الكتب ، فرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز وبخل بما عنده فى هذا الكنز » ٠

وكان أبو حيان يتردد على مجلس أبى سليمان بمنزله ، وكان يؤمه معه جماعة من العلماء والادباء وسجل أبو حيان بعض ما دار فى ذلك المجلس من مناقشات ومحاورات ٠

وقرظه أبو الفتح ابن العميد فى رسالة بعث بها اليه قائلا :

(١) الامتاع والمؤانسة ـ ١/٣٣ طبعة القاهرة ١٩٣٩ ٠

« فلله درك ودر زمان أنت من أهله (١) » ووصفه أبو حيان فى موضع آخر لابى سعيد السيرافى :

« ان شيخنا أبا سليمان غزير البحر ، واسع الصدر ، لا يغلق عليه فى الامور الروحانية والانباء الالهية ، والاسرار الغيبية ، وهو طويل كثير الوحدة ، وقد أوتى مزاجا حسن الاعتدال ، وخاطرا بعيد المنال ، ولسانا فسيح المجال » .

وظلت علاقته بأستاذه أبى سليمان قائمة ردحا طويلا من الزمن ، وألف له كتاب امتاع المؤانسة ، لخص المجالس التى كان يحضرها عند الوزير ابن سعدان ، وتجمع كثيرا من رجال العلم والادب ويدور فيها حديث طويل حول موضوعات شتى .

وأخلص أبو حيان لاستاذه أبى سليمان، فظلت العلاقة بينهما طيبة ، وبقيت آثاره فى كثير من كتبه واتصل باستاذ جليل آخر هو الشيخ أبو سعيد السيرافى (٢٨٤ هـ - ٣٦٨ هـ) ، وكان أبو سعيد عالما جليلا فى اللغة والنحو على مذهب البصريين ، وكان السيرافى يدرس النحو ويفتى بمجلس الرصافة مدة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة ، وقال ياقوت ، فما وجد له خطأ ، ولا عثر على زلة (٢) . وأتقن علوم القرآن من القراءات ، والتفسير ،

---

(١) مثالب الوزيرين تحقيق د. ابراهيم الكيلانى - ص ٢٩٨ - طبع دمشق ١٩٦١ .

(٢) معجم الادباء رياقوت ٨/١٥٠ .

والاحكام ، كما أتقن علـوم اللغـة والادب كالبلاغـة والشعر والعروض والقوافي ٠

وعظم صيته ، وتعدت شهرته حدود بغداد ، فأصبح يستفتى فى كثير من قضايا الدين والمعرفة واللغـة والادب ٠

وكانت له فى النحو آثار واضحة ، ونهج خاص ، فهو فضلا عن اهتمامه بمذهب البصريين فقد شرح كتـاب سيبويه شرحـا مفصلا ، وكان كلامه فى النحو ـ على رأى أبى حيان ـ مفهوما على غير كلام الرمانى الذى لم يكن مفهوما ٠

ونقل ياقوت أنه كان يقال : النحويون فى زماننا ثلاثة : « واحد لا يفهم كلامه ، وهو الرمانى ، وواحد يفهم بعض كلامه ، وهو أبو على الفارسى ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ ، وهو السيرافى » (١) ٠

ووصفه أبو حيان فى المقابسات بقوله : « أبو سعيد السيرافى شيخ الشيوخ ، وامام الائمة ، معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافى والقرآن والفرائض والحديث ، والكلام ، والحساب والهندسة ، أفتى فى جامع الرصافة خمسـين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عثر منه على زلة ، وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه فى ثلاثة آلاف ورقـة بخطـه فى السليمانى ، فما جاراه فيه أحد ، ولا سبقه الى اتمامه انسان ٠ هذا مع الثقة فى الديانة والامانة فى الرواية (٢) ٠

---

(١) معجم الادباء ١٤/٧٥ ٠

(٢) المقابسات ـ ص ٥٨ ٠

وقد كان السيرافى فضلا عن هذا العلم الواسع المتنوع على قدر عظيم من الخلق والدين والخشوع والتقوى ، وقد وصف بأنه « ما قرىء على أبى سعيد ذكر المـوت والقبـر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار ، والوعد والوعيد ، والعقاب والمجازاة ، والثواب والانذار ، والاعذار ، وذم الدنيـا ، وتقلبها بأهلها ، وتغيرها على بنائها ، الا وبكى منها وجزع عندها ، وربما نغص عليه يومه وليلته ، وامتنع من عاداته فى الاكل والشرب (١) »٠

وكان يذهب الى التزهد ، ويأخـذ نفسه بسلوك الصوفية ، وربما تلقى أبو حيان دروسه الاولى فى التصوف على يديه ٠ رأى ذلك ما سينيون فقال : « علم تلميذه فى سن مبكـرة أسرار علم التصوف (٢) » ٠

وأثر فيه من هذه الناحية الروحية أثرا واضحا لازمه طوال حياتـه ٠

وكان أبو سعيد السيرافى يأخذ فى منهجـه الفكـرى بآراء المعتزلة ، وربما كان اتجاه التوحيدى الى الاعتزال متأثرا بآرائه وكثرة قراءاته للجاحظ وتعلقه به ٠

ومن أساتيذه فى اللغـة والنحـو أبو الحسن على بن عيسى الرمانـى (٢٧٦ هـ _ ٣٨٤ هـ) ، والاخشيد الوراق ، وقد كان

---

(١) معجم الادباء ١٧٢/٨ ٠

(٢) نقله د ٠ ابراهيم الكيلانى _ ص ١٤ نوابغ الفكـر العربـى _ أبو حـيان التوحيدى وراجع أبو حيان لزكريا ابراهيم _ ص ٣٣ ٠

وقد كان اماما فى علوم اللغـة وغيرها ، فضلا عن أخذه بالاعتزال وطريقة المعتزلة ، وذكره التوحيدى بين العلماء الذين يفضلون الجاحظ ، قال :

« ومنهم على بن عيسى الرمانى ، فانه لم ير مثله بلا تقيه ، ولا تحاش ولا اشمئزاز ولا استيحاش علما بالنحو ، وغزارة فى الكلام ، وبصرا بالمقالات، واستخراجا للعويص وايضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه ، ودين ويقـين وفصاحـة ، وفقاهـة وعفافـة ، ونظافـة (١) » .

وكان فى طبقة أبى على الفارسى وأبى سعيد السـيرافى فى علوم اللغة والنحو ، وانفرد بالبلاغة والتفسير .

وقدره أبو حيان حق قدره حين قال فى حقـه :

« ... وأما على بن عيسى فعالى الرتبة فى النحو واللغـة والكلام والعروض والمنطق وعيب به ، الا أنه لـم يسلك طريق صاحب المنطق ، بل أفرد صناعته ، وأظهر براعة . وقد عمل فى القرآن كتابا نفيسا ، هذا مع الدين اليقين والعقل الرزين (٢)» .

وقد تخرج التوحيدى عليه فى علم النحو ، وروى عنه فى « المقابسات » بعضا من مقالات الرمانى .

وأخـذ الفلسفة عن الفيلسوف النصرانى يحيى بن عـدى

---

(١) معجـم الادباء ١٤/٧٦ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١/١٣٣ .

(ت سنة ٣٦٤ هـ) ،وقد كان ملما بعلوم اليونان وفلسفتهم كثير القراءة فى كتبهم ، وقد تخرج ابن عدى على عالم كبيرومترجم من تراجمة المناظرة تمت على يديه ترجمة بعض الكتب اليونانية الى العربية وهو بشر بن متى بن يونس . وكان يحيى كثير النسخ للكتب . وترجم بعض كتب أرسطو من السريانية الى العربية ، ولخص بعض مؤلفات الفارابى ، وألف كثيرا فى الفلسفة نقل أبو حيان فى « المقابسات »بعض آرائه فيها . كالقول فى « الحركة والزمان » ، والعلة والمعلول ، والصورة والمادة ، والكون والفساد ، والامكان والاستحالة .

وكانت عبارته العربية رديئة ، كما يقول التوحيدى ، وكان مشوه الترجمة .

وأخذ من يحيى بن عدى علوم الاوائل من الفلسفة والعلم الطبيعى .

وأخذ علوم الفقه على شيخه المروزى أبى حامد أحمد بن بشر (ت ٣٦٢ هـ) وكان فقيها شافعيا (١) ، وأتم أبو حيان تكوينه الفكرى بالقراءة ، فقد قرأ كثيرا من الكتب ، وهيأ له عمله بالوراقة هذا الاطلاع .

وخبر الحياة بتقلبه فى البلاد ، وكان كثير الرحلة ، فأضاف الى علمه ، خبرته .

---

(١) راجع تأثره بالمروزى فى كتاب « أبو حيان التوحيدى » لزكريا ابراهيم ص ٣٦ - ٤١ .

ووصلت أسباب الحياة بين أبي حيان وبعض أعيان الدولة . وكبار رجالها ، وكانت صلته بالوزير المهلبي ـ وزير معز الدولة ـ قصيرة ، انتهت الى نفيه عن بغداد ٠

وحاول الاتصال بالصاحب بن عباد ، فلم يلق عنده قبولا . فادار له ظهره وألف فيه وفي أبي الفضل ابن العميد رسالتيه « مثالب الوزيرين » ٠ وهي رسالة هجاء ، صنعها كما صنع الجاحظ رسالته التربيع والتدوير فزاد عليه ٠

وخرج التوحيدى كما قال يافوت حقا « متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه ، والكلام على رأى المعتزلة » ٠

وألف عديدا من الكتب رغم حياته المضطربة غير المستقرة ٠ اذ عاش فقيرا معظم حياته ، شاعرا بعدم التقدير من الناس ، متهما في رأيه ودينه ، مشردا ، لم ينعم بالطمأنينة في الجسد ولا العقل ، ولا النفس ٠

لقد كان كثير الشكوى ، حتى أن أستاذه عاب عليه هذا ، وكان هجاما ، حاد اللسان ، صريحا ، لا يدارى ، وان بدت في طباعه صفات ضعف آخذها عليه الناس كالتذلل بالسؤال وتديمه نفسه ، واباحة عرضه للقاذفين ٠

وألف رغم هذا كله كتبا ورسائل ظلت خالدة في الادب والفكر العربي ، وان رماه الناس بالباطل ، واختلفوا فيه اختلافا

كبيرا • فقد عد عند العائبين من زنادقة الاسلام الثلاثة ابن الراوندى وأبو العلاء المعرى وأبو حيان التوحيدى •

وعد عند المنصفين من كبار المفكرين والمبدعين حتى عادلوه بالجاحظ •

بلغت آثاره ستا وعشرين أثرا بين موسوعات يبلغ أجزاؤها العشرة ورسائل صغيرة فى صفحات •

وأهم كتبه :

١ ـ الامتاع والمؤانسة ، فى ثلاثة أجزاء طبع ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤ بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين • ويتضمن أحاديث شتى سامر بها التوحيدى الوزير المهلبى ابن سعدان وجعله أربعين ليلة • وقال عنه القفطى : هو كتاب ممتع على الحقيقة •

٢ ـ الصداقة والصديق ، طبع سنة ١٣٠١ هـ باستانبول بمطبعة الجوائب ، ومرة أخرى بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ • وجمع فيه كل ما عرف مما قيل عن الصداقة شعرا ونثرا منذ الجاهلية الى عصره •

٣ ـ الهوامل والشوامل ، وطبع بالقاهرة سنة ١٩٥١ م ، وهو أسئلة مطلقة فى موضوعات عدة أدبية وفلسفية وأخلاقية ولغوية وجهها أبو حيان الى مسكويه وأجابه عنها •

٤ ـ البصائر والذخائر ، وهو كتاب ضخم ، موسوعة علم وأدب ، وثمرة تجارب واسعة لصاحبه ، أودعه ما رآه وسمعه

وحفظه في المجالس والدروس والكتب التى قرأها · فهو كقوله :
« ثمرة العمر ، وزبدة الايام » ·

٥ ـ مثالب الوزيرين ، كتاب فـى هجـاء أبى الفضل بن العميد ، والصاحب بن عباد وطبع حديثا سنة ١٩٦٠ م ·
ا
٦ ـ المقابسات ، من كتبه الفلسفية الطابع ، وهى مجموعة آراء لكبار علماء عصره أمثال يحيى بن عـدى ، وأبى سليمان المنطقى ، طبع سنة ١٣٠٥ هـ بالهند وسنة ١٩٢٩ م بمصر ·

٧ ـ الاشارات الالهية · وهو كتاب صوفى يضـم مجموعة من المواعظ والاوراد الصوفية، طبع بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بـدوى ·

وعبرت مؤلفاته عن شخصيته ، وعبر المستشرق آدم متز عن اعجابه به وبكتبه فقال : « لم يكتب فى النثر العربى بعد أبو حيان ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيرا عن شـخصية صاحبه ممـا كتب أبو حيـان (١) » ·

ويمكن تتبع كتبه بتتبع تاريخ حياته ، ونجد بينها تناظرا واضحا ، ففى مراحـل حياته الاولى اذ هـو مشغول بالتحصيل والجلوس الى أساتذته من العلماء ، نجد كتبه مليئة بـآراء هؤلاء الاساتذة ويطبعها السؤال من أبى حيان والجواب من الاسـاتذة ،

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ـ ص ٤١٦ ·

وتكاد أن تختفى شخصيته فيهـا الى جانبهـم . ومن أمثلتها كتاب « المقابسات » .

وفى حالات غضبه وثورته عقب فشل رحلته الى المشرق وعدم توفيقه فى رفقة الوزيرين الكبيرين والصاحبين الاديبين ابن العميد والصاحب ابن عبـاد يعبر كتابـه « مثـالب الوزيرين » عن ذلك الغضب والهجاء لهما على سوء معاملتهما اياه .

وفى مرحلة رضـاه مع الوزير ابن سعدان بعد عودتـه الى بغداد ، وقد اكتملت شخصيته الادبيـة والعلميـة ، وركن اليه الوزير ، وقربه ، وطلب اليه مسامرته بطرائف رأيه وغزير علمه وأدبه ويؤلف الكاتب « الامتاع والمؤانسـة » ، يجمع فيـه تلك المجالس ، وتظهر شخصيته واضحة ، فهو دائما الذى يجيب برأيه أو بعلمه ، أو بروايته وحفظه ، واذا عز عليه الجواب طلب مهلة ليسأل بعض أساتيذه أو العلماء فيما لم يعلم أو لم يتقن .

وفى مرحلة حياته الاخيرة اذ تتقدم به السن ، وينظرها بين يديه فاذا هو هباء والخطى تسـير به الى النهايـة ، فتنمو عنده مشاعر صوفية ، ورغبات زهد دفينة ونزعات رفض للحياة كانت تستكن وتبدو . فينهى حياته بذلك الاتجاه الصوفى ويندرج كما قال المؤرخون فى سلك الصوفية وشيوخهم ، بل يصبح شيخا له من الاتباع والمريدين ويؤلف لهـم ولنفسـه مجموعـة من الادعية والاوراد والمواعظ يضمنها كتابه « الاشارات الالهية » .

نصوص من أدب أبي حيان التوحيدى

أولا : « من كتاب الامتاع والمؤنسة » :

« فضل العرب واللغــة العربيــة » .

قال فى الليلة السادسة :

« وقد سمعنا لغات كثيرة ـ وان لـم نستوعبهـا ـ من جميع الامم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند ، والترك وخوارزم ، وصقلاب ، وأندلس ، والزنج ، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية ، أعنى الفرج التى فى كلماتها ، والقضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها ، والمعادلـة التى نتذوقها فى أمثلتها ، والمساواة التى لا تجحـد فى أبنيتها ، واذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم فالحظ عرض اللغات الذى هو بين أشدها تلبسا وتداخلا ، وترادفا وتعاظلا ، وتعسرا وتعوصا ، والى ما بعدها مما هو أسلس حروفا ، وأرق لفظا ، وأخف اسما ، وألطف أوزانا ، وأحضر عيانا وأحلى مخرجا ، وأجلى منهجا ، وأعلى مدرجا ، وأعدل عدلا ، وأوضح فصلا ، وأصح وصلا ، الى أن تنزل الى لغة بعد لغة ، ثم تنتهى الى العربية ، فانك تحكم بأن المبدأ الذى أشرنا اليه فى الغوائص والاغماض ، ميرى قليلا حتى وقف على العربية فى الافصاح والايماض » .

وهذا شيء يجده كل من كان صحيح البنية ، بريئا من الآفة ، متنزها عن الهوى والعصبية ، محبـا للانصاف فى الخصومـة ،

متحريا للحق فى الحكومة ، غـير مسترق بالتقليد ولا مخـدوع بالالف ، ولا مسخر بالعادة ، وانى لاعجب كثيرا ممن يرجع الى فضل واسع وعلم جامع ، وعقل سديد ، وأدب كثير ، اذا أبى هذا الذى وصفته ، وأنكر ما ذكرته ، وأعجب أيضا فضـل عجب من الجيهانى (١) فى كتابه وهو يسب العرب ، ويتنـاول أعراضها ويحط من أقدارهـا • ويقول يأكلـون اليرابيـع والضبـاب ، والجرذان والحيات ، ويتعـاونون ، ويتساورون ويتهاجـون ، ويتفاحشون وكأنهم قد سلخوا من فضائل البشر ، ولبسوا أهب الخنازير •

قال : ولهذا كان كسرى يسمى ملك العرب « سكان شاه » اى ملك الكلاب •

قال : « وهذا لشدة شبههم بالكـلاب وجرائهـا ، والظبـاء وأطلائهـا » •

وكلاما كثيرا من هذا الصوب أرفع قدره عن مثله ، وان كان يضع من نفسه بفضل قوله • أتراه لا يعلم لو نـزل ذلك القفر ، وتلك الجزيرة ، وذلك المكان الخاوى ، وتلك الفيافى والموامى ، كل كسرى كان فى الفرس ، وكل قيصر كـان فى الـروم ، وكل بلهور كان فى الهند وكل نقفور كان بخراسان ، وكل خاقان كان بالترك ، وكل أخشاد كان بفرغانة ، وكل صبهبذ كان من أسكنان

(١) هو محمد بن أحمد الجيهانى ، وكان وزيرا للسامانيين ، وكان اديبا من رؤساء المتكلمين يظهر ويبطن الزندقـة •

وأردوان ما كانوا يعدون هذه الاحوال ، لان من جاع أكل ما وجد وطعم ما لحق ، وشرب ما قدر عليه ، حبا للحياة ، وطلبا للبقاء ، وجزعا من الموت وهربا من الفناء ، أترى أنوشروان اذا وقع الى فيافى بنى أسد ، وبر وسفوح طيبة ورمل يبرين ، وساحة هبير ، وجاع وعطش وعرى ، أما كان يأكل اليربوع والجرذان ، وما يشرب بول الجمل وماء البئر ، وما أسن فى تلك الوهدات ؟ أو ما كان يلبس البرجد (١) والخميصة (٢) والسمل من الثياب (٣) ، وما هو دونه ، وأخشن ؟ · بلى والله ، ويأكل حشرات الارض ، ونبات الجبال ، وكل ما حمض ، ومر ، وخبث ، وضر · هذا جهل من قائله ، وحيف من منتحله ·

على أن العرب ــ رحمك الله ــ أحسن حالا وعيشا اذا جادتهم السماء وصدقتهم الانــواء ، وازدانت الارض ، فهدلت الثمار ، واطردت الاودية وكثــر اللبن والاقط (٤) ، والجبن واللحــم ، والرطب والتمر ، والقمح · وقامت لهم الاسواق ، وطابت المرابع وفشــا الخصب ، وتوالى النتــاج ، واتصلت المبــرة ، وصــدق المصاب (٥) ، وأرفغ المنتجع (٦) وتلاقت القبائل على المحاضر ،

---

(١) البرجد : كساء غليظ من صوف أحمر · وقيل هو كساء ضخم مخطط يصلح للخباء وغــيره ·

(٢) الخميصــة : كساء أسود مربع له علمان ·

(٣) السمل : من الثياب الخلق البالى ·

(٤) طعام يتخذ من لبن الغنم ويطبخ ·

(٥) المصاب ، المقصد ، من صاب يصوب أى يتجه ·

(٦) أرفغ له المعاش وسعه ·

وتقاولوا ، وتضايفوا وتعاقدوا ، وتعاهدوا ، وتزاوروا ، وتناشدوا وعقدوا الذمم ، ونطقوا بالحكم ، وقروا الطراق ، ووصلوا العفاة ، وزودوا السابلة وأرشدوا الضلال ، وقاموا بالحملات (١) ، وفكوا الاسرى ، وتداعوا الجفلى ، وتعافوا النقرى وتنافسوا فى أعمال المعروف ، هذا وهم فى مساقط رءوسهم ، بين جبالهم ورمالهم ، ومناشىء آبائهم وأجدادهم ، وموالد أهلهم وأولادهم ، على جاهليتهم الاولى والثانية ·

وقد رأيت حين هبت ريحهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ، وانتشرت دعوتهم بالملة وعزت ملتهم بالنبوة ، وغلبت نبوتهم بالشريعة ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونضرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية ، كيف تحولت جميع محاسن الامم اليهم ، وكيف وقعت فضائل الاجيال عليهم ، من غير أن طلبوها ، وكدحوا فى حيازتها ، أو تعبوا فى نيلها بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر . وهذه النوادر من المآثر عفوا ، وقطنت بين آطناب بيوتهم سهوا ، دهوا ·

وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه ، وساقه الى أهله بتأييده ، وجلى مستحقيه باختياره · ولا غالب لامر الله ، ولا مبدل لحكم الله · ولذلك قال الله تعالى : (قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير) ·

---

(١) الحمالات ، الديات والغرامات ·

ولله في خلقه أسرار ، تتصرف بها دوائر الليل والنهار ، وتنللها مجارى الاقدار حتى ينتهى بمحبوبها ومكروهها الى القرار ٠

عز الها معبودا ، وجل ربا محمودا مقصودا

وبعد ، فالذى لا شك فيه من شأن العرب ، ولا جاحد له من حالها أنه ليس على وجه الارض من الناس ينزلون القفر ٠ وينتجعون السحاب والقطر ، ويعالجون الابل والخيل ، والغنم ، وغيرها ، ويستبدون فى مصالحهم بكل ما عز وهان ، وبكل ما قل وكثر وبكل ما سهل وعسر ، ويرجون الخير من السماء فى صوبها ، ومن الارض فى نباتها مع مراعاة الاوان بعد الاوان ، وثقة بالحال بعد الحال ، وتبصره فيما يفعل ويجتنب ، ما للعرب فيما قدمنا وصفه ، وكررنا شرحه من علمهم بالخصب والجدب ، واللين والقسوة والحر والبرد والرياح المختلفة والسحائب الكاذبة والمخايل الصادقة والانواء المحمودة والمذمومة والاسباب الغريبة العجيبة ٠

وهذا لانهم مع توحشهم مستأنسون ، وفى بواديهم حاضرون٠ فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات ومن أخلاق البادية أظهر الاخلاق ٠

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المدن ، وأرباب الحضر لان الدناءة والرقة ، والكيس والهين ، والخلابة والخداع

والحيلة والمكر والرعب تغلب على هؤلاء ، وتملكهم لان مدار أمرهم على المعاملات السيئة ، والكذب فى الحس ، والخلف من الوعد ·

والعرب قد قدسها الله عن هذا البـــاب بأسره ، وجبلهـــا على أشرف الاخلاق بقدرته ، ولهذا تجد أحدهم وهو فى بت حافيا (١)، حاسرا يذكر الكرم ، ويفتخر بالمحمدة وينتحل النجدة ، ويحتمل الكل ، ويضحك فى وجه الضيف ، ويستقبله بالبشر · يقول :

أحدثه ان الحديث من القرى ·

ثم لا يقنع ببث العرف ، وفعل الخير ، والصبر على النوائب حتى يحض الصغير والكبير على ذلك ، ويدعو اليه ، ويستنهضه نحوه ، ويكلفه مجهوده وعفـــوه ·

وقد قيل لرجل منهم فى يوم شات وهو يمشى فى سمل : أما تجد البرد يا أخا العرب ؟ فقال أمشى الخيزلى ويكفينى حسبى ·

والفارسى لا يحسن هذا النمط ،ولا يذوق هذا المعنى ، ولا يحلم بهذه اللطيفة وكذلك الرومى والهندى ، وغيرهما من جميع العجم ·

ومما يدل على تحضرهم فـــى جميع باديتهـــم ، وتبديهـــم فـــى حاضرتهم ، وتحليهم بأشرف أحوال الامرين ، أسواقهم التى لهم

---

(١) بت ، البت كساء غليظ النسج من صوف أو وبر · قال الشاعر :

من يك ذا بت فهذا بتى مقيـــظ مربـــع مشـــتى

فى الجاهلية ، مثل دومة الجندل (١) بقـرى كلب وهى النصف بين العراق والشام ، كان ينزلها الناس أول يـوم من شـهر ربيع الاول فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء ، والاخذ ، والعطـاء ، وكان يعشرهم (٢) أكيدر دومـة وربمـا غلبت على السوق كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم الى آخـر الشهر ثم ينتقلون الى سوق هجر (٣) • وهو المشقر (٤) فى شهر ربيع الآخر. فتقوم أسواقهم وكان يعشرهم المنـذر بن سـاوى من بنى عبد الله بن دارم ، ثم يرتحلون نحو عمان ، فتقوم سوقهم بديار دبا ، ثم بصحار ، ثم يرتحلون فينزلون أرم وقـرى الشـحر ، فتقوم أسواقهم أياما ، ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين • ومن سوق عدن تشترى اللطائم (٥) ، وأنواع الطيب • ولم يكن فى الارض أكثر طيبا ، وأحذق صناعا للطيب من عدن • ثم يرتحـلون فينزلون الرابيـة من حضر موت • ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها • ومنها كانت تجلب آلة الخرز والادم ، والبرود ، وكانت تجلب اليها من معافر (٦) • وهى عدن البرود والحبر ،

---

(١) دومة الجندل ، سوق ، فى موقع حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبـلى طـيىء •

(٢) أكيـدر ، اسـم صاحب دومـة •

(٣) قاعدة البحرين ، وقيل ناحية البحرين كلها هجـر •

(٤) المشقر حصن هناك بهجر قديم لواحدة من قبائلهم هى عبد القيس •

(٥) اللطائم الطيب ، والمسك ، واحدتها لطيمة •

(٦) مكان باليمن تنسب اليه الثياب المعافرية •

ثم يرتحلون الى عكاظ ، وذى المجاز فى الاشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ، فيتناشدون ويتحاجون ويتحادون ، ومن له أسير يسعى فى فدائه ، ومن له حكومة ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة من بنى تميم • وكان آخرهم الاقرع بن حابس • ثم يقفون بعرفة ،ويقضون ما عليهم من مناسكهم ، ثم يتوجهون الى أوطانهم •

وهذه الاسواق كانت تقوم طوال السنة ، فيحضرها من قرب من العرب ، ومن بعد • هذا حديثهم وهم همل لا عز لهم الا بالسؤدد ، ولا معقل لهم الا السيف ولا حصون الا الخيل ، ولا فخر الا بالبلاغة •

ثم لما ملكوا الدور والقصور ، والجنان والاودية ، والانهار ، والمعادن ، والقلاع والمدن والبلدان ، والسهل والجبل ، والبحر والبر لم يقعدوا عن شأو من تقدم بآلاف السنين ، ولم يعجزوا عن شىء كان لهم ، بل أبروا عليه وزادوا ، وأغربوا وأفادوا • وهذا الحكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ، ليس الى مرده سبيل ، ولا لجاحده ومنكره دليل •

(ب) « من الليلة الثامنة » :

حديث الشعراء :

قال ابن سعدان : فصل حديثك ••• بحديث أصحابنا الشعراء • صف لى جماعتهم ، واذكر لى بضاعتهم ، وما خص كل واحد منهم •

قلت : لست من الشعر والشعراء فى شىء ، وأكره أن أخطو على دحض (١) ، وأحتسى غير محض ٠

قال : دع هذا القول ، فما خضنا فى شىء الى هذا الوقت الا على غاية ما كان فى النفس، ونهاية ما أفاد من الانس ، فكان من الوصف :

أما السلامى (٢) : فهو حلو الكلام ، متسق النظام ، كأنما يبسم عن ثغر الغمام ، خفى السرقة ، لطيف الاخذ ، واسع المذهب، لطيف المغارس ، جميل الملابس ، لكلامه ليطه بالقلب وعبث بالروح ، وبرد على الكبد ٠

وأما الحاتمى (٣) : فغليظ اللفظ ، كثير العقد ، يحب أن يكون بدويا قحا ، وهو لم يتم حضريا ، غزير المحفوظ ، جامع بين النظم والنثر ، على تشابه بينهما فى الجفوة ، وقلة السلاسة ، والبعد عن السلوك ، بادى العورة فيما يقول ، لكأنما يبرز ما يخفى ، ويكدر ما يصفى ٠ له سكرة فى القول اذا أفاق منها خمر ،

---

(١) دحض مزلة ومزلقة للاقدام ٠

(٢) السلامى : شاعر من أهل العراق ، عربى الاصل من بنى مخزوم ٠ ولد بالكرخ ببغداد سنة ٣٣٦ هـ واتصل بالصاحب ابن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما٠ ترجم له صاحب اليتيمة ، وروى بعضا من شعره وتوفى سنة ٣٩٤ هـ ٠

(٣) الحاتمى : على بن الحس ، الكاتب الاديب اللغوى الشاعر الناقد ، عاش فى بغداد ، واتصل بالوزير المهلبى ، والتقى بالمتنبى عند وروده بغداد سنة ٣٥٠ هـ وصاوله فى شعره ، وألف فيه وفى شعره رسالتين ، أحدهما فى معانيه، والاخرى فى موافقة شعره شعر أرسطاليس ، توفى سنة ٣٨٨ هـ ٠

وإذا خمن سدر (١) ، يتطلول شاخصا ، فيتضاءل متقاعسا ، اذا صدق فهو مهين ، واذا كذب فهو مشير .

واما ابن جلبات (٢) : فمجنــون الشعر ، متفاوت اللفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزوق (٣) قصير الرشاء (٤) ، كثير الغثاء ، غره نفاقه (٥) ، ونفقه نماقه .

وأما الخالع (٦) : فأديب الشــعر ، صحيــح النحت ، كثــير البديع ، مستوى الطريقة متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة المتحير ، قريب من فرصة المتخير ، كان ذو الكفايتين يقدمه بالرى ويقبله على النشر والطى .

وأما ابن نباتة : فشاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول الا حاسد ، أو جاهل ، أو معاند قد لحق عصابة سيف الدولــة ، وعدا معهم ووراءهم ، حسن التحذر على مثال ســكان البادية لطيف الاشتمام بهم ، خفى المغاص فى واديهم ، ظاهر الاطلال على ناديهم ، هذا مع شعبة من الجنون ، وطائف من الوسواس .

وأما ابن الحجاج (٧) : فليس من هذه الزمرة بشىء ، لانه

---

(١) ســدر : تحير ولم يبــال .

(٢) هو أبو القاسم على بن جلبات من شعراء اليتيمة ج ٢/٢٧٠ .

(٣) الــزوق : الزينــة .

(٤) الرشــاء : الحبل الذى يصل الدلو اذ يلقى به فى البئر .

(٥) النفاق : بفتح النون الرواج .

(٦) الخالع : أبو على الحسن بن على من شعراء المشرق . أورده صاحب اليتيمة .

(٧) ابن الحجاج هو : أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، شــاعر ماجــن من شعراء
=

سخيف الطريقة ، بعيد من الجد ، قريب فى الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له فى قرضه مثال . على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشمائله نائية بالوقار عن عادته الجارية فى الخسار ، وهو شريك ابن سكره فى هذه الغرامة ، واذا جد أقعى . واذا هزل حكى الافعى .

وله مع ذى الكفايتين مناظرة طيبة .

قلت : لما ورد ذو الكفايتين (١) سنة أربع وستين ، وهزم الاتراك مع أفتكين ، وكان من الحديث ما هو مشهود سأل عن ابن حجاج — وكان متشوقا له ، لما كان يقرأ عليه من قوافيه فأحب أن يلقاه ، لانه ليس الخبر كالمعاينة . والمسموع والمبصر كالانثى والذكر ينزع كل واحد منهما الى تمامه (بالآخر)، فلما حضره أبو عبد الله احتبسه للطعام ، وسمع كلامه ، وشاهد سمته واستحلى شمائله، فقام من مجلسه ، فلما خلا به قال : يا أبا عبد الله لقد والله تهت عجبا منا ، فأما عجبى بك فقد تقدم . لقد كنت أفلى ديوانك ، فأتمنى لقاءك ، وأقول من صاحب هذا الكلام أطيش طائش ، وأخف خفيف ، وأغرم غارم . وكيف يجالس من يكون فى هذا الاهاب ؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب

= بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، اتصل بالوزير المهلبى ، وعضد الدولة ، والصاحب بن عباد وابن العميد ، وهجا المتنبى وترجم له صاحب اليتيمة . توفى سنة ٣٩١ هـ .

(١) ذو الكفايتين أبو الفتح ابن العميد ، الكاتب الوزير الاديب الشاعر .

الآداب . حتى شاهدتك الان ، فتهالكت على وقارك ، وسكون أطرافك ، وسكوت لفظك وتناسب حركاتك وفرط حيائك ، وناضر وجهك ، وتعادل كلك وبعضك . وانك لمن عجائب خلق الله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ، مع هذا التنافى الذى بين شعرك وبينك فى جدك .

فقال أبو عبد الله : أيها الاستاذ . وكان عجبى منك دون عجبك منى ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجيب منك . لانى قلت : اذا ورد الاستاذ فسالقى منه خلقاجافيا وفظا غليظا ، وصاحب رواسير ، وآكل كوامخ (١) ، وجبليا ، ديلميا ، متكاثبا متعاظما ، حتى رأيتك الان ، وأنت ألطف من الهواء ، وأرق من الماء ، وأغزل من جميل بن معمر ، وأعزب من الحياة ، وأوزن من الطود ، وأغزر من البحر ، وأبهى من القمر ، وأندى من الغيث ، وأنطق من سحبان ، وأسخى من الغمام وأنفذ من السهام ، وأكبر من جميع الانام .

فقال أبو الفتح وتبسم : هذا أيضا من ودائع فضلك ، وبواعث تفضلك . ووصله وصرفه .

---

(١) كوامخ ، جمع كامخ ، والكامخ ، وهو أدام يؤتدم به ، وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشتهى الطعـام .

ثانيا : من البصائر والذخائر (١)

الجاحـــظ

يقـــول :

« وأبو عثمان الجاحظ ، فانك لا تجد مثله ، وان رأيت ما رأيت، رجلا أسبق في ميدان البيان منـــه ، ولا أبعد شوطا ، ولا أمد نفسا ، ولا أقوى منه · اذ جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهود ، وكل لسان المسحنفر الصبور ، وانتفخ سحر العارم الجسور ·

ومتى رأيت ديباجة كلامه رأيت حوكـا كثـير الوشى ، قليل الصنعة ، بعيد التكلف ، حلو المجنى مليح العطل ، له سلاسة الماء ، ورقة كرقة الهواء ، وحلاوة كحلاوة الناطل وعزة كعـزة كليب وائل · فسبحان من سخر له البيان ، وعلمه ، وسلم في يده قصب الرهان وقدمه ، مع الاتساع العجيب ، والاسـتعادة الصائبـة ، والكتابة الثابتة والتصريح المغنى ، والتعريض المبنى ، والمعنى الجيد ، واللفظ المفخم ، والطلاوة الظاهرة ، والحلاوة الحاضرة · ان جد لم يسبق ، وان هزل لم يلحق ، وان قال لم يعارض ، وان سكت لم يعرض له ·

---

(١) الجزء الاول ص ٢٣٠ ·

فهرست الموضوعات

الموضـــوع	رقم الصحيفة

تـم بحمــد اللــه

طبـع بمطبعـة التقــدم

عبد القــادر الســونى

٢١ شارع سيزوستريس ـ الاسكندرية ت : ٨٠٦٠٥٤

